

الإعزاس

بإشراف: الإدارة العامة للثقافة
وزارة التعليم العالي

949.5
K62A



الإغزى

تأليف
ه. د. كينو

راجعه
عبد الرزاق يسرى

ترجمه
الدكتور محمد صفرفخافه

مركز الطباعة والنشر
دار الفكر العربي
١٩٦٢

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مطلوب من القارئ حالياً أن يقبل ما يأتي على أنه بيان معقول عن الحقيقة : ذلك أن شعباً لم يكن كثير العدد ، ولا عظيم القوة ، ولا رائع التنظيم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً في جزء من العالم كان متحضراً ، بل كان عظيم الحضارة خلال عدة قرون ، وكانت لديه فكرة جديدة كل الجدة عن القصد من الحياة الإنسانية ، كما أنه بين لأول مرة المراد من العقل البشري . وسأوفي هذا البيان حقه كما أرجو أن أدلل على صحته . ومن الممكن أن نبدأ استيفاءنا الآن بأن نلاحظ أن الأغريق أنفسهم كانوا يشعرون بطريقة بسيطة وطبيعية جداً بأنهم مختلفون عن أي شعب آخر عرفوه . فلقد كان الأغريق عادة في العهد الكلاسي (1) Classical على الأقل يقسمون العائلة البشرية إلى هيلينيين وبرابرة . أما الأغريق الذي كان يعيش قبل العصر الكلاسي مثل « هومر » فلم يكن يتحدث عن البرابرة بهذا الأسلوب ، لا لأنه كان أكثر أدباً من ذريته ، بل لأن هذا الاختلاف لم تكن قد وضحت معالمه بعد .

فالموضوع في الحقيقة لم يكن للأدب دخل فيه على الإطلاق . فبكلمة « برباروس » الأغريقية لا تعني « بربريا » بالمعنى الحديث ، فهي ليست لفظة مقت أو احتقار . ولا تطلق على الأهالي الذين يسكنون الكهوف ويأكلون اللحم النيء . ولكنها تعني فقط أولئك الذين يحدثون أصواتاً شبه « بربر » بدلاً من أن يتكلموا اليونانية . فإذا أنت لم تتكلم الأغريقية

(1) سنستعمل كلمة « كلاسي » للدلالة على الفترة التي تمتد من منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريباً إلى فتوح الإسكندر في النصف الأخير من القرن الرابع .

هذه ترجمة كتاب :

The Greeks

تأليف :

H. D. F. Kitto

كننت « بربريا » سواء كننت تنتمى إلى قبيلة همجية من قبائل تراقية أو كننت تسكن مدن الشرق المترفة أو مصر التي كان يعرف الأغريق جيداً أنها بلاد عريقه كانت متحضرة قبل أن توجد بلاد الأغريق بقرون كثيرة . ولفظة « برباروس » لم تكن تتضمن بالضرورة معنى الاحتقار . فكثير من الأغريق كانوا معجبين بقانون الفرس الأخلاقي وبحكمة المصريين . وقبلما نسى الأغريق الدين المادى والفكرى والفنى الذى كان عليهم لشعوب الشرق . ومع ذلك فقد كانوا يعتبرون هذه الشعوب « برابرة » أى أجنب ، ويضعونهم فى طبقة واحدة مع أهل سكوتيا وتراقيا وأماهم (وأن لم يخلطوا بينهم) . فهل كان ذلك لمجرد أن تلك الشعوب لم تكن تتكلم اللغة الأغريقية ؟ لا ، إذ أن عدم تحدثهم بالأغريقية كان حقيقة تدل على اختلاف أبعد من ذلك ، فهم تدل على أنهم لم يكونوا يعيشون أو يفكرون كالأغريق ، أى أن كل موقفهم تجاه الحياة كان يبدو مختلفاً . والأغريق مهما كان إعجابه أو حسده للبربرى كبيراً لسبب أو لآخر ، فإنه لم يكن يملك إلا أن يدرك هذا الاختلاف .

ويمكننا أن نلاحظ ، ونحن فى معرض الحديث ، أن جنساً آخر (دون أن ندخل أنفسنا فى الاعتبار) هو جنس العبريين قد أوجده هذا التمييز الشديد بينه وبين الغرباء . فهذان جنسان كان يدرك كل منهما إدراكاً تاماً أنه مختلف عن جيرانه ، وقد كان أحدهما يعيش بعيداً عن الآخر بعداً ليس بالكبير وإن كان كل منهما يحمل الآخر جهلاً تاماً فى أكثر الأحيان ، ولا تأثير له عليه حتى بداية الفترة التى تلت فتوح الإسكندر ، عندما أثر التفكير الأغريقى فى التفكير العبرى إلى حد كبير ، كما يتضح من سفر داود . ومع ذلك فقد كان اندماج ما يعتبر أهم خصائص هاتين الثقافتين أى جدية الدين عند العبريين فى التفكير المنطقى والإنسانى عند الأغريق هو ما قوض له أن يكون فيما بعد أساس

الثقافة الأوروبية ألا وهى الديانة المسيحية . غير أن كبرى « أمة » (١) و « برابره » كانتا تختلفان كل الاختلاف ، فإحدهما مدلول خاص عن الجنس والدين والأخرى تسم الجنس بطريقة عرضية وليس لها أدنى علاقة بالدين ، فما الذى دعا الأغريق إذن إلى هذا التقسيم الواضح وهل كان هناك ما يبرره ؟ .

قد يكون من الأجوبة على ذلك ، جواب واف صحيح ، فخواه أنه بينما كانت مدن الشرق التى سبقت مدينة الأغريق ذات كفاية بالغة فى أغلب الأحيان فى الأمور العملية ، وكانت أحياناً لا تقبل فى فنها عن الأغريق ، إلا أنها كانت جذباء من الوجهة العقلية . فقد مارس ملايين الناس الحياة وخبروها قبل الأغريق فماذا فعلوا بها ؟ لاشئ . لقد ماتت خبرة كل جيل بانتهائه (إلا فى بعض الأمور العملية المحضة) لا كما تموت أوراق الشجر فى الغابة ، لأنها تكسب الأرض خصباً على الأقل . إن آداب أى شعب هى التى تحفظ خبرته وتنميها وتستخلصها . لقد ابتدع العبرانيون قبل الأغريق الشعر الدينى والغزل وخطب الأنبياء ، غير أن الأغريق هم الذين ابتكروا الأدب بكل صورته الأخرى المعروفة (فيما عدا القصة) (٢) وأوصلوها إلى حد السكال ، والفرق بين التاريخ الذى سجله البرابرة وبين تاريخ ثوكوديديس Thucydides هو الفرق بين طفل ورجل لا يكتفى بأن يفهم بل يجعل ما يفهمه فى متناول الآخرين . فشعر الملاحم والتاريخ والمسرحية والفلسفة بكل فروعها بما فى ذلك ما وراء الطبيعة

(١) لفظة الأمم . Gentiles أطلقت على غير اليهود فى الكتاب المقدس « المترجم »

(٢) لقد عرف اليونان القصة فألفوا مجموعة فى العصر اليونانى الرومانى ، وأشهر هذه القصص الرعوية قصة دافنس وخلوا كتبها القاضى لونيوس فى القرن الثانى الميلادى . أنظر ترجمتنا العربية لهذه القصة « المراجع » .

والاقتصاد والرياضيات وكثير من العلوم الطبيعة كلها تبدأ بالأغريق .

ومع ذلك لو أننا استطعنا أن نسأل أحد قدماء الأغريق عما يمتاز به عن البربرى فإنه ، على ما أظن ، ما كان يجعل انتصارات العقل الأغريق هذه في مقدمتها حتى مع علمه بأنه قد بدأ أكثر الأشياء بطريقة أذكى منه (فهذا ديموستينيز مثلاً يقول وهو يلوم مواطنيه على سياستهم الضعيفة تجاه فيليب المقدونى .) أتم لستم أفضل من البربرى وهو يحاول أن يلاكم ، اضربه في موضع تجديديه تنطلق نحو هذا الموضع ثم اضربه في موضع آخر فإن يديه تنطلق إليه كذلك) ولعله ما كان يفكر أولاً في المعابد ولا التماثيل ولا المسرحيات التى تستحق كل إعجابنا ، بل لعله كان يقول بل لقد قال بالفعل « أن البرابرة عبيد أما نحن الهيلينيين فرجال أحرار » .

وما الذى كان يقصده بحرية الاغريق وعبودية الأجانب ؟ يجب علينا الحرص على ألا نفرسها بلغة سياسية فقط ولو أن التأويل السياسى من الأهمية بمكان . فهى من الوجهة السياسية لم تكن تعنى بالضرورة أنه كان يحكم نفسه إذ أنه فى أكثر الأحيان لم يكن كذلك، ولكنها تعنى أنه مهما كان حكم دولته فإنها كانت تحترم حقوقه ، فشئون الدولة كانت شئونها عامة . ولم تكن أمراً خاصاً بحاكم مستبد . فقد كان الاغريق يحكمهم القانون وهو قانون معروف يراعى العدالة ، فإن كانت حكومته ديمقراطية كاملة فقد كان يحظى بنصيبه فى الحكم . وقد كانت الديمقراطية كما كان يفهمها الاغريق نظاماً للحكم لا يعرفه العالم الحديث ولا يمكن أن يعرفه ؛ وإن لم تكن ديمقراطية فقد كان هو على الأقل عضواً مشتركاً فيها لا أحد الرعايا ، وكانت قواعد الحكم معروفة . أما الحكم الاستبدادى فإن الاغريق كان يسمونه من أعماق نفسه . أما عندما كان ينظر إلى بلاد الشرق التى كانت أشد ثراء وأرقى حضارة ، فكان يرى ما يأتى بالضبط : حكم القصر

حكم ملك مطلق ، لا كما كان يحكم ملك الاغريق القديم طبقاً للقانون أو طبقاً لقانون مستمد من السماء ، بل طبقاً لإرادته الخاصة فقط دون أن يكون مسؤولاً أمام الآلهة ، لأن الملك نفسه كان إلهاً ، ومن كان من رعايا هذا السيد فقد كان عبداً .

إن لفظة (اليوثيريا eleutheria) التى تعتبر كلمة « حرية » مجرد ترجمة مبتورة لها كانت تعنى أكثر من ذلك بكثير ولو أن ذلك كان قدراً كبيراً . إن العبودية والاستبداد شيان يعيبان النفس لأنهما على حد قول (هومر Homer) « إن (زيوس Zeus) ينتزع من الرجل نصف رجولته إذا أصبح عبداً فى يوم من الأيام ، فكان الاغريق يرى أن عادة الخضوع الشرقية ليست (أليوثرون) فقد كانت فى نظره إساءة إلى الكرامة الإنسانية . لقد كان الاغريق رجلاً مرفوع الرأس حتى وهو يصلى للآلهة ، مع أنه كان كغيره من الناس يعرف جيداً الفرق بين ما هو بشرى وما هو آلهى ، ورغم أنه كان يعلم أنه ليس بإله إلا أنه كان رجلاً على الأقل . وكان يعلم أن الآلهة سرعان ما تبطش دون شفقة بالرجل الذى يتأله ، وأن التواضع والاحترام هما أشد ما يستحسنونه من الصفات البشرية ، ومع ذلك فقد كان يعلم أن الإله والإنسان نبتا من نفس الأرومة .

« إن الآلهة والناس من جنس واحد . فكلانا نستمد أنفاسنا من أم (١) واحدة ومع ذلك فشتان ما بين قوتينا ، فنحن لا شيء ، أما هم فالسماة الصلدة مقررهم الوطيد ثابتة إلى الأبد » .

هذا ما يقوله (بندار Pindar) فى عبارة سامية يخطئ دارسو الأدب الاغريق أحياناً فى ترجمتها وهم الذين ينبغى أن تكون معرفتهم أفضل

(١) أمنا الأرض .

فيجعلون معناها « أن للآلهة جنساً وللناس جنساً آخر » ولكن فكرة بندار هنا تدور بأفكارها حول عزة الإنسان وضعفه وهي المصدر النهائي لهذه النعمة التراجيدية التي تسرى خلال الأدب الأغريق الكلاسيكي كله . وقد كان هذا الإدراك لعزة الإنسان بصفته إنساناً هو الذي أعطى الكلمة التي نترجمها ترجمة مبتورة بلفظة « حرية » هذه الأهمية وتلك القوة .

على أن هناك ما هو أكثر من ذلك ، فقد كان هناك « برابرة » غير أولئك الذين عاشوا في ظلال الاستبداد الشرقي . إذ كان هناك مثلاً شعوب الشمال التي كانت تعيش معيشة قبلية وهم الذين لم يكن الأغريق أنفسهم قد طال العهد على خلاصهم من ربقتهم . فما هو الفرق العظيم الذي كان بين هؤلاء وبين الأغريق فيما عدا ثقافة الأغريق المتفوقة ؟ .

لقد كان الفرق هو أن الأغريق اتخذوا لهم شكلاً من أشكال الحكم نترجمه نحن بطريقة مبتسرة تعوزها الدقة بلفظتي « دولة المدينة » لأن أية لغة حديثة لا يمكن أن تنقله إلينا بطريقة أفضل ، وهذا النظام هو الذي استحدث غرائز الإنسان السامية وإمكاناته كما أنه أشبعها . وسيكون لدينا الكثير الذي نقوله عن « دولة المدينة » . أما هنا فيكفي أن نلاحظ أن « دولة المدينة » وهي التي كانت في أصلها مجتمعاً محلياً للأمن المشترك أصبحت مركزاً لحياة الإنسان الخلقية والعقلية والجمالية والاجتماعية والعملية تنميتها وتزيد في ثرائها بطريقة لم يحققها أي نوع من المجتمعات من قبل ولا من بعد . لقد كانت هناك أشكال أخرى مستقرة ، كما يقولون ، للمجتمع السياسي ، أما دولة المدينة فقد كانت الوسيلة التي حاول بها الأغريق أن يجعل حياة المجتمع والفرد كليهما أسمى قدرأ ، كما كانا عليه من قبل . ومن المؤكد أن ما كان يصح أن يضعه الأغريق في طليعة مكتشفات أهل وطنه أنهم اكتشفوا أحسن أسلوب من أساليب العيش ، وهذا

ما كان يراه أرسطو على كل حال ، لأن قوله المأثور الذي يترجم عادة بعبارة « الإنسان حيوان سياسي » معناه « أن الإنسان حيوان يمتاز بسكنائه » دولة المدينة » . فأنت إن لم تكن كذلك كنت أقل من الإنسان في أحسن حالاته وأخصها به ، أما البرابرة فلم يكونوا كذلك ، وهذا هو الفرق العظيم .

وعند قيامي بوضع هذا البحث عن قوم يمكن أن نقول عنهم كل هذا القدر قد سمحت لنفسى بمتعة فكرية هي أن أكتب عن الأمور التي تهمني والتي أشتاق إليها بدلاً من أن أحاول بطريقة منظمة قد يكون فيها شيء من التسرع أن أحيط بالميدان كله ، كما أني قد توقفت دفعة واحدة عند الإسكندر الأكبر أي عند نهاية « دولة المدينة » لا لأنني أرى أن بلاد الأغريق لم تكن هامة في القرون القليلة التالية ، بل لأنني على العكس من ذلك أراها من شدة الأهمية بحيث لا ينبغي جمعها في فصل واحد يكون القصد منه مجرد تأدية الواجب ، لأن هذا ما يحدث في أغلب الأحيان . وإذا تطلعت الآلهة بي فإني سأعالج موضوع بلاد الأغريق في العهد الهيليني وتحت حكم الرومان في مجلد ثان .

ولقد تركت الأغريق يتكلمون عن أنفسهم كلها استطعت إلى ذلك سبيلاً وإني لأرجو أن تكون الصورة التي بدت واضحة موفقة إلى حد معقول ، ولم أحاول أن أصور الأشياء في صورة المثل العليا رغم أني أعالج أمر عظماء الناس دون صغارهم وأمر الفلاسفة دون الصعاليك ، إذ أن الإنسان يشاهد أحسن المناظر من فوق قمم الجبال ، والصعاليك هم في كل مكان ولو أن الصعلوك الأغريقي قلباً كان سخيلاً لثيماً .

تكوين الشعب الأغريق

يحكى لنا (كسينوفون Xenophon) قصة باقية على الزمن يمكننا أن نذكرها هنا لأنها خالدة وهى خاصة بجادث وقع أثناء زحف العشرة آلاف جندى نحو البحر الأسود وسط جبال أرمينيا الرهيبة . كان هؤلاء الجنود من المرتزقة الذين جندهم (قورش Cyrus) الأصغر لمساعدته على عزل أخيه من أبيه عن العرش الفارسى (وإن لم يبح قورش لهم بذلك) لأنه كان يعلم حق العلم أنه لم يكن هناك جيش أغريقى يقبل طائعا أن يبتعد عن البحر مسيرة ثلاثة أشهر ، ولكنه مع ذلك أخذهم إلى أرض الجزيرة عن طريق الخداع والملق . وقدهزم الأغريق المنظمون والمسلحون تسليحا جيدا الجيش الفارسى بسهولة ، غير أن قورش لقي مصرعه فأصبح الموقف مربكا للجميع . فقد أتيح للفرس على حين غرة جيش مدرب لم يكن فى وسعهم أن يفيدوا منه ، وكان الأغريق على مسيرة ثلاثة أشهر من وطنهم دون قائد ودون من يدفع لهم رواتبهم وبدون أى هدف ، فقد كانوا فرقة دولية غير رسمية لا يدينون بالولاء إلا لأنفسهم ، وقد كان من الجائز أن يجن جنونهم وتسوء حالهم فيتحولون إلى شراذم من اللصوص ويتفرقون شذرا مندر ، كما كان يمكن إدماجهم فى الجيش الفارسى والإمبراطورية الفارسية .

ولكن لم يحدث شئ من ذلك بل قرروا العودة لوطنهم دون أن يسيروا بطول آسيا الصغرى وهى التى كانوا قد شاهدوا منها ما فيه الكفاية كل الكفاية ولذلك صمموا على الاتجاه شمالا أملا فى الوصول إلى البحر الأسود ، واختاروا قائدا لهم كسينوفون نفسه وهو من ملاك الأرض الزراعية

فى أثينا ، وقد كان قائدا كما كان رئيسا لاجتماعاتهم .

ذلك أنهم كانوا يقررون سياستهم وهم مشتركون معاً . وقد ظل هؤلاء الأغريق الذين تركوا فى حالة اضطراب متحدين أسبوعاً بعد أسبوع ، واخترقوا تلك الجبال المجهولة بهذا النظام الذى راضوا أنفسهم عليه والذى كثيراً ما أظهره ، وكانوا يصالحون الأهالى كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ويحاربونهم إذا أخفقوا فى طلب الصلح .

وقد هلك البعض منهم لا الكثير ، وكتبت لهم الحياة لأنهم كانوا قوة منظمة . وقد حدث ذات يوم كما جاء فى قصة كسينوفون التى لا تضفى على هذا الزحف صفة البطولة أبداً ، أنه كان يقود حرس المؤخرة بينما كان جنود المقدمة يصعدون أحد الممرات ، حتى إذا بلغوا القمة أخذوا يصيحون أيضاً وهكذا دواليك فصيلة بعد أخرى ، فكان الكل يصيحون ويشيرون إلى الشمال بتأثر شديد ، وأخيراً استطاعت المؤخرة التى شاع بينها القلق أن تسمع ما كان يهتف به الجميع . وهو ثلاثا ، ثلاثا . وبهذا انتهى الكابوس الطويل . لأن ثلاثا فى الاغريقيه معناها « البحر » . فقد كان يلتهم الماء الملح عن بعد ، وحيثما وجد الماء الملح كانت اللغة الاغريقية مفهومة والطريق إلى الوطن مفتوحاً ، أو كما قال أحد العشرة آلاف جندى « يمكننا أن نتمم رحلتنا ونحن نرقد على ظهورنا مثل أودوسيوس » .

وقد أعدت رواية هذه القصة من جهة اتباعاً لمبدأ هيرودوتوس الممتاز القائل بأن القصة الجيدة لا يمكن القارىء الحصيف إلا أن يرحب بها ، ومن جهة ثانية تقديرأ للحقيقة العجيبة التى تقول إن كلمة « ثلاثا » أى الماء الملح ليست كلمة اغريقية بالمرّة على ما يبدو . ولكى نزيد البحث دقة نقول إن اللغة الاغريقية هى واحدة من عائلة اللغات الهندية الأوروبية مثل اللاتينية والسانسكريتية والكتيه والتوتونية ، أى اللغات التى حملتها الهجرات من

مكان ما في وسط أوربا متجهة نحو الجنوب الشرقي إلى فارس والهند ، حتى أن « راج » الهندية قريبة من كلمة « ركس » اللاتينية وكلمة « روا » الفرنسية كما اتجهت جنوباً إلى شبه جزيرة البلقان وإيطاليا وغرباً حتى إيرلنده . ومع ذلك فإن الكلمة الاغريقية التي تعبر عن شيء أغريقي صميم مثل البحر ليست هندية أوروبية فأين يا ترى وجدها الاغريق ؟

إن رواية شبيهة بتلك التي ذكرها كسينوفون يمكن أن تفسر لنا الموضوع ولو أن أقدم مرجع لها هو مؤلف هذا الكتاب . فقد كانت عصبة من يتكلمون الاغريقية تشق طريقها نحو الجنوب قبل زحف العشرة آلاف جندي بعشرة قرون أو خمسة عشر قرناً بعيداً عن جبال البلقان ووادي استروما أو فردار بحثاً عن وطن أفضل ، فرأوا أمامهم على حين غرة مقداراً هائلاً من الماء وهو أكثر مما كانوا تدرأوه هم أو أسلافهم من قبل ، فحاولوا لشدة دهشتهم أن يسألوا الأهالي عنه فقال الأهالي وقد تملكتهم شيء من الحيرة « أنه ثلاثا بالطبع » . وهكذا بقيت كلمة « ثلاثا » بعد أن اندثرت كل الكلمات في هذه اللغة تقريباً .

إن من الطيش البالغ بطبيعة الحال أن نبني أي نظرية عن أصل أي شعب على كلمة واحدة فقد تكون الكلمات الأجنبية التي تقضى على الكلمات الوطنية بسهولة عظيمة مقتبسة ، غير أن في الحضارة الاغريقية التي بلغت أشدها في القرن الخامس قبل الميلاد وما يليه توجد مميزات يمكن تفسيرها بأكثر سهولة لو كانت هذه الحضارة وليدة حضارتين تسبقانها مباشرة وهناك من الأدلة ما يثبت أنها كانت كذلك في الواقع .

دعنا نتمعن في قليل من الكلمات الأخرى . ففي اللغة الاغريقية

نوعان من الكلمات التي ليست أغريقية الأصل (مثل ثلاثا) وهي تنتهي بالمقطع « أسوس » أو « إسوس » وهي في الغالب أسماء أكنة مثل هاليكر ناسوس مسقط رأس هيرودوتوس Herodotus كما أن هناك كلمات تنتهي بالمقطع « إثنوس » مثل هياسنثوس وكورنثوس Corinthos ولا يبرنثوس وكلها مألوقة لنا ، فهل هي آتية من الخارج ؟ وهل كانت كورنثا في أصلها مستعمرة أجنبية ؟ من الجائز ذلك ، غير أن الذي يثير العجب أكثر من كورنثا هو أن أثينا ليست إسما إغريقياً ، وكذلك الإلهة أثينا Athena . أن العاطفة على الأقل فضلاً عن تقاليدنا الموروثة لتثور على الفكرة القائلة إن أثينا مدينة بأسمها لأجانب أقحموا أنفسهم على الاغريق ، لأن الآثينيين كانوا أحد الشعوب الاغريقين اللذين ادعيا أنهما نبتا من الأرض ، والشعب الآخر هو الأركاديون Arcadians الذين استقروا في اركاديا قبل مولد القمر .

هناك ما يدعو إلى النظر إلى الروايات الموروثة باحترام كما سنرى عن قريب ، كما أن هناك على الأقل بعض الصحة والاحتمال في الأساطير الأركادية والآثينية ، لأن اركاديا هي قلب البيلوبونيز Peloponnese الجبلي وهي صعبة الغزو (مثلها وجد الأتراك فيما بعد) كما أن أتيكا Attica أرض الآثينيين ذات تربة رقيقة لا تجتذب الفاتحين والمهاجرين . فأثينا إذن ليست اغريقية ، وهناك ما يدعو إلى الظن بأنها هي وسكانها أقدم من الاغريق كذلك وأن كان هذا أمراً مختلفاً .

وهناك أسطورة أثينية قد توضح لنا الأمر بعض الشيء . فمن أحسن القصص الآثينية المعروفة قصة تقول إن المنافسة اشتدت ذات مرة بين الرب أثينا والإله بوسيدون Poseidon لا متلاك الأكروبوليس Acropolis ، وخرجت أثينا بنصيب كبير غير أن الإله كان له ما يملكه أيضاً هناك . وهكذا يبدو أن بوسيدون كان إلهاً إغريقياً ، ولعلنا لو قلنا أنه كان إلهاً

هيلينيا لكان ذلك أقل مدعاة للارتباك، أما أثينا فلم تكن هيلينية. إن تفسير مثل هذه الأساطير ليس بالشئ المؤكد ولكن مما يغرينا بقبوله أن نرى في هذه الأسطورة ذكرى الاصطدام في أتيكا بين شعب هيليني وافد وبين عابدى أثينا من السكان الوطنيين وهو اصطدام كانت له نتيجة سلبية هي امتصاص السكان الوافدين.

وقد كان الأغريق المتأخرون أنفسهم يعتقدون في وجود سكان أصليين غير هيلينيين كانوا يسمونهم البلاسجيين Pelasgians وقد ظلت بقاياهم نقية في العصور الكلاسية وكانوا يتكلمون لغتهم الخاصة. وقد اهتم هيرودوتوس الذي كان مولعاً بكل ما وقع تحت بصره، بأصل الاغريق. وهو يؤكد أن من بين فرعى الاغريق الرئيسيين المتأخرين وهما الأيونيون والدوريون كان الأيونيون من أصل بلاسجى. وهو يسمي الدوريين Dorians بالفعل هيلينيين لكي يميزهم عن الأيونيين Ionians، ثم يستطرد ليقول «لا يمكننى أن أقرر بصفة مؤكدة أى لغة كان يستعملها البلاسجيون ولكن إن كان لى أن أحزر شيئاً من هؤلاء البلاسجيون الذين لا يزالون موجودين فإنهم يتكلمون لغة بربرية وهو لا يقصد بكلمة «بربرية» أكثر من «غير هيلينية».

وهذا يتفق إلى حد كاف مع ما حزرناه عن الأثينيين، إذ أنهم ادعوا أنهم قادة الاغريق الأيونيين ومركز نشاطهم وأنهم من السكان الأصليين.

فإذا أمكننا أن نثق فيما تناقلته الروايات الموروثة تكون الصورة التي نستخلصها كالاتى: كان يسكن أتيكا والبيلوبونيز جنس غير هيلينى من السكان الوطنيين ثم هاجرت شعوب تتكلم اللغة الاغريقية في وقت لا يمكن تحديده هجرة تدريجية جداً دون ريب من أقصى الشمال إلى هذا الإقليم وفرضت لغتها على السكان وهذا شبيه جداً بما فعله السكسون في إنجلترا. ولم يكن هذا بالغزو المفاجئ المليء بالكوارث. فإن السجلات

الاثرية لا تظهر وجود أى ثلثة مفاجئة في الثقافة قبل غزو الدوريين سنة ١١٠٠. وقد ظلت «الجيوب» البلاسجية التى أفلتت من تأثير هؤلاء الوافدين تتكلم لغة لم يستطع هيرودوتوس أن يفهمها.

قلت إن تاريخ هذه الهجرات لا يمكن تحديده ومع ذلك فمن الممكن أن نقرر لها حداً أدنى. فمن المؤكد جداً أن هؤلاء الاغريق الدوريين الذين عاشوا حوالى سنة ١١٠٠ لم يكونوا أول من أدخل اللسان الاغريقى في بلاد الاغريق. لأن الاغريق الآخيين الذين نعرف شيئاً عنهم وإن يكن غير كاف قد سبقوهم بقرنين على الأقل. وقد ظلت أجيال من الإنجليز تعرف بعض هؤلاء أكثر مما تعرف أسلافها من الأجبرت والأجريت والإيلفريك لأن أجا ممنون Agamemnon ومينلاوس Menelaus ابنى اتريوس Atrous كانا آخيين مثل آخيليس وغيره من الأبطال الذين كان مقدراً أن يكتب عنهم هو مر بعد ذلك بثلاثمائة عام أو نحو ذلك.

هل كان هؤلاء الآخيون إذن أول المتكلمين بالاغريقية في بلاد الاغريق ؟

ليس هناك ما يضطرنا إلى هذا الاعتقاد إذ لا يوجد فعلاً ما يحملنا على الظن بأن أية لغة خلاف الاغريقية كانت سائدة في بلاد الاغريق إلا الروايات المتوارثة لأن مما يمكن إدراكه عقلاً أن الأسماء غير الهيلينية مثل أثينا كلمات دخيلة رغم أن ذلك قد لا يكون محتملاً جداً.

ولكن هل هناك من سبب يدعونا إلى تصديق هذه الروايات المتوارثة؟ لقد انكرها المؤرخون منذ مائة سنة فقد كتب جروت Grote مثلاً «أن الأساطير قد ابتدعها الاغريق من خيالهم الذى لا ينضب معينه ليملاوا الحقبة الفارغة في ماضيهم المجهول وأن من الحق الاعتقاد بأن ملكاً اسمه مينوس Minos قد عاش حقاً

في جزيرة كريت أو أن حرب طرواده نشبت فعلاً . على أن إنكار هذا الاحتمال هو حق شبيهه بسالفه . وقد عالج قبل ذلك مؤرخ أغريق هو ثوكديدس الروايات المتوارثة بطريقة تخالف ذلك كل المخالفة باعتبارها تسجيلات تاريخية من نوع خاص يصح نقدها كما تصح الإفادة منها بالطريقة الصحيحة .

فوصفه لحرب طرواده ، وهو الذي ذكره في الفصول الأولى من تاريخه ، مثل حسن على معالجة المادة التاريخية بطريقة صحيحة . فلم يكن يخطر لثوكديدس قط أنه لا يعالج مادة تاريخية . فهو يكتسب عن مينوس ملك كريت الأسطوري « أن مينوس هو أقدم حاكم نعرف عنه أنه كان يملك أسطولا ويحكم أغلب ما نعتبره الآن مياها أغريقية ، فقد كان يحكم جزر كوكلا ديس وكان أول مستعمر لأغلبها ، فكان يعين أولاده حكماً عليها ، وأغلب الظن أنه طهر البحر من القراصنة بما كان في وسعه ليطمئن إلى الحصول على إيراداته » .

وكان ثوكديدس كما أغلب الاغريق يعتقد في صحة الروايات المتوارثة عموماً ، أما الكتاب الحديثون فقد أنكروها . ولم تكن قد نشرت من تاريخ جروت الذي يستحق الإعجاب طبقات كثيرة حين ذهب سليمان إلى موكناي وطرواده وكشف عن شيء يشبه مدينتي هومر بشكل غير معهود . ثم ذهب بعد ذلك سير آرثر إيفانز إلى كريت وكشف بالفعل عن الملك مينوس وجزيرته التي كانت تتكون منها إمبراطوريته . وقد أصبح على الأقل من الواضح إلى حد بعيد أنه منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد إلى حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م وهي مدة تماثل المدة الممتدة من سقوط روما إلى يومنا هذا ، كانت كريت ولاسيما مدينة كنوسوس مركزاً لحضارة مزدهرة انتشرت في عالم بحر ايجي شيئاً فشيئاً في كافة الاتجاهات ، وبما أن

كنوسوس لم تكن محصنة فلا بد أن سادتها كانوا يسيطرون على البحار كما قال ثوكديدس بالضبط .

هذا هو المثل البارز على إمكان الاعتماد بصفة عامة على الروايات المتوارثة في العالم الإغريقي . وليس من الصعب أن نجد أشباه ذلك في جهات أخرى . وقد تأيدت الأساطير أحياناً إلى درجة لا يكاد يصدقها العقل . وقصة المينوتور Minotaur شاهدة على ذلك ، فقد كانت هناك قصة كان ثوكديدس على درجة من التزمّت حتى أنه لم يذكرها تحدثنا بأن الأثينيين كانوا ملزمين بدفع جزية سنوية هي سبعة شبان وسبع فتيات عذارى إلى وحش مخيف هو المينوتور كان يعيش في قصر التيه في كنوسوس Cnossos إلى أن أطلق سراحهم أكبر أبناء الملك وهو الأمير ثيسوس Theseus الذي قتل المينوتور بمعونة اريادني Ariadne وكرة الخيط التي أعطتها له لترشده إلى طريق الخروج من قصر التيه . هذه هي الأسطورة وهاك بعض الحقائق : أما بشأن الاسم « مينوتوروس » فمن الواضح أن نصفه الأول هو « مينوس » والنصف الثاني « توروس » معناه « الثور » باللغة الأغريقية . وواضح جداً ، مما وجدته إيفانز في كنوسوس من تصاوير الأفاريز والتماثيل وأشباهاها ، أن هؤلاء الكريتيين كانوا يعبدون الثور . وعلى ذلك فإن هناك شيء قديم يشبه قصر التيه فهو رسم أرضية القصر الفسيفس الذي كشفه إيفانز . وهناك فضلاً عن ذلك أدلة متوفرة على أن هؤلاء الكريتيين الذين عاصروا مينوس كانوا يستعملون بلطة ذات رأسين من النوع الذي كان يسميه الأغريق المتأخرون « لابريس Labrys » باعتبارها رمزاً للألوهية أو للسلطة وأخيراً لقد وقعت اتيكا Attica بالتأكد تحت نفوذ كريت ثقافياً ومن الجائز جداً سياسياً أيضاً . فمن المحتمل جداً بناء على ذلك أن حكام كنوسوس كانوا حقاً يأخذون رهائن من الأسر الأثينية النبيلة ضماناً لحسن سلوكها كما كان يفعل الأتراك بعد ذلك بقرون كثيرة . أما ثيسوس فيلوح أنه

ورد خطأ لأنه من قرة تالية . ولم يثبت أحد حتى الآن صحة وجود اريادنى الخياليه أو يحد الخيط . أما فيما عدا ذلك فيلوح أن هذه الأسطورة جديدة بالتصديق .

وكذلك الحال بالنسبة لطرواده فمن بين المدن التسع التي شيد بعضها فوق بعض في ذلك الموضع ، قد دمر الحريق طروادة السادسة حوالى تاريخ حرب طرواده الذى توارث الناس ذكره (١١٩٤ — ١١٨٤) ومن بين نعوت هومر الخالدة لطرواده قوله « ذات الطريق الواسع » وقد كان لطرواده السادسة طريق واسع يحيط بالمدينة من داخل الأسوار مباشرة ، وقد بنى هذه الأسوار إلهان وواحد من البشر ، فالقطاع الذى بناه هذا الأخير كان أضعف من غيره كما كان من الممكن اقتحامه وقد كانت أسوار طرواده السادسة أضعف في نقطة واحدة منها في غيرها (وهى التى كان الوصول إليها أصعب) وهذا يتفق مع وصف هومر .

وكذلك كان الحال بالنسبة لكثير من أنساب اليونان . فأغلب أبطال هومر كانوا يستطيعون تتبع أنسابهم حتى ثلاثة أجيال ثم يتصل نسبهم بإله . وقد قيل في تعليل ذلك دون مراعاة الاحترام الواجب إن المعنى هو « والله وحده يعلم من كان أبوه » غير أن الإنسان يستطيع أن يكون أكثر احتراماً فيقول بدلاً من ذلك إنه يشير إلى دعوى مؤسس الأسرة الحاكمة في رعاية الإله له ، فيكون المعنى « ملائكم الجديد بفضل رعاية الإله » . ومن جهة أخرى نجد أن هذه الأنساب تنتهى بعد حرب طرواده بجيلين وهو ما يصل بنا إلى تاريخ الغزو الدورى حوالى سنة ١١٠٠ وهو الذى توارث الناس ذكره . وفى ذلك الوقت كانت قد دمرت كل المدن القائمة في القسم الأكبر من البلاد كما دلت على ذلك أعمال التنقيب . ثم أن أطول سلاسل النسب المعروفة كانت هى الخاصة بالبيوت المالكة بأتيكا وأرجوس ، وهذا يعود بنا إلى حوالى ١٧٠٠ ق . م ، وقد سبق لنا أن رأينا أن الآثينيين

أدعوا أنهم أقدم السكان وهو ما قد يبدو صحيحاً بعض الشيء ، ولكن لا تزال هناك هذه النقطة : لقد كانت أثينا وأرجوس Argos متمازان من بين المدن الأغريقية في العصر الكلاسى بأن معبود كل منهما الرئيسى لم يكن إلهاً بل إلهة وهما أثينا وهيرا الأرجوسية Hera . ولقد اكتشفت في كريت صور كثيرة لطقوس العبادة وهى تدل دلالة كافية على أن القوم هناك كانوا يعبدون آلهة أما إن كان هناك إله فهو ثانوى . ومن الواضح أنها كانت إلهة من إلهات الطبيعة التى ترمز إلى خصوبة الأرض بينما كانت الآلهة الهلينية من الذكور بصفة خاصة وهذا على الأقل يدعو إلى الظن بأن هاتين الطائفتين من الناس ، أى الآثينيين وأهل أرجوس ممن كان لهم أطول سلسلة من الأنساب كانتا تعبدان إلهات ، وكانت لطائفة منهما وربما للطائفتين أسماء غير هيلينية . وزيوس (باللاتينية « ديوس » Deus أى إله) هيلينى قح ، وكانت له رفيقة هيلينية غامضة جداً تدعى ديون Diōne إسمها قريب من إسمه . أما فى الأساطير الأغريقية فقد كانت رفيقته هى هيرا الأرجوسية . ويؤكد لنا نشيد هومرى أن هيرا لم تكن راغبة فى الزواج منه ولم يكن ذلك دون سبب معقول كما قد وضع لنا . وفى هذا تعليل واضح عن اندماج شعبين لهما ثقافتان ولغتان مختلفتان فى الظاهر ويجوز بناء على ذلك أنهما من جنسين مختلفين .

ولذلك فإننا نرى أن الروايات القديمة التى تدعى أنها تاريخية لا ينبغى بأى حال نبذها . وقد كان هيرودوتوس ذلك الباحث النهم والناقد الفاحص يعتبر الأغريق الأيونيين شعباً بربرياً تحول إلى هيلينى ، ولا زلنا نستطيع أن نثبت أنه مصيب . وإذا صح ذلك فينبغى علينا بالتأكيد أن نتوقع أن تكون هذه العملية قد حدثت بالتدريج ، إذ أن الغزو الدورى وحده هو الذى اتخذ مظهر الغزو العام .

وقد تعرضت مناقشتنا الموجزة لنقطة أخرى هى الآلهة والإلهات . فهناك

نوع من الثنائية في الشعائر الدينية لبلاد الأغريق الكلاسية . وهذا مما يدعو إلى العجب بالنسبة لمثل هذا الشعب الفلسفي ، وأن يكن من الممكن فهمها بسهولة عظيمة جداً ، متى افترضنا أن الثقافة الأغريقية وليدة ثقافتين مختلفتين . فالبانثيون Pantheon الأولي بألهته الاثني عشر وعلى رأسهم زيوس يبدو من بعيد راسخاً بشكل بالغ التأثير ، ولكن هذا الرسوخ يتلاشى إذا أمعنا النظر فيه إذ يتكشف الأمر عن أن الآلهات لم تكن لمن أسماء أغريقية كما رأينا ويلوح جداً أن حجر الزاوية في البناء بأكمله وهو زواج زيوس بهيرا كان زواجا في الأسرة الحاكمة ، أضف إلى ذلك أن ميدانا بأكمله من ميادين العبادة والعقيدة كان إتصالة بأوليمبس اتصالاً عرضياً ، فالعبادات الأوليمبية الحقيقية كانت قائمة على أفكار عن إله يحمي القبيلة أو الدولة أو الأسرة ويضع الضعيف أو السائل تحت رعايته . وقد كان الإله في الحقيقة متصلاً اتصالاً وثيقاً بالكيان الاجتماعي كما كان إلهاً من آلهة الطبيعة ولم يتعد ذلك قط ، بمعنى أنه كان يفسر بعض قوى الطبيعة . فزيوس كان يرسل المطر والبرق ، وكان بوسيدون يثير البحر ويلزل الأرض وقد أدمجت أثينا تماماً داخل هذا النظام فأصبحت هي بنت زيوس والحارسة المسالمة للمدينة وما نحت الحكمة الاجتماعية ، غير أن بومتها تذكرنا بأصلها أي باعتبارها ربة من ربوات الطبيعة لاربة من ربوات القبيلة فقد كانت الطقوس المؤسسة على قوى الطبيعة الغامضة المانحة للحياة موجودة في بلاد الأغريق جنباً إلى جنب مع العبادات الأوليمبية ، كما كانت تقف منها موقف المعارض على خط مستقيم ، فشلا كانت ديانات الأسرار تستهوي الفرد أما العبادات الأوليمبية فقد كانت خاصة بالجماعة ، وكانت الأولى تتسع لكل فرد سواء كان حراً أو عبداً ، أما العبادات الأوليمبية فإنها لم تكن تقبل إلا أعضاء المجتمع وكانت الأولى تبشر بتعاليم البعث والميلاد من جديد والخلود أما العبادات الأوليمبية فلم تكن تبشر بشيء بل كانت مختصة بتكريم أعضاء المجتمع الخالدين الذين لا تدرّكهم

الآبصار فكانت مذهبهما الدينية مختلفة إختلافاً كلياً . ومن الصحيح تقريباً أن نقول إن فكرة الآلهة فكرة أوربية وأن فكرة الإلهة فكرة خاصة بالبحر المتوسط ، فالآلهات ميراثنا المباشر من أتباع مينوس في كريت .

وقد آن لنا الآن أن نقول شيئاً عن هذه الحضارة التي دامت ردحا طويلاً من الزمن وهي التي كان يذكرها الأغريق في العصور التاريخية ذكرى بعيدة غامضة كما كانت شيئاً خيالياً بالنسبة لاجدادنا . فإذا شئنا تحديد زمنها نراها تبدأ في العصر الحجري الحديث حوالي سنة ٤٠٠٠ ق . م وقد أدركت العصر البرونزي حوالي سنة ٢٨٠٠ ، وأزدهرت عند ذاك حيث تناوبت عليها فترات ازدهار عظيم وفترات ركود نسبي إلى أن نهبت كنوسوس نهائياً واندثرت حوالي سنة ١٤٠٠ . وقد بدأت هذه الحضارة من الوجهة الجغرافية في كنوسوس ثم انتشرت إلى أماكن أخرى في كريت ومنها تدريجياً إلى جزر بحر إيجه وإلى أجزاء كثيرة لا من جنوب ووسط بلاد الأغريق فحسب بل من سواحل آسيا الصغرى وجنوب فلسطين أيضاً . وقد أخذت مواضع معينة في القسم الرئيسي من بلاد الأغريق تنافس كريت نفسها منذ سنة ١٦٠٠ باعتبارها مراكز للحضارة ثم صارت ورثتها بعد أن اندثرت كنوسوس . وتعتبر موكناي Mycenae المركز الرئيسي من بين هؤلاء . ومنها كان الفرع المتأخر من الثقافة القديمة المنسوبة إلى مينوس أو إلى جزر بحر إيجه (ولو أنه الفرع الذي كان أول ما أعيد إكتشافه) وهو معروف بإسم الحضارة الموكينية . أما الالبازة فترجع إلى مرحلة متأخرة من هذه الحضارة وما يذكره الناس عنها ناقص .

ومن المحال أن نقول الكثير هنا عن هذه الحضارة غير أن عدم وجود تحصينات يثبت أنها كانت تعتمد من الوجهة السياسية على القوة البحرية . وتشهد القصور الفسيحة بثرائها ، ويوحى رسم القصر الموجود في كنوسوس

وهو متناه في التعقيد بأنه مركز للإدارة أكثر منه حصنا. ويمكننا أن نقرر ونحن مطمئنون أن أهل كريت القدماء كانوا خاضعين لحكومة من حكومات القصر. فمن المحال أن نجد أى شكل من أشكال الحكم الشعبي يتناسب مع تلك الآثار. فالأصص المطلية والأفاريز المصورة والتماثيل والآثار المادية الأخرى تدل على أن هذه الحضارة كانت باللغة الرشاقة والقوة والمرح والرفاهية المادية، وكثيرا ما نشير إلى كلبة العالم الفرنسى الذى كان يتأمل في صور سيدات كريت الموجودة على أحد الأفاريز إذ قال « ولكن هؤلاء السيدات باريشيات ! ». وإذا نظرنا إلى لون من ألوان الثقافة الإنسانية يختلف عن هذا بعض الاختلاف نجد أن نظام تصريف المياه هناك قد امتدحه الناس بأنه « انجليزى صميم ». وتدلل الأواني الفخارية الكبيرة والصغيرة التى تنتمى إلى أزهى عصور هذه الحضارة على مهارة صناعية رائعة وفهم للرسم الزخرفى، وقد نجد عليها فعلا رسوما تافهة متزاحمة تملأ الزخارف فيها ما ينبغى أن يظل فراغا، غير أنها من جهة أخرى تنتفع من الفراغ في ثقة وإطمئنان تذكرنا بالفن الصينى وهو في أوج عظمته وهى تترك لدينا على العموم انطبعا عن ثقافة ارسقراطية مريحة يحتل فيها الصيد وإستئثار الثيران بواسطة الكلاب والفنون البهلوانية مكان الصدارة. غير انه من المفروض أن نواحي أخرى من حضارة هؤلاء المينويين كان لها من الأهمية ما لفنهم أو أكثر. ففي الكتب المؤلفة عن الحضارات القديمة يخصص للكلام عن الفن عادة مجال أكبر مما ينبغى لسببين: أولهما أن تصوير معبد أو لوحة زيتية تصويراً شمسياً أيسر من تصوير مذهب أخلاقى أو فلسفة سياسية وثانيهما أن كثيراً من الشعوب كانت عاجزة عن الأفصاح والبيان إلا عن طريق فنها. والأغريق واليهود هم في الحقيقة أول الشعوب القديمة التى لم تكن كذلك.

وكذلك الحال بالنسبة للمينوسيين فنهم يخاطبنا خطاباً مباشراً ولا يخاطبنا

أى شئ سواه إلا بطريقة غير مباشرة بطريق الإستنتاج، وآثارهم وفيرة ولا تحتل الشك أو التساؤل، غير أننا لانعلم ماذا كانت أفكارهم عن الحياة وكيف كانوا يواجهون مشاكلهم. والواقع أنهم كانوا يعرفون فن الكتابة، ولدينا شئ مما كتبوه، ولكننا لانستطيع أن نقرأه، فنحن مضطرون أن نأمل في نجاح شخص ما ذات يوم في حل طلاسمه وترجمتها، فقد يخبرنا مثلاً عن السبب في غضب موظف كبير من مرؤوسه أو عن ثمن اللحم البقرى في القرن السابع عشر قبل ميلاد المسيح.

ومع أننا لانعرف شيئاً عن أفكارهم وتجاربهم إلا عن طريق الإستنتاج فإننا نعلم شيئاً عن أسلافهم. فقد تركوا رسوما لهم تدل دلالة واضحة على أنهم كانوا من سكان البحر الأبيض المتوسط الذين يرجع أصلهم إلى شمال أفريقيا من ذوى القوام النحيف واللون الأسمر والشعر الأسود. وكان هذا الشعب قد إنتقل من مرحلة العصر الحجري القديم عندما جاء بعضهم إلى جزيرة كريت حين كانت خالية من السكان، فهل استمر البعض الآخر في الزحف والإقامة في أجزاء من بلاد الأغريق؟ هذا ما لا نعرفه.

إن أحدث فن كريتى يؤدى مباشرة إلى الثقافة الموكينية الخاصة بالقسم الرئيسى من البلاد دون توقف ولو أن هناك ملامح جديدة أضيفت إليه. فالتصميم النموذجى للقصر كان مختلفاً فلم يكن القصر أقرب لأن يكون حصناً فحسب (وهو ما قد تفسره أحوال القسم الرئيسى من البلاد الكثيرة الإضطراب) بل يلوح أن الغرف كانت مكشوفة بدرجة أقل من المنتظر كما لو كانت تنتمى إلى طراز أصله من مناخ أشد قسوة، فضلاً عن أنه طراز حقق بعد تطوره تناسقاً لا يماثل شيئاً من فن العمارة الكريتية. وهناك فرق آخر هو ظهور إهتمام أكبر بصورة الإنسان، عند طلاء أصص الزهر، فقد كان الفنانون الكريتيون يستخدمون بصفة أساسية نماذج من الخطوط

والرسوم (سواء كانت مأخوذة من الطبيعة أو طبقا لطراز سائد) مستمدة من حياة الحيوان والنبات . أما الفنانون الموكينيون فقد استمروا في الرسوم ذات الخطوط ولكنهم أكثرها من استخدام صورة الإنسان كما في مناظر المواكب وسباق العربات .

من كان هؤلاء القوم الذين أنشأوا الثقافة الموكينية ؟ هل هم الفنانون والصناع الذين تركوا كريت وهي مضمحلة وأقاموا في وطن جديد بين هيلينيين جفاة وابتدعوا لهم فنا ؟ أم كان هناك (وهو ما يبدو أكثر احتمالا) شعب أكثره غير أغريقي من كان قد تأثر بالفن الكريتي بدرجة بالغة أو لعله كان يمت بصلة القربى إلى شعب كريت ولكنه وقع تحت سيطرة ارستقراطية اغريقية مغرمة بركوب العربات قدمت حديثا إلى البلاد ؟ وهل من الجائز إن صح الفرض الأخير أن هيرودوتوس كان مصيبا وإن غالبية الموكينيين كانوا أيونيين من تحولوا إلى هيلينيين أو لم يتحولوا ؟ قد تصبح الإجابة على هذه الأسئلة ممكنة يوما ما . وفي نفس الوقت ينبغي علينا أن نكون من الحكمة بحيث لا نجعل الصورة التي نحاول أن نرسمها منظمة أكثر مما ينبغي مهما كانت هذه الصورة ، إذ أنه لا شك في أن الهجرات العارضة والغزوات المحلية كانت قد استمرت فترة طويلة ويجب أن نفسح مكانا في هذه الصورة للآخيين ذوى الشعر الأشقر (Xanthoi) الذين ذكرهم هومر حتى يكونوا متميزين بوضوح عن ذوى الشعر الأسود الذين كانوا يحكمونهم . فالملوك من أبناء زيوس وهم الذين ذكرهم هومر كانوا ارستقراطية شبه إقطاعية تسيطر سيطرة السادة المستبدين على رعايا لا حول لهم من كانوا يلعبون دورا صغيرا جدا سواء في القتال أو في السياسة . وارستقراطية النورمان التي فرضت نفسها على إنجلترا في عهد السكسون مثل واضح على ذلك . فالقصر الذي بناه أترىوس في موكيناي وأوصى به لابنه أجاممنون كان

حصنا أكثر منه قصرا وكان مركزا لشبكة من الطرق الاستراتيجية التي كانت تسمح بالوصول إلى أجزاء مختلفة من البيلوبونيز وسط بلاد الأغريق كما كانت هناك حصون أخرى من نفس النوع في هذه الأصقاع . وقد أثبتت أسلحة الآخيين الحديدية أنها أفضل من أسلحة الموكينيين البرونزية ، ولكن الثقافة الموكينية كانت هي الأفضل بوجه عام . وما دامت هذه وجهة نظرنا فن الشائق أن نلاحظ أحد الأخطاء الناشئة عن عدم دقة الروايات القديمة التي استند إليها هومر بعد ذلك بثلاثة قرون أو أربعة ، فإنها تصور في بعض النواحي العصر الموكيني بأمانة تسترعى الالتفات لا سيما بالنسبة لجغرافيته السياسية ، فعندما قام هومر بالكتابة ، ولعل ذلك حوالي سنة ٨٥٠ ، كان الفتح الدوري الذي حدث حوالي سنة ١١٠٠ قد غير خريطة بلاد الأغريق كل التغيير إذ كانت موكيناي نفسها مثلا قد صارت مكانا لا أهمية له ، كما تحول الساحل الآسيوي وهو موطن هومر وصار أغريقيا . ومع ذلك فإن الألياذة تحتفظ بأمانة تامة بصورة بلاد الأغريق كما كانت في القرن الثالث عشر ، وليس فيها أى شيء عن أيونيا الموجودة في آسيا إذ ذاك وهي التي كان يعرفها هومر نفسه . أما الخطأ الذي يسترعى اهتمامنا فهو أن الفن وأدوات الترف التي وصفها هومر كأن ينسبها إلى الفينيقيين ، أما أن صناعتها الفنية كانت وطنية محلية فقد كانت حقيقة منسية تماما ، ولا بد أنها كانت تبدو أمرا لا يمكن تصديقه . والآخيون كانوا غزاة جفاة ليس لهم فن وكذلك الدوريون الذين جاؤا على أثرهم كانوا أدهى منهم ، إذ تمكن مقارنتهم برجل ورث أرضا ولكنه أضاع عليها كل رأس ماله .

وهناك مفارقات أخرى تشير إلى نفس الاتجاه ، فالموتى عند هومر كانوا يحرقون غير أن العادة الوطنية وهي العادة الكلاسية المتبعة فعلا كانت هي الدفن ، كما أننا نقابل عند هومر ديانة آلهة السماء الأوليمبيين ،

وليس هناك أى أثر لربة الأرض الخاصة بكريت أو بحزر بحر إيجه . كما أن هومر يكثر من ذكر الصيد ولكننا لا نجد عنده أية إشارة إلى إثارة الكلاب للثيران مع أنها بارزة كل البروز في الفن الموكيني . وهكذا يستطيع الإنسان أن يواصل ذكر هذه المفارقات . لقد كان هومر يراعى الدقة في سرد للروايات القديمة كما كان يعهدا ، غير أنها كانت تروى عن طبقة من الغزاة كان يفصلهم فاصل ضخم عن حياة رعاياهم الذين كانوا أرقى منهم حضارة ، ولو أن هؤلاء الغزاة لم يقضوا فجأة على هذه الحياة المتحضرة بل ولم يحدثوا فيها تغييراً خطيراً .

متى جاء الآخيون ؟ ربما تضمن وضع السؤال على هذه الصورة تبسيطاً يجاوز الحد . لقد دمر مغبيرون أتوا بكل تأكيد من وراء البحر كنوسوس حوالى سنة ١٤٠٠ . وتذكر كتابات المصريين المعاصرة أن جماعة الآخيوأشي (Akhaiwoshi) قد أشاعوا الاضطراب في جزر البحر كما أغاروا على الشواطئ المصرية . وإسمهم قريب إلى حد كبير من الآخيين (Akhaivoi) الهومييريين وهو ما يجعل من الاثنين شيئاً واحداً مؤكداً . وبعد ذلك بقليل نسمع من مصادر حيثية عن مغربين في آسيا يقودهم رجل يثير اسمه الشبهة في أنه مثل أتريوس . ولقد كان والد أجا ممنون يسمى أتريوس ، ولا حاجة بنا إلى محاولة إثبات أنهما رجل واحد . فاتريوس الذى نعرفه كان ملك موكيناي وهو ابن بيلوبس Pelops الذى أضفى اسمه على البيلوبونيز (جزيرة البيلوبس) وقد لا يكون محتملاً جداً أن هذا الشخص كان يطارد الحيثيين في آسيا الصغرى . وبيلوبس هو اسم أغريق معناه (ذو الوجه الأحمر) وقد جاء من ليديا في آسيا الصغرى ولذلك فربما كان أتريوس الآخر من نفس العائلة .

كل هذا يوحى بوجود اضطرابات واسعة في أواخر القرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر يتزعمها قوم إسمهم الآخيون . فإذا كان من الممكن

أن نعتمد على تواريخ الأنساب فإننا نجد أن بيلوبس عبر بحر إيجه وتزوج من الأسرة المالكة بأليس قرب أوليمبيا في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، لأن حفيده الأكبر أجا ممنون قاد الآخيين المتحدين إلى طرواده في وقت مبكر في أوائل القرن الثاني عشر (وتشير الروايات القديمة إلى حدوث ذلك سنة ١١٩٤) . وفضلاً عن ذلك فقد قامت أسرات حاكمة آخية أخرى في القرن الثالث عشر بالذات إن كان لنا أن نثق في تواريخ الأنساب .

غير أنها سقطت جميعاً وانتهى العصر الموكيني الآخذ في الاضمحلال في آخر القرن الثاني عشر . وقد جاء غزاة آخرون هم الدوريون من الشمال الأوسط لبلاد الأغريق ولكنهم لم يكونوا في هذه المرة مغامرين منتصرين يستولون على ممالك صغيرة أو يهبطونها بل كانوا سيلاً مدمراً من الناس قضوا قضاء مفاجئاً على حضارة طويلة وبدأوا عصرًا مظلماً بلغ ثلاثة قرون من الفوضى أخذت بعدها بلاد الأغريق الكلاسية في الظهور . وقد اتخذ الإيونيون (فيما عدا الآثينيين) ملجأ لهم عبر البحر . وقد اقتصر اسم « آخيا » على السهل الضيق المحاذي للساحل الجنوبي للخليج كورنثا . وقد اندمج الآخيون ذوو الشعر البنى كما اندمج الدوريون أيضاً ذوو الشعر البنى ، إذا صح أن لون شعرهم كان كذلك ، مع الجنس ذى الشعر الداكن الذى تخرجه بلاد الأغريق . وهذا يشبه إلى حد بعيد ما حدث للسكثيين Celts ذوى الشعر الأشقر الذين أصبحوا فرنسيين ذوى شعور داكنة .

قبل مائة عام كان هذا العصر المظلم دامس الظلام لولا شعلة هومر الوهاجة المفاجئة التى لا يمكن تعليلها ، وكان العصر الكلاسى الذى تلاه هو أول ازدهار رائع معجز للحضارة والفن في أوروبا ، إذ خفت قليلاً وطأة الظلام لأننا نستطيع أن نتبع من خلاله فنون الخزاف وصانع المعادن .

وقد تقدم بالفعل هذا الفن الأخير وشجعه ادخال الحديد في الصناعة ، وطلاء الفخار ، ومع أنه فقد رشاقة العصر السابق وحرية وابتكاره إلا أنه أنتج في القرن التاسع (١) الأصص الآثنية الفاخرة وهي مزينة بنماذج هندسية مثل أقدم الفخار المينوى ، ولو أننا نجد كذلك موضوعاً يغلب على الفن لم يكن شائعاً في كريت وهو الصورة الإنسانية . فنجد مواضيع مثل المحاربين وعرباتهم ومناظر جنائزية ورجالاً يجذفون في سفينة حربية وصوراً لأشخاص مرسومة طبقاً للطراز السائد ، وفيها خطوط رفيعة تشير إلى الأذرع والأرجل وبقعة مستديرة تشير إلى الرأس ومثلث يشير إلى الجذع ، وأسلوبها الفني بدائي ولكنه موفق جداً في الرسم العام ، ويدل (كما في حالة الأصص الموكينية) على شغفهم بالإنسان واهتمامهم به وبأدواته الزخرفية اهتماماً يعتبر من خصائصهم .

لقد كانت نظرنا نظرة عامة ولم تكن بحكم الضرورة شاملة ولكنها أوضحت نقطة هامة هي أن فن الإغريق الكلاسيكي لم يكن خلقاً جديداً كل الجدة بل كان نهضة ، ومع ذلك فقد كانت نهضة في أحوال مختلفة جداً ولها طابع مختلف جداً . فقد أدخلت بعض الإضافات على الفن السابق كما أدى الاضطراب الذي فرغنا من وصفه إلى امتزاج ، إلى وجود شعب جديد له مواهب كلا أبويه ، وقد ألحت ، وربما في شيء من التسرع ، إلى أن لدينا على ذلك دلائل تظهر في الاهتمام الذي أبداه الرسامون الموكينيون أولاً ثم الآثينيون بعدهم بمختلف أوجه النشاط الإنساني . وهذا الاهتمام بالإنسان هو بالفعل أحد الخصائص المسيطرة على الفكر الإغريقي ، ولكن لا مانع من نظرة أعمق ! أن عظمة الفن الإغريقي ، ودعنا نستعمل الكلمة بأوسع معنى لها ، أساسها أنه يوفق توفيقاً تاماً بين مبدئين كثيراً ما كانا متعارضين . فهو يوفق من

(١) من الطراز الديولي نسبة إلى كلمة ديولوس dipulos (ذو البابين)

جهة بين التحكم والوضوح والجد والرصانة الجوهرية وبين الفخامة والخيال والعاطفة من جهة أخرى . والفن الإغريقي الكلاسيكي بأكمله يتسم بهذه الصفة الفكرية التي تتجلى إلى حد بعيد فيما في تركيبه من يقين ومنطق . إن مذهب استخدام التفكير المنطقي في الفن يدل على نوع من الأجذاب والأحمال ، ولكن الفن الإغريقي سواء في ذلك البارثون أو أية مسرحية بقلم إيسخولوس Aeschylus أو أية محاورة أفلاطونية أو قطعة فنية من الفخار أو الصورة الزيتية التي عليها أو أية نبذة صعبة التحليل من ثوكوديديس ، فيه مع كل التفكير المنطقي نشاط غامر وعاطفة فياضة يرجع السبب الحقيقي فيها إلى وجود رقابة ذكية عليهما .

ولو أننا قارنا فن بلاد الإغريق الكلاسيكية بالفن المينوى أو بفن جزر بحر أيجه لوجدنا بينهما اختلافاً عظيم الدلالة . فإن أفضل الفن المينوى فيه كل الصفات التي يمكن أن توجد في الفن فيما عدا هذه النزعة الفكرية المنطقية الطاغية . فمن الصعب أن نتصور وجود مهندسين من الإغريق يطالعوننا ببناء في تصميمه الهندسي فوضي واضطراب مثلما نجد في قصر كنوسوس ، ولو كان ذلك بمحض الصدفة أو حتى تحت التهديد بعقوبة الأعدام . لقد كسب الفن الإغريقي جانباً من أعظم انتصاراته في أشق الفنون وأعظمها جدية ألا وهو نحت التماثيل الكبيرة ، ولا يمكن أن يكون من المصادفات أننا لم نعثر في وقتنا الحالي على أي تماثيل مينوى فيما عدا قطع فنية صغيرة . صحيح بطبيعة الحال أن كل فن جدير بهذا الاسم يجب أن يكون جدياً وقائماً على التفكير ، ورغم ذلك فمن الممكن أن ننسب هاتين الصفتين بمعنى من المعاني للفن الإغريقي لالفن المينوى ، كما أننا نستخدم صفة فحم وضاء وحساس ورشيق ومرح بالنسبة للفن المينوى ، غير أننا لا نصفه بالتفكير المنطقي .

وإذا شئنا أن نرجع إلى أصل أسلوب التفكير المنطقي الذي يسرى في فن

الأغريق الكلاسي فعلننا أن نتجه إلى الهيلينيين . ولن يكون ذلك منا دون دليل . ذلك أنهم عندما نزلوا من الجبال الشمالية لم يأتوا معهم بفن ، وإنما الذي جاءوا به كان (لغة) بالفعل . ونحن نجد في اللغة الأغريقية — في تركيبها نفسه — ذلك الوضوح والتحكم في التركيب الذي نشاهده قبل كل شيء في فن الأغريق الكلاسي ، ولا نجد في الفن الذي سبقه . فاللغة الأغريقية أولاً مثلها كمثل اللغة اللاتينية التي تمت لها بصلة القربى تتغير نهايات كلماتها تبعاً للأفراد والجمع والتذكير والتأنيث ، كما أن ترتيب الكلمات في الجمل عظيم الاتقان والدقة . وكلما استطاع الإنسان أن يرجع إلى عهود أقدم في تاريخ اللغة وجد التغيرات التي تطرأ على أواخر الكلمات أكثر اتقاناً ووجد ترتيب الكلمات في الجمل أدق بطرق شتى ، فترتيب الكلمات في الجمل أكثر تغيراً وأقل جموداً في اللغة الأغريقية منه في اللاتينية . وسرعان ما يكشف طالب الآداب الكلاسيكية ذلك لشدة ابتهاجه أو حزنه تبعاً لمزاجه . وعلى ذلك فمن طبيعة اللغة الأغريقية التعبير بدقة متناهية لاعتناء العلاقة التي توجد بين الأفكار فحسب بل عن العلاقة التي بين ظلال المعاني والعواطف كذلك ، غير أن ما هو أقرب لموضوعنا الحالي هو إحدى نتائج ذلك إن لم تكن هي السبب فيه بالفعل ألا وهي الأسلوب البلاغي . ففي اللغتين الأغريقية واللاتينية إذا تصادف أن كان الأسلوب مركباً وفيه فكرة رئيسية أو أكثر مصحوبة بأى عدد من الأفكار التفسيرية أو الوصفية ، فإن من الممكن ذكر ذلك بوضوح تام في جملة واحدة بل هذا ما يحدث في العادة . ومعنى هذا أن كلتا اللغتين تمتازان بفن هندسى في تركيبهما . غير أن بينهما اختلافاً له دلالة ، فالرومان يبدو أنهم اكتسبوا الأسلوب البلاغى بمحض التصميم والشجاعة أما الأغريق ، فقد فطروا عليه . وليس في اللغة الأغريقية طرق أكثر فحسب للانتقال بسهولة إلى الجمل الفرعية — فمثلاً يوجد للفعل الأغريقى العادى عشرة من أسماء الفاعل والمفعول (إن

كان إحصائى لها صحيحاً) على حين أن الأفعال اللاتينية العادية لها ثلاثة فقط . بل إن اللغة الأغريقية مشحونة بكلمات صغيرة كحروف العطف وأدوات الوصل تستعمل أزواجاً كما تستعمل جماعات ، وتنحصر مهمتها في أن تجعل المعنى واضحاً ، فهى على حد قول القائل معالم للطريق . ولا بد أن تكون قد مرت بالقارئ التجربة المتعبة الآتية : وهى قراءة جملة انجليزية بصوت عال ثم خفضه عند نقطة معينة اعتقاداً منه أن الجملة على وشك الانتهاء ، ولكنه في اللحظة الحرجة لا يجد نقطة الوقف بل شولة فقط ، مما يرغمه على أن يستعيد قراءة كلمة أو كلمتين ويرفع صوته من جديد ويستمر في القراءة ؛ غير أن هذا لا يمكن أن يحدث في اللغة الأغريقية لأن الكاتب الأغريقى يكون قد وضع في البداية كلمة مثل « تي » أو « te » أرانى مضطراً لكتابتها وهى تشير إلى أن الجملة تشتمل على الأقل على قسمين متماثلين بحيث أن الثانى وما يليه إضافة بسيطة للأول ، أو مثل كلمة « من men » وهى تعنى نفس ما ذكرناه إلا أن القسم الثانى وما يليه ليس في هذه المرة أستمراً للقسم الأول بل عكسه . وهذا طبعاً ممكن في اللغة الانجليزية فالجملة الإنجليزية يمكن أن تبدأ بقولك « بينما نجد من جهة أن ... »

ولكن اللغة الأغريقية تؤدى ذلك بحكم الفطرة دائماً وبطريقة أسهل بكثير . وليس لدينا فعلاً أى نماذج من المحادثات الأغريقية القديمة غير أن هناك نبذة وردت عند كتاب المسرحيات وأفلاطون Plato يتحدث فيها الكاتب في تصوير تأثير الحديث المرتجل ، وليس من النادر أن نجد فيها أسلوباً بلاغياً متقناً لدرجة معقولة ، وحتى إذا لم نجده فأننا نجد دائماً في الجملة ترتيباً واضحاً وضوحاً تاماً وخالياً من الغموض كما لو كان المتكلم رأى تصميماً هندسياً لفكرته و بالتالى وعلى وجه السرعة لجملة قبل أن يبدأ في صياغتها بالكلمات . أن طبيعة اللغة الأغريقية هى أن تكون مضبوطة دقيقة واضحة .

فعدم الدقة والافتقار إلى الوضوح في التعبير وهما اللذان تنحدر (١) إليهما اللغة الإنجليزية أحياناً وتتخلص منهما اللغة الألمانية أحياناً ، أمران غريبان تماماً عن اللغة الأغريقية . ولست أريد أن أقول إن من المحال أن يكون الحديث هراء في الأغريقية ، فهذا ممكن جداً ، غير أن حقيقة كونه هراء تبدو واضحة في الحال . وليس عيب اللغة الأغريقية هو الغموض وقلة الوضوح بل هو لون من ألوان الوضوح الزائف في الأمانة الشديدة عن فروق لا وجود لها .

أن عقل أى شعب قد يفصح عنه تركيب لغته بطريقة مباشرة أكثر من أى شيء آخر من صنع يده ، ولكننا نجد في كل عمل أغريقي هذا الفهم الراسخ للفكرة والتعبير عنها بشكل واضح موجز ، كما نجد مع هذا الوضوح ومتانة البناء والجد والرصانة حساسية مرهفة ورشاقة لا تنفذ . وهذا هو سر ما يسمى بالمعجزة الأغريقية . وأنا لنجد تعليل ذلك أو تعليل جزء هام منه في انصهار الحضارات معاً أن لم يكن في اندماج الشعوب كذلك .

(١) عندما أقول اللغة الإنجليزية أنا لا أقصد لغة الإداريين والسياسيين أصحاب الشأن الذين يكتبون خطابات إلى جريدة « التيمس » . أن عدم الدقة يمكن أن تكون الصفة الرئيسية لهذه اللغة لولا تظاهرها المتعمد بالمعظمة وحجبها الصياني للاستعارات السخيفة .

البلاد

ربما كان هذا هو المكان الذى علينا أن ندرس فيه جغرافية بلاد الأغريق دراسة موجزة . فما هى طبيعة البلاد التى اجتذبت هذه الجماعات المتتالية من أهل الشمال الجفافة كما اجتذبت أحياناً جماعات من أهل الشرق وماذا فعلت من أجلهم ؟

سنجعل معرفة التضاريس العامة لبلاد الأغريق ميسورة للقارئ . إنها بلاد ذات جبال من الحجر الجيري ، ووديان ضيقة وخليجان طويلة وأنهار قليلة وجزر كثيرة ، هى القمم التى بقيت من سلاسل الجبال الغارقة كما توحى بذلك على الفور أية نظرة إلى الخريطة . وهناك قليل من السهول التى ليست بواسعة ولكنها هامة للغاية بالنسبة لاقتصاديات البلاد وتاريخها ، وبعضها سهول ساحلية مثل سهل آخيا الضيق الخصب الذى يسير بجذاء الساحل الجنوبي للخليج . وهناك خليجان أخرى بالداخل مثل سهل لا كيدايمون Lacedaemon (إسبرطه) الذى تكاد الجبال تحجزه كله عن البحر ومثل سهل تساليا Thessaly وبويوتيا أما سهل بويوتيا Boeotia فهو كثير العشب (١) بصفة خاصة وذو جو ملبد بالغيوم . وقد اعتاد الاثينيون وهم أذكى من جيرانهم أن يدعوا هؤلاء بالخنزير البويوتى .

وبلاد الأغريق تمتاز بالتنوع العظيم فكل من ظروف إقليم البحر

(١) اسم بويوتيا معناه « أرض البقر » وليس ببلاد الأغريق أجزاء كثيرة بها مراعى صالحة للابقار .

المتوسط وأقليم مادون الألب تبعد عن بعضها البعض أميالاً قليلة ، وسطح البلاد يتفاوت ما بين سهول خصبة ومناطق جبلية وعرة . ولم من مجتمع من البحارة والتجار والمغامرين كان جيرانهم في داخلية البلاد من المشتغلين بالزراعة الذين ما يكادون يعرفون البحر والتجارة بتاتا فهم من المحافظين المتمسكين بالتقاليد كالقمح والماشية . أن المتناقضات في بلاد الأغريق في وقتنا هذا قد تكون مذهلة ، ففي أثينا ويبريه تجدأ وكنت تجد قبل الحرب مدينة أوروبية كبيرة حديثة فيها الترام وسيارات الركوب وسيارات الأجرة والطائرات التي تصل كل بضع ساعات والميناء الذي يزهو بالسفن الذاهبة إلى كل مكان إلى إيجينا Aegina عبر الخليج أو إلى الساحل الشرقي أو الغربي أو التي تخترق القنال أو المتجهة إلى الإسكندرية أو إلى ثغور أوربا الرئيسية أو إلى الأمريكتين . ولكنتك تستطيع أن تشق طريقك في ساعات قليلة إلى أجزاء من بلاد الأغريق الوسطى أو البلوبونيز حيث الطرق لمسافة أميال عبارة عن دروب للفرسان . أما العربية الوحيدة ذات العجلات فهي عربية اليد ذات العجلة الواحدة . وقد ذهبت في كلاماتنا إلى مطحن عصرى كبير للدقيق كان ينقل القمح إليه مباشرة بواسطة تفريغ الهواء من عنابر البضائع في السفن التي حملته . وقبل ذلك يومين وعلى بعد أقل من عشرين ميلا كنت قد رأيت دراس القمح على طريقة « العهد القديم » بواسطة الخيل والبغال التي تجرى حول جرن دائرى في ركن من أركان الحقل ، كما رأيت ذراية تجرى في نفس البقعة بواسطة الريح التي لا تقف عن الهبوب أبداً . وربما لم تكن المتناقضات عظيمة جداً هكذا في العصور القديمة ولكنها كانت مع ذلك تلفت النظر ، فالتنوع يواجهنا في كل مكان وهو حقيقة لها مغزى كبير .

وما كان له أهمية عظيمة لنمو الثقافة الأغريقية أن أكثر الدويلات كان لكل منها رقعة ضيقة من سهل خصب ومرعى جميل وسفوح مغطاة بالغابات وقمم جبال قاحلة كما كان لها ممر إلى البحر في حالات كثيرة . لم تكن هناك

برمنجهام (الصناعية) أو ولتشير أو أى مجتمع له أسلوب واحد في الحياة فكانت الوحدة أقل حتى مما كانت في إنجلترا في العصور الوسطى ، فالدويلات التي نعتقد إنها كانت تجارية أو صناعية أكثر من غيرها مثل كورنثا وأثينا كانت زراعية على الأقل كما كانت تجارية . إن ازدهار الحياة المدنية في أثينا في القرن الخامس يجعلنا ننسى بسهولة زائدة أن أكثر المواطنين الاثينيين كانوا فلاحين قبل كل شيء . ويتضح من كوميديات ارسطوفانيس Aristophanes ان أثينا ظلت مدينة ريفية إلى حد بعيد كما أن ثوكوديديس يقول بكل جلاء إن أصحاب الأرض في أتيكا كانوا مقيمين بها حتى دفعتهم الحرب البيلوبونيزية إلى الانتقال إلى المدينة طلباً للأمن . ولقد كانت الغزوات الاسبرطية هي التي حولتهم إلى سكان للمدن .

وإذا صدق هذا على أثينا فإنه يصدق أكثر على الدويلات الاغريقية الأخرى فقد كانت المدينة والريف مترابطين فيما عدا الأجزاء البعيدة مثل اركاديا Arcadia وبلاد الاغريق الغربية التي لم يكن بها مدن بالمرّة . وعندما نمت واتسعت حياة المدن كانت تشعر دائماً بما وراءها من الريف والجبال والبحر كما كانت الحياة الريفية على علم بعادات المدن ، وقد شجع هذا على اتخاذ نظرة سليمة متزنة ولم تعرف بلاد الاغريق الكلاسيكية بتاتا الركود والاستسلام اللذين يتصف بهما العقل في سهول الاستبس كما عرفت قليلاً جداً من حماقات غوغاء المدن التي تنقسم بقصر النظر .

ولما كان هناك مثل هذا التنوع في تربة الدويلات الاغريقية ومناخها فقد كانت مكتفية اكتفاء ذاتياً بشكل معقول ، وكانت تستطيع أن تتمتع بحياة متزنة ومجتمع متحد . وقد تعلمنا في السنين الأخيرة أن نستعمل كلمة أوتاركيا أو أوتاركى Autarky بالأغريقية ومعناها الاكتفاء الذاتي ، غير أن ذلك كان في مناسبات أشد كآبة من الوقت الحالى ، وقد كان هذا الاكتفاء عند الاغريق جزءاً جوهرياً من فكرة الدولة كما سنرى فيما بعد

وقد مكنته أحوال بلاد الأغريق الطبيعية من تحقيق ذلك . وقد كانت هناك نتيجة أخرى هامة للتنوع الدائم في هذا العالم الأغريق الصغير ، فمع أن أكثر الدويلات كانت تستطيع أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتياً بشكل معقول بفضل اختلاف نسب الارتفاع عن سطح البحر فقد كان لكثير منها محاصيلها الخاصة مثل زيتون أتیکا ورغام ميلوس Melos ونبذ جزيرة بياريثوس Peparethus ، وقد شجع هذا على نشاط التجارة وعلى الاتصال المستمر . وقد كانت المواصلات البحرية فضلاً عن ذلك آمنة كما كانت سهلة إلا في الشتاء . ويمكننا كذلك أن نضع موضع الاعتبار حقيقة أخرى ذات أهمية حاسمة وهي أن بلاد الإغريق تواجه الجنوب الشرقي بوجه عام . فالجبال تسير في هذا الاتجاه ولذلك فالوديان والثغور تواجهه . وسلاسل الجزر التي تعتبر استمراراً لسلاسل الجبال ترشد المسافرين في سفينة صغيرة دون أية بوصلة إلى آسيا ومصر في أمان تام وهما موطناً لمدينتي أقدم وأعرق . وقد ترتب على ذلك أن بلاد الأغريق كانت في عصر ما قبل التاريخ مفتوحة بشكل مفر للتجار وغيرهم من كريت ثم من فينيقيا بعد ذلك ، بينما أخذت الطرق البحرية في العصور التاريخية تنقل الهيلينيين الذين كانوا هم أنفسهم قد عشقوا البحر وبرعوا فيه إلى بلاد أقدم من بلادهم . وبمقارنتها بإيطاليا يتجلى الاختلاف وتوضح هذه النقطة : إن جبال الأبنين تقع بالقرب من الساحل الشرقي وتتجه الأنهار والوديان لذلك نحو الغرب وتقع السهول الخصبة والثغور على الساحل الغربي . وفي شرق إيطاليا تقع التضاريس الساحلية وهي أبعد ما تكون عن السماح لأحد بالالتجاء إليها . ولذلك جاءت الحضارة متأخرة إلى إيطاليا ، والنفوذ المينوي لم يكن عظيماً بها . وعندما أنشأ الأغريق مستعمرات لهم هناك اتخذوا طريقهم حول الساحل الجنوبي ثم شمالاً نحو الغرب . والاختلافات العظيمة بين حضارة الأغريق والرومان لا بد أنها ترجع بدرجة عظيمة

إلى الحقيقة القائلة إن اللاتين على عكس الهيلينيين لم يجدوا الثقافة القديمة الخاصة بجنوب شرق البحر الأبيض المتوسط وطيدة في شبه الجزيرة الذي فتحوه . فقد كانت جبال الأبنين تكون حاجزاً لا يسهل اختراقه . وهناك وجه آخر من أوجه التضاد يتبادر إلى الذهن وهو الموجود بين مجموعة جزر بحرايجه وجزر الهبريديس . فالاختلاف في المناخ والخصوبة بين الإثنين واضح وضوحاً كافياً غير أن هناك أيضاً ما يأتي : أن محاصيل إحدى جزر الهبريديس تشبه إلى حد بعيد محاصيل أية جزيرة أخرى بها كما تشبه محاصيل الجزء الرئيسي من البلاد أيضاً . فكانت التجارة بناء على ذلك ضئيلة حينما كانت الظروف بدائية . ولم تكن هناك أوجه اختلاف حادة تعمل على توسيع آفاق العقل . وفضلاً عن ذلك فإن الطرق البحرية كانت تؤدي لا إلى فينيقيا أو مصر بل إلى الجزء الرئيسي من البلاد الذي لم يكن يختلف عنها إلا اختلافاً يسيراً أو إلى شمال الأطلنطي وفيه إما أن يغرق الإنسان أو يعود من رحلته كما بدأ دون أن يزداد علماً وحكمة .

ويعتبر المناخ عاملاً آخر له أهميته وهو ملائم جداً على العموم وثابت منتظم . وتعتبر بلاد الأغريق في الحقيقة إحدى البلاد التي لها مناخ خاص لا التي بها مجرد أحوال جوية . فالشتاء قارس على الجبال ، أما فيما عداها فهو معتدل مشمس . والصيف فيها يبتدىء مبكراً وحاراً ولكن حرارته ليست منهكة للقوى إلا في السهول لأن الجو جاف ، كما أن التغير اليومي في نسيم البر والبحر يلطف الحرارة ولا يكاد المطر يعرف في الصيف .

أما أواخر الشتاء والخريف فهما فصلان مطيران . وبين الكتابات الطبية الأغريقية المنسوبة إلى ابقرات رسالة قصيرة عنوانها « الأهوية والمياه والأماكن » ، وهي تعطينا فكرة كئيبة عن المناخ الأغريق . فالكاتب المجهول يخبرنا أنه إذا كان تعرض أي مكان للعوامل الجوية جنوبياً شرقياً إلى جنوبي غربي بحيث يكون مكشوفاً أمام الرياح الساخنة ومحجوباً عن الشمال ، فإن المياه تكون ساخنة في الصيف باردة في الشتاء

ومملوءة بالأملح لأنها تكون قريبة من السطح . أما السكان فإنهم معرضون للإصابات اللفاوية وبالتالي إلى متاعب سوء الهضم ، وهم لذلك مقلون في تناول الطعام والشراب . أما النساء فتسوء صحتهم ويتعرضن للإجهاض ويصاب الأطفال بالتشنجات والربو والشلل ويتعرض الرجال للدوسنطاريا والإسهال وحى البرداء والحميات المزمنة والأجزيما والبواسير . وبعد سن الخمسين تصيبهم الأخطا النازلة من الرأس بالشلل . ومع ذلك فقلما يصابون بالالتهاب البلورى وذات الرئة وقليل من الأمراض الأخرى . فإذا كان اتجاه المكان الذى أنت فيه شماليا كانت شكواك من عكس تلك الأوجاع كما أن الماء يكون عسراً فتسوء صحتك وتكون نحيفاً قوياً وتأكل كثيراً وتشرب قليلاً ، إذ أن من المحال أن تكون أكولاً ومدمناً على الشراب فى نفس الوقت ، وكذلك تكون عرضة للالتهاب البلورى والتقرقات الباطنية . وتكون الولادة عمرة . أما تربية الأطفال فيبدو أنها من رابع المستحيلات . وأحسن الأمكنة ما كان شرقى الاتجاه أما الغربى فهو أسوأها جميعاً .

هذه صورة ليست بهيجة ولكن السكتب الطبية مفزعة على الدوام . وعلى كل حال فن الواضح أن هذا السكتب تحت قبعته نجله ، فهو ليس بأحسن مثال للعالم الأغريقى .

دعنا نأخذ دليلاً من نوع مختلف . هاك أسماء أشخاص من قرن حديث أذكرها اعتباطاً : هايدن وموزار وبتوفن وجيته وشوبرت ومندلسون وورد زورث وكولريدج وكيثس وشيلى . وهذه الأسماء من قرن أغريقى تصلح للمقارنة ؛ إسخيلوس وسوفوكليس Sophocles وپوريديس Euripides وأريستوفانيس Aristophanes وسقراط Socrates وأفلاطون وإيسوكراتيس Isocrates وجورجياس Gorgias وبروتاجوراس Protagoras وكسينوفون . إن تاريخ وفاة أفراد القائمة الأولى على التوالى هو : ٧٧ ، ٣٥ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٨٠ ، ٦٢ ، ٢٦ ، ٣٠ وهو فى القائمة الثانية ٧١ ، ٩١ ، ٧٨ ، على

الأقل ٦٠ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ٩٥ (؟) وحوالى ٧٠ ، ٧٦ . لقد مات شيلى غرقاً بطبيعة الحال ولكن (يبدو) أن وفاة أخيلس وپوريديس كانت مصادفة ، وقد أعدم سقراط ومات بروتاجوراس حين تحطمت السفينة التى ركبها وكان شعراء الماسى الثلاثة عاملين وفى ذورة عبقريتهم عند وفاتهم (وهو مالا يقوله أحد عن ورد زورث) ، وقد أدرك الموت أفلاطون وهو يكتب القوانين ، وإذا تمعن أى إنسان مهم بالموضوع فى كتاب « حياة الفلاسفة » الذى ألفه ديوجينيس لارتيوخس وهو كتاب ممتع جداً فإنه يندهش من الصورة العامة التى وردت به عن طول العمر . ومن الواضح أن بعض التواريخ خرافية فلن يصدق أحد أن أمبيدوكليس عاش حقاً إلى سن ١٥٠ ، غير أنه لا يكاد يكون شخصية تاريخية بأى حال . وليس هناك من داع للشك فى دقة أكثر الأرقام المذكورة . فمن الواضح جداً أن بلاد الأغريق كانت ملائمة لا لطول العمر فحسب بل للنشاط المتواصل أيضاً . وإلى جانب سوفوكليس الذى كان يؤلف كتابه الرائع أوديب الكولونى Oedipus Coloneus وهو فى سن ٩٠ يمكننا أن نضع صورة « أجيسلاوس » Agesilaus ملك أسبرطة وهو مشترك فى الحرب فى الميدان فى سن الثمانين بصفة جدية لا قائم بإدارة المعارك فحسب . ويبدو أن الشيخوخة الممتلئة بالحياة كانت شائعة فى بلاد الأغريق أكثر مما هى فى أى بلد حديث حتى العصور الحديثة على الأقل . ولا شك أن طريقة الحياة الصحيحة والغذاء كان لهما علاقة كبيرة بذلك . وبلاد الأغريق فقيرة حالياً ولكنها كانت أغنى من ذلك بلا ريب فى العصر القديم فقد كانت تمتد عدداً أكبر من السكان بالطعام وإن كان ذلك دون ترف أو إسراف . ويستطيع سائق البغال الأغريق أن يداوم المسير أياماً على رغيف من الخبز وقليل من الزيتون . وقد كان سلفه الذى عاش فى العصور الكلاسية مقتصداً مثله تماماً ، فقد كان طعامه المعتاد من الشعير والزيتون وقليل من النبيذ ، والسّمك بصفته طعاماً حسن المذاق ، واللحم فى أيام الأعياد

الهامة ، وكما قال زيمرن Zimmern : لقد كانت وجبة الغذاء الرئيسية في أتيكا تتكون من لونين من الطعام أو لهما نوع من الثريد و ثانيهما نوع من الثريد . لقد كان طعامهم شحيحاً ولو أن حفلات الشراب كانت تنخلله بصورة مناسبة ، ولكنه مع حياة الأغريق العادى النشيطة خارج البيت قد أنتج جنساً قوياً من الناس .

لماذا كانت بلاد الأغريق فقيرة هكذا ؟ إن أردنا أن نحظى بالإجابة الرصينة على الأقل على هذا السؤال يمكننا أن نلتفت إلى وصف أتيكا الذى كتبه أفلاطون في كريتياس (Critias) وهو وصف شيق جداً يقول فيه « إنها مجرد هيكل لما كانت عليه في الماضى ، لأنها تبرز من الجزء الرئيسى من البلاد إلى البحر مسافة كبيرة مثل الصخرة العالية » — وهذا بالفعل معنى لاسم « أتيكا » ، « والبحر من حولها عميق كله » وأثناء هذه التسعة آلاف من السنين (١) هبت كثير من العواصف العنيفة ، غير أن التربة التى جرقها من الأقاليم العالية لم تكون أى سهل رسوبى يستحق الذكر كما حدث لجهات أخرى ، ولكنها تلاشت في كل مكان وضاعت في قاع البحر . ولو أننا قارنا مابقى منها الآن كذلك الذى يوجد في الجزر الصغيرة بما كان موجوداً عندئذ لرأيناها أشبه بعظام الجسد الذى أنهكه السقم فقد زالت التربة الخصبة تاركة هيكل الأرض فحسب ، أما قبل أن تزول التربة فقد كانت هناك تلال عالية بدلا من الجبال العارية والسهل الذى يطلق عليه الآن اسم فيليوس (Phelleus) (٢) كانت تغطيه تربة سميكة خصبة وكانت هناك غابات عظيمة فوق الجبال لازلنا نرى الدلائل على وجودها . أما الآن فهناك جبال لا يقتات منها إلا النحل ، ولكن لم تمض مدة طويلة على العهد الذى كانت تقطع منها الأخشاب لعمل سقوف أعظم المنشآت ، وما زالت أخشاب

(١) يجب ألا نتشدد في أخذها بمعناها الحرفى فقد كان أفلاطون مغرماً بنوع من القموض الرياضى .
(٢) معناه (الصخرى) .

هذه السقوف سليمة متينة . وقد كانت هناك فضلا عن ذلك أشجار عالية مزروعة بكثرة ، كما كانت الجبال مرعى لقطعان لا تحصى ولا تعد .

وهذا هو السبب بلاريب في وجود الفرق المذهل بين الطعام الهوميرى وطعام الإغريق الكلاسيين . ففي كل مئتين أو ثلاثمائة بيت من الشعر عند هومر كان الأبطال يأكلون ثوراً . أما أكلهم السمك فكان يدل على الحرمان الشديد . على حين أن أكل السمك في العصور الكلاسيية كان يعتبر من دلائل الترف ، أما أكل اللحوم فقد كان مجهولاً .

لقد ذكر أفلاطون العواصف . فالمناخ الأغريقى له نواحيه الدرامية المثيرة . فقد كان زيوس إله السماء سريع الغضب وكان بوسيدون الذى يهز الأرض هزاً سواء بواسطة الأمواج أو الزلازل مخلوقاً خفيفاً . ويصف هزيود ثانى شعراء الأغريق الأقدمين في الخلود كيف أوقع هرقل كيكنوس (Cycnus) العملاق فيقول أنه وقع كما تقع شجرة البلوط أو الصخرة الناتئة حينما تقصمها صاعقة زيوس ذات الدخان . وقد رأى مؤلف الكتاب طرفاً من أعمال زيوس المهتاج ، فقد كنت أشق طريقى مصعداً في أحد وديان أركاديا الذى كثر نبتته بدرجة تكاد لا تحتمل . فوصلت فجأة إلى قطعة من الأرض تمتد إثني عشر فدانا على وجه التقريب كانت تتناثر عليها صخور مستديرة كبيرة أو صغيرة بحيث لم يكن يرى منها سطح الأرض . فكانت تبدو كأنها شاطئ البحر الصخرى . وكان في وسطها منزل مدفون إلى منتصفه في الحطام . وقد كانت هناك مزرعة قبل ذلك بيومين ، غير أن عاصفة هبت عليها من فوق جبل ترطوفانو Tourtovano على بعد أميال كانت هذه نتيجتها . ولاريب أنها تحولت بعد ذلك بعامين إلى مزرعة مرة ثانية ، فإن الفلاح الأغريقى المجد يعرف طريقة العلاج الوحيد ضد زيوس .

ولم يكن هزيود نفسه عظيم الحب لمناخ الجهة التى ولد فيها . ولما كنا قد أعطينا مناخ بلاد الأغريق شيئاً كبيراً من الأهمية حتى الآن فإن من العدل

أن نستمع من جهة أخرى إلى من يعتبر حجة ممتازة في الموضوع مثله . لقد كان هزيبود Hesiod يكره حر الصيف المرهق كما كان يكره الشتاء — « شهر لينايون بأيامه المشؤمة التي تهرأ جلد الماشية حين يغطي الصقيع سطح الأرض ، وهو الذى يظهر فيحزن الناس كلها هبت من الشمال الشرق في تراقيا أنفاس الرياح على البحر الواسع وأثارت ثائرتة وأخذت الأرض والغابة تهدران بصوت مرتفع . وكمن شجرة من أشجار البلوط ذات الورق الأخضر الكثيف العالى أو من أشجار الصنوبر العاتية فى أودية الجبل قد جعلها هبوب الرياح تهوى إلى الأرض التي تفيض بالخير . وتدوى الغابة التي لا تحصى أشجارها دويًا عاليًا كما ترتعد الحيوانات البرية وتضع أذيالها بين أرجلها ، حتى الحيوانات وهي التي يكسو الشعر جلودها . أجل إن الرياح بأنفاسها الباردة تنفذ حتى فى هؤلاء رغم أن الشعر الأشعث يغطى صدورها . فهي تنفذ من خلال جلد الثور السميك لأنه لا يعوقها كما تنفذ فى الجدى ذى الشعر الخفيف . ولكن صولة بورياس Boreas لا تستطيع بأية وسيلة أن تنفذ فى الخراف بسبب صوفها الغزير ، ولكنها تخفى ظهر الرجل الشيخ » . وكان هزيبود يكره أربعا من الرياح الثماني أما الأربع الأخرى فجنس الآلهة هو الذى كان يرسلها ، وهي نقمة عظمى على الجنس البشرى الذى قدر عليه الموت ، ولكنها رياح عارضة تهب على البحر من حين لحين وتحتاج البحر الذى يخيم عليه الضباب . إنها نقمة كبرى على البشر الذين كتب عليهم الموت فهي تثير العواصف المشؤمة المتنوعة التي تهب فى مختلف الأوقات وتشقت السفن وتهلك الملاحين ولا يجد الذين يجابهون هذه الرياح فوق البحر من دفاع ضد هذا البلاء . كما أن العواصف التي تهب فوق الأرض الفسيحة المغطاة بالأزهار تدمر أعمال الناس الصالحة وتملاها بالتراب وتشيع فيها الاضطراب المحزن .

ولكن هزيبود كان فلاحاً من أسكرا Askra عاصمة بويوتيا وهي مكان كئيب بالقرب من هليكون Helicon كما أنه كره فى الشتاء وصعب فى الصيف

لألم يكن حسناً يوماً ما . وما ينبغى أن يكتب الإنسان هكذا عن وطنه حتى ولو كان أبوه قد نزع إليه من آسيا الصغرى وذكر لزيود مالا يحصى من المرات بلاريب كم كانت الحياة فى آسيا أفضل .

ونحن على ثقة من أنه لو كان قد قابله أحد الآثينيين لقال له أنه يستحق مثل هذه الحياة فى بويوتيا . أما فى أثينا فقد كانوا يقيمون فى الهواء الطلق أول مهرجان درامى فى العام فى فبراير حين كان ينتهى الفصل المطير ولو أن موسم ركوب البحر لا يكون عندئذ قد بدأ . وقد كان لذلك هذا المهرجان عائلياً بسيطاً إذا قورن بمهرجان « ديونوسيا المدينة » الفخم فى أوائل أبريل حين كانوا ينتظرون وفود الزوار من كل مدينة فى بلاد الأغريق . ومن الواضح أن أثينا كانت تنعم بمناخ أفضل من ذلك الذى وصفه هزيبود ، ولكننا سبق أن قلنا إن بلاد الأغريق هي أساساً بلاد المتناقضات .

إن من الواجب علينا ألا نترك موضوع مناخ بلاد الأغريق دون أن نغنى بتأثيره على الحياة الأغريقية ولا سيما على الحياة الآثينية .

فهو أولاً قد ساعد الأغريق على أن يكتفى بقليل جداً من المعدات ، فالإنسان يستطيع فى بلاد الأغريق أن يحيا حياة جادة نشيطة على طعام أقل بكثير مما هو ضرورى فى الأجواء التي تعتبر أقسى من جو بلاده . كما أن هناك حقيقة عظيمة هي أن الرجل الأغريق كان يمكنه أن يقضى أكثر ساعات فراغه خارج البيت ، بل هذا ما كان يعمل به بالفعل . وهذا يعنى وحده أنه كان لديه فراغ أكثر . فهو لم يكن فى حاجة للعمل لشراء الأرائك والفحم الحجري . ولعل السبب فى أننا معشر الإنجليز قد ابتكرنا عبارة « الراحة الإنجليزية » يرجع إلى أننا لا يمكننا أن ننعم بالراحة والدفع إلا ونحن فى البيوت . والناس عموماً يعززون الفراغ الذى كان يتمتع به الأغريق إلى وجود الرقيق ، ولا شك أن للرقيق (١) صلة بذلك غير أنها لم تكن فى أهمية

(١) أنظر بعده فى الفصل السابع

الحقيقة التي تقرر أن الأغريق كان يستغنى عن ثلاثة أرباع الأشياء التي نشقى نحن من أجلها .

وهكذا كان يستطيع الأغريقى الذى يعيش فى المدينة أو القرية والذى كان يقضى خارج البيت الفراغ الذى اكتسبه إلى حد بعيد بالاستغناء عن أشياء نراها نحن ضرورية أو نظنها كذلك — أن يشحن ذكاه ويرقى آدابه عن طريق الاتصال المستمر بزملائه ، وقليل من الناس يحبون أن يعاشروا الناس مثل هذه المعاشرة الكاملة . وقد كان الكلام بالنسبة للأغريقى هو أنفاس الحياة وهو لا يزال كذلك بالفعل لولا أن اشتغاله الخطير بقراءة الصحف قد أفسده نوعاً ما . فأى مجتمع عدا مجتمع أثينا كان يستطيع أن يخرج لنا شخصية مثل سقراط — ذلك الرجل الذى غير مجرى التفكير البشرى دون أن يكتب كلمة واحدة أو يدعو إلى مذهب بل بمجرد حديثه فى طرقات بلدة لم يغادرها قط إلا مرتين إلى ميدان القتال ؟ وفى أى مجتمع آخر يشعر الإنسان مثل هذا الشعور بهذا الفارق الضئيل بين المتعلمين وغير المتعلمين وبين أهل الذوق والرعاى ؟ لقد كان الآثينى كما كان كثير من الأغريق يتلقون التربية والتعليم الحقيقى فى أما كن الاجتماع فى أوقات الحديث وهم فى السوق أو فى الرواق أو فى الملعب أو فى المجتمع السياسى أو فى المسرح أو عند التلاوات العامة لهومر أو فى المواكب الدينية والاحتفالات . ولعل أكبر نعمة أنعم بها مناخ آتيكا عليها هو أن مجتمعاتها العظمى كان يمكن أن تعقد فى الهواء الطلق . ومهما كانت غرائز الأغريقى ديمقراطية فما كان من الممكن أن تنمو الديمقراطية الآثينية أو تتطور المسرحيات الآثينية تبعاً لذلك لو أن السقوف والجدران كانت ضرورية للاجتماع . وفى مثل ظروفنا الخاصة بالمسكن وأما كن الخلوة وأجور الدخول يجب أن تكون حياة الأثرياء أوفر إمكانيات من حياة الفقراء كما يجب أن يكون لستمائة عضو فقط حق تناول مهمة شئون الأمة . أما فى أثينا

فكان من الممكن أن تكون كل هذه الأشياء مباحة للجميع لأنها كانت مكشوفة للشمس والهواء . إن تحليل الثقافة الآثينية بأنها وليدة المناخ الآثينى فقط يعتبر تعليلاً سخيفاً ولو أنه تعليل عصرى ومع ذلك فمن الممكن أن نثبت بالدليل أنها ما كانت تنمو هكذا فى مناخ مختلف .

من الممكن جداً أن نختم نظرتنا إلى الظروف الطبيعية التى عاش فيها الأغريق وهى النظرة التى استطردها فيها من موضوع إلى آخر ، ببعض الملاحظات عن موارد البلاد الطبيعية وطبيعة اقتصادها فى ظروفها البدائية . إن أربعة أخماس بلاد الأغريق قاحلة اليوم ، أما فى العصور القديمة كما سبق أن رأينا فقد كانت منحدرات الجبال تكسوها الغابات الكثيفة وهى مصدر غنى للخشب والصيد الكبير والصغير . ومن حقنا أن نستنتج أن سقوط الأمطار كان أشد وأن مصائبه كانت أقل ولذلك كانت هناك مراعى أكثر وأحسن مما هناك اليوم . ويبدو واضحاً من الأدلة المتاحة لنا وبخاصة هومر وهزiod أن بلاد الأغريق كانت مكثفة اكتفاء ذاتياً بالفعل بالنسبة للسلع الأولية . وفضلاً عن المحاصيل الزراعية فقد كان هناك حجر البناء بكثرة كما كان هناك صلصال جيد لصانعى القدور . وقد كان الزيتون محصولاً هاماً إذ ذاك كما هو الآن . فكان يمدهم بالزيت للظهو وإشعال المصابيح وبما كان يقابل الصابون فى الزمن القديم . وكان الكرم يزرع بكثرة أيضاً .

لقد كانت بلاد الأغريق فقيرة فى المعادن ، فكان الذهب والفضة والرصاص والنحاس كلها موجودة ولكن فى غير كثرة طائلة . ولم يكن هناك حديد بالمرّة . وفضلاً عن ذلك لم يكن هناك فحم حجرى . وأظن أن المؤرخين الاجتماعيين لم يدرسوا دراسة كافية الحقيقة البسيطة القائلة إن أية حضارة قديمة لم يكن لديها فحم حجرى . إن العسل بديل يغنى عن السكر والتبذد الوافر له أثر يعوضنا على الأقل عن عدم وجود الشاى

والقهوة ، ويمكن الإنسان أن يستغنى عن التبغ بفرض أنه لا يعرف أن التبغ موجود ، ولكن ما الذى يمكن أن يحل محل الفحم الحجري ؟ الجواب هو أن الفحم الحجري باعتباره مجرد مصدر للدفع والنور يمكن استبداله بشمس البحر الأبيض وبالحشب . ويصلح الفحم النباتي للظهور بصورة ممتازة . ولكن لم يكن هناك بديل مرض عن الفحم الحجري باعتباره مصدراً للقوة إلا عمل الأرقاء ، وهو من الوجهة الميكانيكية تبديد في استخدام القوة كما أنه مضر لغير ذلك من الأسباب .

ويمكننا أن نعرف شيئاً من هومر وهزيود عن الحياة الاقتصادية في هذا العصر المظلم . فمن الواضح أن الزراعة كانت تمارس بذكاء عظيم . وقد كانت زراعة الكرم بصفة خاصة مفهومة حق الفهم ولولم تكن بالأمر الهين . ويعطينا هومر في الأوديسا خلال وصفه لمدينة الفياكيانس Phaeacians صورة لبساتين وحدائق اعتنى بها كل العناية وهي خصبة جداً وحسنة التنسيق فيقول :

إنك ترى قرب الممشى غابة جميلة من أشجار الحور مقدسة للآلهة أثينا Athena وفي وسطها ينبوع يفيض ماءً وتحيطها المراعى من جميع الجهات . وهناك متنزه أبى الملكى كما أنه يمتلك حديقة الخضر على مرعى البصر من المدينة . إجلس هناك وانتظر قليلاً حتى ندخل البلدة ونصل إلى بيت أبى وعندما تظن أننا قضينا من الوقت ما فيه الكفاية أدخل المدينة واسأل عن قصر أبى الملك السكينوس Alcinous فمن السهل التعرف عليه فأى غلام صغير يستطيع أن يريك إياه ، لأن بيوت من عداه من الناس ليست من طراز يشبه قصر الملك « السكينوس » فإذا مررت من الفناء إلى داخل المبانى فامش بسرعة فى البهو الكبير حتى تصل إلى أمى التى تجلس بصفة عامة فى النور إلى جانب نار المدفأة وتنسج الخيوط المصبوغة باللون الأرجوانى ، فيرى لها صورة بهيجة وهى متكئة فى مقعدها إلى أحد الأعمدة ووصيفاتها جالسات

خلفها وعرش أبى قريب منها وهو يجلس هناك يحتسى الخمر كأنه إله (١) . هكذا كانت إرشادات الأميرة لأودوسيوس الذى تحطمت سفينته حتى إذا وصل إلى القصر كان هذا ما شاهده :

كان هناك بستان واسع خارج الفناء مساحته أربعة أفدنة وهو يمتد إلى الأبواب الخارجية وله سور من الشجيرات على كلا الجانبين . وكانت فيه أشجار باسقة خضراء كأشجار الكمثرى والرمال والتفاح المثقلة بالثمار اللامعة الملساء والتين الحلو المذاق والزيتون الوفير . وأثماره لا تنقطع ولا تمتنع فى الصيف ولا فى الشتاء على السواء . وهى توجد فى كل فصول السنة وليس هناك وقت لا تعاون فيه أنفاس الرياح الغربية أكام الزهر والثمار الناضجة هنا وهناك حتى بلغت الشجرة تلو الأخرى من أشجار الكمثرى والتفاح والتين والعنقود تلو الآخر من عناقيد العنب أوج الكمال . وكان فى البستان ذاته كرم مثمر وكانت فى جزء منه قطعة دافئة من الأرض المستوية يحفف فيها بعض العنب فى الشمس بينما يجمع البعض الآخر ويوطأ تحت الأقدام . وتتدل من الصفوف الأمامية عناقيد لم تنضج بعد أخذت تخرج أزهارها أو تبدى أول لون بنفسجى خفيف . ووراء أبعد صف نسقت أحراض الخضر من مختلف الأنواع فأصبحت تكون رقعة يانعة من اللون الأخضر المتصل ويسقى الحديقة ينبوعان تخرج من أحدهما الجداول لكل أجزاء الحديقة بينما يجرى الآخر فى الجانب المقابل تحت الباب الخارجى للفناء بعد أن يزود مروج الأهالى بالماء متجهاً إلى البيت نفسه (٢) .

هناك ظل من أرض الأساطير والجنيات يطوف بأرض الفياكيانس على أن هومر مهما بالغ فى رسم صورة البستان فمن الواضح أنها صورة شيء

(١) من الأوديسا — النشيد ٦ .

(٢) من الأوديسا — النشيد ٧ .

رآه . ونحن نسمع عن كرمه أخرى في آخر كتاب من الأوديسا ولكن لا يكتنفها أى سحر هناك . فبعد أن قتل أودوسيوس Odysseus (العشاق أو الأدعياء) خرج يبحث عن أبيه الشيخ الذى هاجر من المدينة يائساً .

وفى هو سائر فى طريقه نحو الحديقة العظيمة لم يعثر بالمصادفة على دوليس Dolius أو أحد من العبيد أو أبناء دوليس الذين كان قد تقدمهم هذا الشيخ الكبير لجمع الأحجار اللازمة لجدار الكرمة . وهكذا وجد أباه وحيداً على أرض الكرمة يحفر الأرض حول أحد النباتات وكان يلبس رداء قذراً مرقعاً مزرياً وزوجاً من أغطية القدم الجلدية المخيطة المربوطة حول ساقيه لتقيهما الخدوش كما كان يلبس قفازات لتقى يديه من الأشواك . وكما يزيد الطين بلة ويؤكد شقوته كان يلبس فوق رأسه قبعة من جلد الماعز (١) .

إننا نتنقل فى الأوديسا بين العظماء ونرى الملوك يعيشون فى ممتلكاتهم ولو أن ملك إيثاكا Ithaca كان أقرب شياً بأمر إقطاعى منه بملك فهو يعين العمال الأجراء والأرقاء ولكنه لا يترفع عن أن يعمل فى الأرض بنفسه . فإن لارتيس Laertes يعرف كيف يحفر حول الكرم وأودوسيوس نفسه يفخر بأنه يستطيع أن يشق خطأ مستقيماً بالمحرث مثل أى رجل آخر . ونحن نقابل عند هزيود المزارع الصغير الذى يفلح الأرض بنفسه مع أولاده أو مع أحد العبيد إن استطاع الحصول عليه كما يفلحها أحياناً مع الأجراء . ولقد كانت قطعة الأرض التى يملكها سواء كانت صغيرة أو كبيرة مكتفية اكتفاء ذاتياً . وكان التدبير المنزلى هو القاعدة فقد رأينا « أريشيا » ملكة الفياكيانس تنسج على ضوء النار على حين أن « بنيلوبى » Penelope ملكة إيثاكا ربما كانت أشهر الناصجات ومعها الملاة الكبيرة التى كانت تفك منها بالليل ما نسجته بالنهار .

وكان يضم بيت الكينوس الرفيع العماد خمسين خادمة يطحن بعضهن قحاً لونه يكون التفاح الذهبى فى طاحون اليد وتنسج بعضهن على المنسج أو يجلسن لغزل الخيوط وأيديهن تتحرك بسرعة مثل أوراق الحور العالية بينما يقطر زيت الزيتون الناعم من الأقمشة التى ضمت خيوطها أثناء النسيج ضمّاً وثيقاً والتى انتهوا من صنعها (١) .

أما من كانت حياتهم أقل شأنًا من الكينوس فقد كانت جميع ثيابهم وكافة الأقمشة المستعملة فى منازلهم من صنع نساء الأسرة . وربما كان ذلك بمساعدة إحدى الخادومات إن كانت الأسرة ميسورة الحال نوعاً ما ، بينما كانت أكثر أدوات المزرعة تصنع فى نفس المزرعة .

ونحن نسمع عن صناعتين فقط من صناعات التخصص يشتغل بهما صانع المعادن والخزاف وهما « من الصناع demiourgoi » أى من الذين يشتغلون لصالح الشعب فلا يستهلكون نتاج جهودهم و « الديميورجوس » هو الصانع وهو « الخالق » عند أفلاطون ومنها كلمة « ديميورج » الواردة فى قصيدة شيلي المسماة « بروميثيوس وقد فكت قيوده » . ومن الشائق أن نلاحظ أن هاتين الصناعتين هما وحدهما اللتان لهما فى الإغريقية مثالان من الآلهة هما هيفايستوس Hephaestus أو (فلسكان) صانع المعادن وبروميثيوس Prometheus وهو أيضاً إله من آلهة النار ولكنه فى عبادة أتينا إله الخزافين . ولم يكن هناك إله لصناعة الأحذية أو للزراعة أو للبناء . ومن الواضح أن كل إنسان يعرف كيف يصنع هذه الأشياء ، أما بالنسبة للصناعة المعدنية المتقنة أو لصناعة قطعة رشيقة من الخزف فقد كان الأمر مختلفاً كل الاختلاف . « لعمرى كيف تصنع ؟ » لا بد أن إلهاً قد صنعها « وقد صنع هيفايستوس الذى ورد ذكره فى قصة آريس Ares وأفروديتا Aphrodite الشائنة الممتعة التى حكاهها هومر فى النشيد الثامن من

الأوديسا شبكة من الحديد المطروق خفيفة كنسيج العنكبوت ودقيقة حتى لم يكن يستطيع رؤيتها الآلهة المنعمون ثم ادعى أنه مسافر إلى ليمنوس Lemnos فقال لها آريس « تعالي يا حبيبتى فقد ذهب زوجك إلى ليمنوس لزيارة أصدقائه البرابرة من الستينانيين ، فجاءته أفروديتا ولكن الشبكة نزلت وأطبقت عليهما بشدة وهما راقدان حتى لم يستطيع أحد منهما تحريك أى طرف من أطرافه . ونادى هيفايستوس وهو في ثورة غضبه الآلهة الآخرين الذين جاءوا ليروا ما أصابه من سوء ، فلما رأوا حيلة هيفايستوس البارعة لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك . فالتفت أبوللون بن زيوس إلى هرميس وقال : « هرميس يا ابن زيوس ، هل كان الأمر يستحق ذلك ؟ فقال القاتل الجبار لغرض في نفسه » : نعم إنى أود أن أستبدل مكانه بمكانى فى هذه اللحظة .

غير أن الصلة بين هذا وبين الاقتصاد الإغريق القديم قد تكون بعيدة إلى حد ما .

ولم يكن الإغريق تجاراً فى تلك العهود القديمة ، فأدوات الترف التى كانت توجد بوفرة فى بيوت الأغنياء كانت تأتى من الشرق فى سفن فينيقية تحمل الرقيق إليهم كذلك ، ومنهم يومايوس Eumaeus راعى خنازير أوديسيوس المخلص إذ كان أبوه ملكاً فى Suria « سوريا (١) » البعيدة عن صقلية ، وكان للملك جارية من صيدا كان قد اشتراها من قراصنة جزيرة تافوس (٢) الأشرار الذين كانوا قد خطفوها عنوة ، وفى ذات يوم جاءت إلى سوريا سفينة فينيقية تحمل سلعاً من الكماليات فغازل أحد بحارتها فتاة صيدا هذه وسمع قصتها واقترح عليها أن تعود معهم لأنه كان يعرف أن أبويها

(١) إحدى جزر الكوكلايس فى بحر إيجه .

(٢) جزيرة تافوس ، تسمى اليوم ميغانيزى Meganizi ، وتقع قبالة ساحل أكارناتيا غرب بلاد اليونان .

على قيد الحياة وأنهما كانا من الأثرياء ، فوافقت الفتاة بالطبع وحسنت الخطة باقتراحها أن تحمل معها ابن الملك وهو ولد صغير ذكى كان فى رعايتها إذ كان يمكن بيعه بثمن حسن فوافق الفينيقي على ذلك وظلت السفينة سنة فى سوريا وهم يبيعون الكماليات ويتزودون ببضائع أخرى من الماشية والجلود والمعدن الخام والنيذ وهى الصادرات العادية ، فلما استعدوا للأبحار حمل الفينيقي اللثيم إلى بيت الملك عقداً من العنبر ، وبينما كانت الملكة وغيرها من السيدات يفحصنه ويساو من فى ثمنه تسلكت الجارية التى من صيدا بالطفل فى الشوارع المظلمة ولم يتكشف الأمر حتى كانوا جميعاً فى عرض البحر ، وقد نالت الفتاة جزاءها لأنها وقعت فى عنبر البضائع جثة هامدة ثم رفعت منه إلى سطح السفينة وألقيت فى البحر . وقد أبحرت السفينة إلى إيثاكا حيث بيع الطفل إلى لأرتيس Laertes والد أوديسيوس الذى رباه هو وAnticleia كما لو كان ولدهما حتى كبر فأعطى رداء وعباءة جميلة وجعل مشرفاً على المزرعة من قبل الملك . كان هذا جانباً من تجارة البحر الأبيض المتوسط لا فى هذا العصر المظلم فحسب بل فى كل عصر آخر لم تكن فيه حكومة قوية تستطيع المحافظة على الأمن فى الشواطئ ومراقبة البحار .

وقد كانت التجارة الدولية إذ ذاك فى أيدي فينيقية ، وقد ظل الفينيقيون محتفظين بها فى أجزاء معينة من البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد لأن قرطاجة كانت مستعمرة فينيقية ومن هنا جاء إسم الحروب الفينيقية (التى خاضتها قرطاجة) وقد نجح القرطاجيون فى إبعاد التجار الإغريق عن المثلث الذى يتكون من طرف صقلية الغربى ومضيق جبل طارق والطرف الشرقى للبرانس ، ولكن لنعد إلى العصر القديم حين كان الإغريق مشغولين بالفعل بالتجارة الساحلية . إن هزيود فى قصيدة « الأعمال والأيام » يتكفل بإعطاء معلومات عن فصول السنة التى تستطيع فيها أن تبدأ الملاحة وتلك التى يجب عليك أن تكف فيها عن ذلك إن كنت

من الحق والجشع بحيث تحب ركوب البحر ، فقد كان رأى هزيود هو أن الملاحة وجمع الثروة عن طريق التجارة ليس أمراً طبيعياً ، لأن هزيود كان فلاحاً معتاداً على نظام الطبيعة الرتيب وطرقها البطيئة وعلى الثروة الحقيقية التي يمكن استخلاصها من الطبيعة . أما الثروة التي تجمع من التجارة فقد كانت أمراً مشكوكاً فيه وتلازمها الأخطار من كل الأنواع : « ابتعد عن البحر المرير » هذه كانت نصيحة هزيود ، ومع ذلك فإننا نجد في الأوديسا - ربما في شكلها الأول - صورة مدينة من الواضح أنها إغريقية وهي ميناء حسن .

إن مدينتنا محوطة بقلاع ذات أسوار عالية ولها ميناء ممتاز على كلا جانبيها ويصل إليها الناس بوساطة طريق مرصوف عال ترفع السفن إليه ، ولكل صاحب سفينة منزل لسفينته . وهنا مكان اجتماع الناس مشيد على كل جانب من معبد بوسيدون Poseidon الجليل بكتل من الحجر المأخوذ من المحاجر وهي مثبتة في الأرض إلى عمق كبير . وكذلك يعني البحارة هنا بحبال السفن السوداء وقلاعها وبتسوية مجاذيفها لأن فيا كيانس لا يستخدمون القوس والنشاب بل يبدلون نشاطهم على ساريات السفن ومجاذيفها ويحبون أن يبحروا في السفينة الرشيقة عبر البحار التي انتثر عليها الزبد (١) .

من الواضح أن هومر Homer كان قد رأى مثل هذه المدينة الإغريقية ، غير أننا نستطيع أن نستنتج أنه لم تكن هناك مدن كثيرة مثلها وإلا لما فكر في أن يصف هذه المدينة بمثل هذه الدقة التي تسترعى الملاحظة ، كما أن فن الملاحة كما كان يمارسه فيا كيانس على الأتل ما كان يمكن أن يكون محوطاً بمثل هذا السحر ، فبينما نقرأ في نبذة « أنهم يشقون في السفن السريعة التي تحملهم عبر البحار الواسعة لأن بوسيدون قد جعلهم شعباً ملاحياً وسفنهم هذه سريعة كالطير أو كالسكر نفسه » ، نجد في نبذة أخرى ملكهم

(١) الأوديسا - نشيد ٦ - ناوسيكاء Nausicaa تسكن .

يقول « لأن فيا كيانس ليس لهم بحارة يمسون الدقة أو مجاذيف تدفع السفينة كالتى في السفن الأخرى . إن سفننا تعرف بالسليقة ماذا يحول في ذهن بحارتها وتشير عليهم بعمله . فهي تعرف كل مدينة وكل أرض خصبة وهي تجرى وسط الضباب والسحاب في البحر اللانهائى دون أن تخاف التلف أو يحول بخاطرهما أن تتحطم !! »

لقد كان هومر إغريقياً من الأيونيين فهل من السخف أن نفترض أن إحدى المدن الأيونية التي بزت غيرها في الجرأة قد سبقت غيرها بمراحل في فن بناء السفن والملاحة وتركها مندهشة ؟ أن الأوديسة تزخر بذكر البحر إذ كان العهد العظيم للاستعمار الإغريق قد اقترب ولكن مازال علينا أن ننتظر مجىء هزيود الفلاح العنيد وتقويمه عن أعمال السنة ونصيحته « اذهب إلى البحر إن كنت مضطراً على أن يكون ذلك من منتصف يونيو إلى سبتمبر فقط ولو أنك تكون أحق حتى إذ ذاك » وهي تذكرنا بأن هناك أكثر من نوع واحد من الإغريق وأن التعميم بالنسبة لهم أمر خطير .

هومر

إن أول الشعراء الأوريين وأعظمهم يستحق أن نكرس له فصلاً بالتأكيـد سواء كان ذلك من أجل هومر ذاته الذي نستطيع أن نرى فيه كل الصفات التي يمتاز بها الفن الإغريق أو بسبب التأثير الذي كان لقصائده على أجيال متعددة من الإغريق .

إنى أعترزم أن أذكر أقل ما يمكن عن المشكلة الهومرية المشهورة : من هو هومر ؟ وما مقدار ما كتبه من الإلياذة والأوديسا ؟ ويمكننا أن نرى مبلغ غموض ما توارثه الإغريق من روايات Hellanicus عن حقيقته من أن هيلانيكوس وهو أحد الكتاب الأيونيين القدماء كان ينسب هومر إلى القرن الثاني عشر ، بينما قال هيرودوتوس بأنه عاش في القرن التاسع أى أنه جاء قبل زمانه بأربع مائة عام على الأكثر . ولا شك أن هيرودوتوس كان مصيباً بشكل جوهري . لقد افترض هيلانيكوس دون أن تأخذه في ذلك أية ريبة أن الشاعر الذي وصف القتال في طرواده بمثل هذا الوضوح لا بد أنه قد رآه ، غير أن السؤال الهام ليس : من كان هومر ؟ بل ماذا كان عمله ؟ لقد سميت الإلياذة والأوديسا بإنجيل الإغريق . وقد ظلت هاتان القصيدتان قرناً أساس التربية والتعليم الإغريق ، سواء منه التعليم الرسمي أو ذلك الذي تقوم عليه حياة المواطن العادى الثقافية . فكان المحترفون الذين يتنقلون من بلد إلى آخر يتلون مقتبسات من هومر مصحوبة بالشرح والتعليق . ويرسم لنا أفلاطون صورة واضحة وإن تكن خبيثة بعض الشيء عن أحد هؤلاء المحترفين في محاوره « أيون » lon فيقول « لا بد أنه شيء رائع يا أيون أن تنتقل هكذا من مكان لآخر وتجذب حولك جمهوراً كبيراً

من الناس أينما ذهبت وتجعلهم يستمعون إلى كل كلمة تقولها بشوق واهتمام وأنت مرتد أحسن ثيابك . » وحتى تم استبدال هذا الإنجيل بإنجيل آخر كان ذكر اقتباس من هومر هو الطريقة الطبيعية لحسم أية مشكلة في الأخلاق أو السلوك . كما كان الاقتباس من هومر في أية مراسلات دبلوماسية كالإقتباس من كتاب دومزدى (Domesday) الذي كان يحتج بأحكامه لتأييد أى مطلب إقليمي . وقد نشأ عن ذلك نوع من التمسك بالمبادئ التقليدية . فهومر هو مستودع الحكمة والعلم بأكمله . ويسخر أفلاطون من ذلك حين يجعل أيون يدعى أنه مادام خبيراً بهومر فهو خبير بكل شيء . وهكذا يمكن أن تجعله إحدى المدن قائداً لها كذلك لأنه يعرف بطبيعة الحال فن القيادة من هومر . والذي يعتبر أخطر من ذلك شأناً هو أن هومر استأثر بأذهان الإغريق وخیالهم وسيطر عليها جيلاً بعد جيل ، سواء كانوا من الفنانين أو المفكرين أو من عامة الناس ، فاتجه الرسامون والشعراء إلى هومر يستلهمونه ويستمدون منه موضوعاتهم الواقعية . وقد قيل أن أسيخيلوس تواضع فوصف إنتاجه بأنه « فتات مأدبة هومر » مع أن الدراما الأوربية لا تعرف شخصية أعظم من أسيخيلوس . وأخيراً لقد كان ميراث الإغريق المشترك من هومر بعد اللغة الإغريقية ذاتها هو الذي أعطى الإغريق أعظم اعتقاد في أنهم شعب واحد رغم الاختلافات والسخائم التي فرقهم . ومن الواضح أننا يجب أن نعرف شيئاً عن هومر الذي يعتبر أول من عبر بوضوح عن الفكر الأوربي . وقد أومض فجأة كأنه علم في رأسه نار وسط هذا العصر المظلم .

إن أول الإلياذة لا يعتبر تعريفاً ضئيلاً بهومر . وها نحن أولاء ننقل هنا في أسلوب من النثر البسيط المشهد الرائع الذي تبدأ به الإلياذة ؛ إنها فقرة كان لا بد للرجل الإغريق العادى أن يحفظها عن ظهر قلب حفظاً يكاد يكون كاملاً إن لم يكن كاملاً بالفعل . وهي التي اعتاد رجال الحرب من أمثال بريكليس

Pericles والإسكندر ؛ والشعراء والنحاتون والرسامون والفلاسفة والعلماء والساسة والتجار وملوك الأرض في الأرياف والصناع أن يطبعوه في أذهانهم منذ الطفولة : —

أنشدى ياربة الشعر غضبة أخيليس Achilles بن بليوس Peleus تلك الغضبة المدمرة التي جلبت ألواناً من الحزن تعد بالآلوف وأطاحت بأرواح أبطال صناديد كثيرين إلى عالم الأموات وتركت أجسادهم طعمة للكلاب والجوارح فتحققت إرادة زيوس . أبدئ حيث بدأ النزاع بين أجا ممنون ملك الناس وأخيليس العظيم .

من هذا الإله الذي أوقع بينهما العداوة ؟ إنه أبولون Apollo بن زيوس وليتو Leto الذي استشاط غضباً من الملك وأرسل وباء فاتكا على الجيش فأخذ الناس يخرون صرعى لأن أجا ممنون بن أتريوس Atreus كان قد عامل كاهنه بازدراء عندما جاء إلى سفن الأخيين السريعة ليدفع فدية ابنته وأحضر مالا يقدر من المال لشرائها واستردادها وكان يحمل على يديه وفوق عصاه المذبة إكليل أبولون وقد توسل إلى الأخيين جميعاً كما توسل قبل كل شيء إلى قائديهم ولدى أتريوس قائلاً :

« يا ابني أتريوس ويا أيها الأخيون الآخرون المدججون بأحسن السلاح عسى أن يهبكم الآلهة الذين يسكنون جبل أوليمبوس فتح مدينة بريام Priam وأخذ أسلابها والعودة إلى أوطانكم منصورين . أطلقوا لي سراح ابنتي فحسب وهاكم الثمن وأظهروا احترامكم لابن زيوس أبولون بعيد الرماية !! »

عند ذلك هتف الأخيون جميعاً : أجل ! احترموا الكاهن وأقبلوا هداياه الفاخرة . لقد هتفوا جميعاً ما عدا أجا ممنون الذي لم يرقه ذلك فطرد خريسيس Chryses بازدراء وقال له بغلظة « لا تدعني ياسيدي أراك الآن

أو في أي وقت تتسكع إلى جانب سفننا الجوفاء وإلا فلن تجد لك نصيراً في صولجانك أو إكليلك المقدس . إني لن أطلق سراح ابنتك فستدركها الشيخوخة في بيتي بارجوس التي تبعد بعداً شاسعاً عن بلادها دون أن تنال بغيتك . إنها ستروح وتغدو إلى المنسج كما تأتيني في فراشي . ابتعد ولا ترد الجواب وإلا فلن تذهب آمناً معافى .

هذا ما قاله نخاف الشيخ الكبير وأطاع وسار حزناً بجذء شاطئ البحر المتلاطم . بهذه الطريقة يبدأ أقدم عمل أدبي أوربي سنخاطر بالخوض فيه عن قريب . فلنقطع الترجمة لنقرر نقطة هامة .

إن دخول هومر في موضوعه مباشرة أو دخوله « في جوهر الموضوع in medias res » كما قال هوراس يعتبر من النقد الهومري الذي جرت به العادة ، ويؤخذ كدليل على عبقرية هومر الأدبية وهو بالطبع هكذا . ولكن ربما استطعنا أن نسير في البحث أكثر قليلاً . إن هذا النقد ينطوي على شيء أكثر من حقيقة أن هومر لا يؤلف ملحمة طويلة كثيرة الاستطراد عن حرب طرواده التي استغرقت عشر سنوات كاملة بل يكتفي بجانب واحد منها . وأن شعوره المرفه بحسن السبك ينسق فنه بحيث يستطيع أن يختم قصيدته وموضوعه حتى دون أن يشير إلى طرواده . وهذا التحكم الفطري في السبك جدير بالملاحظة فعلاً غير أن أصله أجدر بها فهو ليس بالإلهام السعيد ولا هو بمجرد مقدرة فنية . إن أصله أعمق من ذلك فهو يرجع إلى عادة عقلية تعتبر عادة هيلينية وليست هومييرية فقط . فمن الواضح أن هومر كان يستطيع أن يحدد موضوعه بهذه الطريقة ثم يعالجه بطريقة أشبه بالتاريخية بحيث يؤلف قصيدة فيها من الذكاء والسرعة والرشاقة ما تشاء وأن تكن في جوهرها إخبارية تمثيلية . وهذا ما لم يفعله هومر أو أي

شاعر من شعراء الإغريق الكلاسيين (١). والإلياذة لا تصف حلقة من حلقات الحرب وتلون الوصف بأفكار عابرة عن هذه الناحية أو تلك من نواحي الحياة. بل على النقيض من ذلك قد أخذ الشاعر موضوعه أى هذا الجانب من الحرب كأنه قدر من مادة خام اعترم أن يجعل منه بناء جديداً كله من تصميمه. وهو لن يكتب عن الحرب بل ولا عن جزء منها وإنما عن الموضوع الذى قرر به بوضوح في بيوت الشعر الخمسة الأولى. والذى يحدد شكل القصيدة ليس أمراً خارجياً مثل الحرب وإنما إدراكه الملىء بالأسى بأن عراكا بين رجلين قد جلب لكثيرين غيرهما (٢) العذاب والموت والعار وهكذا « تحققت خطة زيوس » وما معنى هذا؟ هل معناه أن زيوس قد دبر هذا كله بصفة خاصة لأسباب خاصة به لا يمكن النفاذ إليها؟ إن الأولى بنا أن نقول العكس أى أنه جزء من خطة عامة وليس بحادث مستقل أى ليس بشيء كان حدوثه بمجرد الصدفة في هذه المناسبة، بل هو شيء صادر من طبيعة الأشياء ذاتها، فهو ليس خاصاً ولكنه عام، وليس لنا أن نقرر ما إذا كان الذى دفع هومر إلى هذا الإدراك هو تفكيره في هذه الحلقة من حلقات الحرب أو أن خبرته بالحياة هى التى أدت به إلى هذا الإدراك الذى رأى إذ ذاك أنه يمكن التعبير عنه بوساطة قصة إخيليس.

فالأمر الهام هو أن هذا موضوعه وأن مثل هذا السبب له مثل هذه النتيجة وأن الإلياذة تستمد وحدتها الجوهرية التى تسرى فيها من هذا الموضوع الذى أدركه إدراكاً جليلاً وليس من مجرد أحكام الصناعة الأدبية، رغم

(١) لاني أستخدم هذه العبارة الموجزة كسبا للوقت فليس هناك من شك في أنه كان هناك كثير من الشعر الإغريق الغث. فهذا أريستوفانيس Aristophanes مثلاً كان دائماً السخرية منه. أما ما لدينا الآن منه فهو من أحسنه فقد اختاره بعناية نقاداً كفءاً جداً في العهد الإسكندري وما بعده.

(٢) أنظر بعده في موضوع تأليف مسرحية أجا ممنون الشبيه بهذا.

طول الملمحة البالغ ورغم الإضافات (١) التى زيدت عليها فيما بعد وعلى ذلك فلو أننا تظاهروا بالعلم لحظة لما كان صحيحاً تماماً أن نقول أن هومر ياغفاله السنوات التسع الأولى من الحرب دخل في صميم موضوعه مباشرة، بل على العكس إنه بدأ موضوعه من أوله وقال هذا بكل وضوح:

إن الألوف من الرجال البواسل قد قتلوا ولطخوا بالعار بسبب عراك وإذا لم ير القارىء سبب العراك فإن إدراكه لفكرة هومر يعتبر ناقصاً جداً. لقد تركنا الكاهن خريسييس يسير حزينا في طريقه بجانب شاطئ البحر وقد أخذ يدعو أبولون أن ينتقم له.

هكذا أخذ يدعو فسمعه فوييوس أبوللون ونزل من قبة أوليمبوس وهو مغضب محنق وقوسه يتدلى فوق كتفه وكذلك جمعبته المحكمة الغطاء وكان كلما تحرك أخذت السهام تقعقع فوق كتفه فقد اشتد غضبه. لقد جاء وهو عابس كالليل ثم جلس على بعد من السفن وأطلق أحد السهام. كانت الضجة التى صدرت من قوسه الفضى رهيبية. وقد أخذ يهاجم قطع الحيوان والكلاب السريعة أولاً ثم صوب حرابه المؤلمة إلى الناس واستمر في إطلاقها حتى أوقدت أكوام كثيرة من الخشب لإحراق جثث الأموات.

وقد ظلت سهام الحرب تسقط تسعة أيام على الجيش فدعا أخيليس العظيم الناس إلى مجلس الشورى في اليوم العاشر وقد أوحى إليه بذلك الآلهة هيرا ذات الأذرع البيضاء لأنها كانت تحس بالقلق على الإغريق وهى تراه يموتون.

(١) وحدة الأوديسا أوضح من ذلك بكثير ولها نفس الطبيعة بالضبط وليس الأمر بتافهاً هو أن المادة مرتبة ترتيباً بارعا حسب رغم أن تصميم عقدة القصة هو تصميم فائق في الحقيقة. لأن النقطة الحقيقية هى أن عقدة القصة دبرت هكذا لكي تؤكد هذه الفكرة وهى أن مخالفة القانون ضد لمرادة الآلهة ويجب أن تعاقب.

فلما انتظم عقدهم وقف أخيليس العداء السريع وقال « يا ابن آتريوس إنى أعتقد أننا سنرغم - إن نجونا من الموت - على العودة إلى وطننا مادامت الحرب والوباء كلاهما قد أخذنا في تعكير صفونا معشر الآخيين في نفس الوقت . هلموا بنا إلى عراف أو كاهن ، أو قارئ الرؤا نسأله ، فإن زيوس هو الذى يرسل الأحلام ، فلعله يخبرنا عن مبعث غضب فوييوس أبوللون . فإن كان يرانا قد أخطأنا بسبب نذر أو قربان فرطنا فيه فربما نجانا من الوباء مقابل دخان الحملان والماعز التى نضحى بها .

هكذا تكلم أخيليس ثم جلس فقام من بينهم كالخاس Calchas أرفع عراف . إذ كان يعرف ما هم عليه وما كان وما سيكون ، فهو الذى سبق له أن أرشد السفن الآخيه إلى إيليون بفضل العلم السرى الذى لقنه إياه فوييوس أبوللون ولذلك تكلم عن حسن قصد وقال :

« أخيليس يا حبيب زيوس قد أمرتني أن أفسر غضب الاله أبوللون الذى يرمينا من بعيد ؛ ولذلك سأتكلم ؛ ولكن عليك أن تجعل بيني وبينك ميثاقاً وتقسم يميناً بأنك ستسارع إلى مساعدتي بالقول والعمل لأنى أعتقد أن رجلاً سيغضبه قولى ، رجلاً له سيطرة عظمت على كل الإغريق كما أن الآخيين يطيعونه كذلك . فحينما يغضب ملك من رجل فقير فإنه يكون أقوى منه بما لا يقاس فهو إن كظم غيظه الآن فإنه يحتفظ به فى قلبه لينفذه فى وقت آخر . قل لى ما إذا كنت ستحمينى .

فتمهد أخيليس بحماية كالخاس Calchas حتى ولو كان الأمير الذى أشار إليه هو أجائون نفسه . وعند ذلك أعلن كالخاس أن أبوللون غاضب من أجل المعاملة التى لقيها كاهنه من أجائون كما صرح بأن الوباء لن يتوقف حتى تعاد الفتاة لأبيها دون أية فدية بل ومعها قربان مكون من قطيع من الماشية . هكذا تكلم ثم جلس وعند ذلك قام فيهم البطل أجائون

بن آتريوس صاحب السيطرة الواسعة وهو غاضب وقلبه الأسود يطفح بالحقد كما كانت عيناه كالنار المتأججة ووجه القول إلى كالخاس أولاً فنظر إليه نظرة تفيض بالشر وهو يقول « أنت لم تخبرنى عن شيء سار قط يا عراف السوء ، إنك تفرح دائماً بالتنبؤ بالشر . فإنك لم تقل ولم تفعل شيئاً طيباً قط . وأنت الآن تتحدث إلى الإغريق عما يحول بفكر الاله كأنما أرسل بعيد الرماية هذه المحن عليهم كيلا آخذ ثمناً مغريباً بدلاً من ابنة خريسيديس فإنى أود أن أحصل على تلك الفتاة فى بيتى لأنى أجدها أفضل من زوجتى كليتمنسترا Clytemnestra التى اقترنت بها .

إن كليتمنسترا لا تضارعها فى الحسن سواء كان حسن الوجه أو القوام أو الذكاء أو العمل اليدوى . ومع كل ذلك فسأعيد لها إن كان هذا هو الأفضل . فإنى أفضل أن يعيش الجيش على أن يموت . ولكن أعطونى جائزة أخرى من جوائز الشجاعة لئلا أكون الإغريق الوحيد الذى لم ينل جائزة ، فإن هذا لا يليق وأنتم جميعاً ترون أنى فقدت جائزتى .

عند ذاك أجابه أخيليس العداء العظيم « يا ابن آتريوس المشهور ، يا أشد الناس طمعاً ، قل لى بربك كيف يعطيك الآخيون البواصل جائزة؟ إننا جميعاً نعلم أن ليس لدينا مستودع مشترك للثروة فكل الغنائم التى أخذناها من المدن قد وزعت بيننا ولا يصح استردادها من الجيش . أما أنت فعليك أن تسلم هذه الفتاة من أجل الإله ونحن معشر الآخيين سنرد إليك الثمن مضاعفاً ثلاث مرات أو أربع إن سمح لنا زيوس أن نأخذ أسلاب مدينة طروادة .

فرد عليه أجائون الشديده المراس بقوله « أخيليس يا شبيهاً بالإله إنك وإن تسكن محارباً عظيماً فلا تحاول أن تخدعنى هكذا . إنك لن تمتاز على ولن تنال موافقتى . أتريد منى أن أستكين وقد انتزعت منى جائزتى لى تحتفظ أنت بجائزتك ؟ أطلب منى أن أعيد هذه الفتاة ؟ إذن دع الآخيين

البواسل يعطونني جائزة تشرح صدرى فتكون مكافأة قيمة بدلا منها ، فإذا لم تعطوني إياها فساأخذها بنفسى — ساأخذ جائزتك أو الجائزة التى مع أجاكس أو أوديسيوس وساأذهب بنفسى وأخذها . ويستطيع من أذهب إليه أن يغضب إن شاء ، ولكن يمكننا أن نفكر فى هذا فى وقت آخر ، أما الآن فإننا سنرسل سفينة سوداء فى البحر العظيم وسندعو لها الملاحين ونضع فيها الثيران كما نضع على ظهرها خريسيس الجميلة ، وسنعهد بقيادتها إلى رجل له سلطة ونفوذ مثل أجاكس أو إيدومنيوس أو أوديسيوس العظيم أو أنت يا ابن بليوس يا أكثر الناس إثارة للرعب لكى تقدموا القربان وتهذبوا من حدة بعيد الرماية .

فعبس أخيليس العداء السريع وقال له « يا شديد الجشع ويا من لا تحجل أبداً كيف يرضى الآخيون أن يطيعوا أوامرك لهم بالزحف أو بقتال الناس فى الحرب ؟ إن مجئى إلى هنا للحرب لم يكن أهل طرواده هم السبب فيه فلم يكن بينى وبينهم أى نزاع . فهم لم يطاردوا أبقارى أو خيلى قط ، ولم ينهبوا المحاصيل من حقولى الغنية التى تمدنى بالغذاء فى فثيا (Phthia) ، فإن بيننا جبالا كثيرة ممتدة الظلال وبحراً واسعاً هادراً ، بل تبغناك يا من لا ضمير لك لنفوز من أهل طرواة بالمجد لمنلاوس ولك أيها الكلب . إنك لا تتدبر ذلك وأنت الآن تهددنى بالمجىء إلى وأخذ جائزتى . لقد كافحت كفاحاً مريراً من أجلها وقد قدمها إلى الآخيون . فعندما يأخذ الآخيون أسلاب مدينة قد اشتد الدفاع عنها فإن الجائزة التى أخذها لا تكون مثل جائزتك عند ذاك ، فإن ذراعى يكافح فى غمار الحرب أكثر من ذراعك ، حتى إذا حان وقت توزيع الجوائز فإنك تأخذ أكثرها ، أما أنا فأذهب إلى سفنى مكدوداً من الحرب . وقد حصلت على القليل . ولكنى سأسافر إلى فثيا . إنه لأفضل كثيراً لى أن أعود إلى بلدى فى سفنى التى تمتاز بمقدمها الخاد . لى قليل

الرجبة فى أن أجمع الغنائم والثروة من أجلك ثم تطردنى ركلا بقدمك بعد ذلك .

فرد أجا ممنون ملك الناس عليه بقوله « اهرب فرجباً بفرارك إن كان هذا ما تريد فإنى لن أرجوك أن تبقى من أجل . إن عندى غيرك من يجالونى ، وفوق الجميع زيوس الذى يدبر كل شىء . لى أبغضك أكثر من كافة الملوك الذين يرعاهم زيوس . إنك تحب الكفاح والنزال والحرب ومع أنك رجل قوى فإنى أظن هذه القوة هبة من عند الإله . إذذهب إلى بلدك بسفنك ورجالك . إجعل لنفسك ما تشاء من الأهمية والسلطة بين محاريك المنتشرين . أنت لا قيمة لك عندى كما لى أحقر غضبك . ولكنى أستطيع أن أقول لك ما يأتى : إن فويوس أبولون سيأخذ منى خريسيس وساأجعلها ترحل فى سفينتى مع رجالى ، ولكنى سأذهب بنفسى إلى فسطاطك وأخذ جائزتك وهى برسيس Briseis الجميلة ، وستعرف عندئذ أن مقامى أعلى من مقامك ولن يجرؤ شخص آخر على أن يقف منى على قدم المساواة .

هكذا تكلم أجا ممنون غير أن كلامه كان فوق ما يحتمله أخيليس ، وقد تمزقت نياط قلبه فى صدره المغطى بالشعر الأشعث ، وتردد بين أن يستل سيفه المرفف من جواره ويبعد عنه الآخرين جميعاً ثم يقتل ابن أتريوس ، وبين أن يضع حداً لغضبه ويهدى من نفسه . وبينما كانت تجول هذه الأفكار فى ذهنه أخذ يستل سيفه الكبير من غمده . ولكن أثينا Athena نزلت من السماء فقد أرسلتها الإلهة هيرا ذات الأذرع البيضاء بسبب الحب والقلق اللذين كانتا تسكنانه له ، فوقفت من خلفه وأمسكت ابن بليوس من شعره البنى بحيث ظهرت له وحده فلم يرها أحد سواه فهبت أخيليس ، وكانت عيناه تقدحان بالشرر وخاطبها بهذا الأسلوب الراقى « لماذا جئت يا ابنة زيوس حامل الدرع ؟ أجننت لتشاهدى عجرة أجا ممنون بن أتريوس الدينية ؟

ولكني أقولها بصراحة وأعتقد أن هذا ما سيحدث . إن غروره سيكلفه حياته يوماً ما .

ولكني نهي الترجمة نقول ان أثينا أخبرته أنها جاءت تطلب إليه أن يهدي من غضبه وتبلغه أنهما سيقدمان لأخيليس يوماً ما في مقابل هذه الإساءة ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يأخذه منه أجا ممنون .

وقد أطاع أخيليس بالطبع « لأن هذا أفضل » كما قال باختصار . وعادت أثينا إلى أوليمبوس أما أخيليس فقد انفجر غيظه في أجا ممنون وبدأ كلامه بقوله « أيها السكير الذي له وجه كلب وقلب غزال ! » .

قد ترجمت هذا القدر الكبير لأسباب عديدة أحدها أن يكون لدينا نص نرجع إليه في المستقبل وثانيها لكي يأخذ القارئ فكرة عن وضوحه كله . لقد تكلمنا وسنتكلم ثانية عن الطابع الفكري للفن الإغريقي وقد كان يحسن لذلك أن نرى القارئ بطريقة فعالة جداً أن هذا لا يدل مطلقاً على التجريد أو الأبحال . إن العراك بينهما يرى بكل جلاء فلا عجب أن اعتقد هيلانكوس Hellanicos أن هومر كان معاصراً لحرب طرواده . كما أن المظاهر ليست هي التي ترى وحدها بهذا الوضوح . إن العمل الفني لهذه النبذة كما يخبرنا هومر هو وصف العراك الذي جلب على الإغريق مثل هذا البلاء الكبير ، طبقاً لما يدعوه هومر « خطة زيوس » وما ندعوه نحن « النتيجة الحتمية التي تطورت إليها الحوادث » . والسبب هو عجرفة أجا ممنون الدنيئة وغضب إخيليس المدمر فهذا أمر واضح كل الوضوح .

ليس ما يقدمه لنا هومر هما صفتان مجردتان في حالة صراع ، فنحن نرى رجلين يتعاركان عراكاً عنيفاً ، وليس هناك ما هو أكثر واقعية وأقل تجريداً من ذلك . وكما يحدث في الحياة ، أن هناك ما يمكن أن يقال تأييداً

لكل من الطرفين إلا أن كلا الرجلين يشيطان أكثر مما ينبغي . إن العراك يحدث لأن كل رجل منهما تصادف أن كان من الصنف الذي هو منه . هذا الأمر قد استغرق لحظة ولكنه أطاح بأرواح أبطال كثيرين إلى عالم الأموات وترك أجسادهم طعمة للسكلاب والجوارح « فتحققت خطة زيوس » .

هذه القدرة على رؤية الحادث المباشر بهذا الجلاء ، والخوف في نفس الوقت من القانون العام الذي يمثله هذا الحادث ، كلاهما إغريقيان يتميزان بالطابع الإغريقي وإن لم يكونا من خصائص الإغريق وحدهم . إننا نرى جانباً من نظام العالم كله في حادث واحد . ومع ذلك فمعالجة هذا الحادث تجتمع فيها كل البراعة التي في أروع خبر صحفي . ولا يحتاج هومر إلى طمس معالم صورته الواضحة بتعميم التعليقات لأن كل تعليقاته قد سبق له أن قدمها في التصميم الهندسي لبنائه الشاخص كله .

هناك شيء آخر . إن من الملاحظ في هذه النبذة وفي الفن الإغريقي كله عدم وجود مناظر وراء الصورة . فنحن لا نرى أسوار طروادة السامقة ولا نهر سكامندر وهو يتلأأ من بعيد ولا أين عقد اجتماع الإغريق هذا . أكان في فسطاط أو على سطح تل أو على الشاطئ بجانب السفن الجوفاء ؟ وكما أن اهتمامنا كله بالنسبة لموضوع تصوير الاصل الإغريقية يتركز في صور الناس ، فإنه في حالة المأساة الإغريقية يتركز في صور الناس كذلك ، فليس هناك أي وجود لنور الشمس ولا للعواصف المريعة التي يتميز بها فن شيكسبير . وإذا تكلمت إحدى الشخصيات عما حولها من المناظر الطبيعية فذلك لتؤكد أنها في عزلة تامة عن باقي زملائها . ولو كان في وسعنا أن نقول أن الإغريق لم يكونوا يحسون بالطبيعة ثم نقف عند هذا الحد لكان الأمر سهلاً ميسوراً ولكننا لا نستطيع . فلو اقتصرنا على هومر لوجدنا أن أي إنسان لا يحس بالطبيعة ما كان يستطيع أن يستخدم مثل هذه الثروة من

التشبيهات الطبيعية وكلها دقيقة التفاصيل . وهي تشبيهات مأخوذة من الحيوان والطير والبحر والسماء والعواصف والصور التوضيحية الصغيرة التي تسترجع إلى الذهن ذكريات الزخارف الموجودة في مخطوطات القرون الوسطى . وليس هناك أى جدال فى أن الإغريق كان يدرك جمال الطبيعة وتنوعها ، وفضلا عن ذلك فليست المناظر التي وراء الصورة الهوميرية هي التي لا وجود لها على العموم ، إذ أن الإلياذة تبدأ كما رأينا دون أدنى إشارة إلى المكان الذى تقع فيه الحوادث ، فلا بد أننا فى مكان ما عند طرواده ، ولكن أين ؟ إن هومر لم يبلغ به الاهتمام حداً يجعله يخبرنا عن ذلك ، وهو لا يعطينا تلك التفاصيل التي لا يكاد يستطيع كاتب حديث أن يحذفها ، كالشخصيات الأخرى التي تقف من المشهد موقفاً سلبياً كزعماء الإغريق الآخرين وكالجيش فهو لا يصف إلا الشخصيات الجوهرية .

غير أن القارئ الحديث لا يفتقد فقط المناظر التي وراء الصور الهوميرية التي يتوقع أن يراها بل إنه يجد غيرها مما لا يستطيع فى أول الأمر أن يفهمه وهو الخاص بالعمل الإلهي . فنحن لا نرى أسوار طرواده ولكننا نرى بالفعل مجالس تعقد فى أوليمس وآلهة يذهب كل منهم على انفراد ليتدخل فى القتال أو فى المناقشة كما فى هذه النبذة ، فلا عجب إن كان الانطباع الذى يتركه ذلك فى الذهن هو أن الشخصيات البشرية القائمة بالعمل ما هي إلا قطع تحركها على رقعة الشطرنج طائفة من آلهة غير مسئولين لهم أهواء متقلبة . غير أن من الصعب التوفيق بين هذا وصورة المسئولين ذوى الإرادة الحرة من الناس ، وهي التي تكبد هومر مشقة تصويرها لنا ، فأجائمون واخيليس رجلان قد بلغا أشدهما فعلاً ، وهما يعاملان على أنهما قد بلغا مبلغ الرجال ، غير أن هذا الرشد والنضوج مما يحيرنا أحياناً نظراً للهمجية البدائية التي كثيراً ما نقابلها فى الصورة الهوميرية للحياة . ومع ذلك فإن الأمر يسير طبقاً لتدبير إلهي يبدو كأنه تدبير صبياني ، كما نرى فى نزول أثينا من

أوليبيوس فى النبذة التي بين أيدينا وشدها لشعر اخيليس وتقديمها المشورة النافعة له . وعلى هذا المنوال نجد الحال فى فصول المأساة المتأخرة ولو أن الأمر يسير بطريقة تبدو أقل جمالا ووضوحاً بكثير ، إذ يلوح أن الآلهة تتحكم فى أعمال الناس وتهديهم عن طريق العرافين والأحلام وما إلى ذلك حتى عندما يقدم لنا الشاعر هؤلاء الناس على أنهم مسئولون تمام الاستقلال ومسئولون عما يعملون .

إن موضوع ما وراء الصورة الهوميرية موضوع مربك إذن . ومع أن هذا ليس موضعاً للتحقيق فى الديانة الإغريقية فإن علينا أن نقدم للقارئ أيضاً مؤقتاً . ليس هومر بطبيعة الحال معرفة منظمة بالله فلم تكن قد وجدت بالفعل أية فكرة عن موضوع التفكير المنظم ، وفضلا عن ذلك فإنه يتصرف بطريقة تقليدية ، إذ لا بد أن كتاباً كثيرين من كتاب الملاحم الشعرية قد وجدوا قبل هومر ، بمعنى أن من الممكن أن تكون القصائد التقليدية والقصائد الجديدة موجودة جنباً إلى جنب ، وفى أحد المواضع يقرر زيوس ضرورة معاقبة الإغريق ، ولذلك يستطيع أهل طرواده ردهم إلى سفنهم ، وفى موضع آخر ينزل إله أو آلهة وسط ضجة النزاع لينقذ حبيباً فى خطر شديد وقد يحدث هذا على غير رغبة من زيوس . وعلى العكس من ذلك قد نصادف نبذة كتلك التي وردت فى مقدمة الأوديسا التي جعل الشاعر فيها زيوس يقول « ما أحق الناس أن يلمون الآلهة بغير حق . لقد قدر عليهم أن يقاسوا الآلام ولكنهم يجلبون على أنفسهم شقاء أكثر وأشد مما هو مقدر عليهم نظراً لجهلهم ثم يعودون فيلومون الآلهة » ومعنى هذا بلغتنا الحديثة : الحياة شاقة على كل حال غير أن ذنوبنا وأخطاءنا هي التي تجعلها أشق مما يلزم . وليس من السهل التوفيق بين حكمة هذه العبارة الفلسفية الخطيرة وبين تقلب أهواء الآلهة الذي نجده فى النبذة الأخرى ، وأشق من ذلك التوفيق بينها وبين عدم الاحترام الذي يبعث

السرور وهو الذى لقيناه فى قصة أريس وأفروديتا .

ويلوح كل هذا محيراً إلى حد ما . أن المزج بين القديم والجديد مزجاً يعوزه النظام يفسر لنا شيئاً ما . أما بالنسبة لما عداه فقد يساعد القارىء أن يفكر فى الآلهة على أنها محاولة أولية لتحليل حدوث الأشياء لاسيما ما يبدو غير عادى منها . فكما رأينا فى الفصل السابق كانت مهارة صانع المعادن فوق مهارة الرجل العادى . وبما أنها غير عادية فإنها ترجع إلى أصل إلهى . ولذلك كان لابد أن يكون هناك إله للنار . ونحن نعلم من النبذة التى اقتبسناها من الإلياذة أن اخيليس كانت له قوة خارقة للعادة ، وهى كما يقول أجائمون هبة من إله . وهذا التفسير يحمل معه استنتاجاً فلسفياً جديداً وإن كنا لا نشئت فى الاستنتاج . فما يعطيه إله يمكن أن يأخذه إله آخر . كما أن هناك قوتين تتصارعان فى عقل اخيليس هما الغضب الأعمى وضبط النفس المبني على الحكمة . وعلى حين أننا قد نقول « بمجهود فوق طاقة البشر من مجهودات ضبط النفس .. » إذا بالإغريق يقول « بمعونة أحد الآلهة .. » كما أن الشاعر الإغريق أو مصور الأصص قد يصور أثينا بمظهرها الجسدى وهى تنصح اخيليس ، وليس الفرق بين الحالتين كبيراً . إن الحقيقة التى تقرر أن اخيليس يستمد قوته من إله أو يتخذ قراراً حكماً بمساعدة أثينا لا تنتقص قيد شعرة من عظمة اخيليس . فالآلهة لا يحتاجون العاديين من الناس . وهذا الذى يحابونه بالفعل ليس رجلاً عادياً . فعملنا ألا نظن أن الآلهة قد التقطت أى مخلوق ضعيف وأمدته بالقوة .

هذه اذن هى المناظر التى وراء الصورة الهوميرية وهى التى تجعلنا نرى الناس والحوادث بارزة لا فى الملاحم الإغريقية وحدها بل فى أغلب أنواع الفن الإغريق الكلاسى الأخرى كذلك . ولقد انحط الفن بعد ذلك طبعاً إلى جمال أسطورى ، وهو تطور جاء بعد العهد الكلاسى ولكنه خلب لب روما واستهوى القرن الثامن عشر ، مما ترتب عليه أن صار لزماً على القارىء الحديث قبل أن يحصل على منظر مباشر لهومر أو للأعمال

الأدبية الكلاسية الإغريقية التى جاءت بعده ، أن يطرح جانباً قدر معيناً من الحزف الفاخروما إلى ذلك من القطع الفنية الرشيقة . أما عند الإغريق فإن ما وراء الصورة لم يكن يعتبر من قبيل الزخرفة بل كاد يكون نوعاً من أصول فن المنظور لا بالنسبة للكان بل بالنسبة للمعنى . فهو يجعلنا نرى الحادث المعين الذى نراقبه لا على أنه عمل مستقل عرضى فريد بل نراه على العكس من ذلك فى علاقته بالإطار الخلقى الفلسفى للعالم . ولأنى أرى لزماً على أن أكرر أن هذا الإطار ليس بالذى يفسره هومر عن وعى وإدراك — إذ أنه لم يكن له نظام فلسفى تام ، ومع ذلك فهو يرى أن هناك وحدة فى الأشياء وأن الحوادث لها أسبابها ونتائجها وأن هناك قوانين خلقية .

هذا هو الإطار العام الذى نرى أن العمل الخاص يدخل فيه ، فالأمور الإلهية التى تنطوى عليها الملحمة تدل فى نهاية الأمر على أن الحوادث الخاصة فريدة فى بابها كما أنها عامة فى نفس الوقت .

إذن فالإغريق الذين ظلوا ألف سنة يتجهون لهومر لتثقيف صغارهم ولمنعة الكبار وتعليمهم لم يتجهوا لمجرد تحف وآثار يحلونها أو لقصص تاريخية وطنية من قصص البطولة أو لروايات عن الجنيات ، وإنما اتجهوا لقصائد من الشعر كانت تتصف بكل الصفات التى جعلت الحضارة الإغريقية ما كانت عليه . لقد درسنا مقطوعة أدبية واحدة بشيء من التفصيل ، ولعلنا نكون قد رأينا جانباً من تلك القدرة الفكرية الفطرية التى تنتظم القصيدة كلها فى قوة أو جانباً من الرصانة الجوهرية التى تسرى فيها وكذلك جانباً من البصر النافذ الذى يرى بوساطته هومر حاجته ، وجانباً من الوضوح والإيجاز اللذين عن طريقهما يجعلنا نراها أيضاً . غير أن لهومر ولكل خلفائه العظماء صفة أخرى لم نتكلم عنها إلى الآن ، صفة يجب ألا ندع كل هذا الكلام عن قوة التفكير والخلق الرصين يحجبها عنا . هذه الصفة هى إنسانيته فلندع هومر نفسه يبسطها فهو كاتب أقدر منى .

القتال محتدم في السهل الواقع أسفل طرواده والبطل الإغريق ديوميديس Diomedes ينشر من الدمار بين أهل طرواده ما يجعل هكتور Hector يترك ميدان القتال لكي يطلب من نساء المدينة أن يصلين لأثينا طالبين مساعدتها ضد هذا الرجل الرهيب . وعندما يدخل هكتور من بوابة سكيا تحيط به فوراً زوجات وبنات مشتاقات لمعرفة أخبار رجالهن الذين في ساحة الحرب ، ولكنه يطلب إليهن جميعاً أن يصلين للآلهة ، كما أنه يبلغ الكثيرات منهن ما يحزنهن . وبينما هو سائر في طريقه إلى قصر أبيه الملك بريام تراه الملكة هيكوبا وتسأله بعبارة من عبارات البطولة حقاً « لماذا تركت القتال المستمر وجئتنا يا بني ؟ إن الأخيين نذر الشر يضيقون علينا الخناق تضيقاً شديداً ولعلك تنوى أن تصل لزيوس . انتظر قليلاً فسأتيك بنبيذ حلو حتى تبدأ بتقديعه لزيوس ثم اشرب منه قليلاً لأن النبيذ يقوى الرجل المتعب وأنت متعب من دفاعك عن أهلك وعشيرتك !! »

ولكن هكتور يرفض قائلاً « إن النبيذ قد يجعلني أنسى واجبي كما أنه لا يليق بي أن أقدم قرباناً من النبيذ المقدس ويداي مخضبتان بالدماء » ويطلب من أمه أن تقدم لأثينا أجمل ثوب يحتويه القصر فتقدمه بالفعل ، ويخبرنا هومر عن المصدر الذي حصلت عليه منه إذ اشترته من التجار الفينيقيين الآتين من صيدا . وعندما يرى هكتور باريس Paris يرده بقسوة إلى الميدان . وكان باريس قد جرح قبل ذلك وظل يقضي وقتاً ممتعاً مع هيلينا ، فقال هكتور « ليت الأرض تبلعه » . ورآى هيلينا Helen التي أخذت تلوم نفسها كل اللوم قائلة « هلم فأجلس معي برهة لأن عدم استحيائي وطيش باريس يقع عبثهما على عاتقك أكثر مما يقع على أحد سواك » غير أن هكتور لم يكن يحب البقاء فراقه في القتال في حاجة إليه وهم متشوقون إلى عودته ولذلك قال « يجب على أن أذهب إلى بيتي وأرى خدmi وزوجتي العزيزة

وطفلي لأنني لا أعلم إن كنت سأعود إليهم مرة ثانية أو إن كان الآلهة سيجعلوني آخر تحت وطأة أيدي الأخيين .

غير أن أندروماخا Andromache لم تكن هناك إذ كانت قد سمعت أن أهل طروادة ردوا على أعقابهم فخرجت تجرى كالجنونة إلى أسوار المدينة لترقب الحالة وقد أطاح القلق بلها ووراءها المرضعة ومعها الطفل ، وهناك وجدها هكتور فأمسكت بيده قائلة :

« إن قوتك هي التي ستقضي عليك يا هكتور وأنت لا تشفق على طفلك أو زوجتك البائسة التي ستصبح أرملتك عن قريب ، فسيهاجمك الأخيون ويصرعونك . وإذا فقدت فالأولى بي أن أموت فلن أجد من راحة لي إلا الحزن فليس لي أب أو أم فقد قتل اخيليس أبي إيتيون Eetion ومع ذلك (هنا أئز من الكبرياء) فقد أبي اخيليس أن يأخذ سلاحه الذي دفن مع جثته . وقد كان لي سبعة إخوة في بيتنا ولكن اخيليس السريع العدو قتلهم عن آخرهم ، وقد ماتت أمي ملكة بلا كوس في بيت أبي . إنك الآن يا هكتور بمثابة أبي وأمي وأخي كما أنك زوجي الفخور . فتعال وترفق بي الآن وامكث على هذه الأسوار ولا تترك ولدك يتيماً وتركني أرملة من بعدك » . ولما كانت امرأة ذكية ترقب الأشياء من خلال دموعها فإنها قالت « ضع رجالاً عند هذه الشجرة حيث يقوم الإغريق بالهجوم » فأجابها هكتور ذو الخوذة اللامعة سأنظر في هذا الأمر يامعان ياسيدتي ولكني سأشعر بخجل عظيم أمام رجال طروادة ونسائها طويلات الشياب إذا ظلت أتلصص كالجبان بعيداً عن القتال ، كما أنني لا أجد للجبن مكاناً في قلبي فقد تعلمت أن أكون شجاعاً على الدوام وأن أحارب في طليعة رجال طروادة فأحرز مجداً عظيماً لي ولأبي . إنني لأعلم جيداً وأوقن بأن اليوم الذي تهلك فيه مدينة طروادة المقدسة ويهلك فيه بريام ورجال بريام الأثرياء لآت ، غير أنني لست حزناً على أهل طروادة أو على هيكوبا نفسها أو على الملك بريام أو على إخوتي العديدين النبلاء الذين سيقتلهم العدو وسيوارهم

التراب بقدر ما أنا حزين عليك إذ سيحطفك أحد الآخرين المتسربلين بالبرونز ودموعك تسيل مدراراً وينهى أيام حريتك . قد تعيشين عند ذاك في أرجوس وتشتغلين على النول في بيت امرأة أخرى وقد تحملين الماء لامرأة من مسينا أو من هوبريا وأنت حزينة القلب ولكنك ستزحين تحت الأرقام الشديد . وقد يقول من يراك وأنت باكية إذ ذاك « كانت هذه زوجة هيكتور أنبل محارب بين أهل طروادة من كانوا يروضون الجياد ، حين كانوا يحاربون حول إيليون » هذا ما سيقولونه وما سيثيركوا من الحزن في نفسك وأنت تسكفين العبودية بعد أن يكون الموت قد حرملك من مثل هذا الزوج ، ولكن ليتني أكون ميتاً والتراب متراً كم فوق قبري قبل أن أسمع صرخاتك أو تبلغني أنباء القسوة التي ستعرضين لها .

هكذا تكلم هيكتور الذي كان يتألق بريقه ، وقد مد ذراعيه إلى ابنه ولكن الطفل صرخ وجفل إلى صدر مرضعته ذات النطاق المحكم لأنه فزع من منظر أبيه العزيز المتسربل بالبرونز ومن خصلة شعر الخيل التي رآها تهتز بشدة من أعلى خوذته . فقهقه أبوه ضاحكاً وكذلك أمه النبيلة . وسرعان ما خلع هيكتور ذو البريق المتألق خوذته من فوق رأسه ووضعها على الأرض ، حتى إذا قبل ابنه العزيز وهدده بين ذراعيه تضرع إلى زيوس وإلى باقي الآلهة قائلاً : « ليتك تستجب يا زيوس أنت وباقي الآلهة لي فتجعل هذا الولد مثلي بمجد أكل التمجيد بين أهل طروادة ، وليته يكون ذا بأس شديد ويكون حكمه في إيليون Ilion حكماً عظيماً ، وليت الناس تقول وهو عائد من الحرب « إنه أفضل من أبيه بكثير وليته يهلك الأعداء وينتزع منهم أسلحتهم وليت أمه تفرح به ! »

هذه المقطوعة تاتي ضوء أعلى نفس البطل الهوميرومي ذاتها . إذ أن الذي يدعوه إلى أعمال البطولة ليس شعوره بالواجب كما نفهم نحن أي شعوره بالواجب نحو الآخرين ، بل هو على العكس من ذلك شعور نحو نفسه ، فهو يكافح في سبيل

ما ترجمه بكلمة « الفضيلة » aretê وإن كانت تعني في الإغريقية « الامتياز أو التفوق » (١) فالذي يتنازع من أجله أجاممنون وإخيليس ليس من أجل فتاة بل هما يتنازعان من أجل جائزة « هي الاعتراف العام » بالامتياز « وسوف يكون لزاماً علينا أن نقول الكثير عن « الامتياز » لأنه يسرى في صميم الحياة الإغريقية .

وعلى كل حال فإن مثل هذا المنظر في اللغة الإغريقية يتطلب من الدارس الذي يكون قد وعاه عن ظهر قلب أن يبدأ أولاً بتفسير الألفاظ المختلفة في المخطوطات ويدقق في تحرى الفروق البسيطة في معاني الكلمات وفي التعقيدات النحوية ثم هو لا يستطيع أن يثق في قدرته على ترجمتها ترجمة سليمة . وليس هذا المنظر بأي حال هو الوحيد من هذا النوع في الألياذة ، كما أن هذه الإنسانية التي لا يحدها زمان ليست بقاصرة على أروع المناظر كما ستبينه ملاحظة خفيفة أو اثنتان : تمنع في هذه النبذة القصيرة (٢) : « فتركهم ديوميديس راثنين رقدة الموت وراح يطارد أباس وبولودوس Polyidos ولدى يروداماس Eurydamas الشيخ الذي كان يستطيع أن يعبر الرؤا فقتلهما ديوميديس بقوته الزائدة ثم راح يطلب إكسانثوس Xanthus وThoon ولدى فاينوبس Phaenops فقتلها فاينوبس شيخوخة حزينة إذ أنه لم يترك له أولاداً آخرين يرثون أملاكه فقد قتلهما ديوميديس كليهما وسلبهما حلوا الحياة فلم يرجعا إليه من ميدان القتال بل اقتسم الغرباء ميراثهم . » تمنع في بيت من الشعر ورد عن ديوميدس بعد ذلك بقليل (٣) . فحين يرى البطل الصغير جلوكس Glaucus الدمار الذي ينشره ديوميدس بين

(١) من الصعب أن ترجم كلمة aretê . معنى الامتياز والتفوق لأنها كانت تعني عند هوميروس كافة السجيا الفاضلة الكريمة التي تجعل الإنسان رجلاً بكل معاني الكلمة (شجاعة . مروءة وفضيلة) .

(٢) الإلياذة — نشيد ٥ ص ١٤٩

(٣) الإلياذة نشيد ٦ ص ١٢٧ .

أهل طروادة يصمم على أن يحاربه ، فيسأله ديوميديس طبقاً لقانون الفروسية عن هويته قائلاً « لم تقع عيناي عليك قبل ذلك في حرب تشرف الرجال وأنت تفوقهم جميعاً في الشجاعة إذ تستطيع أن تقف هناك منتظراً رمحي الطويل » والآن تأتي الحقيقة التالية ذات المغزى الكبير ، فقد كان من الطبيعي جداً أن يقول ديوميديس « تعساً لحظ أولئك الرجال الذين يتصدون لقوتي » ولكنه يقول بدلاً من ذلك « تعساً لحظ أولئك الذين يتصدى أولادهم لقوتي » . إن مناظر القتال توصف بما يشبه اللذة فبطل الساعة يقتحم ما في طريقه بغتة ويترك وراءه قائمة بقتلاه — والشاعر يخبرنا بدقة أين اخترق الرمح المميت جسد المحارب المهزوم بل إنه يخبرنا في كثير جداً من الأحيان من أين خرج الرمح ثانية . والغالب يبني لنفسه مجداً يعيش بعده . غير أن هومر له فكرة عن حياة الناس بمعناها الأوسع ، فهو لا ينسى أولئك الذين يكون مجد شخص آخر سبباً في حزنهم ، كما أنه لا يقحمهم إقحاماً .

ومن الخطأ وصف الإلياذة بأنها مأساة لأنها (كأكثر الأشياء الإغريقية) تعتبر بالضبط ما كان يراد منها أن تكون . فهي ملحمة شعرية بكل الاستطراد والتوسع والصراحة التي للملحمة الشعرية . ومع ذلك فهي تراجمية للغاية وهي في هذا أيضاً إغريقية جداً . فالاتجاه إلى التفكير التراجيدي كان عادياً عند الإغريق . وقبل أن نحاول تفسير ذلك مستخدمين في إيضاحنا هومر الذي يستوعب كل شيء قد يكون من المستحسن أن ننفي نقطة أو نقطتين . فأولا ليس السبب في هذا الاتجاه التراجيدي أن الإغريق كانوا يرون الحياة شيئاً تافهاً فقد وصفنا لك اللذة الظاهرة التي يصف بها هومر مناظر القتال ، وهو يصف كل ما عدا ذلك بنفس الحماسة الدقيقة .

فقد كان يرى كل شيء بشوق واهتمام شديدين ، سواء كان يصف أوديسيوس وهو يبني سفينة أو كان يصف أبطالاً يعدون في المعسكر طعاماً مشبعاً جداً يتناولونه في العشاء وقد يغنون على أثر تناول وجبة الطعام . أما أن الحياة

كانت وادياً للدموع ليس لأي شيء أهمية فيه فذلك فكرة لم يعتنقها إلا قليل جداً من الإغريق ، فقد كانت لهم أشد رغبة في العمل والنشاط بكل أنواعه الجسمية والعقلية والعاطفية ، وكانوا يجدون سروراً لا نهاية له أبدأ في عمل الأشياء وفي مشاهدة الكيفية التي تعمل بها الأشياء ، وتكاد كل صفحة من هومر تشهد بذلك . ومن المؤكد أن ذلك الفيض التراجيدي الذي يسرى في ثنايا الإلياذة لا يرجع إلى أي إحساس بأن الحياة عديمة الأهمية إذ أنه كان شعوراً تراجيدياً وليس شعوراً بالكآبة والغم .

وعليها ثانية ألا نتصور أن الميل إلى المأساة كان معناه كراهية الملهة ، وما من شك في أن الإلياذة ليس بها إلا القليل من الملهة كما أنه ليس هناك ما يرفه عنا في المأساة الآثينية المتأخرة إلا النزر اليسير من الكوميديا ، وأن يكن قد سبق لنا أن تعرفنا على قصة كوميدية مشهورة في الأوديسة . وينبغي علينا ألا ننسى أن المرحلة الآثينية إن كان فيها أريستوفانيس وإسخولوس الذي كان له شهرة كبيرة في العالم القديم بصفته مؤلفاً للمسرحية الساتورية الساخرة (١) فقد كان لها كذلك ما يقابلها وما يسمى بالملاحم المضحكة التي بقيت لنا منها ملحمة الضفادع والفئران . فالاتجاه التراجيدي الذي ينطوي عليه التفكير الإغريق لا علاقة له بالكآبة إذ أن الإغريق كان يحب الضحك كما كان يحب الحياة . ومنشأ هذا على ما أرى هما هاتان الصفتان العظيمتان اللتان كنا نتقصاهما في هومر وهما التفكير المنطقي والإنسانية . وقد مكنت الصفة الأولى منهما الإغريق كما حاولت أن أبين ذلك من رؤية الإطار الخارجي العظيم الذي يجب أن تقضي داخل نطاقه الحياة البشرية ، وهو الإطار الذي عبر عنه هومر بأنه إرادة الآلهة

(١) المسرحية الساتورية (Satyric drama) سميت هكذا لأن أعضاء الجوقة كانوا يظهرون فيها مظهر الساتوروي واتباع الله الخمر ديونوسوس . وكانت تعالج موضوعات مهمة في قالب فكاهي .

وتدبرهم من جهة وبأنه الضرورة الخيالية الغامضة التي يجب أن يخضع لها حتى الآلهة من جهة أخرى . فالأعمال لا بد لها من نتائج والأعمال الناشئة من سوء التدبير لا بد لها من نتائج متعبة . والآلهة عند الإغريق ليسوا آخرين بالضرورة فإذا صنع أحد ما يفضيهم فإنهم يبطشون به دون هوادة . وكما يقول أخيليس لبريام المحطم أن الآلهة تعطى نعمتين في مقابل كل نعمة واحدة . ولا يخفف من حدة هذا التقدير الواضح للشهد الإنساني أى أمل باسم في حياة أخرى أفضل من هذه الحياة أو أى اعتقاد في التقدم . أما بالنسبة للحياة الآخرة فقد كان أمام الإغريق عند هومر أن ينتظر حياة خيالية مظلمة في هاديس وكما قال أخيليس « إني أفضل أن أكون عبداً على الأرض من أن أكون ملكاً في هاديس » وقد كان الأمل الوحيد في الخلود هو أن تظل شهرة الإنسان باقية في الغناء أما التقدم فقد كان محالاً لأن طبيعة الآلهة لا تتغير . أما أن تتغير طبيعة الناس فهذه فكرة ظلت مدة طويلة لا تخطر ببال أحد وحتى لو أنها خطرت له فقد كان الآلهة يعطون نعمتين في مقابل كل نعمة ، فالحياة كانت باقية على ما هي عليه في كل أمورها الجوهرية .

ويستطيع الإنسان أن يتصور مثل هذه النظرة التي خلت بشكل ملحوظ من الأوهام البراقة وقد تمت حتى صارت ديانة جوفاء تؤدي به إلى الاعتقاد في قضاء وقدر لا أمل فيهما وقد استسلم لهما الناس ، غير أنها كانت مقترنة بهذه اللذة التي تكاد تكون عارمة في الحياة وبهذه النشوة في روائع أعمال البشر وفي الشخصية الإنسانية . لقد كان الإغريق بعيداً عن التفكير في أن الإنسان كم مهمل في نظر الآلهة ، إلى حد أنه كان يجد من الضروري عليه أن يذكر نفسه دائماً بأن الإنسان ليس إله وأن مثل هذا التفكير ليس من التقوى في شيء . ولم يحدث بعد ذلك قط أن نجد مثل هذه الثقة الفائقة في الإنسانية إلى أن جاء الوقت الذي أسكرت الروح الإغريقية فيه إيطاليا

في عهد النهضة ، وهي ثقة في النفس لم تتقيد في إيطاليا أثناء النهضة بالتواضع الذي فرضته على الإغريق نظرتهم الدينية الفطرية .

أما النعمة التراجيدية التي نسمعها في الإلياذة وفي أكثر الأدب الإغريق فقد نشأت من الصراع بين هاتين القوتين وهما اللذة العارمة في الحياة والخوف الواضح من أن نطاق الحياة الخارجى لا يتغير :

« إن حياة الناس مثل حياة أوراق الشجر سواء بسواء فالرياح تعصف بأوراق الشجر على الأرض ولكن الغابة القوية تنبت غيرها وهي التي تنمو في فصل الربيع ، فسرعان ما يأتى جيل من الناس وسرعان ما يذهب غيره . وليست هذه الفكرة أو هذه الصورة خاصة « بهومر » أما الألم اللاذع الخاص به ومرجه إلى مناسبة وروده فنحن لا نجد في نظيره العبرى الرائع : أما الإنسان فأيامه كالعشب . أنه يكون يانعاً مثل زهرة الحقل فإذا مرت بها الرياح عصفت بها فلا يعرف مكانها بعد ذلك .

إن النعمة هنا هي نعمة الذلة والاستسلام للإنسان لا يزيد عن أن يكون عشباً إذا قورن بالله أما الصورة الهوميرية فتستمد لوناً مختلفاً جداً من ملابسها المفعمة بالكفاح وروائع أعمال البطولة . فالإنسان فريد في بابه ومع ذلك فرغم معدنه السامى ورغم التنوع الرائع الذي فيه يجب عليه أن يطيع نفس القوانين التي تخضع لها أوراق الشجر التي لا تحصى والتي لا يمكن التمييز بينها . ولا مجال لاحتجاج تلميذ الروح الرومانسية . إذ كيف نحتج على أول قانون من قوانين الوجود ؟ كما أنه لا مجال للرضا والاستسلام للذين نجد هما مثلاً بين الصينيين الذين يعتبرون الفرد مجرد أصل لذرية في طور التكوين أو محصولاً من أوراق شجرة واحدة في الغابة . أما في الصورة الهوميرية فإننا بدلاً عن ذلك نجد هذا الصراع العاطفى الذي يعتبر نفحة من الروح التراجيدية .

ويمكننا أن نذكر أمثلة أخرى كثيرة من هومر وبخاصة من الإلياذة غير

أن واحداً منها يكفي فإنه يشرح هذه الروح من وجهة نظر أخرى . فإن مما يدل على قيود الحياة بل ومتناقضاتها أن أكثر الأشياء التي تستحق أن نحصل عليها لا يمكننا الحصول عليها في أكثر الأحيان إلا بتعريض الحياة نفسها للخطر . فالبطل قد لا يستطيع أن يدل على شجاعته ويفوز بالمجد إلا بموته الذي يبعث الحزن في أقربائه . والجمال نجده محفوفاً بالخطر والموت . وهاك فاصل يتخلل وصف هومر للقتال العنيف الذي دار حول أسوار طروادة والذي كان يشاهده بريام وغيره من المسنين من فوق الأسوار :

وهكذا جلس أمراء طروادة على البرج ورأوا هيلينا وهي قادمة فقال بعضهم لبعض بصوت رقيق وألفاظ لها دلالتها « إن أهل طروادة وكذلك الآخيين المساحين بأحسن السلاح يستحقون لوماً قليلاً على الويل الذي يقاسونه هذه المدة الطويلة بمثل هذه الشدة من أجل تلك الحسناء التي كأنها ربة من الرباب ، ومع ذلك ورغم أنها جميلة فلتركب سفينة إلى وطنها ولا تترك لنا ولأولادنا الحسرات » هكذا كان كلامهم ، ولكن بريام نادى هيلينا قائلاً « تعال أيتها الإبنة العزيزة واجلسي إلى جوارى وانظري إلى من كان زوجك وإلى أهلك وأصدقائك الآخرين . إني لا ألومك فالآلهة هم الذين كانوا السبب في ذلك وهم الذين جلبوا لنا الحرب والدموع » .

« الآلهة » فلا دفع للمسئولية بعبارات طنانة بل الاعتراف بأن مثل هذه الأشياء جزء مما هو مقدر على البشر ، فالجمال كالمجد لا بد أن ننشده ولو كان الثمن هو الدموع والدمار . ألا تقع هذه الفكرة من أسطورة حرب طروادة في الصميم ؟ إن اخيليس بطل هذه الأسطورة ورمز كمال الفروسية الإغريقية قد جعل له الآلهة الحق في اختيار ما يلي بالضبط : إنهم منحوه إما حياة طويلة مع ضعة الشأن أو مجداً مع الموت المبكر . إن أول من وضع هذه

الأسطورة قد عبر فيها لا عن خلاصة التفكير الإغريقي فحسب بل عن التاريخ الإغريقي كذلك .

لقد أفضت في الكتابة عن الإلياذة لأنها تحتوي من جهة على قدر كبير من الروح الإغريقية الجوهرية ومن جهة أخرى لكي أطلع القارىء على ما كان يتحقق به الإغريق مدى قرون . أما الأدويصة فيجب أن نضحي بها ولو أنها كانت جزءاً من هذه الثقافة مساوياً للإلياذة وضرورياً لتكتملها من أوجه كثيرة ، فهي كما قال لونجينوس Longinus قصيدة عن الخلق أكثر مما هي عن العاطفة ، وهي تزخر بحب الإغريق للمغامرات والقصص الغريبة ، وهي كالإلياذة قصيدة كان من الممكن أن تكون حقيقية حافلة بالقصص القديمة لولا أنها تشتمل بدلا عن ذلك على وحدة ذكية فنية تصدر لا محالة عن فكرة مركزية واحدة هي ، في هذه الحالة ، الاعتقاد في عدالة نهائية . فهل كتب القصيدتين شاعر واحد ؟ وهل ألف كلا منهما شاعر واحد فعلا ؟ ومتى عاش هذا الشاعر أو هؤلاء الشعراء ؟ هذه هي المسألة الهوميرية التي ظل العلماء قرناً ونصف قرن يناقشونها ، ولا ينتظر منى القارىء أن أفصل فيها هنا . وقد كان للإغريق الذين عاشوا في العصور التالية طائفة من الملاحم عن حرب طروادة منها اثنتان كانت لهما روعة فائقة كما كانتا تنسبان إلى هومر ، وقد ظل الناس يتقبلون هذه النسبة دون أن يأخذهم فيها ريب حتى العصور الحديثة حين أظهر البحث الدقيق كل أنواع التضارب في الحقائق والأسلوب واللغة سواء فيما بين الملحميين بعضهما وبعض أو فيما بين بعض أجزاء كل منهما والبعض الآخر . وكانت نتيجة ذلك المباشرة هي الاطمئنان إلى تقسيم القصيدتين تقسيماً دقيقاً لا سيما الإلياذة إلى أناشيد تمت إلى فترات مختلفة سماها النقاد تسمية مناسبة هي « الطبقات » وهم الذين لم يفرقوا

أحياناً تمام التفرقة بين البناء الفني والتكوين الجيولوجي . وقد أثمرت دراسة شعر الملاحم عند الأجناس الأخرى ودراسة الطرق التي استعملها الشعراء المشتغلون في محيط الروايات الماثورة إلى حد بعيد في إعادة الثقة بوجود الوحدة الجوهرية في كل قصيدة . بمعنى أن الذي لدينا في كل حالة ليست قصيدة قصصية من تأليف « هومر » حقيقي أضاف إليها الشعراء الذين جاءوا بعده دون تمييز كثير أو قليل ، وإنما هي قصيدة اختمرت كوحدة في عقل « هومر » متأخر نسبياً اجتهد فيها وأدجج فيها كثيراً من الروايات القديمة ، ولو أنه من المؤكد أن الإلياذة الحالية تحتوى بالتأكييد على بعض الأناشيد التي لم تكن من نظم هومر . أما معرفة ما إذا كان نفس الشاعر هو الذي نظم القصيدتين فهذه نقطة تختلف بشأنها الآراء ، ومن المحتمل أن تظل دائماً كذلك . فالفرق عظيم في روح كل منهما وفي الطريقة التي تناول المؤلف بها كلا منهما . وقد لاحظ ذلك لونيغينوس أدق النقاد القدماء فقال « إن مثل هومر في الأدوية كمثل الشمس الغاربة تبقى عظمتها دون شدتها » وقد تكون شمس الإثنتين واحدة . غير أن الرجل الذي تعمق دراسة هومر إلى حد ترجمة إحدى قصيدتيه له الحق في أن يبدي رأيه ، وعلى ذلك فن الشائق ملاحظة أن أحد المترجمين الإنجليز بين الحديشين وهو « لورنس » يؤكد أن الشاعرين مختلفان إلى حد أنه لا يفكر في بحث هذا الاحتمال . بينما يقول « ريو » إن شعور قرائه بالثقة في أنهم بين يدي رجل واحد قد يكون شديداً بشعورهم إذا انتقلوا إلى قراءة مسرحية « كما تريد » بعد الفراغ من « الملك جون » (لشيكسبير) .

سنترك المسألة الهوميرية عند هذا الحد لأنها وإن كانت خلافة بالنسبة للعلماء إلا أن الواجب ألا نسمح لها بأن تحجب عنا « هومر » . وإنه لمن الشائق وإن يكن من العبث التفكير فيما كان يحدث لنا لو أن كل مصلاحينا وشوارنا وواضعي خططنا وسياسيينا ومنظمي حياتنا عامة كانوا قد تشبعوا

بآراء هومر من شبابهم إلى شيخوختهم مثل الإغريق . لعلمهم كانوا يدركون أنه في اليوم السعيد الذي تكون فيه في كل بيت ثلاثة رجال في بيت واحد ، وتكون فيه الفرصة متاحة لنا جميعاً لنعمل للصالح العام (مهما يكن) ويكون فيه « الرجل العادي » (كائناً من كان) فائزاً وإن لم يكن متحسناً فسيظل الناس يجيئون ويذهبون كأجيال أوراق الشجر في الغابة وسيظل الإنسان ضعيفاً والآلهة أقوياء فلا يعرف ماذا يضمرون ، وستبقى صفات الإنسان أهم من أفضل أعماله ، وسيظل العنف والتهور يؤديان إلى الدمار الذي يصيب البريء كما يصيب المذنب . لقد كان من حسن حظ الإغريق أن وجد بينهم هومر وكانوا عقلاء حين أفادوا منه ما أفادوه .

البوليس (دولة المدينة)

« بوليس . Polis » هي اللفظة الإغريقية التي نترجمها بعبارة « دولة المدينة » وهي ترجمة رديئة لأن ال « بوليس » العادية لم تكن كثيرة الشبه بالمدينة كما أنها كانت أكثر من الدولة بكثير . ولكن الترجمة كالسياسة هي فن الشيء الممكن وطالما ليس لدينا هذا الذي سماه الإغريق ال « بوليس » فلن يكون لدينا كلمة تقابلها . ونحن من الآن فصاعداً سنتجنب عبارة « دولة المدينة » لأنها مضللة وسنستعمل الكلمة الإغريقية بدلاً عنها . وسنبحث في هذا الفصل أولاً عن كيفية نشأة هذا النظام السياسي ثم نحاول أن نعيد بناء كلمة « بوليس » ونستخلص معناها الحقيقي بملاحظتها وهي قائمة بالعمل . وقد يكون هذا عملاً طويلاً ، غير أننا سنفيد في نفس الوقت بتحسين معلوماتنا عن الإغريق . فنحن إن لم نأخذ فكرة واضحة عما كانت عليه « البوليس » وعما كانت تعنيه بالنسبة للإغريق يستحيل علينا أن نفهم التاريخ الإغريق والعقل الإغريق أو أيجاد الإغريق حق الفهم .

وأول سؤال لنا إذن هو ماذا كانت البوليس ؟ إننا نرى في الإلياذة نظاماً سياسياً يبدو مألوفاً لنا ومن الممكن أن ندعوه طبقاً لأذواقنا إما نوعاً راقياً أو نوعاً منحطاً من القبلية . وفي هذا النظام نرى ملوكاً مثل إيجيليس يحكمون رعائهم وكذلك الملك العظيم أجاممنون ملك الناس وهو أشبه بأمر من أمراء الإقطاع . فهو ملزم ، سواء كان هذا الإلزام راجعاً إلى الحق أو إلى العادة بأن يستشير الملوك والرؤساء الآخرين في الأمور التي تتعلق بالصالح العام . فهناك مجلس يعقدونه بانتظام ويحمل الرئيس أثناء مناقشاته الصولجان وهو رمز السلطة وهذا المجلس يمكن التعرف على أنه من الخصائص الأوربية

لا الشرفية كما أن أجاممنون ليس باله مستبد يحكم ولا معقب لحكمه . وكذلك هناك دلائل على وجود مجلس رمزي للشعب يستشار في المناسبات الهامة ولون هو مر وهو شاعر متأنق كما أنه ليس بمؤرخ دستوري على كل حال ، يقول عنه القليل . هذه باختصار هي الرواية المألوفة أو المتوارثة عن بلاد الإغريق قبل الغزو . وعندما يرتفع الستار مرة ثانية بعد « العصر المظلم » نرى صورة مختلفة كل الاختلاف . فلم يعد يوجد في موكناي Mycenae أجاممنون يحكم رقعة واسعة من الأرض ويسيطر عليها . أما في كريت التي كان يحكمها قديماً إيدومنيوس باعتباره ملكها الوحيد فإننا نجد أن بها أكثر من خمسين دولة بدلاً من دولة واحدة . أما موضوع اختفاء الملوك فإنه أمر هين ولكن المهم هو أن الممالك قد ذهبت كذلك . وما هو صحيح عن كريت نجده صحيحاً عن بلاد الإغريق . فايونيا والجزر والبيلوبونيز فيما عدا أركاديا ووسط بلاد الإغريق فيما عدا الأجزاء الغربية وجنوب إيطاليا وصقلية عندما كانا إغريقين — كانت كلها منقسمة إلى عدد هائل من الوحدات السياسية التي تحكم نفسها والمستقلة عن غيرها كل الاستقلال .

إن حجم « البوليس » من المهم أن ندركه . فحين يتناول القارئ الحديث ترجمة لجمهورية أفلاطون أو لسياسة أرسطو يلاحظ أن أفلاطون يقرر أن مدينته المثالية تضم ٥٠٠٠ ره مواطن ، كما أن أرسطو يقرر أن كل مواطن ينبغي أن يكون في إمكانه معرفة جميع المواطنين الآخرين بمجرد النظر . وقد يتسم القارئ هذه التصورات الفلسفية ولكن أفلاطون وأرسطو ليسا خياليين . أن أفلاطون يتصور « البوليس » طبقاً للمقياس الهيليني العادي ، بل أنه يعنى في الحقيقة أن كثيراً منها كان بها أقل من ٥٠٠ ره مواطن . أو يقول أرسطو بطريقة المسلية ، إذ أن أرسطو يبدو أحياناً كالخبير ، أن « البوليس » ذات العشرة مواطنين تعتبر مستحيلة لأنها لا يمكن أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتياً وأن « البوليس » ذات المائة ألف مواطن تعتبر شاذة

ومثيرة للسخرية لأنها لا تستطيع أن تحكم نفسها حكماً حسناً. وعلينا ألا نتصور أن هؤلاء المواطنين كانوا طبقة من السادة الذين يملكون آلافاً من العبيد ويتحكمون فيهم، إذ أن الإغريق العادي في تلك العصور القديمة كان مزارعاً فإن كان يملك عبداً فقد كان ذلك يدل على أنه مقتدر. أما أرسطو فإنه يتكلم عن مائة ألف مواطن. فإن افترضنا لكل مواطن زوجة وأربعة أولاد ثم أضفنا بعدئذ عدداً وافراً من الرقيق والأجانب المقيمين فإننا نصل إلى عدد يقارب المليون وهو عدد سكان برمنجهام. إن دولة مستقلة مزدهجة بالسكان مثل برمنجهام تعتبر عند أرسطو نكتة مكشوفة. ويمكننا أن نتقل من الفلاسفة إلى رجل عمل هو هيبوداماس Hippodamas الذي خطط بيريه طبقاً لأحدث أسلوب أمريكي، فقد قال إن عدد المواطنين المثالي هو عشرة آلاف مواطن، ومعنى هذا عدد كلي يبلغ حوالي ١٠٠.٠٠٠ من السكان.

ولم يكن هناك في الحقيقة إلا ثلاثة من «البوليس» في كل منها أكثر من ٢٠.٠٠٠ من السكان وهي (سرقوسة) واكراجاس Acragas (جرنتي) في صقلية، وأثينا. وقد كان عدد سكان أتيكا ٣٥٠.٠٠٠ تقريباً عند نشوب حرب البيلوبونيز، نصفهم أثينيون (رجالاً ونساء وأطفالاً) وعشرهم من الأجانب المقيمين بها والباقي من الرقيق. أما أسبرطه أو لاكيدايمون فقد كان عدد المواطنين بها أقل ولو أن مساحتها كانت أكبر من غيرها. إذ أن الإسبرطيين كانوا قد فتحوا ميسينيا Messenia وضموها إليهم فامتلكوا بذلك ٣٢٠٠ ميلاً مربعاً من الأرض. وقد كانت هذه مساحة هائلة طبقاً للمقاييس الإغريقية تقتضي من المسافرين المجد يومين حتى يقطعها. وكانت مساحة مدينة كورنثا التجارية الهامة ٣٣٠ ميلاً مربعاً أي ما يساوي حجم مدينة هنتنجدن شير. وكانت جزيرة «كيوس» Ceos وهي في حجم مدينة «بيوت» مقسمة إلى أربعة من «البوليس» وبذلك كان فيها أربعة جيوش

وأربع حكومات وربما كان بها أربعة تقاويم للزمن وأربع عملات مختلفة من النقد ومثلها من نظم المقاييس، ولو أن احتمال وجود هذين الأخيرين أقل من سواه. أما موكناي فقد انكشفت في العصور التاريخية حتى صارت بقية من عاصمة أجاغنون وإن ظلت مستقلة. وقد أرسلت جيشاً ليساعد قضية الإغريق ضد الفرس في حرب بلاتايا Plataea وكان هذا الجيش يتكون من ثمانين رجلاً وهو صغير حتى طبقاً للمقاييس الإغريقية. وإن كنا لم نسمع أن أية نكتة قد قيلت عن جيش تحويه عربة.

إن من الصعب علينا أن نفكر طبقاً لهذه المقاييس فنحن الذين تعودنا على وجود دول مثل الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وهما من الكبر بحيث أننا نشير إليهما بالحروف الأولى من أسمائهما — نعتبر الدولة التي تتكون من عشرة ملايين دولة صغيرة.

وعندما يصير القاري الذي يسهل توجيهه متعوداً على هذه المقاييس فإنه لن يقع في الخطأ المبطل الذي ينشأ من الخلط بين الحجم والأهمية. فنحن نسمع أحياناً الكتاب الحديث وهو يتكلم بزهو واحتقار عن «هذه الدويلات الإغريقية التافهة التي لم تكن تنفض لها منازعات» حقاً إن بلاتايا وسيكون Sicyon وإيجينا Aegina وباقي الدويلات تافهة إذا قورنت بالدول الحديثة. كما أن الأرض نفسها تافهة إذا هي قورنت بالمشتري، ولكن مهلاً فإن جو المشتري مكون بصفة رئيسية من النواذر وهنا كل الفرق. فنحن لا نحب أن نستنشق النواذر كما أن الإغريق ما كانوا يحبون كثيراً أن يستنشقوا جو الدولة الحديثة الواسعة. ولقد عرفوا دولة من هذا القبيل هي الإمبراطورية الفارسية التي اعتبروها مناسبة جداً للبرابرة. فالاختلاف في المقاييس، عندما يبلغ حداً كافياً من الكبر، يدل على اختلاف في النوع.

ولكن قبل أن تتناول بالدرس طبيعة « البوليس » ربما أحب القارىء أن يعرف كيف تحول ذلك النمط الفسيح نسبياً الذى كان موجوداً في بلاد الإغريق قبل العصر الدورى إلى نمط مكون من مجموعة مختلفة من القطع الصغيرة وهذا هو ما يريد أن يعرفه المتبحر في الأدب الكلاسى أيضاً ، غير أننا لا توجد عندنا سجلات ولذلك فكل ما نستطيع أن نعمله هو أن نقترح من الأسباب ما يمكن قبوله . فهناك أسباب تاريخية وجغرافية واقتصادية متى أوضحناها إيضاحاً مناسباً ربما استنتجنا أن أهم سبب من بينها كان بكل بساطة أن هذه هي الطريقة التي فضل الإغريق أن يعيشوا بمقتضاها .

إن مجيء الدوريين لم يكن هجوماً قامت به أمة منظمة على أمة أخرى . فالذين غزاهم الدوريون كان لهم فعلاً نظامهم ولو أنه كان ضعيفاً منجلاً . وبعض الغزاة وهم الطائفة الرئيسية التي فتحت لا كيدايمون لابد أنها كانت قوة مترابطة . أما من عداهم فكانوا جماعات صغيرة من المعتدين الذين أفادوا من الاضطراب العام في الاستيلاء على الأرض الصالحة حيثما وجدوها . والدليل على ذلك أننا نجد أعضاء من نفس العشيرة في دول مختلفة . فهذا بندار Pindar مثلاً من مواطنى طيبة كان من عائلة إيجيداي Aegidae القديمة . إلا أنه كانت هناك إيجيداي أيضاً في إيجينا واسبرطة وكل منهما « بوليس » مستقلة تماماً ، وكان بندار يخاطبهم على أنهم أقاربه . وقد انقسمت هذه العشيرة بالذات تبعاً لذلك أثناء الغزو . وهذا أمر طبيعي جداً في بلاد كبلاد الإغريق .

وفي مثل هذه الفترة من فترات عدم الاستقرار كان سكان أى واد أو جزيرة مضطرين أن يحاربوا دفاعاً عن حقوقهم عند أى إنذار مفاجئ . لذلك كان من الضروري أن يوجد هناك حصن محلى يكون في العادة فوق قمة تل في جهة ما من السهل يمكن الدفاع عنها ، وكانوا يقومون بتحصين هذا

« الاكروبوليس » أو المدينة العالية ويتخذونها مقراً للملك كما أنها كانت مكاناً طيباً للاجتماع ومركزاً للعبادة .

هكذا كانت بداية المدينة . أن الذى علينا أن نعمله هو أن نعلل نمو المدينة ولبقاء مثل هذا الجيب الصغير من الناس وحدة سياسية مستقلة . أما الأمر الأول فتعليله بسيط فلنبداً به . ذلك أن النمو الاقتصادي الطبيعي كان يحتم وجود سوق مركزي ، وقد رأينا أن النظام الاقتصادي الذى يدل عليه كلام هزيرود وهو مركان هو الاقتصاد المنزلى المحدود . فقطعة الأرض سواء كانت صغيرة أو كبيرة كانت تنتج كل ما كان لازماً على وجه التقريب . أما ما لم تكن تستطيع إنتاجه فإنهم كانوا يستغنون عنه ، فلما أصبحت الأمور أكثر استقراراً صار من الممكن وجود اقتصاد أكثر تخصصاً نوعاً ما وأمكن إنتاج سلع للبيع أكثر من ذى قبل ومن هنا كان ينشأ أحد الأسواق .

وعند هذه النقطة نستطيع أن نستند إلى العادات الاجتماعية عند الإغريق القدماء والمحدثين وهم الذين يميلون كل الميل إلى معاشرة الناس . إن المزارع الإنجليزي يحب أن يبني بيته على الأرض التي يمتلكها ولا يذهب إلى المدينة إلا مضطراً . ويجب أن يقضى وقت فراغه القصير في التفكير في أمر طريف ألا وهو النظر إلى الباب الخارجى . أما الإغريق فإنه يفضل أن يعيش في المدينة أو في القرية وأن يخرج إلى عمله وأن يقضى وقت الفراغ الذى يتوفر له أكثر من سواء وهو يتحدث في المدينة أو في القرية . ولهذا يصبح السوق سوقاً للبدن ويقع بطبيعة الحال في سفح « الاكروبوليس » كما يصبح مركزاً لحياة الناس الاجتماعية ، وسنرى عن قريب مبلغ ما كان لذلك من الأهمية .

ولكن لماذا لم تتم هذه المدن حتى تصير وحدات أكبر ؟ هذا هو السؤال الهام .

أما من الوجهة الاقتصادية فإن العوائق الطبيعية التي يكثر وجودها جداً في بلاد الإغريق قد جعلت نقل البضائع عسيراً إلا عن طريق البحر الذي لم يصبح ركوبه آمناً حتى ذلك الوقت . وبالإضافة إلى ذلك فإن التنوع الذي سبق أن تكلمنا عنه جعل من الممكن أن تكون هناك مساحة صغيرة متمتعة بكفاية ذاتية معقولة بالنسبة لشعب كالإغريق له في الحياة مثل هذه المطالب المادية الصغيرة . هاتان الحقيقتان كلتاهما تؤدي إلى نفس الاتجاه . فلم تكن تعتمد بعض الجهات في بلاد الإغريق اعتماداً اقتصادياً عظيماً على البعض الآخر ، ولم يكن التجاذب المتبادل بين أجزاء البلاد المختلفة من الشدة بحيث يقاوم رغبة الإغريق في أن يعيشوا في مجتمعات صغيرة .

أما من الوجهة الجغرافية فإن البعض يصرح أحياناً بأن نظام « البوليس » المستقلة فرضته على بلاد الإغريق طبيعة البلاد . وهذه نظرية جذابة لا سيما للذين يحبون أن يجدوا تفسيراً واحداً فيما لأية ظاهرة ، غير أنه لا يبدو أنها صحيحة ، ومن الجلي بطبيعة الحال أن كثرة انقسام البلاد من الوجهة الطبيعية قد ساعد على ما ذكرناه . فلم يكن ممكناً أن يقوم هذا النظام في مصر وهي بلاد تعتمد اعتماداً كلياً على مراقبة فيضان النيل مراقبة مناسبة ولذلك يجب أن تكون بها حكومة مركزية ، ولكن هناك بلاد كأسكتلندة مثلاً مقسمة إلى أجزاء مثل بلاد الإغريق ومع ذلك لم يقيم فيها نظام « البوليس » وعلى العكس من ذلك كانت توجد في بلاد الإغريق كثيرات من « البوليس » المتجاورة مثل كورنثا وسيكون اللتين ظلتا مستقلتين كلاهما عن الأخرى مع أنه لم يكن بينهما أى فاصل طبيعي يمكن أن يضيق راكب الدراجة الحديث مضايقة خطيرة . وبالإضافة إلى ذلك كانت أكثر بلاد الإغريق جبالياً هي بالذات المناطق التي لم تقيم فيها « للبوليس » قائمة أبداً أو حتى العصور المتأخرة مثل أركاديا Arcadia وإيتوليا Aetolia اللتين كان بهما ما يشبه نظام السكاتونات أى المقاطعات

المستقلة ، بينما ازدهرت « البوليس » في تلك الأجزاء التي كانت المواصلات بها سهلة نسبياً . وهكذا نجد أننا لا زلنا نبحث عن التعليل .

لقد ساعدت الجغرافيا والاقتصاد على قيام هذا النظام غير أن التعليل الحقيقي لقيامه يعود إلى خلق الإغريق الذي يصح أن يفسره لنا أصحاب المذهب الجبري الذين لديهم الثقة اللازمة لعلمهم المحيط بكل شيء . ولما كان البحث في هذا الموضوع سيستغرق بعض الوقت فإنه يحسن بنا أولاً أن نجلو نقطة تاريخية هامة هي كيف أمكن أن يستمر مثل هذا النظام السخيف في الوجود أكثر من عشرين دقيقة .

إن سخریات التاريخ كثيرة مريرة غير أننا يجب ألا ننسى أن ننسب للأله الفضل على الأقل في تهمة أسباب الاستئثار بشرق البحر المتوسط للإغريق وخدمهم تقريباً مدة كافية لعمل ما يكاد يكون تجربة من تجارب العمل لاختبار المدى والظروف التي تستطيع فيها الطبيعة البشرية أن تخاق حضارة وتحافظ عليها . فالإمبراطورية الحثية في آسيا كانت قد انهارت من قبل ، ولم يكن الاعتداء من خصائص المملكة الليدية ، بينما كانت الإمبراطورية الفارسية التي هزمت ليديا في النهاية ما تزال في دور التكوين في الأجزاء الجبلية المنعزلة من القارة . وكانت مصر في حالة اضمحلال . أما مقدونيا التي كان مقدراً لها أن تقضى على نظام « البوليس » فقد كانت في حالة من العجز شبه بربرية لازمتها مدة طويلة ، ولم يكن أحد قد سمع بعد عن روما أو أية دولة ذات شأن في إيطاليا . حقاً لقد كان هناك الفينيقيون ومستعمرتهم الغربية قرطاجة ولكنهم كانوا تجاراً أولاً وآخرأ . ولهذا فإن ترك هذا الشعب الإغريق الذكي النشط حراً في أن يعيش عدة قرون في ظل نظام تلوح عليه سمة الحماقة في الظاهر كان أمراً ملائماً لعبقريته ومساعداً لها على التوبدلاً من أن تبتلعها كتلة سخيفة لإمبراطورية واسعة فتقضى على نموه الروحي وتجعله ما صار إليه بعد ذلك جنساً مكوناً من أفراد المعيين وانتهازيين . ولقد كان من الواضح

أن شخصاً ما سينشئ ذات يوم دولة مركزية قوية في شرقي البحر الأبيض المتوسط تخلف قوة الملك مينوس البحرية القديمة ، فهل تكون يا ترى إغريقية أو شرقية أو غير ذلك ؟ سيكون هذا السؤال موضوع فصل آت بعد ذلك ، غير أننا لن نفهم تاريخ الإغريق إلا إذا أدركنا ما كانت تعنيه « البوليس » للإغريق . وعندما ندرك ذلك سنفهم أيضاً لماذا أنشأها الإغريق وتوسعوا فيها وحاولوا بمثل ذلك العناد أن يحافظوا عليها . دعنا إذن نفحص الكلمة وهي في دور العمل .

كان معناها أولاً ما أصبح يسمى فيما بعد « الأكروبوليس » أي حصن المجتمع ومركز حياته الاجتماعية ، أما المدينة التي كانت تنشأ حوله دائماً فقد كان يطلق عليها اسم آخر هو « آستو Astu » غير أن كلمة « بوليس » سرعان ما أخذت تعني إما الحصن وإما القوم الذين استخدموا هذا الحصن ، إن جاز لنا أن نقول ذلك . ولهذا فنحن نقرأ في ثوكوديديس « أن إبيدامنوس Epidamnus » هي « بوليس » على يمين المسافرين بجزراً في خليج اليونان ، وليس هذا مثل قولك أن بريستول مدينة تقع إلى الغرب وأنت مسافر في قناة بريستول لأن بريستول ليست دولة مستقلة يمكن أن تقوم الحرب بينها وبين جلوستر بل هي مدينة لها إدارة محلية فقط ، أما كلام ثوكوديديس فعنا أن هنالك مدينة اسمها إبيدامنوس . وإن كان من الجائز أن تكون صغيرة جداً ، وهي المركز السياسي للأبيدانيين الذين يعيشون في رقعة الأرض التي مركزها لا « عاصمتها » هو هذه المدينة . وهم إبيدانيون سواء عاشوا في المدينة أو في إحدى قرى هذه الرقعة من الأرض .

وقد يكون لرقعة الأرض والمدينة أسماء مختلفة في بعض الأحيان ، وهكذا نرى أن أتيكا هي رقعة الأرض التي يقطنها الآثينيون وهي تشمل أثينا أي « البوليس » بالمعنى الضيق ويبريه وقرى عديدة ، ولكن مجموع الأهالي كانوا آثينيين لا آتيكيين والمواطن مهما عاش في أي جزء من أتيكا فهو آثيني .

بهذا المعنى تكون « البوليس » هي الدولة عندنا . وفي مسرحية سوفوكليس Sophocles المسماة « أنتيجونا » Antigone يتقدم كريون Creon ليعلن أول تصريح له بصفته ملكاً فيقول « سادتي ! أما بالنسبة « للبوليس » فقد أخرجتها الآلهة سالمة من العاصفة وأرستها على برا الامان . » هذه هي الصورة المألوفة « لسفينة الدولة » ونحن نظن أننا نعرف جليلة الأمر ولكنه يقول في المسرحية بعد ذلك ما ينبغي طبعاً أن نترجمه بقولنا « لقد تم إعلان اعتلاء الملك للعرش » وإن كان هو يقول في الحقيقة « لقد أعلنت « للبوليس » عن اعتلائه للعرش ، أي للشعب لا « للدولة » ثم يتشاجر الملك في المسرحية بعد ذلك مع ابنه شجاراً عنيفاً ويصرخ قائلاً « ماذا ! هل هناك أحد سواي يحكم في هذه الأرض ؟ فيجيبه هايمون Haemon : « هذه ليست « بوليس » يحكمها رجل واحد فقط » ، فيوضح الجواب جانباً هاماً آخر من فكرة « البوليس » كلها وهو أنها مجتمع وأن شئونها تخص الجميع . أما موضوع الحكم الفعلي فكان من الجائز أن يوكل إلى ملك يتصرف باسم الجميع طبقاً للعادات التقليدية أو إلى رؤساء عائلات نبيلة معينة أو إلى مجلس من المواطنين الحائزين لقدر معين من الممتلكات أو إلى المواطنين جميعاً . كل هذه وكثير من التعديلات التي أدخلت عليها كانت أشكالاً طبيعية للحكم تمتاز جميعاً عند الإغريق عن الملكية الشرقية التي كان الملك فيها غير مسئول فهو لا يحمل سلطاته أمانة تفضلاً من الله إذ أنه هو نفسه كان إلهاً . ومتى كانت هناك حكومة غير مسئولة كان ذلك يعني أنه لم تكن هناك « بوليس » . فهايمون يتهم أباه بأنه يتكلم كأنه حاكم مستبد (١) « Turannos » يعمل على هدم « البوليس » لا « الدولة » :

(١) لاني أفضل استخدام لفظ Turannos الإغريق لهذه الكلمة الشرقية (ظاهرياً) فهو المقابل للإغريقي لكلمة (ديكتاتور) وإن لم يعمل بالضرورة معنى كلمة مستبد .

فلنستمر في إيضاح معنى الكلمة . إن الجوقة (المجموعة) في مسرحية أريستوفانيس المسماة « أهل أخارنيا » حينما أعجبت بسلوك البطل توجهت إلى الجمهور برجاء هاك ترجمته الحرفية « هل ترون أيها « البوليس » بأجمعه ؟ » وقد تترجم الكلمات الأخيرة أحياناً هكذا « يامن تزدهم بكم المدينة » وهي عبارة ذات جرس أفضل ولكنها تخفى نقطة جوهرية هي أن حيزهم « البوليس » جعل في إمكان الفرد أن يلجأ إلى كل سواطينه شخصياً ، وهذا ما كان يفعله بالطبع حينما كان يرى أن فرداً آخر من أفراد « البوليس » قد آذاه . فقد كان مفروضاً عند عامة الإغريق أن « البوليس » تستمد أصلها من الرغبة في العدالة إذ أن الأفراد لا يلتزمون القانون أما « البوليس » فإنها تهتم برفع المظالم لا عن طريق جهاز متقن من أجهزة عدالة الدولة لأن مثل هذا الجهاز لا يمكن إدارته إلا بواسطة الأفراد وهم الذين قد تعوزهم العدالة كالمسئء الأصلي . إن الطرف الذي وقع عليه الظلم يتأكد من نيته العدالة إذا أمكنه أن يصرح بمظلمته « للبوليس » بكلمة والكلمة هنا على ذلك تعني « الناس » وهو ما يميزها تمييزاً فعلياً عن « الدولة » .

وكذلك سترينا يوكاستا Iocasta الملكة المحزنة في مسرحية « أوديب Oedipus » شيئاً آخر عن مدى ما تعنيه هذه الكلمة . لقد تسائل الناس عما إذا كان زوجها أوديب هو الرجل الملعون الذي قتل الملك السابق لا يوس فصاحت يوكاستا « لا . لا . لا ! هذا غير ممكن لقد قال العبد ان « لصوصاً » هم الذين هاجمهم لا لصاً واحداً وهو لا يمكن أن يتراجع في كلمته الآن فقد سمعته « البوليس » لا أنا وحدي . فالكلمة مستعملة هنا دون أن تقترب بالسياسة بتاتاً فهي ، إن جاز لنا أن نقول ذاك ، بعيدة عن محيط العمل الرسمي ومعناها « جميع الناس » . وهذا المعنى ليس بارز الاستعمال على الدوام وإن يكن موجوداً .

ثم أن ديموستينيس Demosthenes الخطيب يتحدث عن رجل « يتجنب المدينة » إذا لجأنا إلى الترجمة الحرفية التي قد تؤدي بغير الحريص إلى الظن بأنه كان يعيش فيما يشبه إقليم البحيرات أو « ييرلي » ولكن عبارة « يتجنب البوليس » لا تقصد الكلام عن محل سكناه فهي تعني أنه لم يكن يشترك في الحياة العامة ولهذا كان يتصف بنوع من الشذوذ لأنه لم تكن تهمه شؤون المجتمع .

قد عرفنا الآن ما يكفي عن كلمة « بوليس » لكي نتحقق من عدم إمكان ترجمة مثل الجملة العادية الآتية :

« إن واجب كل إنسان أن يعاون « البوليس » . إذ لا يمكننا أن نقول « أن يعاون الدولة » فإن ذلك لا يبعث فينا الحاسة لأن الدولة لا « المجتمع » هي التي تأخذ منا نصف دخلنا ، والمجتمع عندنا من الكبر والتنوع بحيث لا يمكننا الإحاطة به إلا نظرياً . إن كلمات « قريبي » و « نقابتي » و « طيقتي » هي ذوات موجودة لها معنى ندرکه في الحال ، أما عبارة « يشتغل من أجل المجتمع » فمع أنها إحساس جدير بالإعجاب إلا أنه بالنسبة لآكثرنا غامض ضعيف . فما الذي كانت تعرفه أكثر أجزاء بريطانيا العظمى عن « المناطق المنكوبة » في سنوات ما قبل الحرب ؟ وإلى أي مدى يفهم أصحاب البنوك وعمال المناجم والمزارع بعضهم بعضاً ؟ أما كل إغريقي فقد كان يعرف « البوليس » فإنها كانت قائمة بكلمها أمام عينيه فكان يستطيع أن يرى الحقوق التي تمدها بالغذاء أو لا تمدها به إن أصاب المحاصيل التلف ، كما يستطيع أن يرى كيف تداخلت الزراعة والتجارة والصناعة بعضها في بعض . وكان يعرف الحدود التي كانت فيها قوية أضعيفة . وإن كان بعض المتذمرين يدبرون انقلاباً فقد كان من الصعب عليهم إدارة هذه الحقيقة . كان أسهل على الإغريق إذن « أن يدركوا « البوليس » كلها والعلاقة بين أجزائها نظراً لصغر نطاق الأشياء عندهم ، ولهذا فعبارة « إن واجب كل إنسان أن يعاون

البوليس « لم تكن تعبيراً عن شعور رقيق بل عن أبسط وألزم أنواع الإدراك السليم (١) فقد كان للشئون العامة وجود ملموس — ومساس بالآفراد أكثر مما يمكن أن يكون لها عندنا .

ولإليك مثالا على هذه النقطة يعيننا على الفهم . كانت الديمقراطية الآثنية تفرض الضرائب على الأغنياء بمثل الغيرة النزيهة التي تفرضها بها الديمقراطية البريطانية ، إلا أنها كانت تفعل ذلك بطريقة الطف ، لمجرد أن الدولة كانت صغيرة جداً ولأن معرفة المواطنين بعضهم لبعض كانت وثيقة جداً . فالمفروض أن دافع الضريبة الإضافية عندنا يدفع مثل دافع ضريبة الدخل . ولكنه يكتب الشيك الخاص به معتقداً أنه يذهب إلى « بالوعة المجارى » . أما في أثينا فمن كانت ثروته تزيد عن مبلغ معين كان عليه أن يؤدي « واجبات عامة » معينة أو بعبارة أخرى يؤدي أعمالاً للشعب ، فكان عليه مثلاً أن يقوم بتجهيز سفينة حربية لمدة سنة (وله الحق في قيادتها إن شاء) أو أن يمول إنتاج مسرحيات تعرض في المهرجان أو أن يجهز موكباً دينياً بما يلزمه . وقد كان هذا عبئاً ثقيلاً لا يرحب به أحد دون شك وإن كان من الممكن أن يجد فيه بعض التساهلية على الأقل أو بعض الفخر ، فقد كان المرء يحظى بالسرور والشرف إن أخرج « ثلاثية » من المسرحيات إخراجاً جديراً بالإعجاب أمام إخوانه المواطنين . وهكذا نجد في حالات أخرى لا تحصى ان حجم « البوليس » قد جعل ما نعتبره نحن معاني مجردة ليس إلا أو واجبات متعبة أشياء ملموسة حية . وقد كان هذا بطبيعة الحال سلاحاً ذا حدين . إذ أن القائد غير الكفاء أو السوء الحظ مثلاً كان هدفاً لا لغضب لا يضر لأنه موزع على الشعب بل كان هدفاً للاتهام المباشر . فلربما حاكمه وطلب إعدامه مجلس كان هو قد ساق كثيراً من أعضائه السابقين للموت .

(١) ولم يكن يترتب على ذلك طبعاً أن الإغريق كانوا يلتزمون جادة « الإدراك السليم » أكثر منا .

وخطبة بريكليس التأثينية التي دونها أو أعاد إنشاءها ثوكوديديس توضح مساس الشئون العامة بحياة الأفراد وتضيف شيئاً إلى فكرتنا عن « البوليس » . فثوكوديديس يخبرنا أنه كان إذا مات بعض المواطنين في الحرب وهو أمر كثيراً ما كان يحدث ، فقد كان على رجل تختاره « البوليس » أن يلقي خطاباً لتأثينه . والذي يقوم بتعيين مثل هذا الرجل في أيامنا هذه هو رئيس الوزراء أو المجمع الأدبي البريطاني أو الإذاعة البريطانية . ولكن جرت العادة في أثينا أن يختار المجلس رجلاً قد اعتاد أن يخطب كثيراً فيه . وفي هذه المناسبة خاصة خطب بريكليس من فوق منصة عالية لكي يصل صوته إلى أكبر عدد ممكن ، فليست في عبارتين استخدمهما بريكليس في هذه الخطبة .

إنه يقارن « البوليس » الأثيني بالإسبرطى ويشير باهتمام إلى أن الإسبرطيين لا يسمحون بدخول الزوار الغرباء عندهم إلا وهم كارهون ، « بينما نحن نجعل « بوليسنا » للجميع . « فالبوليس » هنا ليست هي الوحدة السياسية ، وليس الأمر أمر إعطاء الأجانب جنسية البلاد وهو ما كان يفعله الإغريق نادراً لمجرد أن البوليس كانت اتحاداً وثيق الترابط . فالذي يقصده هنا بريكليس هو « أننا نفتح الباب على مصراعيه ليلتقي الجميع ثقافتنا العامة » . كما يتضح ذلك من الكلمات التالية وإن تكن صعبة الترجمة « كما أننا لا نحرهم من أي تعليم أو أية حفلة عامة » وهي كلمات لا يكاد يكون لها معنى حتى نبتين أن الدراما سواء منها المأساة والمهابة أو إنشاد الفرق للأناشيد الدينية أو القراءات العامة من هو مر أو الألعاب كانت كلها ضرورية للحياة السياسية كما كانت تعتبر أجزاء عادية من هذه الحياة . هذا ما كان يحول بذهن بريكليس وهو يتحدث عن التعليم والحفلات وفتح البوليس على مصراعيها للجميع .

غير أن علينا أن نتابع البحث أكثر من ذلك . إن قراءة الخطبة تدل على أن بريكليس في مدحه للبوليس الآثينية إنما يمدح ما هو أكثر من الدولة والأمة والشعب . إنه يمدح أسلوباً من أساليب الحياة ، فهو لا يقصد أقل من ذلك عندما يسمي أثينا بعد الذي ذكرناه بـ «مدرسة اليونان» . وما وجه الغرابة في ذلك ؟ ألسنا نمدح أسلوب الحياة الإنجليزي ؟ حقاً إن فكرة كون الدولة عليها أن تحاول جدياً تحسين أسلوب الحياة تبعث في أكثرنا الرعب . لقد كان الإغريق يفكرون في البوليس على أنها شيء فعال خلاق يدرب عقول المواطنين وخصالهم أما نحن فنفكر فيها على أنها جهاز يعطينا الأمن والراحة . إن تدريب الناس على الفضيلة الذي تركته الدولة في العصور الوسطى بين يدي الكنيسة والذي جعلته «البوليس» شغلها الشاغل تركته الدولة الحديثة لمن لا يعلمه إلا الله .

«فالبوليس» إذن التي كان معناها «القلعة» في الأصل قد يبلغ بها الأمر أن تعني حياة مجتمع من الناس بأكمله بما في ذلك حياته السياسية والثقافية والحلقية بل والاقتصادية كذلك . وإلا فكيف نفهم غير ذلك من جملة أخرى وردت في نفس الخطبة وهي «إن حاصلات العالم كله تأتينا نظراً لاتساع بوليسنا» فلا بد أن معنى الكلمة «ثروتنا القومية» .

وقد كان الدين أيضاً مرتبطاً بالبوليس وإن لم يكن ذلك يعني كل شكل من أشكال الدين (١) فقد كان الإغريق يعبدون آلهة أوليمبوس بالفعل في كل مكان . فإن لم يكن لكل «بوليس» آلهتها الخاصة فقد كان لها على الأقل نظمها الخاصة بعبادة هذه الآلهة وعلى ذلك فقد كانت أثينا ربة «البيت النحاسي» تعبد في أسبرطة غير أن أثينا لم تكن قط بالنسبة للأسبرطيين ما كانت عند الآثينيين وهي «أثينا بولياس Polias» أي أثينا حامية المدينة .

(١) مثل ديانات الأسرار .

وهكذا كانت هيرا في أثينا ربة يعبدها النساء على الخصوص باعتبارها ربة المدفأة والبيت ، أما في أرجوس فقد كانت هيرا الإغريقية أسمى معبودات الشعب .

ونحن نجد بين هذه الآلهة معبودات قبلية مثل جيئوفا موجودة في مستويين في وقت واحد إن جاز لنا أن نقول ذلك ، أي بصفتها آلهة لكل «بوليس» على حده وباعتبارها آلهة الجنس الإغريق بأكمله . ولكن إلى جانب هذه الآلهة الأوليمبية كان لكل «بوليس» معبوداتها المحلية الصغيرة كالآبطال وعرائس البحر والجبال . وكان كل منها يعبد طبقاً لطقوسه العريقة في القدم والتي ما يكاد يتصور أحد وجودها خارج المكان المعين الذي كانت تمارس فيه الطقوس . ولذلك فرغم نظام الآلهة الأوليمبية الذي ينتظم بلاد الإغريق جميعاً وبالرغم من الروح الفلسفية التي جعلت الآلهة القبلية المجردة مستحيلة بالنسبة للإغريق فإن قولنا إن «البوليس» وحدة دينية وسياسية مستقلة يمكن أن يكون صحيحاً بوجه من الوجوه . لقد كان في إمكان شعراء المأسى على الأقل أن يفيدوا من الاعتقاد القديم بأن الآلهة تهجر المدينة التي تكون على وشك السقوط في يد العدو فقد كان الآلهة شركاء في رفاهية المدينة ولكن لا تدركهم الأبصار .

ويمكننا أن نرى بأجلى مظهر كيف كان التفكير الديني والتفكير السياسي مرتبطين أو ثاق الارتباط في «الأوريستيا Orestia» . التي كتبها إيسخولوس . فقد كانت هذه تدور حول فكرة العدالة ، فهي تنتقل من الفوضى إلى النظام ومن النزاع إلى الصلح ، وهي تتحرك في مستويين في نفس الوقت أحدهما إنساني والآخر إلهي . وفي مسرحية أجائمنون نرى أحد قوانين العالم الأخلاقية وهو أن الجريمة لا بد أن تستتبع العقاب ، يتحقق بأعظم الطرق البدائية الممكنة . فالجريمة تستدعي جريمة أخرى تتأثر لها وهكذا دواليك

في سلسلة ليس لها نهاية في الظاهر ولكنها تحظى دائماً بتأييد زيوس . وتصل هذه السلسلة من الجرائم إلى ذروتها في « خويفوروى Choephori » عندما ينتقم أوريسستيس Orestes لآبيه بقتل أمه ، وهو يفعل ذلك على كره منه لأن أبوللون بن زيوس الذى يتكلم أوريسستيس بلسانه يأمره بذلك . لماذا ؟ لأن كليتمسترا بقتلها الملك وهو زوجها في نفس الوقت قد ارتكبت جريمة إن لم تعاقب عليها فإنها تحطم كيان المجتمع ذاته . إن الدفاع عن النظام بهم الآلهة الأوليمبيين فهم آلهة « البوليس » بصفة خاصة ولكن قتل أوريسستيس لأمه يسيء أبلغ إساءة إلى أعماق الغرائز الإنسانية ولذلك تطارده معبودات أخرى دون هوادة من ربات الانتقام . وليس لربات الانتقام اهتمام بالنظام الاجتماعى ولكنهن لا يستطعن السماح بهذه الإساءة البالغة إلى قدسية رابطة الدم التى تقوم وظيفتهن على حمايتها . وفى مسرحية اليومينيديس Eumenides يقوم صراع رهيب بين ربات الانتقام العريقات فى القدم والآلهة الأوليمبيين الذين يصغرونهن بشأن أوريسستيس التعتيس .

والحل هو أن تأتى أثينا بقرار جديد من زيوس من شأنه التخفيف ، وهو أن تقوم هيئة محلفين من المواطنين الآثينيين بمحاكمة أوريسستيس على الأكروروبوليس حيث هرب أوريسستيس طلباً للحماية . فكان هذا أول اجتماع لمجلس الأريوباجوس Areopagus المختص بالمحاكمات . وتساوت أصوات المحلفين بالنسبة للطرفين فبرئت ساحة أوريسستيس من باب الرأفة . أما ربات الانتقام اللاتى حرمن من فريستهن المشروعة عن طريق التحايل فقد هددن بتخريب أتيكا . ولكن أثينا أغرتهم أن يتخذن أثينا وطناً لهن ادون أن تلغى وظيفتهن القديمة (كما كن يعتقدن فى أول الأمر) بل زادت إلهامهن فقد تقرر منذ ذلك الوقت أن يعاقبن أعمال العنف داخل نطاق « البوليس » وليس فى محيط العائلة فقط . وهكذا صارت البوليس عند أيسخولوس بعد أن بلغت تمام نموها وسيلة

لتنفيذ القانون دون إحداث شيء من الفوضى ، إذ تحل العدالة محل الانتقام الخاص وبذلك يتم التوفيق بين مطالب السلطة والغرائز البشرية ، وتختتم سلسلة المسرحيات الثلاث المتتاليات بمشهد رائع عظيم التأثير ، فيه تستبدل ربات الانتقام الرهيبات ارضيتهن السوداء بأخرى حمراء إذ لم يعدن ربات للانتقام بل ربات للخير . Eumenides كما لم يعدن خصيمات لزيوس بل صرن أعواناً له طائعات مكرمات مدافعات عن نظامه الاجتماعى الذى بلغ حد الكمال ضد أعمال العنف الحيوانى ، وبدأن يخرجن من المسرح القائم عند سفح الأكروروبوليس أمام أعين المواطنين الآثينيين المجتمعين فيه يقودهن المواطنون القائمون على حفظ النظام إلى بيتهن الجديد فى الجانب الآخر من الأكروروبوليس . وهكذا حلت طائفة من أعنف مسائل الإنسان الخلقية والاجتماعية وكانت وسيلة التصافى هى « البوليس » .

كان على المواطنين أيضاً أن يخرجوا من المسرح فى ذلك اليوم من بواكير ربيع سنة ٤٥٨ ق . م . من نفس الأبواب التى خرجت منها ربات الخير ولكن فى أية حالة عاطفية ؟ من المؤكد أن مثل هذه التجربة لم تقع لأى جمهور منذ ذلك الحين الذى أدركت فيه « البوليس » الآثينية ذروة مجدها عن ثقة واطمئنان ، لقد كان فى هذه الثلاثية نشوة روحية إذ رأى الآثينيون « البوليس » الخاصة بهم تبدو كنموذج للعدالة والنظام أو لما كان يسميه الإغريق العالم Cosmos ، فالبوليس التى رأوها كانت أو من الممكن أن تكون ذروة كل شيء . لقد رأوا ربتهم نفسها تترأس أول محكمة قضائية ، وهذه فكرة باعثة على السكينة والطمأنينة كما كانت تتضمن أكثر من ذلك . فالديمقراطية الناهضة قد قللت منذ وقت قريب من سلطات محكمة الأريوباجوس القديمة كما أن المصلح السياسى قد اغتاله أعداؤه السياسيون ،

ثم ماذا كان حال ربات الخير ساكنات البلاد الرهييات اللاتي تحولن إلى ذلك بعد أن كن ربات انتقام وظيفتهن الأخذ بثأر دم الأقارب المسفوح ؟ لقد كان هناك إنذار كما كانت هناك نشوة فرح في فكرة أن « البوليس » يسكنها الأرباب وأفراد الشعب على السواء ، فكانت بها آئينا من بين الأرباب الأوليين الذين أشرفوا على تكوين المجتمع المنظم كما كانت بها المعبودات الأقرب إلى البدائية وهن اللاتي أغرتن آئيننا بقبول هذا الأسلوب من أساليب الحياة المتحضرة واللاتي سرعان ما كن يعاقبن كل من هدد استقرار البلاد بعمل من أعمال العنف الداخلية .

كان تفكير إيسخولوس الديني متشبعاً إلى هذا الحد بفكرة « البوليس » ولم يكن هذا حال إيسخولوس وحده بل حال الكثيرين من مفكرى الإغريق الآخرين كذلك لا سيما سقراط وأفلاطون وأرسطو . فقد ذكر أرسطو عبارة ترجمها نحن ترجمة تعوزها الدقة إلى أقصى حد بقولنا إن الإنسان حيوان سياسى ! أما حقيقة ما قاله أرسطو فهو « إن الإنسان مخلوق يعيش فى « بوليس » كما أن ما تصدى أرسطو لإثباته فى كتابه السياسية هو أن « البوليس » هى الإطار الوحيد الذى يستطيع الإنسان داخله أن يحقق طاقاته الروحية والخلقية والفكرية على أكمل وجه .

هذا بعض ما تتضمنه هذه الكلمة من معان وسنقابل مزيداً منها فيما بعد ، إذ أنى تعمدت أن أذكر القليل عن معناها السياسى المحض وذلك لأؤكد الحقيقة القائلة إنها أكثر بكثير من أن تكون نوعاً من أنواع التنظيم السياسى . لقد كان « البوليس » مجتمعاً حياً مؤسساً على صلة الرحم الحقيقية أو المفروضة ، بمعنى أنه كان عائلة كبيرة يتحول فيها أكبر قدر ممكن من الحياة إلى حياة عائلية ، وفيه بالطبع منازعاته العائلية التى كانت مرارتها أشد لأنها كانت منازعات عائلية .

هذا هو ما يفسر لنا لا « البوليس » فحسب بل كذلك الكثير مما صنعه الإغريق وفكر فيه ويوضح لنا أنه كان اشتراكياً بصفة جوهرية أما فى كسب قوته فقد كان فردياً بصفة أساسية وكان فى إشباع حياته شيوعياً بصفة جوهرية . فالدين والفن والألعاب ومناقشة كل شئ كانت كلها ضرورات للحياة لا يمكن قضاؤها إلا عن طريق « البوليس » ، لا عن طريق تطوع جمعيات مكونة من أشخاص ذوى مشارب متشابهة كما هى الحال عندنا أو عن طريق متعبدين ينشدون رضا الأفراد (وهذا يفسر لنا إلى حد ما الفرق بين الدراما الإغريقية والسينما الحديثة) ، ثم إن الإغريق كان يريد أن يقوم بدوره فى إدارة شئون المجتمع . وعندما ندرك مبلغ ما تمتع به الإغريق من ضروب النشاط الشائقة والمثيرة والضرورية للحياة عن طريق « البوليس » وأن هذه الضروب كانت تمارس فى الهواء الطلق على مرأى من نفس الأكرىبوليس كما كانت تحيط بكل فرد فى الدولة نفس الحلقة من الجبال ونفس البحر — عند ذلك يصبح فى ميسورنا أن نفهم التاريخ الإغريق وأن نفهم أنه رغم ما كان يقتضيه الإدراك السليم لم يستطع الإغريق أن يحمل نفسه على أن تضحي « بالبوليس » وبما فيها من حياة واضحة جليلة شاملة فى سبيل وحدة أوسع وإن تكن أقل أمتاعاً له . وربما جاز لنا أن ندون محاورة خيالية بين إغريق قديم وعضو حديث فى الأثينيوم (١) .

فالعضو يأسف على ما كان يبدو عند الإغريق من الافتقار إلى الشعور السياسى . فيسأله الإغريق « كم هناك من الأندية فى لندن ؟ » فيقول العضو وهو يحزر : « نحو خمسمائة » فيجيبه الإغريق « لو تضافرت هذه الأندية جميعاً فكم تكون نخامة العمارة التى يبنونها . إنهم ليحصلون إذ ذاك على ناد فى سعة حديقة هايدبارك » فيجيبه العضو « ولكن هذا لن يكون نادياً »

(١) ناد أدبى فى لندن (المترجم) .

وعندها يقول الإغريق « صحيح جداً وكذلك لن تكون « البوليس » التي في اتساع مدينتكم « بوليساً » .

وبعد فإن أوروبا الحديثة رغم ثقافتها المشتركة ومصالحها المتبادلة وسهولة مواصلاتها تجد من الصعب أن تقبل فكرة الحد من السيادة القومية ولو أن ذلك يزيد من طمأنينة الحياة دون أن يزيد بشكل ملحوظ من كآبتها . لقد كان من الجائز أن يكسب الإغريق أكثر يجعل البوليس أقل رواء ولكن كم كانت تزداد خسارته بذلك . إن الذي جعل أخيليس عظيماً لم يكن هو الإدراك السليم بل صفات أخرى .

(٦)

بلاد الإغريق الكلاسية ، العصر القديم

إن الخريطة الحديثة للبحر المتوسط والمياه المجاورة مليئة بالأسماء الإغريقية ، فساستبول والإسكندرية وبنغازى وبطبيعة الحال أبولونيا التي تجاورها والتي لا تعرف صففا هجاءها الصحيح لأن عبادة أبولون غير قوية في شارع الصحافة — وسرقوسة ، ونابلي وموناكو ، كل هذه الأسماء ، ومئات غيرها إغريقية الأصل ولو أن كثيراً منها حرفت إلى حد كبير بعد أن لا كتبها الألسن الأجنبية طوال القرون ، وكثير منها لا يرجع إلى العهد الكلاسي القديم . أما الإسكندرية فإنها تخلد ذكرى مؤسسها الإسكندر الأكبر الذي سنختم به هذا المجلد . وساستبول هي اللفظة الإغريقية التي تعني «مدينة أوغسطس» فهي إذن مؤسسة منذ زمن الإمبراطورية الرومانية ، وبنغازى هي بيرنيكا اللفظة الإغريقية المقدونية لفرينيكس Pherenike أى « جلابة النصر » وهو اسم إحدى ملكات أسرة البطالمة المقدونية التي حكمت مصر منذ عهد الإسكندر (٣٢٠ ق . م) حتى كليوباترا التي خلعت لب قيصر وشكسبير وشو . ومع ذلك فإن عدداً كبيراً جداً من هذه الأسماء يرجع إلى الفترة التي ندرسها الآن أى إلى القرن الثامن والسابع والسادس ق . م . وقد بدأت مرسيليا حياتها باسم ماسيلا وقد أسس الإغريق ماسيلا Massilia حوالي سنة ٦٠٠ . وهذا الساحل يعتبر في الحقيقة متحفاً للأسماء الإغريقية . وقد أخذت موناكو اسمها من معبد «هرقل مونويكوس» Heracles Monoikos « أى هرقل الذي يعيش وحده » . ونيس كان اسمها نيكايا أى المنصورة . وعنتيب أصلها أنتيبوليس أى المدينة المقابلة . واجدى أصلها أجاثي Agathê أى المسكان الطيب . كما أن جنوب غرب إيطاليا مملوء بالأسماء الإغريقية

فتلا نابلي أصلها نيابوليس أى المدينة الجديدة وريجيو أصلها ريجيون أى الشق وسميت كذلك بالنسبة لوجود المضيق .

ولم يكن الشاعر الأيوني هو من يعرف شيئاً تقريباً عن غرب البحر المتوسط أو عن البحر الأسود . فقد كانت المعلومات عن هذه المناطق غامضة ومملوءة بالعجائب وكانت إيثاكا الواقعة بعيداً على الساحل الغربى من بلاد الإغريق تشير إلى حدود معرفته جهة الغرب ولا يبدو أنه كان متأكداً جداً حتى من إيثاكا . ومع ذلك ففي خلال ثلثمائة سنة على الأكثر نجد أن مدناً إغريقية قد استقرت لا حول بحر إيجه فقط بل كذلك في الأجزاء الأكثر اعتدالاً من البحر الأسود بما فيها القرم وعلى طول الساحل الليبي وفى جنوب وغرب إيطاليا وصقلية وعلى الساحل الجنوبي من فرنسا والساحل الشرقى من أسبانيا . ولقد أصبحت صقلية والأجزاء المجاورة لها فى إيطاليا تعرف بالفعل باسم «بلاد الإغريق الكبرى» ومن هذه لا من بلاد الإغريق الرئيسية استمدت روما أولاً الحضارة الإغريقية .

ولم يكن هذا بأول توسع عظيم لبلاد الإغريق كما لم يكن آخر توسع لها . فقد رأينا كيف زحف الأيونيون (وغيرهم) نحو الشرق عبر بحر إيجه عندما جاء الدوريون ، ثم استقر الإغريق بعد ذلك بقرون فى كل أملاك الإسكندر الجديدة — كما استقر بالفعل اليونانيون فى أمريكا فى القرن الماضى بأعداد كبيرة ، لدرجة أن المال الذى كانوا يرسلونه إلى وطنهم كان يكون جزءاً هاماً فى الاقتصاد الأهلى . ولقد كان الإغريق عادة شعباً سريع التكاثُر بينما طبيعة البلاد تفرض حداً معيناً جداً على عدد السكان ، وهذا صحيح فعلاً حتى يومنا هذا فى بلاد البحر المتوسط .

وما بلغنا عن أسباب حركة الاستعمار الكبرى التى بدأت حوالى سنة ٧٥٠ واستمرت نحو مائتى سنة وعن خط سيرها ضئيل للغاية ويبدو مؤكداً أن ازدياد عدد السكان هو سببه الرئيسى إلى حد معقول ولو أن عوامل

أخرى مثل الاضطراب السياسى والكوارث الآتية من الخارج لعبت دورها دون ريب . فتلا عندما غزا قورش الأكبر أيونيا فى سنة ٥٤٥ قبل مسكان مدينتى تينوس وفوكايا Phocaea الهجرة الجماعية على أن يعيشوا خاضعين لفارس . فاستقر سكان الجزيرة الأولى على ساحل تراقيا وأسسوا أديرا ولكن سكان الجزيرة الثانية واصلوا السير وصمموا على الذهاب إلى كورسيكا فأغرقوا كتلة كبيرة من الحديد فى مينائهم (طبقاً للقصة الجميلة التى ذكرها هيرودوتوس) وأقسموا ألا يعودوا حتى يطفو الحديد ، غير أن كثيرين منهم بعد أن بدأوا رحلاتهم بوقت ليس بالطويل غلبهم الحنين إلى بلدهم فعادوا إليها ، أما باقيهم فقد استمروا حتى انضموا إلى مستعمرتهم التى كانت موجودة فى الاليا Alalia فى كورسيكا (وهى التى صارت اليريا Aleria فيما بعد ولا تزال موجودة كقرية صغيرة بهذا الاسم) .

ويبدو أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً جداً عن المستعمرات الأولى على الأقل ، فإنها لم تنشأ لأسباب تجارية ، فهى لم تكن « مراكز تجارية » فكل ما نعرفه عنها يوحى بأن « الأرض » هى وحدها التى كان يبحث عنها المستعمرون ، لأن الفلاح الإغريق الذى يشتغل فى رقعة صغيرة جداً من الأرض كان يحيا حياة مزعزعة إذ أن توالى تقسيم قطعة الأرض المملوكة للعائلة سرعان ما كان يصل إلى النقطة التى تصبح فيها الزراعة المجدية مستحيلة ، وسرى وشيكا عندما نتكلم عن أثينا أن هناك عادة مخالفة لأحكام الضمير وهى أن الممتلكات الكبيرة من الأرض تبطل الممتلكات الصغيرة . والدعوة إلى إعادة توزيع الأرض كثيراً ما كانت تسمع فى بلاد الإغريق ، وقد كان الاستعمار صمام الأمان . وقد كان الفلاح الذى أصيب بالفقر مستعداً لتسليم قطعة الأرض المتضائلة المرهونه التى كان يمتلكها فى وطنه فى مقابل نصيب من الأرض الخالية فيما وراء البحار — وهكذا يمكنه أن يبدأ الكفاف من جديد فيما أن يتمتع بالرخاء هو وذريته فيصبحون ملاك الأرض النبلاء فى

« البوليس » الجديدة أو يفشلون فيصبحون على استعداد مرة أخرى للاستعمار أو للثورة .

ومع أن هدف الاستعمار الأول كان هو الأرض لا التجارة إلا أنه شجع التجارة والصناعة كليهما لدرجة أن بعض المستعمرات أنشئت فيما بعد رغبة في التجارة دون الزراعة ، وكانت البلاد الجديدة تنتج أحياناً محاصيل تختلف عن محاصيل أرض بلادهم ، كما وطدت المستعمرات صلة الإغريق بالبرابرة الذين كانت عندهم أشياء شائعة للبيع . . وأصبح من الممكن الاستفادة من بعض طرق التجارة القديمة كطريق العنبر الآتي من البلطيق وذلك بالاقتراب من حيث تبدأ ، وهكذا أصبح تبادل السلع أنشط ، وجلبت الاتصالات الجديدة أفكاراً جديدة ووسائل فنية جديدة ، فارتفع لواء الحضارة المادية تدريجياً بطريقة ليس فيها ظهور ملحوظ ، فكانت كورنثا مثلاً وهي مدينة ذات موقع ملائم جداً للتجارة تشتغل ببناء السفن وصنع الأدوات البرونزية وترقية الأسلوب الطبيعي في طلاء الأنية الفخارية بشكل لم تكن رآته بلاد الإغريق خلال عدة قرون ، على حين أن القرى الأركادية التي لم تكن تبعد عنها ثلاثين ميلاً ظلت غير متأثرة بتأثير هذه الأشياء الجديدة . أما المدن الأخرى التي شاركت في نمو التجارة والصناعة هذا فهي إيجينا وخالكيس Chalcis في يوبويا Euboea وميليتوس Miletus في أيونيا . وقد اشتركت خالكيس في أول حرب إغريقية في العصور التاريخية وهي حرب جارتها أريتريا لامتلاك سهل ليلانتاين المجاور ، وقد تدخلت دول أخرى كثيرة مع كل من الجانبين مع أنه لم يكن لها مصلحة ظاهرة في رقعة الأرض المتنازع عليها . ومن المحتمل أن المنافسات التجارية كانت تلعب دورها كذلك .

واليك طرفاً من الجانب السياسي للاستعمار ، فكلمة مستعمرة مضللة ولكنها كالعادة هي أحسن ما يمكن استعماله . أن المعنى الحرفي لكلمة

أبويكيا Apoitka الإغريقية هو «وطن بعيد» فالأبويكيا لم تكن تعنى مطلقاً أي امتداد للمدينة الأصلية أي تبعية لها واعتماد عليها فقد كانت منشأة جديدة مستقلة . إن المدينة الأصلية كانت تنظم فوج المهاجرين وفي كثير من الأحيان كان يدعى أعضاء من المدن الأخرى للاشتراك فيه ، إذ كانت المدينة الأصلية تختار من بين أفرادها قائداً رسمياً كان عليه أن يشرف على توزيع الأراضي الجديدة على المستعمرين ، وكان يخلد اسمه تكريماً له بصفته « المؤسس » . وقد جرت العادة أن تستشار عرافة دلفوى Delphi قبل محاولة إنشاء أية مستعمرة جديدة ، ولم يكن هذا مجرد تأمين ديني ضد الأخطار المجهولة فإن دلفي كانت قد بلغت مركز الصدارة بين الأماكن الإغريقية المقدسة . ولما كان المستفسرون يستشيرون العرافة باستمرار من كل جزء من العالم الإغريق ومن البرابرة أحياناً بالفعل فقد اكتسب كهنة دلفوى مقداراً كبيراً من المعلومات عن مختلف الأمور (فضلاً عن النفوذ السياسي الهائل) فقد كان الإغريق يذهبون إلى دلفوى لا يرجون أن ينال البركة وحدها من الكهنة إن جاز لنا أن نقول ذلك بل كان يطلب النصيحة المعتمدة على الخبرة من مكتب البحوث الاستعمارية .

وعندما كانت تنشأ المستعمرة كانت العلاقات التي تربطها بالمدينة الأصلية دينية وعاطفية محضة ، وكانت النار التي تشتعل في مدفاتها العامة توقد من نار مجلوبة من المدينة الأصلية وكان المواطنون القادمون من المدينة يمنحون عادة بعض الامتيازات مجاملة لهم متى زاروا المستعمرة . فإذا تمخضت المستعمرة عن مستعمرة أخرى كان يراعى أن يطلب من المدينة الأصلية أن تعين مؤسساً للمستعمرة الجديدة . ولم يكن يوجد بينهما أي ارتباط سياسي بالمرّة كما كان يمكن اعتبار الحرب التي تقع بين مدينة وإحدى مستعمراتها (كالحرب التي نشبت بين كورنثا وكوركييرا Corcyra وهي التي ورد ذكرها في الجزء الأول من كتاب ثوكوديديس) غير طبيعية وغير لائقة وإن

لم تعتبر ثورة وانفصالاً ، ولهذا فإن تدفق الإغريق من بلاد الإغريق الأصلية ومن أيونيا ، مع أنه حمل معه النفوذ الإغريقي لكل جزء من البحر المتوسط إلا حيث كانت قرطاجة أو الأتروسكيون ينفقون عشرة في الطريق ، لم يؤد إلى إنشاء إمبراطورية أو دولة إغريقية ، غير أنه كان يعنى فقط أن عدد « البوليس » الإغريقية قد زاد زيادة هائلة وأن عواطف المدن الأصلية ومنازعاتها قد أخذت تتكرر في غيرها أيضاً .

وربما تساهل القارىء في دهشة واستياء عما إذا كنا سنطلب إليه أن يتتبع تاريخ بضع مئات من الدول المستقلة في وقت واحد ، وجوابنا على ذلك لا ، أولاً لأن التاريخ السياسى يجب أن يوضع في مكانه عند الكتابة عن شعب ما ، فهو قد يكون مجرد هيكل أو أسلوب من أساليب التعبير عن أخلاق الشعب ، وهو سواء كان خيراً أو شراً أحد مآثر الشعب وأن لم يحتو على قصته الكاملة ، وثانياً لأننا لا نعرف شيئاً مطلقاً عن أكثر هذه الدول كما أننا في هذه الأيام نسجل الحقائق خدمة للتاريخ بحماسة فيها من مراعاة الضمير ما يجعل كتابة التاريخ مستحيلة . وبلاد الإغريق تضع مؤرخها على العكس في مركز غير ملائم . إن فكرة تدوين الحوادث المعاصرة للإنسان فيما عدا قوائم أسماء القضاة والكهنة لم تكند تخطر بالبال قبل القرن الخامس ، وعندما ظهرت فعلاً نجد أننا قد حصلنا لا على مجرد سجل للحوادث بل على تفسير لها كذلك في نفس الوقت . ولكن حتى سجلاتنا عن القرن الخامس نادرة جداً ، أما بالنسبة للفترة التي سبقتها فيبدو من المعقول لنا جداً أن ننظر بطريقة عامة جداً في ثلاثة اتجاهات الواحد منها بعد الآخر ، فلننظر أولاً إلى أيونيا ثم إلى أسبرطة ثم إلى آثينا ، أما في الفترات المتأخرة فسوف نركز اهتمامنا على آثينا ، أكثر من غيرها .

أيونيا

ظل الناس مدة طويلة يعتقدون أن الحضارة الإغريقية بدأت تفيق من العهد المظلم بين الإغريق الأيونيين أولاً وأن الأيونيين هم الذين بدأوا يرثون البحار ويؤسسون المستعمرات ويرقون الفنون ويعيشون تلك الحياة الكاملة الحرة التي أصبحت من خصائص الإغريق . ففي أيونيا استمرت الثقافة المينوية القديمة باقية تلياً ، وفي أيونيا كان الاتصال المباشر بحضارات الشرق العريق . أما الآن فقد أصبح هذا الرأي عرضة للتحدي الشديد (ولا سيما من جانب د . م . كوك — صحيفة الدراسات الهيلينية ١٩٤٦) . ومن المسلم به أن الأدلة قليلة وليست مؤكدة غير أنه يبدو من الواضح بدرجة معقولة أن بلاد الإغريق الأوربية هي التي تزعمت الاستعمار وأن أول تأثير للشرق كان على الأجزاء الرئيسية من بلاد الإغريق على الأقل كما كان على الأيونيين ، فهو مر وهو أول شاعر عظيم كان أيونيا غير أن أول نهضة لطلاء الأصص كانت في أتيكا .

وبالرغم من ذلك فإن ما نعرفه عن أيونيا في هذه الفترة القديمة يوحى لعقولنا بأنها كانت أكثر « عصرية » مما نعرف عن ثقافة أجزاء البلاد الرئيسية . ولا جدال في أن الحركة الفكرية العظيمة التي سنناقشها فيما بعد بدأت في أيونيا . وربما يرجع هذا الشعور « بالعصرية » فعلاً إلى تأثير كل من الخلق والطبع الأيونى أكثر مما يرجع إلى أن الحضارة كانت أكثر تقدماً بها . ذلك لأن الأيونى كان أميل إلى الفردية من الإغريق الأوربي .

وقد أورد هيرودوتوس قصة لطيفة عن الأيونيين ليس من الضروري أن تكون صحيحة إذ أن هيرودوتوس لما كان كاريماً من هليكرناسوس أى جارا للأيونيين ، لهذا كانت عواطفه ضدهم تبعاً للقانون العام للجيران . وعلى الرغم من ذلك فمن الواضح أنه كان يتوقع أن تحظى هذه القصة بالتصديق

بين الإغريق الآخرين . ذلك أن قورش Cyrus العظيم ملك الفرس غزا
الأيونيين ، حوالي سنة ٥٥٠ ولكنهم ثاروا عليه بعد سنة ٥٠٠ بقليل فجمع
أسطول أيوني عند جزيرة ليد Lade الصغيرة . وألقى قائد الفصيلة الذي كان
من فوكيا (على حد قول هيرودوتوس) خطبة لا تعوزها الثقة قال فيها
« أيها السادة لقد تأزمت الأمور فيما أن نصبح أحراراً أو نكون عبيداً
بل ونكون عبيداً أبقيين حينذاك ، والآن إذا كنتم تريدون أن تتحملوا
الشدائد مؤقتاً فإنه يمكنكم أن تهزموا العدو وتنالوا حريتكم ولكن إذا
أصررتم على الكسل وعدم النظام فإنني أخاف أن تدفعوا ثمناً غالياً لتورثكم
فاستمعوا إلى واثمنوني على أنفسكم لأنني أتعهد لكم بالفوز ما لم تقف الآلهة
معهم . فلما سمع الأيونيون ذلك وضعوا أنفسهم تحت رعاية ديونيسيوس
كما يقول هيرودوتوس : فأبحر بالسفن نهاراً وأخذ يدرّب رجال المجاذيف
على المناورات وختم على الجنود من البحارة أن يرتدوا دروعهم الثقيلة مع
أن شمس بلاد الإغريق لافحة ، فتحمل الأيونيون ذلك سبعة أيام رغم أنهم
لم يكونوا قد اعتادوا ذلك ثم قال بعضهم لبعض « إلى أي إله أسأنا حتى وقع
علينا هذا العقاب . هل أصبنا بلوثة في عقولنا حتى سلمنا أنفسنا لخرور
أحق من فوكيا التي لم تستطع أن تساهم في الحرب إلا بثلاث سفن ؟
وها هو ذا يأخذنا ويرهقنا بما لا طاقة لنا به ، إن نصفنا مرضى بالفعل وينتظر
أن يصاب الباقيون منا بالمرض عن قريب ، وليس هناك من عبودية أسوأ
من ذلك فلنكف عن تحمل كل ذلك » وقد كفوا عن تحمل ذلك بالفعل
كما قال هيرودوتوس . وبدلاً من احتمال المشقة فوق ظهر السفن كانوا
يقضون الأيام في خيامهم على الشاطئ . بطريقة أدعى إلى السرور مما أدى
إلى النتيجة المحتومة .

إنها قصة تنم عن قصد سيء ولكن المبالغة التي تنم عن قصد سيء لا بد
لها من أصل ترتكز عليه ، فالأثر الذي تركه الأيونيون في غيرهم من الإغريق

هو أنهم يعوزهم الجد والنظام ، ولقد وقفوا في الحقيقة موقف الشجاعة
من فارس ومع أن مدتهم المتفوقة لم تحافظ على ترابطها السياسي الذي كان
من الممكن أن ينقذها إلا أنه لم يكن يليق بكثير من الإغريق أن يجعلوا من
ذلك موضوع تقريع لهم . وتعطينا هذه النبذة المقتبسة من النشيد الهومييري
لأبوللون فكرة أيونية عن أيونيا :

غير أنك يا أبوللون تجد أعظم متعة لك في جزيرة ديلوس Delos المقدسة
التي يجتمع فيها الأيونيون هم وأولادهم وزوجاتهم وهم يجرون ثيابهم وراءهم ،
وإن اشتغالهم بالملاكمة والرقص والغناء حين يأتي يوم المهرجان ليبعث
في نفسك السرور .

« ولو أن إنساناً أقبل على الأيونيين وهم مجتمعون لقال إنهم
لا تدركهم الشيخوخة ولا الموت . لأنه يرى لديهم جميعاً قسطاً كبيراً من
الركة والرشاقة ، وإنه ليسره منظر الرجال والنساء في ثيابهم الجميلة كما يبتهج
بمشاهدة سفنهم السريعة وممتلكاتهم العظيمة . »

إن الرقة والسحر هما سمتا الفن الأيوني كما أن القوة والجمال هما سمتا
الفن الدوري . ويكفي أن يقارن الإنسان فن العمارة الأيوني بالدوري لكي
يقدر ذلك . والاختلاف واضح جداً بين الخفة العامة التي في الطراز
الأيوني والزخارف الجلزونية الساحرة التي لرؤس الأعمدة الأيونية ، وبينما
كان يحاول الدوريون والأيونيون على السواء أن يعبروا في فن النحت عن
الرياضي المثالي كان يجد الأيونيون لذتهم أيضاً في المسائل التي تنشأ من حفر
الصور المكسوة بالثياب ، كما حاولوا بنجاح بالغ أن يصوروا على الحجر
مختلف أنسجة الجسم أو الصوف أو الكتان . فنحن نجد في الفن الأيوني
طابع الحسية البالغة الذي لا يظهر في الفن الدوري . وكانت احتفالاتهم
أيضاً أقل خشونة من احتفالات غيرهم . فكانت تبرز فيها الموسيقى والشعر

كما كانت أيونيا تترك في النفس بوجه عام انطباعاً بهيجاً جداً فيه حيوية بالغة وهو يوحى ، مجرد إيجاء ، بوجود نعمة شرقية فيه أو جنوبية على الأقل ، وليس مما يدعو إلى العجب أن نجد أفلاطون في القرن الرابع يرفض الأساليب الأيونية في الموسيقى والإيقاع باعتبارها شهوانية تبعث على الخور . ولكن يجب أن نتذكر أن أفلاطون رفض كثيراً من الأشياء الحسنة .

لقد كان القرن السادس هو العصر الذهبي للشعر الغنائي . فلقد انبعث الشعر الغنائي العاطفي من أيونيا دون سواها تقريباً إن جاز لنا أن نستخدم الاسم هذه المرة بمعنى جغرافي واسع كي يشمل شعراء ليسبوس Lespos الأيوليين وهم الذين تعتبر سافو Sapho أكبر نغمة لهم . وليس لدينا من هذا الشعر الغنائي كله إلا النزر اليسير . ولدينا قدر كاف من شعر سافو (ذكر بعضه كتاب جاءوا بعد زمنها كما أن بعضه اكتشف حديثاً في رمال مصر) يجعلنا نرى بأنفسنا كم كانت شاعرة عاطفية تجعل الإنسان يحبس أنفاسه من الروعة . وإن لم يكن لدينا من شعر أرخيلوخوس Archilochus (الأيوني) ما يكفي لنذكر منه السبب في أن الأقدمين وضعوه بعد هومر في المرتبة .

قد أحبتك مرة فيما مضى من الزمان يا أثيس Atthis

لقد بقي لنا هذا البيت الجميل بلهجة سافو الأيولية لأن هفايستيون الذي كان مهتماً بأوزان الشعر وكان غيباً شديداً الغباء قد ذكره في القرن الثاني الميلادي .

وقد اقتبس بلوتارخ الآيات الآتية من الشعر المقدع في مقال أخلاق قائلاً إن سافو كتبتها ضد سيدة غنية معروفة :

وحين تموتين سترقدن في قبرك منسية إلى الأبد .

لأنك تحتقرين أزهار ربة الشعر الغنائي .
وسيجرى طيفك مع غيره في ظلام هاديس .
كما يجري هنا مغموراً لا يثير اهتمام أحد .
ويبدو أن مثل هذه الآيات كانت هي العبارات السابقة واللاحقة لنبتة مليئة بالأزدهاء (مذكورة في تعليق على بندار) وهي :
لقد خبت وبردت روح هؤلاء النسوة وخارت أجنحتهن .

وأشهر مقطوعة من شعر سافو الغنائي هي قصيدة الحب العاطفي الجياش التي وفق كل التوفيق في نقلها إلى اللاتينية كاتولوس Catullus وهو الشاعر اللاتيني الوحيد الذي كان في إمكانه ذلك . ولكن ليس الحب والكراهة هما كل ما طرقت من مواضيع الشعر كما ترى فيما يلي :

إن النجوم التي حول القمر الجميل

تستر جمالها المضيء مرة ثانية

عندما يكتمل القمر بدرًا ويرسل نوره الوهاج

إلى الأرض كلها من تحته

ولا يكتب الشعراء الأيونيون الحقيقيون ، على قدر معرفتنا بهم ، بمثل العاطفة الجياشة التي تكتب بها سافو الأيولية ، ولكنهم يشبهونها كما أنهم لا يشبهون معاصريهم في أسبرطه وأثينا الذين كانوا يكتبون في مواضيع تهمهم كأفراد ، ومن النادر أن يكون شعرهم سياسياً مثل شعر تراتيوس Tyrtaeus وسولون Solon . وقد اشتهر أرخيلوخوس بهجائه الشخصي اللاذع أما أنا كريون Anacreon فقد تغنى بالحب والخمر غناء مرحاً كما تغنى غناء حزيناً عن إقبال الشيخوخة . ولقد بقي من الشاعر الأيوني پوثرمس Pythermus بيت واحد فقط هو :

ليس هناك شيء آخر له أهمية غير المال .

وهو شبيه جداً ببنت يلوك Belloc : —
لكن المال يمنحني السرور دائماً .
وهناك بيت نموذجي آخر هو :
إني لأبغض المرأة الغليظة العقبين .

وكلنا نعرف قصة المرأة الأسبرطية التي قالت لابنها وهو ذاهب للقتال
« عد مع درعك أو عليه » ، لأن إلقاء الدرع كان فيه أعظم العار . ولكن
أرخيلوخوس أمكنه أن يكتب ما يأتي باتباع واضعاً بذلك أساس أسلوب
أدبي اتبعه هوراس بعد ذلك بأكثر من خمسمائة عام .
إن رجلاً سعيد الحظ من تراقيا قد أخذ درعي العظيم .
فقد اضطررت إلى الفرار وألقيته في غابة .
ولكني نجوت والحمد لله .
أما الدرع فليسوف أحصل على آخر عظيم مثله .
إن هناك شيئاً جذاباً جداً عن الحياة الأيونية .

اسبرطه

لو أن أحد العلماء وجد هذا البيت من الشعر :

إني لأبغض المرأة الغليظة العقبين — في شذرة تشير إلى أنها لشاعر
دوري :

لأفترض في الحال أن هناك خطأ ما ، ولقد كان للأسبرطي ولا ريب
أراؤه عن عقي المرأة ولكن ما هكذا كان يكتب شعراء البلوبونيز فقد كان
الدوريون أكثر رصانة كما أنهم كانوا أقل ميلاً للفردية . فبينما كان الشعراء
الأيونيون والأيوليون يكثر من الكتابة عن حبهم وكرههم الشخصي
كان تريوس في أسبرطه مهتماً ببحث مواطنيه « على السمو إلى أعلى ذرى

البطولة ضد أعدائهم في مسينيا Messenia ، كما أن السكان Alcman كان يؤلف
مدائح رصينة ولكنها جميلة . كانت تؤديها فرق الفتيات الاسبرطيات
في احتفالاتهن . وبينما كان الفلاسفة الأيونيون يكشفون طرقاً جديدة مثيرة
من طرق التفكير مسترشدين فقط بمقدرتهم الفردية على استخدام العقل
ظل الدوريون جميعاً يسيرون طبقاً لأرائهم ونظرتهم التقليدية إلى الأمور .
وبينما كان المهندسون والنحاتون في أيونيا ينشدون الرشاقة والتنويع كان
أمثالهم في البلوبونيز يكافحون لإدراك الكمال متقيدين بنماذج قليلة صارمة .
فالأيوني والدوري يمثلان كل التمثيل فكرتين متعارضتين عن الحياة —
الفكرة المتحركة والفكرة الساكنة والفكرة الفردية والفكرة الجماعية
والفكرة المركزية الطاردة والفكرة الجاذبة إلى المركز التي نستطيع أن نراها
اليوم بالنظر إلى الغرب ثم إلى الشرق . وقد كان مقدراً لهذين الضدين أن
يجدا التوفيق الذي كانا في حاجة إليه في أثينا مدة من الزمن . ومن هنا كان
كمال الثقافة الآثينية في عصر بريكليس . وكما أن النحت والعمارة في أثينا كانا
يجمعان بين الصرامة الدورية والرقّة الأيونية وكما أن الدراما الآثينية جعلت
من المديح الغنائي الجماعي ومن فن الممثل وحدة منظمة متناسقة فقد استطاعت
كذلك الحياة الآثينية فترة قصيرة أن تجمع بين الحرية الأيونية والذكاء
الفردى وبين الشعور الدوري بالنظام والتماكب ، غير أن هذا التوفيق من
الآثينيين كان ما يزال بعيداً في أوائل الفترة الكلاسيكية .

لقد كانت اسبرطه ، التي ليس من السهل تقدير قيمتها ، تسيطر على
الثقافة والتاريخ السياسي للبلوبونيز وهو وطن الدوريين الرئيسى الوحيد .
فقد كانت اسبرطه مدينة المتناقضات العجيبة التي لا يجد العقل الحديث أن
من السهل إدراكها ، كما أن تاريخها القديم مجهول والأساطير فيه أكثر من
الحقائق ، وهذه الحقائق الظاهرية يرجع الكثير منها إلى صياغتها من جديد
طبقاً لفروض الفلاسفة المتأخرين ، إذ أن من متناقضات اسبرطه العديدة أن

هذه المدينة التي ثبتت خواؤها بشكل بارز بين المدن الإغريقية في الشؤون العقلية كانت تأسر دائماً لب فلاسفة الإغريق .

سبق أن رأينا كيف استولى الغزاة الدوريون على أكثر البيلوبونيز وكيف وطد الاسبرطيون أقدامهم بصفتهم أقلية متسلطة منعزلة في أحد الواديين اللذين يمتازان بأنهما من أخصب الوديان وأبعدها جنوباً عن الجزء الرئيسي من أوروبا . ولو كان في وسعنا أن نقرر أن هذا الجنس الجريء الذي كان يسكن الجبال والذي تغلبت عليه الحرارة والترف قد وقع خلال قرون قليلة في غيوبة تكاد تكون شرعية لكان ذلك مما يسرنا . غير أن ذلك لم يحدث . إذ حدث العكس تماماً . فعندما انكشفت اسبرطه وسقطت لم يكن ذلك راجعاً إلى افتقارها إلى النشاط بل إلى حاجتها إلى المواطنين والأفكار ، وقد كانت مسئولية ذلك تقع عليها هي .

كان هناك حادثان حاسمان في التاريخ الاسبرطى لا نعلم شيئاً كثيراً عن أيهما . وقد كان أولهما هو تصميمهم على أن يظلوا بمعزل عن الشعب الذي قهروه . ونحن لا نعلم عن ذلك أكثر من مجرد هذه الحقيقة . ولو أننا نستطيع أن نرى أن ذلك نتيجة طبيعية لما يمكننا مشاهدته في تاريخهم كله وهو شعورهم القوي بأنهم مجتمع وثيق الارتباط بعضه ببعض . ولا بد أنهم غزوا وادى يوروتاس السريع لأنهم جماعة عظيمة التنظيم تشعر أنها هي التي تقرر ما تريد . وظلوا دائماً على هذا الحال ، إذ لم يكونوا أفراداً يريدون أن يلائموا بين أنفسهم وبين نظام موجود من أنظمة الحياة بل كانوا مجتمعاً قد جاء ومعه نظامه الخاص الذي صمم على أن يحتفظ به ، ولذلك أصبح المجتمع في لا كيدايمون يتكون من طبقات مكونة بطريقة غير عادية (ولو أن ما ينسب له ذلك قد حدث في تساليا) فقد كان الاسبرطياتيس Spartiates وهم الاسبرطيون الحقيقيون في القمة ومن دونهم البريأويكوى

Perioikoi أى الجيران . وهم طبقة من الأحرار لم تكن لهم حقوق سياسية ثم طبقة العبيد Helots في القاع وهم ليسوا رقيقاً شخصيين للاسبرطيين بل رقيقاً للمجتمع الاسبرطى ، يشغل أكثرهم في الزراعة ويقدمون نصف المحصول للمواطنين المخصصين لهم .

أما الحادث الحاسم الآخر فإننا نعلم عنه أكثر من الأول بقليل ولو أننا لا نعلم عنه الشيء الكثير . ذلك أن التفريج الطبيعي لزيادة عدد السكان كما رأينا كان إرسال جالية للخارج . ولقد أرسلت اسبرطه جاليات كذلك ولو أنها لم تكن كثيرة جداً . وقد كانت تارنتم Tarentum واحدة منها . ولقد حاولت اسبرطه حاجتها الملحة إلى الأرض بطريقة أقسى من ذلك بكثير ، فقد غزت جارتها الغربية مسينيا واستولت على أرضها وحولت سكانها إلى رقيق . وقد كان مثل هذا الضم نادراً جداً في بلاد الإغريق بسبب جلي هو أنه كان من المحال استغلال أرض الجاردون جيش قائم يسيطر عليها . وقد كانت اسبرطه هي الدولة الوحيدة التي كان لها جيش قائم فقد كانت طبيعة المواطنين تعتمد في معاشها على عمل الرقيق .

على أن السيطرة على مسينيا كادت تكون أكثر من طاقة اسبرطه . فقد ثار أهالى مسينيا بعد الغزو بجيل أو جيلين أى حوالى نهاية القرن الثامن وكان من الواضح أن الثورة أمر بالغ الخطورة . ولم يقض عليها نهائياً قبل ماضى حوالى عشرين سنة على ما يظهر . وإن إلحاح تورتابوس في الرجاء والتشجيع لترينا أى جهود كان على اسبرطه أن تبذلها .

وقد ترتب على استعباد مسينيا أن صار الاسبرطياتيس أقلية في بلادهم بصورة أشد من ذى قبل بل وأقلية مهددة كذلك . وربما كانت ثورة مسينيا هي التي دعت الاسبرطيين إلى اتخاذ نظم ليكورجوس Lycurgus الشهيرة . ونحن لا نعرف شيئاً عن ليكورجوس وعما إذا كان حقيقة أو من

صنع الخيال (وقد قال ج. ب. بيورى وهو من أشد أنصار المذهب العقلى المنطقي ما يدل على طابع تفكيره وهو أن ليكورجوس لم يكن رجلاً بل إلهاً فقط). ومن الممكن أن نثبت أن كثيراً من هذه النظم ترجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير، غير أننا نستطيع على الأقل أن نرى أن تغييراً هائلاً حدث فى الحياة الاسبرطية حوالى هذا الوقت أى فى نهاية القرن السابع. فقد اختفى كل اللطف والجاذبية من الحياة الاسبرطية وأخذت المدينة تبدو فى مظهرها المألوف الذى تلوح عليه سماء الشكنات. لقد واجه «ليكورجوس» الموقف بمنطق لا يقبل الخطأ. فقد نظمت جماعة المواطنين طبقاً لما كان ينتظر من أقلية مهيمنة تتحكم وتستغل شعباً أكثر منها بكثير مكوناً من الرقيق النشيطين الخطرين.

وقد كان محرماً على الاسبرطى أن يشتغل بالزراعة أو التجارة أو أى مهنة إذ كان يجب عليه أن يكون جندياً محترفاً. فكانت له مزرعته التى يشتغل فيها الرقيق من أجله. وكان يتناول وجبات الطعام الرئيسية مع رفاقه علناً ويدفع نصيبه فى تكاليفها من مزرعته فإن عجز عن الدفع توقف مؤقتاً عن أن يكون مواطناً كاملاً.

وكانت حياة الأسرة محددة تحديداً صارماً، فالأطفال الذين يتقرر أنهم ضعفاء كانوا يعدمون، وكان يعيش الأطفال مع أمهاتهم حتى سن السابعة ثم يتلقون من سن السابعة إلى الثلاثين نوع التعليم والتدريب العسكرى العام المناسب. وكانت الفتيات أيضاً تتلقى تدريباً مديناً دقيقاً.

وكان هناك من الألعاب ما يلبس أثناءه الفتيات أقل الثياب حتى أن الإغريق أنفسهم كانوا يفزعون من ذلك. ولم يكن هناك تعليم رسمى فيه تثقيف للعقل ولو أن الإسبرطيين كانوا يؤكدون أهمية السلوك المتواضع وفضيلة الطاعة والشجاعة بالطبع. وقد كان إخضاع الرقيق يتم دون شفقة

فقد كانت هناك شرطة سرية مكلفة بقتل كل من يبدو خطره - هذا ما يقوله بلوتارخ وإن كان من الجائز أنه أخطأ الفهم.

ولم يهدف ليكورجوس إلى جعل هيئة المواطنين جهازاً حربيّاً كفتاً على استعداد دائم فحسب بل لقد تحمل شذائذ غير عادية لجعلها مكتفية اكتفاء ذاتياً وراكدة، فلم تكن تشجع التجارة ولم تكن تسمح للزوار بالدخول إلا على كره. كما كانوا يطردون دون توان من وقت لآخر. وكانت الأفسار الأجنبية تستبعد مهما كلفهم ذلك (وقد يخطر ببال الذين لا يعرفون الحقائق حالة شبيهة بذلك فى وقتنا الحاضر) وفى الوقت الذى كان فيه لأثينا عملة متداولة عليها رقابة رشيدة كما كانت مقبولة فى كل مكان حتى فى بلاد الغال البعيدة، كما كان لها فضلاً عن ذلك نظام مصرفى مفيد جداً، كانت اسبرطة ما تزال تستخدم عن عمد عملة حديدية قديمة قبيحة الشكل ولو أن استعمال الحديد إجبارياً فى بلادها لم يمنع الاسبرطيين الموجودين فى الخارج من رؤية مزايا الذهب الفائقة.

وكذلك كان دستورهم السياسى فى كثير من الأشياء يبدو مخالفاً للتفكير السليم. فقد كان لهم ملكان وهو ما يذكرنا بالقنصلين اللذين كانا على قدم المساواة (فى الجمهورية الرومانية). وربما كان مرجع ذلك مختلفاً فى الحاليتين، غير أن النتيجة المطلوبة كانت واحدة. ففى كل من الحاليتين كانت الشائبة مانعاً من الحكم المطلق. وكان مما يقلل من شأن هذين الملكين فى وطنهما الأيغوروى Ephors (أى المشرفون) وهم خمسة قضاة كانوا يختارون سنوياً بطريق الاقتراع السرى تقريباً. وقد كان أحد الملكين هو الذى يقود الجيش دائماً خارج البلاد. وكانت له عندئذ سلطات مطلقة. وكان هناك أيضاً مجلس للأعيان كما كان هناك مجلس للاسبرطيين جميعاً، ولكنه لم يكن يستطيع المناقشة. فكان يعبر عن قراراته لا بالتصويت بل

بالصياح ، وهو ما كان يبعث على تسليية غيرهم من الإغريق . وكان الذي يكتب له الفوز هو أعلى صياح . وقد حير هذا الدستور واضعى النظريات من الإغريق المتأخرين وهم الذين اعتادوا أن يصنفوا كل شيء في الأرض أو في السماء فخاروا في أمرهم هل يسمون ذلك الحكم ملكياً أم أرستقراطياً أم حكم الأقلية أم ديمقراطية . لقد كان دستوراً وصل إليه الاسبرطيون دون أن يلغوا أى شيء قديم (كالمملك مثلاً) أو يتوسعوا في شيء جديد إلى نتيجة المنطقية .

والمؤرخ إنما يؤدي واجبه عندما يشير إلى أن هذه الحياة السخيفة السلبية قد فرضها على الإسبرطيين تصميمهم على أن يعيشوا حالة على عمل الرقيق . وإلى أن جمودها قد أثبت في نهاية الأمر أنها هدامة من الوجهة الخلقية والفكرية والاقتصادية . وإلى أن الحياة التي فرضها الإسبرطيون على الرقيق لابد أنها كانت كمية حتى ولو خامرتنا الريب في أن التاريخ قد اهتم كعادته بتسجيل الجانب الكمي ونسى ما عداه . غير أن المؤرخ لو وقف عند هذا الحد لما أدى كل واجبه . فقد كان لأسبرطة حتى حرب البيلوبونيز على الأقل روعة وتأثير فريد رغم وجود الرقيق ورغم هذا الجمود وهذا الجذب . وقد كان هناك عدد كبير من الإغريق ممن يعجبون إعجاباً شديداً بالمثل الأعلى للإسبرطيين على الأقل بل ويغبطونهم عليه رغم رؤيتهم عيوب أسبرطة بكل وضوح .

على أنه يهمننا أن ندرك أن هذه الحياة كانت مثلاً أعلى لكل إسبرطى . ولقد تكلمت عن « استغلال » الرقيق (حتى أكون عصياً) . ولو اشتمل هذا اللفظ على معناه الحديث لكان معنى ذلك أن المواطنين الإسبرطيين كانوا يعيشون في دعة إلى حد ما على ثمرة جهد الرقيق . مع أن الحقيقة أن حياتهم كانت خشنة متعسفة بحيث لو خير الرجل الحديث لفضل أن يعيش

كالرقيق لا كالمواطن الإسبرطى . ولقد كانت هناك قصص لا تحصى عن أسبرطة والإسبرطيين . ومن المسلم به أن كثيراً منها سجله كتاب يحبون الإسبرطيين ، غير أن القصص الذي يعالج أسلوب الحياة الاسبرطية يشير كله إلى اتجاه واحد . فحين دعى أحد أهالى سيباريس المرفين إلى تناول الطعام علناً في أسبرطة مع الإسبرطيين قال « إني أفهم الآن لماذا لا يخشى الإسبرطيون الموت !! » وقال زائر آخر عندما قدم إليه مرق إسبرطى أسود « أتم في حاجة إلى السباحة في نهر يوروتاس قبل أن تتمكنوا من أكل ذلك » وعندما سئل الملك أجيسيلوس Agesilaus عن أعظم فائدة قدمتها قوانين ليكوجوس للإسبرطيين أجاب « احتقار السرور » . وعندما رأى ديوجينيس Diogenes الزاهد وهو في أولمبيا بعض شبان رودس في ثياب جميلة جداً قال من فوره « هذا تكلف » فلما رأى بعض الاسبرطيين في ثياب بالية قال « تكلف أعظم » .

أما أن كثيراً من أهل أسبرطة لم يعيشوا طبقاً للمثل الأعلى في بلدهم فتلك ظاهرة نستطيع أن نفهمها بسهولة كبيرة . غير أن أسبرطة كان لها مثل أعلى بالفعل ، مثل شديد الإرهاق ولكنه كان يجعل قيمة حياة الاسبرطى ويشعره بالفخر لأنه إسبرطى . وبطولة الجنود الاسبرطيين والنساء الاسبرطيات أسطورية وحقيقية معاً . وربما كنا أقل تأكداً من سلوك الاسبرطيين في الحياة العادية لأن الإغريق الذين عرفوا أسبرطة معرفة كافية ليرووا عنها فيما عدا أهلها كانوا قليلين جداً ولكن القصة التالية من بلوتارخ مثل له دلالة . فقد أخذ رجل مسن أثناء الألعاب الأولمبية يتجول هنا وهناك باحثاً عن مقعد والجمهور يسخر منه ، فلما انتهى إلى حيث يجلس الاسبرطيون وقف كل شاب فيهم وكثيرون ممن تخطوا مرحلة الشباب وعرضوا عليه مكاناً للجلوس ، فتهف الجميع للإسبرطيين . وعندها قال الرجل المسن وهو يتنهد « إن الإغريق جميعاً يعرفون الصواب غير أن

الاسبرطين وحدهم هم الذين يعملونه . إن الذى أثر فى الإغريق فى حقيقة الأمر ، حتى فيمن كانوا يمتقنون الدولة الاسبرطية هو أن الاسبرطين قد فرضوا على حياتهم نمطاً معيناً ونبذوا الكثير جداً من أجله . أما أن هذا النمط قد فرض عليهم من الخارج إلى حد بعيد فهو صحيح . إذ فرضه عليهم خطر الرقيق . غير أن من الحق أيضاً أنهم حولوا الإلزام الذى لم يفرض عليهم إلى إلزام اختيارى . ويجب على الإنسان عند دراسة التاريخ أن يحذر من رؤيته للشئ الواضح وتركه لما له مغزى ودلالة . والذى له مغزى هنا هو أن قوانين ليكورجوس كانت تهدف لا إلى مجرد إخضاع الرقيق إلى الدولة الاسبرطية بل إلى خلق المواطن المثالى ، وهذا مثل أعلى محدود ولكنه مع ذلك كان مثلاً أعلى . إن الذى أعجب الإغريق هو أن قوانين إسبرطة قد أدت بصورة حاسمة جداً ما كان يعتقد الإغريق أنه أسمى وظيفة من وظائف القانون . إن فكرتنا عن القانون كلها رومانية إلى حد أننا نجد من الصعب علينا التفكير فى أن القانون أداة خلاقة ببناء ، غير أن هذه كانت الفكرة الاغريقية العادية . لقد كان أول تفكير للرومان فى القانون بطريقة عملية محضة . فالقانون عندهم هو الذى ينظم العلاقات بين الناس وشؤونهم وهو مجرد وضع ما جرت به العادة فى الصيغة القانونية . ولم يبدأ رجال القانون من الرومان فى استنباط المبادئ القانونية العامة من قوانينهم ويتوسعوا فيها على ضوء المبادئ الفلسفية إلا عندما تأثروا بالنموذج الإغريقى . أما الإغريق فقد كان يفكر فى قوانين « دولته » أى فى « النوموى Nomoi » مجتمعة على أنها قوة خلقية خلاقة . فلم يكن يقصد منها فقط نيل العدالة فى كل حالة فردية بل كان يقصد أيضاً إلى غرس العدالة فى النفوس . وهذا سبب فى أن الشباب الآثينى كان يتعلم « النوموى » وهى قوانين دولته الأساسية طوال السنتين اللتين كان يقضيهما فى الجيش . وهذه القوانين تتميز عن اللوائح الخاصة التى تنظم أموراً من قبيل تركيب الأنوار فى

السيارات وهى أمور كانت تنقرر بواسطة التصويت . ولم يكن للإغريق كنيسة أو دين مؤسس على تعاليم بل لم يكن لهم ما نظنه نحن (الإنجليز) بديلاً مرضياً عنها أى وزيراً للتربية والتعليم فقد كانت « البوليس » تعلم المواطنين واجباتهم الخلقية والاجتماعية عن طريق القوانين .

ولهذا كانت إسبرطة موضع الإعجاب لأنها حسنة القوانين . وسواء أحببت مثلها الأعلى أو لم تحبها فقد كانت تدرب مواطنيها فعلاً على هذا المثل الأعلى تدريباً تاماً إلى حد غير عادى عن طريق قوانينها ونظمها ، وكانت بالفعل تدرب مواطنين محبين لأنفسهم على الصالح العالم . فإن كانت قد فشلت فى حالات بارزة للغيان فإن الخطأ خطأ القصور فى الطبيعة البشرية لا خطأ القوانين . لقد كانت موضع الإعجاب لأنها لم تغير قوانينها مدة قرون أو أن المفروض أنها لم تغيرها . وبدولنا هذا أمراً صبيانياً غير أن أى أمر إغريقى إن بدا لنا أنه صبيانى فالأولى بنا أن نعيد فيه النظر . ذلك أننا نعتقد أن من البديهي أن تتغير القوانين بتغير الظروف ، أما الإغريق فلعله لم يكن ذليلاً إلى هذا الحد أمام الظروف . وكان ما يدعوهم إلى ذلك فى دنياه التى تزيد ركوداً عن دنيانا أقل مما يدعوننا . غير أنه كانت لديه فكرة متفاوت درجتها تقوم على فرض نمط معين على الحياة لا المواءمة بين الإنسان وبين ذلك النمط . وهذا ما فعلته إسبرطة (هكذا اعتقد الناس) عندما قبلت قوانين ليكورجوس التى كانت قد وافقت عليها دلفوى . فلماذا إذن تغير النمط . إننا لا نبتسم عندما نسمع أن عقائد الكنيسة المقررة لم تتغير خلال قرون . لقد كانت قوانين ليكورجوس بالنسبة للاسبرطين نموذجاً « للفضيلة » أى للامتياز البشرى من وجهة نظر هيئة المواطنين بالذات ، وكانت فكرتهم عن « الفضيلة » أضيق من فكرة الآثينيين ، وهى تسوء محبى الإنسانية الحديثين بقدر ما تثير فيهم مطالبا الرعب . ومع أن هذه المطالب قاسية فى جملة نواح ووحشية فى نواح أخرى إلا أن فيها صفة من

صفات البطولة . فليس هناك من يقول بأن إسبرطه كانت حقيرة كما أن الإسبرطى لم يكن يسلم بأن إسبرطه كانت مجدبة من ناحية الفن لأن الفن هو الخلق والإبداع وإسبرطه إن لم تكن قد خلقت شيئاً من الكلام أو من الحجر إلا أنها خلقت رجالاً .

آثينا

كان الآثينيون في أتيكا وهى قطعة من الأرض مساحتها أقل بقليل من جلوسترشير . وكان عددهم فى أزهى عصورهم مثل عدد سكان بريستول تقريباً أو ربما أقل . كان هذا حجم الدولة التى أنجبت من الساسة فى مدى قرنين ونصف قرن سولون وبيسستراتوس Pisistratus وThemistocles وأريستيديس Aristides وبريكليس ومن كتاب المسرحيات إسخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس وأريستوفانيس ومناندر . كما أنجبت ثوكوديديس أعظم المؤرخين تأثيراً فى النفس وديموسثينيز أشد الخطباء تأثيراً ، ومنسيكليس Mnesicles وإكتينوس Ictinus مهندسى الأكروبوليس وفيدياس Phidias وبراكسيثيليس Praxiteles النحاتين ، وفورميو Phormio وهو من أبرع القواد البحريين ، وسقراط وأفلاطون . مع أننا لم نذكر فى هذه القائمة مجرد أصحاب المواهب . وفى نفس هذه الفترة ردت أثينا فارس مهزومة فى ماراتون Marathon بمساعدة ألف رجل فقط من أهل بلاتايا وبذلت وحدها أكثر مما بذلته بقية بلاد الإغريق مجتمعة لتفوز بنصر حاسم أعظم من سابقه وهذا هو نصر سالاميس Salamis . والإمبراطورية الوحيدة الإغريقية الصميمة فعلاً كانت أثينا هى التى أنشأتها . وفى جزء كبير من هذه الفترة كانت أصص الزرع الآثينية المحلاة بالرسوم الفاخرة مطلوبة ولها قيمة عظيمة فى إقليم البحر المتوسط كله وفى وسط أوروبا . ولعل أعظم ما يجدر بنا أن نلاحظه على الإطلاق هو وسيلة التسلية الشعبية التى

تقابل السينا عندنا ، وهى أسمى وأدق دراما وجدت إلى الآن . وهذه الحقيقة بعيدة عن محيط خبرتنا بعداً جعل مؤرخاً حديثاً لبلاد الإغريق يفترض أن الآثينى العادى كان من الجائز أن يرحب بمسرحيات أحط مستوى لو كانت متاحة له . وهذا مالا يمكن التسليم به بتاتاً . فنحن لم نسمع بأن المواطن الآثينى العادى كان يذهب إلى المسرح متأخراً أى عند نهاية عرض المأسى واقتراب الوقت الذى تبدأ فيه المسرحيات الهزلية التى يبعث التقليد فيها على الضحك . بل على العكس من ذلك إن الملاحى الذى كتبها أريستوفانيس تفترض دائماً أن أى محاكاة لأسلوب يوريبيديس أو أسخيلوس هى مما يجعل المسرح يدوى بالضحك . ولو إن الآثينى العادى كان يريد شيئاً أكثر « شعبية » لوجده ، فلقد كانت رقابته كاملة مباشرة . وموجز القول أن مساهمة هذه المدينة وحدها فى الثقافة الإغريقية والأوربية مدهشة جداً . ومالم تكن مقاييس الحضارة عندنا هى الراحة والاختراعات فإن آثينا من سنة ٤٨٠ إلى سنة ٣٨٠ (مثلاً) تعتبر أعظم مجتمع متحضر وجد حتى الآن .

إن أمجاداً من هذا النوع وهذا المدى لتدل دلالة واضحة على شعب غنى غنى غير عادى فى العبقرية الفطرية . ولو أنها تشير إلى شىء آخر مثل ذلك فى الأهمية وهو ظروف الحياة التى مكنت هذه العبقرية الفطرية من النمو والتعبير عن نفسها تعبيراً تاماً . ولهذا فسننتبع فى هذا الفصل والفصلين التاليين نمو « البوليس » الآثينية بشىء من التفصيل . إن ازدهار الثقافة الآثينية فى القرن الخامس كثيراً ما يسمى « معجزة » ، وقد كان يطلق على أمراض معينة كذلك فى التعبير الدارج عند الإغريق كلمة « معجزة » أو « آتية من الرب » . غير أن أحد أصحاب المؤلفات الطبية من الإغريق عبر عن حكمة عظيمة بقوله إنه لا يوجد مرض يشذ عن القاعدة بل كل الأمراض طبيعية وكلها آتية

من الرب وهدفنا أن نحكي هذا الطبيب الذى يتبع الأصول العلمية بشكل ملحوظ ، وأن نبين كلها أمكننا ذلك أن أيجاد آئينا فى عهد بريكليس هى معجزة وهى طبيعية . مثلاً فى ذلك مثل أيجاد أى زمان ومكان آخر . وسيكون علينا فى هذا الفصل أن نلاحظ نمو آئينا أثناء الحقبة الكلاسية الأولى .

قد رأينا أن الأساطير الآثينية تؤكد أن الآثينيين نشأوا فى أتيكا ، كما أن القائمة التقليدية للملوك الآثينيين — مهما بلغت قيمتها إذ أن لها شيئاً من الأهمية على الأقل — ترجع بنا تقريباً إلى القرن الرابع عشر . ونحن نعرف حالياً أنه كانت هناك مدينة موكنيه فى آئينا . ولكن آئينا ليس لها مركز ممتاز فى الإلياذة . فقد كان الاتحاد السياسى للإثنى عشرة « بوليسا » الصغيرة فى أتيكا هو الذى مهد طريق العظمة الآثينية ، ومن الشائق أن نلاحظ أنه عندما أخذت صناعة الفخار فى الانتعاش من الانحطاط الذى حل بها فى الأزمنة الموكينية المتأخرة ومن ضعف الحياة الثقافية الإقليمية السائدة فى العهد المظلم إنما يبدأ هذا الانتعاش فى آئينا حوالى سنة ٩٠٠ . فأصص الزرع الديلوونية Dipylon (وهى التى سميت كذلك نسبة إلى بوابة ديبلون التى عثر عليها بالقرب منها) مزخرفة طبقاً للطراز الهندسى السائد فى الفترة الموكينية ، ولكن القوة مالبثت أن عادت إليها فجأة فنبذت زخرفة عهد الانحطاط التى لا معنى لها ، ويبدو أن أتيكا التى كان تأثرها من الاضطراب الدورى أقل من غيرها من الجهات كانت أول من استأنف الاتصال بالثقافة القديمة .

ومن سنة ٩٠٠ إلى سنة ٦٠٠ حينما جعلت اسبرطه توطد تفوقها فى البيلوبونيز وتصبح القائدة المعترف بها للجنس الهيلينى كانت آئينا دولة من الدرجة الثانية بل حتى من الدرجة الثالثة . ولا بد أن الذى اقترح اتحاد

أتيكا فى ذلك العهد ونفذه كان سياسياً عبقرياً . فهذا أول الأعمال السياسية العظمى التى قام بها هؤلاء القوم ، لأن الآثينيين كانت لهم دون شك عبقرية فى سياسة الحكم . والمقارنة بين الرومان والآثينيين فى هذه الناحية تثير السخرية لسخافتها . فقد كان للرومان مواهب كثيرة ، غير أن براعة الحكم لم تكن واحدة منها . إذ لم ينفذ أى إصلاح كبير فى روما دون حرب أهلية . ولقد كانت أعظم مآثرة للجمهورية هى ملء روما بالغوغاء الفقراء وتخريب إيطاليا وإثارة ثورات الرقيق وحكم الإمبراطورية أو على الأقل أجزائها الغنية بواسطة نوع من السلب والنهب الشخصى ما كان يطيقه أى ملك شرقى . بينما كانت أعظم مآثرة للإمبراطورية هى التسليم بأن الحياة السياسية كانت مستحيلة فى حقيقة الأمر ، وإنشاء نظام للحكم أشبه بالآلة الصماء بدلا عنها . وأنا أعرف أن الامبراطورية الآثينية استمرت خمسين سنة بينما استمرت الامبراطورية الرومانية خمسمائة عام . ولكن امتلاك إمبراطورية ليس بالضرورة دليلاً على النجاح السياسى . وعلى أى حال فأنا أتكلم عن العبقرية لا عن النجاح . وفى الفترات التى كانت فيها الفوضى شائعة عملت الدولة الرومانية الكثير من أجل تنظيم حياة أفرادها وحمايتهم ، فيجب ألا ننسى أن العالم المكون من أوروبا والبحر المتوسط كان أكثر سلاماً ونظاماً فى القرن الأول الميلادى منه فى أى قرن آخر سواء فى العصر القديم أو الحديث . ولكن لم يحدث قط أن الدولة الرومانية بحالتها التى ذكرناها غيرت من نظام حياة أفرادها كما فعلت « البوليس » الآثينية فى القرن السادس والخامس والرابع بل حتى بعد ذلك . فإذا استطاع نظام سياسى أن يفعل ذلك فإن الإنسان الحق فى أن ينسب العبقرية السياسية للشعب الذى ابتكره ، ولو أنه ينبغى على الإنسان أن يحاذر من الادعاء بأن ذلك النظام كان مثلاً أعلى . وفى رأي أن أعظم نواحي تجلى هذه العبقرية هو ميل

الآثينيين بصفة عامة إلى معالجة المشاكل الاجتماعية معالجة تدل على أنهم قوم معقولون يعملون متعاونين ولا يستخدمون العنف كالأطفال أو المتبوسين . ونحن نراهم يتصرفون المرة بعد الأخرى على الصورة الآتية : إن الطبقة الممتازة بينهم كانت تفرع الحجة بالحجة وتقبل الحكم الذى يصدر بروح الولاء على وجه العموم . وقد كان يسرى فى الحياة الآثينية شعور بالمصلحة المشتركة To Koinon كان نادراً فى بلاد الإغريق القديمة كما هو نادر فى بلاد الإغريق الحديثة بل فى أوربا الحديثة فعلا .

ومن المعقول أن نذكر اتحاد أتيكا على أنه أول مظهر لذلك . ويعطينا ثوكوديديس أول وصف تقليدى له . ومن المؤكد أنه غير دقيق فى أحد تفاصيله الهامة . وإليك وصفه لكيفية احتفاء سكان أتيكا داخل حصون أثينا ويبريه : « لقد ذهبوا لاستحضار زوجاتهم وأولادهم وكل أثاثهم من الريف ولهدم الأجزاء الخشبية من بيوتهم كذلك . أما الماشية والغنم فقد بعثوا بها إلى يوبويا والجزر المجاورة ولكن هذا الانتقال كان على غير رغبة منهم لأن الجزء الأكبر منهم كان قد تعود أن يعيش فى الريف باستمرار . وكان الآثينيون قد اعتادوا ذلك أكثر من غيرهم . وقد كانت تسكن أتيكا دائماً على عهد كيكروبس Cecrops والملوك الأول حتى ثيسسيوس Theseus مجتمعات مستقلة لكل منها قاعة اجتماعاته الرسمية وقضاته . ولم يكونوا يتشاورون مع الملك إلا فى أوقات الخطر . وكانت كل جماعة تدبر شئونها . كما كانت تحارب الملك أحياناً . غير أنه لما أصبح ثيسسيوس ملكاً وهورجل قوى عاقل فقد نظم أتيكا من وجوه عديدة . فن أعماله أنه ألغى مجالس المدن الأخرى وقضاتها ووحد بينها جميعاً وبين أثينا جاعلاً لكل قاعة واحدة للاجتماعات الرسمية ومقرراً واحداً للجلس . ومع أنهم ظلوا جميعاً يتمتعون بممتلكاتهم كشأنهم قبل ذلك فإنهم أصبحوا أعضاء فى هذه المدينة فقط .

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن يحيى الآثينيون احتفالاً بالربة سونويكيا (١) من المصاريف العامة .

كان خطأ ثوكوديديس فى التاريخ بالطبع . فنسبة هذا الحادث لثيسسيوس تجعله قبل حرب طرواده . وفيما عدا ذلك يمكننا أن نعتبر هذه الرواية بما يمكن تصديقه إلى حد كبير . فقد كانت الملكية فى حالة انحلال كما كانت عاجزة تماماً أمام رؤساء العائلات (أو العشائر) النبيلة الأقوياء وهم الذين مزقوا ملكية قديمة للأخيين إلى عدد من « البوليس » الصغيرة تضم كل « بوليس » منها بضعة عشائر (وقد ظلت هذه العشائر المحلية تثير المتاعب حتى قضى عليها كليستينيز Cleisthenes حوالى سنة ٥٠٠ ق . م) وقد كان فى أتيكا وفى أتيكا وحدها تقريباً ما يكفى من الإدراك السليم لجعلها ترى حق هذا النظام . ولو أن الإغريق كانوا يرونه نظاماً مناسباً . ولا بد أن الذى قضى عليه هو مجهود سياسى مشترك لا مجهود ثيسسيوس العاقل القوى ، فقد كانت الملكية موجودة بالاسم فقط حوالى ذلك الوقت كما تدل على ذلك فعلا الروايات بكل جلاء .

أما الأمر الثانى الذى ترمى إلى مسامعنا فهو أن شخصاً يدعى دراكو Draco قام بنشر مجموعة للقوانين سنة ٦٢١ ق . م فقد كان القانون قبل ذلك مما جرى به العرف والعادة . وكانت الطبقة النبيلة التى جاءت فى أعقاب الملكية هى الحفيظة على هذا القانون التقليدى وهى التى كانت تحكم بمقتضاه وتنفذه . وكان هزيود قد كتب قبل ذلك ينتقد انتقاداً مرّاً الأمراء الذين يأخذون الرشاوى ويصدرون أحكاماً ملتوية . وكان السيل قد بلغ الزنى

(١) لقد ابتدعت الربة سونويكيا Synoecia (اتحاد البيوت) لهذه المناسبة أو لعلها اقتبست من هذه المناسبة إذ كان الاحتفال أكثر من ابتهاج سنوى عام فقد كان اعترافاً جدياً وقبولاً من الجميع لعملية الاتحاد .

في أتيكا، وكما أصبح رؤساء القبائل المسنون في أسكتلنده ملاكا للأرض بوضع اليد فكذلك كان الحال في أتيكا. وقد ضج الذين كانوا فريسة لذلك بالشكوى. ولا شك أن اتحاد أتيكا جعلهم أكثر شعوراً بقوتهم وبالمظالم الواقعة عليهم. وعلى كل حال فقد كفل هذا القانون المستمد من التقاليد بكل ما فيه من جفاء وقسوة شيئاً من الحماية ضد الظلم والتعسف على الأقل. غير أنه لم يكن كافياً. فكم من فلاح وقع في الدين ورهن أرضه أولاً للنبيال الغنى فلما عجز عن سداد ديونه استعبده الغنى بل وباعه في الخارج. وقد اشترك الناس في المطالبة بإلغاء الديون وتحرير المستعبدين وإعادة توزيع الأرض. وقد تركت ضروب السخط في ذلك الوقت أثراً عظيماً في تاجر أثيني سبق له أن قام بأسفار كثيرة كما أنه كان فيلسوفاً وسياسياً إلى حد ما بل وشاعراً عظيماً. هذا الرجل هو سولون. ومع أنه سمي بأعظم اقتصادي في العصر القديم إلا أنه لم يكن يعرف في الحقيقة كثيراً عن الاقتصاد السياسي. فقد كان يبدو لعقله البسيط أن مصدر المتاعب ليس هو النظام الاقتصادي بل الجشع والظلم. وقد أعلن ذلك بيلاعة عظيمة في قصائده. وكانت النتيجة رائعة. فقد اتفقت الأحزاب المعارضة بتلك الطريقة البسيطة المباشرة التي كانت تستطيع تلك الدول الصغيرة أن تستخدمها على أن تعطى سولون سلطات دكتاتورية طوال المدة اللازمة للقضاء على ضروب السخط والتدمير.

أن كثيراً من الدول الإغريقية التي وصلت إلى تلك الحالة لم تفعل شيئاً حتى انتقمت الطبقة المظلومة لنفسها بالثورة والمصادرة. فكانت النتيجة الطبيعية أن أصبحت الثورة ومقاومة الثورة من نصيبها دائماً. أما سولون فلم يرد التورط في ذلك. فقد قضى قضاء مبرماً على استعباد الناس بسبب الديون كما أنه خفض مقدار الديون وحدد قدر الأراضي التي يجوز امتلاكها ورد الأراضي التي فقدها المدينون إليهم. وأعاد إلى أتيكا الذين بيعوا

للخارج. غير أن أعظم خدمة قدمها لاقتصاد أتيكا كانت إقامة الزراعة فيها على أساس جديد. فقد كان جانب من المتاعب اقتصادياً محضاً نشأ من استخدام العملة. غير أن السبب الرئيسي في ذلك كان يرجع إلى أن أتيكا لم تكن مكتفية اكتفاء ذاتياً بطبيعتها. فقد كانت أغلب أرضها من الضعف بحيث لا تسمح بزراعة القمح، بينما كانت صالحة من جهة أخرى لزراعة الزيتون والكرم. ولذلك شجع سولون التخصص وإنتاج زيت الزيتون وتصديره، كما شجع الصناعة فشجع الصناع الأجانب بأن تعهد لهم بجعلهم مواطنين آثينيين حتى يقيموا في أتيكا، كما أمر كل والد بتعليم ابنه إحدى الصناعات. وعلى الذين يعتقدون أن الإغريق كان أرسقراطياً بطبيعته وأنه يحتقر العمل أن يتذكروا هذه الملاحظة. وقد كانت نتيجة ذلك المباشرة نمو صناعة الخزاف الأثيني وفنه حتى أصبح الأثينيون بفضل مهارتهم وذوقهم يحتكرون أصص الزهر الفاخرة التي وصلت إلى كل بلاد البحر المتوسط بل وإلى وسط أوروبا.

وقد كانت هناك مسألة سياسية بطبيعة الحال إلى جانب المسألة الاقتصادية. فقد كان يحكم أثينا حكام (Archons) يقوم بانتخابهم سنوياً من الأسر النبيلة مجلس يتكون من كافة المواطنين الحائزين على ملكية عقارية معينة. وكان هؤلاء الحكام يصبحون أعضاء في مجلس الأريوباجوس (تل أريس) بعد بقائهم عاماً في الحكم، كما كانوا من وجهة النظر التاريخية بمثابة الملكية القديمة حين تتولى مهمة الحكم. وقد صار المجلس الذي كانوا ينضمون إليه هيئة قوية مترابطة كمجلس الشيوخ الروماني الذي كان عظيم الشبه به. فلم يتدخل سولون في شؤون المجلس القديم ولكنه ألغى شرط مؤهل نبيل المولد واستبدله بمؤهل الملكية العقارية. وهكذا أصبح في إمكان طبقة التجار الجديدة أن تطمع في أعلى الوظائف، كما أصبح من الممكن أن يتغير طابع المجلس بمضى الزمن. وقد سمح لجميع المواطنين بدخول المجلس وزادت سلطاته بطرق غير واضحة تماماً، غير أن المجلس أصبح على الأقل من

الأهمية بحيث يشتمل على لجنة منتخبة مكونة من ٤٠٠ عضو أشبه بلجنة تنفيذية لإعداد أعماله .

وبعد أن قام سولون بكل هذه الأعمال تخلى عن وظيفته الاستثنائية وعاد إلى أسفاره .

وإنه ليكون من أعظم بواعث الرضى أن يتمكن الإنسان الآن من أن يقول « ما كاد سولون يغادر البلاد حتى هبت العاصفة بأقصى شدتها ، فقد أثار غضب الفقراء أن مانالوه كان قليلاً جداً كما أثار غضب النبلاء أنهم أرغموا على التنازل عن كثير جداً ، فكان الفريقان يشتركان في بغضهما الشديد لسولون ولو أن ذلك لم يكن كافياً لمنع الثورة من أن تعم أتيكا كلها . كنا عند ذاك نعتبر هذا أمراً مألوفاً ونشعر بالراحة لأن هؤلاء الآثينيين مثلهم كمثل من عداهم من الناس تماماً . غير أن ذلك لم يحدث ، فإن القوانين الماركسية من جهة لم تكن قد صدرت بعد ومن جهة أخرى كان الآثينيون يرون أن الصالح العام أهم من المنفعة الحزبية . وهم في هذه الناحية إن لم يكن في غيرها يشبهون الجنس البريطاني إلى حد ما .

كما أن تاريخ أتيكا من الجهة الأخرى ليس قصة من قصص الجنيات ، فإن سولون لم يحرك عصا سحرية فقد عاد القلق السياسى إلى الظهور وأوجد هذه المرة في آثينا ما أوجده في كثير من المدن الإغريقية الأخرى حوالى ذلك الوقت أى حا كما مستبداً .

فقد كان بيزستراتوس حا كما مستبداً من النوع المألوف . وكان الأسلوب الفنى لهذا الحاكم المستبد وكذلك سياسته شبيهين جداً بما نجده في زماننا ، فالحرس الشخصى وحريق الرايشستاخ والألعاب الأولمبية بيرلين وتجهيف

المستنقع البوتى وتطهير الفورم Forum^(١) كل هذه الأشياء لها أشباهها في قصة بيزستراتوس وغيره من المستبدين الإغريق . غير أن هناك اختلافاً كبيراً جداً بين الفريقين ، فقد كان المستبدون الإغريق دائماً على وجه التقريب أرسقراطيين ومتحضرين فكانوا يعيدون كل البعد عن عرفناهم من العوام المتهوسين أعداء المثقفين ، إلى حد أن عدداً منهم وجد له مكاناً في مجلس الحكماء السبع . وهكذا كان بيزستراتوس مثلاً حسناً للحاكم المستبد . ويصف هيرودوتوس (الذى كتب هذا بعد عهده بأكثر من قرن تقريباً) مجيئه بالطريقة الآتية : —

كان ابقرات Hippocrates وهو أحد النبلاء الآثينيين يشاهد الألعاب الأولمبية وقد أعد أضحية وضع لحمها في إناء كبير للماء فوجده يغلى مباشرة مع أنه لم يكن قد وضعه على النار ، ففسر خيلون الاسبرطى أحد الحكماء السبعة هذه الأعجوبة بأن نصيح ابقرات بالألا يكون له ولد أبداً ، ولكن ابقرات انجب ولداً بالفعل وهو بيزستراتوس Pisistratus ثم حدث أن قام نزاع في أتيكا بين سكان الساحل بقيادة ميگاكليس Megacles وسكان المدينة بقيادة من يدعى ليكورجوس (ويتكلم غيره من الثقاة عن حزبي الساحل والسهل وقد يدل هذا بصفة ضمنية على شيء من تضارب المصالح بين التجار وملوك الأراضى ، ولكن من الجائز أن نبالغ أكثر مما ينبغى في تفسير السياسة الإغريقية طبقاً للمنطق ، لأن المنازعات المحلية والشخصية البهتة كان يتبع الإغريق أنباءها بحماسة عظيمة دائماً) فأنشأ بيزستراتوس الذى كان يهدف إلى تولى السلطة العليا حزباً ثالثاً . وحينما جمع أعوانه بحجة حماية أهل التلال (وهم الطبقة الريفية التى تعتبر أفقر من غيرها) دبر الحيلة الآتية : أصاب نفسه وبغاله بجراح وقاد عربته إلى الميدان كما لو كان يحاول الهرب من أعداء خارج الميدان وطالب بحرس شخصى . ولما كان مواطناً ممتازاً سبق أن استولى على نيسايا Nisaea وغيرها من الميجاريين فقد سمح له الآثينيون بأن يختار

(١) يشير المؤلف إلى بعض أعمال هتلر وموسوليني في ألمانيا وإيطاليا (المترجم) .

لنفسه بعض المواطنين على ألا يتسلحوا بالحرا ب بل بالعصى ، فاستولى بواسطتهم على الأكروبوليس كما استولى على الحكم . ولكنه لم يتدخل في أمر القضاة الموجودين إذ ذاك أو في القانون ، وحكم المدينة حكماً حسناً .

وقد جعل ذلك ميغا كليس وليكورجوس منافسيه من النبلاء يثوبان إلى رشد هما ، فاتفقا وطردا بيزستراتوس ولكنهما ما لبثا أن تنازعا مرة ثانية واستمرا كذلك إلى أن وعد ميغا كليس أن يؤيد بيزستراتوس (الذي كان منفياً) إذا تزوج ابنته فتمت الصفقة ولكن الصعوبة كانت في تنفيذ الخطة مرة ثانية . وهنا يروى هيرودوتوس الخطة الثانية بشيء من الحدة .

لقد دبرا في رأي أعظم خطة مثيرة للسخرية خطرت ببال إنسان ، لاسيما إذا وضعنا موضع الاعتبار أولاً أن الإغريق كانوا دائماً يمتازون عن البرابرة بسعة الحيلة وبعدهم عن الحق الساذج ، وثانياً أن هذه الحيلة قد نفذت في الاثنينين الذين يعتبرهم الناس أذكى الإغريق . فقد كانت هناك امرأة تدعى فوا Phye (١) طولها ستة أقدام إلا بوصتين كما كانت جميلة جداً فألبسوها درعا على هيئة سترة كاملة ودربوها على تمثيل الدور الذي كان عليها أن تلعبه وأركبوها عربة سارت داخل المدينة حيث نادى المتنادون (الذين كانوا قد أرسلوهم إلى هناك) « يارجال أثينا رحبوا بالطف ترحيب بيزستراتوس الذي تكرمه الالهة أثينا نفسها فوق كل من عداه من الناس ، وهي تقوده الآن في عربتها إلى قلعتها الخاصة » ونشروا ذلك في أرجاء المدينة فاستقبل الناس بيزستراتوس وهم يعتقدون أن هذه المرأة هي الربة أثينا كما أنهم تقدموا لعبادة مخلوق بشري .

وقد تكون القصة السالفة صحيحة . ولعلنا لا ننسى كيف عاجلت بعض الصحف الإنجليزية موضوع « ملائكة مونز » بطريقة جدية . وإذا صح أن

(١) اختيار الاسم مناسب جداً لأن فوا بالاعريقية معناها « النمو » أو « طول القوام » .

هذه الحيلة قد نفذت فمن المؤكد أن ميغا كليس وبيزستراتوس وجدا فيها تسليية أكبر مما وجد هيرودوتوس .

وقد كان على هذا النبيل البار أن يدبر حيلة لعودته مرة أخرى لأنه تنازع مع ميغا كليس قبل أن يستقر به المقام . وقد اتبع في هذه المرة طرقاً عسكرية قديمة ساعده عليها إهمال خصومه واستسلام مواطنيه . وفي هذه المرة لم يتحمل من زملائه النبلاء أى عبث ، ولو أن ذلك لم يقتض أى سفك للدماء . ففر الكثيرون وأخذ من الآخرين أبناءهم رهائن ووضعهم في إحدى الجزر التي كانت تحت سيطرته . فلما تم له ذلك واصل الإدارة الصالحة عشرين سنة (٥٤٦ — ٥٢٧) وساعد الفلاحين الفقراء بطرق مختلفة ووزع عليهم الأراضي المصادرة وأنشأ قناة تمد أثينا بمورد من الماء الذي كانت في حاجة شديدة إليه وساهم على العموم في رخاء أثينا واستقرار نظام حكمه ، ولكنه اهتم كذلك بزيادة شهرة أثينا الدولية . ولما كان لغيره من الحكام المستبدين حاشية سنية فقد صمم على أن تكون له حاشية كذلك . وقد بقى إلى وقتنا هذا ما يكفي من أعمال النحت وطلاء الاصص التي تمت في عهده مما يدل على أن هذه الفنون ازدهرت فانتسمت بالأناقة التامة والبهجة . ونحن نعلم أنه اجتذب إلى بلاطه الشعراء الأيونيين سيمونيديس Simonides وأنا كريون Anacreon مثلما فعل بعدئذ بالضبط هيرود Hiero حاكم سرقوسة المستبد الذي اجتذب إلى بلاطه سيمونيديس Simonides وباخيليديس Baechylides وبندار الجاد الرزين وكذلك اسخيلوس نفسه . وقد أنشأ بيزستراتوس المباني ككل الحكام المستبدين . وأنغم مشروع له هو معبد لزيوس أوليمبوس غير أن استكمالها كان في حاجة إلى انتظار حاكم أقوى من بيزستراتوس هو الإمبراطور هادريان Hadrian الذي لازالت تعتبر بقايا معبده أحد المناظر الرائعة في أثينا .

وهكذا عمل بيزستراتوس على أن يرفع شأن أثينا من مدينة ريفية صغيرة إلى مدينة ذات أهمية دولية . غير أن جانباً آخر من سياسته الثقافية كانت له أهمية أكبر؛ فقد أعاد تنظيم بعض الأعياد الوطنية على نطاق واسع وكان من بينها عيد ديونيسيسوس Dionysus وهو أحد آلهة الطبيعة (وليس إله الخمر وحدها بآية حال) . وبالتوسع في هذا العيد أعطى بيزستراتوس لأول مرة أهمية علمية لفن جديد وهو الدراما التراجيدية . وقد كانت أنواع مختلفة من الدراما متوطنة في بلاد الإغريق ، فكان هناك الرقص المسرحي وحفلات الطقوس الدينية التي كانت تقام تكريماً لديونيسيسوس وتستخدم الإشارات والمحاكاة الهزلية للأشخاص ، لاسيما أن الرقص مع النشيد الحماسي لديونيسيسوس بدأ يتخذ صورة درامية (هذا على الأقل ما يقوله أرسطو) فكان يبتعد أثناءه رئيس فرقة الإنشاد ويستمر في محاورة شعرية غنائية عاطفية مع باقي الفرقة . وقد اتخذت مثل هذه الدراما البدائية في أتيكا شكلاً فنياً ، ويرجع الفضل في ذلك إلى حد بعيد إلى رجل واحد هو ثيسبيس الذي لا نعرف عنه إلا النزر اليسير ، وقد رفع بيزستراتوس من شأنها باستخدامها في مهرجانه الجديد ، وقد أجريت أول مباراة تراجيدية في سنة ٥٣٤ . وقدمت فيها الجائزة لثيسبيس Thespis . وليس هناك ما يعبر عن روح أثينا الجديدة ويسمو بها أبلغ من هذه الدراما العلمية التي ستكون لدينا فرصة فيما بعد نتحدث عنها فيها .

ولكن هذا الحاكم المستنير أعطى شعر الملاحم والدراما التراجيدية الجديدة أهمية علمية . فقد جعل القراءات التي لشعر هومر جزءاً من المهرجان السنوي العظيم ، « مهرجان أثينا المتحدة » وهناك قصة بالفعل لا يمكن أن تتبعها إلى عهد أبعد من شيشرون Cicero أي بعد بيزستراتوس بخمسمائة عام) تقول إنه أخرج أول نص ثابت لشعر هومر ، مع أن هذا غير محتمل على الإطلاق ، وإن كان يعكس على الأقل الأثر الذي تركه بيزستراتوس في تاريخ ثقافة الإغريق .

« كان ذلك كله أكثر من مجرد إشباع لغريزة تقدير الجمال عند حاكم مستبد بل كان جزءاً من سياسة لا يستطيع إدراكها إلا رجل ذو بصيرة نافذة ، فقد كان تقدير الفن والأدب حتى ذلك الوقت محصوراً في دائرة ضيقة جداً إذ كان النبلاء الآثينيون في الحقيقة هم ورثة عصر البطولة الذي كان قد بعد عهده وهو الذي كان فيه المترنمون بقصائد هومر من أصحاب الأصوات الرخيمة على اتصال بالقصور ، وكانوا يغنون في حفلات العظماء . فقد كان هدف بيزستراتوس أن يتيح للكثيرين ما كان حتى ذلك الوقت امتيازاً (١) للقليبين .

لم تكن في الأصل كلمة Tyrant (أي حاكم مستبد وهي لفظة ليست إغريقية بل مأخوذة من ليديا Lydia تستدعي إلى الذهن أي معنى من المعاني الفظيعة التي أصبحت لها فيما بعد والتي بقيت ملازمة لها إلى الآن ، ولذلك ظل الإغريق يذكرون بالحمد ما كانوا مدينين به للحكام المستبدين . ومع ذلك فقد كان صعباً على الإغريق ألا يسمح له بتولى إدارة شؤونه العامة بنفسه ، كما أن من الطبيعي أن تأخذ الحكومات الاستبدادية في الانحطاط ، فهذا ديونيسيسوس حاكم سرقوسه كان يؤنب أحد أبنائه ذات مرة على مسلكه الوقح تجاه أحد المواطنين فأجابه « إني لا أتبع مثل هذا السلوك إطلاقاً » فقال أبوه « عجبا ! ولكن أباك لم يكن مستبداً قط » فأجابه ابنه « نعم وما دام هذا شأنك فإن ابنك لن يكون مستبداً » وقليل من الحكومات الاستبدادية أمكنها أن تعمر أكثر من الجيل الثالث . وهذا الحكم انتهى في الجيل الثاني فقد قتل هيباركوس Hipparchus أحد أبناء بيزستراتوس في عراك خاص أما ابنه الثاني هيباس Hippias فقد كانت تساوره الريب في وجود دوافع سياسية معادية ولم يكن ذلك دون سبب معقول ، ولذلك أخذت مظالم حكمه

(١) روبنسون في زيتو هلاس . Zito Hellas . ص ٥١ .

تتفاقم حتى طردته أسرة نبيلة منفية هي أسرة الكمايونيدس بمساعدة إسبرطه وبتأييد الآثينيين العام .

ومع أن نهاية الاستبداد قد قوبلت بالترحاب إلا أن هذا الحكم كان له فضل كبير على أثينا ، ولما كان يزستراتوس قد حافظ محافظة دقيقة على أسس دستور سولون الديمقراطي المعتدل ، فقد تلقى الآثينيون تدريباً في إدارة شئونهم الخاصة مدة جيل من الزمان تحمت الوصاية الرشيدة . وقد ظلت أمور أثينا تسير على ما يرام بعد سقوط الاستبداد مع أن الذي كان متوقفاً هو حدوث رد فعل أرستقراطي . وقد حاول ذلك بالفعل شخص يدعى إيساجوراس بمساعدة مسلحة من إسبرطه ، غير أنه كانت هناك جماعة أرستقراطية أخرى يرأسها ثالث سياسي آثيني بارز في ذلك القرن وهو كليستينيز Cleisthenes الذي انضم إلى جانب الشعب وفشل الانقلاب .

غير أن ما عمله كليستينيز كان أكثر من ذلك بكثير ، فقد أتم إصلاح الدستور ، فقد كان الفضل في قوة الأسر النبيلة في « البوليس » المنظمة من الناحية الإسمية تنظيمياً مركزياً راجعاً إلى أن البوليس فيما يختص بموضوع انتخاب القضاة Archons كانت مقسمة إلى قبائل أو مجموعات من الأسر بحيث أن الرئيس المعترف به لأي جماعة كان من المؤكد انتخابه . وقد ثبت أن تلك الجماعات كانت أقوى مما ينبغي لسلامة « البوليس » وقد عالج كليستينيز هذا الخطر بابتداع دستور صوري مخالف لما جرت به العادة ولكنه أدى الغرض منه في الواقع على أتم وجه . فقد أنشأ عشرة « قبائل » جديدة كل الجدة زودها جميعاً بالأنساب العريقة وجعل كلا منها تضم عدداً متساوياً تقريباً من الوحدات الإدارية التي لا يجاور بعضها بعضاً ، وهذا كل ما في الأمر . وقد قسم كليستينيز أتيكا إلى ثلاث مناطق على وجه التقريب هي المدينة والساحل وداخلية البلاد . وكانت كل « قبيلة » من هذه القبائل الجديدة تضم وحدات إدارية من كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة . فكانت كل قبيلة

لذلك تكون قطاعاً مستعرضاً من جميع السكان وعندما كانت تجتمع لإدارة شئونها كان مكان اجتماعها الطبيعي هو أثينا . وقد ساعد هذا تلقائياً على توحيد « البوليس » ولما كانت كل قبيلة تضم زراعاً وطائفة من أهل التلال وصناعاً وتجاراً من أثينا ويبريه وطائفة من يسكنون السفن لم يكن في إمكان العصبيات المحلية والعائلية أن تفعل إلا القليل في انتخاب القضاة . كما لم تكن تستطيع أن تعبر عن آرائها إلا في جلسات المجلس العلنية حيث كان يمكن فهمها على حقيقتها .

إن كون مثل هذا النظام المصطنع قد سار على ما يرام يحتاج إلى بعض الإيضاح فإنه يبدو صعباً جداً بينما الآثينيون يعتبرون عكس ذلك على خط مستقيم ، ولو أن نظاماً كهذا فرض علينا لقضى عليه من بادئ الأمر لأنه مصطنع أو « مدبر » .

أما الإغريق فلم يكن يعترض على شيء جديد إذ أن مجرد كون العقل البشري قد أنتجه بعد تفكير منطقي رصين كان مما يشفع له . وقد رأينا قبل بضعة صفحات أن هذا كان سبباً من الأسباب التي جعلت الدستور الإسبرطي موضع إعجاب الإغريق كما أن علينا أن نتذكر أن الإغريق وإن كان من أنصار المذهب الفردي إلا أنه كان يجب أن يعمل مع الجماعة . فقد كان يريد من جهة أن يشترك فيما كان حوله ، كما أنه كان يحب المنافسة من جهة أخرى .

وقد أَرْضَى نظام كليستينيز كل هذه المطالب الفطرية ، إذ أنه أنشأ بكل مهارة ووضوح ليسد حاجة ماسة وهي جعل البوليس كلاً متكاملًا ، فقد ترك للآثيني وحدته الإدارية لقضاء شئونه المحلية ومن أهمها اعتماد قبول المواطنين الجدد ، فقد كان من الضروري أن يقبل أعضاء الوحدة الإدارية الطفل الحديث الولادة من الوجهة الشرعية كما أن هذا النظام جعل

ولاء الآثني « للبوليس » أشمل ، فإن المواطن لم يكن يعطى صوته بواسطة « القبائل » فحسب بل كان يحارب كذلك عن طريق « القبائل » بحيث أصبح هذا النظام الجديد يدخل في تكوين فرقته العسكرية كذلك . ولما كانت المباريات المسرحية أيضاً تجرى عن طريق « القبائل » فقد وجهت شغفه بالمنافسة توجيهاً هادفاً خلافاً .

وقد صحب تغيير هذه الأسس السياسية تغييراً فيما فوقها من بناء أيضاً . فقد أعطت إصلاحات سولون كل مواطن دوراً يلعبه في الدولة ولو أنه كان دوراً محدوداً جداً فيما يختص بالطبقات الفقيرة . وقد واصل كليستينز الأرستقراطي ما بدأه سولون وكاد يتمه . فقد اقتضت سلطات مجلس الأريوباجوس (المحكمة العليا) إلى حد بعيد وجعل المجلس الذي يضم المواطنين جميعاً هو الهيئة التشريعية الوحيدة النهائية . كما جعل القضاة مسؤولين أمامه أو أمام لجان من المجلس لها صفة الهيئات القضائية . ولم يبق على الجيل التالي إلا أن يلغى آخر مؤهلات العضوية الخاصة بالملكية العقارية وأن يتخذ الخطوة الأخيرة التي تبدو ضعيفة في ظاهرها وهي خطوة اختيار القضاة بواسطة القرعة ، وعندها أصبح نظام الحكم الآثني ديمقراطياً إلى الحد الذي استطاعت مهارة الإنسان في الابتكار أن تصل إليه .

هذه ، باختصار شديد ، كانت الحوادث التي حولت أثينا في أقل من قرن من « بوليس » من الدرجة الثانية قد مزقتها النزاع الاقتصادي والسياسي إلى مدينة مزدهرة تنعم بوحدة جديدة وهدف جديد وثقة جديدة . وكما أن اسبرطة وجدت لها مثلاً أعلى فقد وجدت أثينا مثلاً آخر .

وقد أفضت هكذا في الكلام عن أثينا في القرن السادس فذلك وحده هو الذي يجعلنا نستطيع أن نفهم أثينا في القرن الخامس . إن الثقافة الرفيعة يجب من وجهة النظر التاريخية أن تصدر من طبقة أرستقراطية ، فهي وحدها التي لديها الوقت والنشاط الضروريان لخلقها . فإذا ظلت مدة أطول مما ينبغي

قاصرة على الطبقة الأرستقراطية بلغت أولاً حد الإلتقان ثم أصبحت سخيقة بعد ذلك . وهذا هو ما يحدث بالضبط للطبقة الأرستقراطية في التاريخ السياسي ، إذ تصبح شراً مستطيراً إذا أصرت على أن تعيش أكثر مما تستلزمه وظيفتها الاجتماعية . أما في الميدان السياسي فقد جعل الإدراك السليم السائد في أثينا وهو الذي بلغ حد العبقرية عند سولون وبيزستراتوس وكليستينز ، الطبقة الأرستقراطية الآثنية بصفة عامة تشترك في النظام الديمقراطي قلباً وقالباً حين كانت لا تزال في عنفوان نشاطها .

وقد جاءت غالبية رجال الحكم الآثنيين في الجيلين التاليين من أرقى العائلات ، وأبرز مثل على ذلك هو بريكليس . فإذا أردنا أن نقابل بين ما حدث هناك وما حدث في فرنسا الحديثة ، نجد أنه كان لابد من استخدام المقصلة لاستئصال الطبقة الأرستقراطية التي عاشت بعد الفترة التي كانت فيها مفيدة جداً . وكان من نتيجة ذلك أن اضطرت البقية الباقية سواء كان لديها ما تقدمه لفرنسا الجمهورية أو لم يكن ، أن تعيش مترفعة عن الآخرين . أما في الميدان الثقافي فقد اشتركت عامة الآثنيين في الثقافة الأرستقراطية حينما كانت لا تزال جديدة خلقة . وبمقارنتها بانجلترا نجد أن أحد الأسباب في أنها كانت متحضرة بصورة جوهرية في القرن الثامن عشر هو أنه لم يكن عندنا قط (معشر الإنجليز) فاصل حاد بين عليمة الطبقة المتوسطة وبين الطبقة الأرستقراطية ، بحيث أن الأولين تثقفوا بثقافة الآخرين وظلوا بذلك معقولين . وهذا هو السبب في انتشار الآداب العامة في ذلك العهد وفي وضوح الذوق السليم في الفن المعماري والفنون الصغيرة إذ ذاك ، على عكس المبالغة والتطرف السخيف في أوروبا الذي تميز فيه فن الباروك Baroque بالإسراف في الرسوم الزخرفية التي تكاد تبرر وحدها قيام الثورة الفرنسية . فلم يستطع المجتمع البورجوازي الذي خلف الطبقة الأرستقراطية في أوروبا أن يتعلم شيئاً ذا بال من فن الباروك . ولقد كان من الممكن أن تثقف الطبقة

الوسطى الآخذة في النهوض في إنجلترا في القرن التاسع عشر بثقافة القرن الثامن عشر وتواصل حملها بسلام لولا الثورة الصناعية التي رفعت بصورة أسرع مما ينبغي طبقة جديدة من الكثرة والثقة بالنفس بحيث لا يمكن اشتغالها بذلك . ولهذا فالمجتمعات الديمقراطية الحالية في إنجلترا وأوروبا (فيما عدا البلاد الإسكندنافية) ليس لها صلة بأحسن تقاليدهم الموروثة وذلك لأسباب مختلفة . ولقد نجت أثينا من ذلك بسبب حكمة القرن السادس السياسية من جهة وبسبب سياسة بيزنطوس الثقافية من جهة أخرى . وكانت النتيجة أن الثقافة الآثينية في القرن الخامس كان لها رصانة المجتمع البورجوازي السليم وتماسكه فضلا عن رشاقة الأرستقراطية ورقيا وبعدها عن الغرض .

(٧)

بلاد الإغريق الكلاسيكية

القرن الخامس

حدثت في آسيا خلال القرن السادس حوادث كان مقدراً لها أن تؤثر تأثيراً عميقاً في الإغريق . ففي سنة ٥٦٠ استقبلت مملكة ليديا في الجزء الغربي من آسيا الصغرى ملكاً لا يزال اسمه مألوفاً لدينا وهو كرويسوس Croesus الأسطوري . وقد نجح في إخضاع مدن الإغريق في أيونيا غير أن كرويسوس كان رجلاً متحضرأً ومحباً للإغريق إلى حد ما . ولم تكن فتوحاته من الكوارث المحضة . وكان يقنع بحكم المدن عن طريق حكام مستبدين (Tyrannoi) مواليين له .

وقد اعتلى عرش مملكة ميديا الواقعة أبعد من ليديا شرقاً ملك فارسي هو قورش العظيم . ولما كان يحكم شمال أراضى ما بين النهرين فقد هزم مملكة بابل التي كان يحكمها إذ ذاك ابن شخصية مألوقة هي «نبوخذ نصر ملك اليهود» ولكنه التفت أولاً إلى ليديا جارتها الغربية . ولقد كانت هاتان الدولتان مشتبكتين على عهد أسلاف قورش وكرويسوس في حرب حدثت في نهايتها كسوف كلي للشمس تأثر به الجيشان إلى حد أنهما رفضا أن يواصلتا القتال كما جاء في الخبر . وهذا هو الكسوف الذي كان قد تنبأ به طاليس الميليطي^(١) . أما الحرب الثانية فقد بدأها كرويسوس بعد أن استشار عرافة دلفوى التي كان يكن لها أعظم احترام (كما قال الإغريق)

(١) أنظر الفصل العاشر

فأنبأته أنه لو عبر نهر هاليس الذى يفصل بينه وبين قورش فإنه يحطم إمبراطورية قوية وقد عبر نهر هاليس وحطم بالفعل إمبراطورية عظمت ولكنها كانت إمبراطوريته هو لسوء الحظ، إذ أن هذا الأحمق كان قد نسى أن يسأل عن الإمبراطورية التى كانت ستتحطم (١). وقد أوصلت هذه الحرب سلطنة الفرس إلى ساحل بحر أيجه حوالى سنة ٥٤٨ ق. م.

أن رواية هيرودوتوس لهذه الحوادث تعتبر من أمتع الأجزاء فى كتابه الشائق، ومما له دلالة عظمت أن أول تاريخ لما بين النهرين قد كتبه مؤرخ إغريقى. وهذا التاريخ يزخر بالقصص الممتازة، فهناك قصة ميلاد قورش وهى أطول بكثير مما نستطيع أن نذكره هنا. وهى باختصار القصة المألوفة للطفل العجيب الذى ينتظر أن يولد وأن يفعل هذا الأمر أو ذاك. وهناك من يحاول أن يحول دون ولادة الطفل أو أن يقتله ولكن محاولته تبوء بالفشل وتتحقق النبوءة بطريقة مذهلة. ومن الصور الإغريقية للقصة أسطورة أوديب. ومن الشائق مقارنة قصة قورش التى رواها هيرودوتوس بقصة أوديب الملك التى ألفها صديقه سوفوكليس وهى فى جوهرها نفس القصة ولكنها عند سوفوكليس ذات مغزى أعظم بكثير.

ثم أن هناك قصة اجتماع كرويسوس بسولون. ولا بد أن نفسح لها مكاناً هنا لأنها تلقى الضوء على العقل الإغريقى. فعندما قام سولون بأسفاره احتفى به كرويسوس احتفاء ملكياً فخماً وأطلعه على ضخامة كنوزه (ولو كانت القصة صحيحة من الوجهة التاريخية لكان سولون فى عداد الأموات قبل هذا الحين بمدة) فقال كرويسوس «إنى أعرف ياسولون شهرتك كفيلسوف كما أعرف أنك قد طوحت بك الأسفار وعرفت أموراً كثيرة فأخبرنى عن

(١) مما يمكن أن يتبادر إلى الذهن أن سياحة العرافة كانت تهدف إلى توريث كرويسوس وقورش فى حرب طويلة تكون من مصلحة بلاد الإغريق.

أسعد (١) رجل قابله « وقد وجه إليه هذا السؤال كما قال هيرودوتوس ظناً منه أنه «أسعد» الناس، ولكن سولون أجابه دون تردد «إن أسعدهم هو تيلوس Tellus الذى كان يعيش فى آثينا فقد كان يتمتع بالحياة فى «دولة» محكومة حكماً حسناً، وكان له أولاد شجعان طيبون كما رأى ميلاد أحفاد له أحماء، وبعد أن قضى حياة سعيدة بالقدر الذى تسمح به طبيعة الإنسان مات وهو يحارب حرباً مجيدة دفاعاً عن آثينا ضد إلوسيس وقد كرمه الناس تكريماً رائعاً عند دفنه كما أنهم يذكرونه بالحمد والثناء.

ثم سأل كرويسوس عن أسعد الناس بعده راجياً أن يأتى ذكره هو فى المقام الثانى. ولكن سولون قال «إنهما كليوبيس وبيتون من أهل أرجوس». فقد كان لهما ثروة كافية كما أحرزا جملة انتصارات فى الألعاب. وكان لموتهما ذكر مأثور. وقد كان على أمهما أن تصل راكبة إلى معبد هيرا على بعد خمسة أميال لحضور مهرجان هناك. فلما وجدا أن الثيران لم تأت من الحقول بسرعة كافية قاما بجر العربة بنفسيهما، فملل جميع من بالمهرجان لقوة الشابين وهما وأمهما. وقد طلبت وهى فى نشوة السعادة من الربة أن تمنح ولديها أعظم نعمة يمكن أن يحظى بها الإنسان فأجيب دعاؤها، إذ نام الشبان فى المعبد المذكور بعد تقديم القرбан وبعد الفراغ من المهرجان ولم يستيقظا قط.

وقد تضجر كرويسوس من الظن بأنه أقل «حظاً» من المواطنين العاديين ولكن سولون أشار إلى أن الإنسان يعيش أياماً كثيرة وفى كل يوم يأتى به شئ مختلف، ولهذا فلا يدعى الإنسان بأنه سعيد حتى يموت فمن يدرى ما يصيبه. غير أن القصة لا تنتهى هنا فبعد ذلك بسنين هزم قورش كرويسوس لشدة دهشة الجميع وأخذه أسيراً وأوثقه ووضع على كومة

(١) كلمة سعيد، ليس لها الدقة الواجبة هنا ولكن يبدو أنها أحسن ما عندنا ولو استخدمنا عبارة «حسن الطالع» لأدت معنى اللفظ الإغريقى بطريقة أفضل.

من الخشب لإحراقه سواء كان ذلك (على حد قول هيرودوتوس) و ناء بنذر أو قرباناً من أجل النصر أو ليرى هل ينقذ أحد الآلهة رجلاً متعبداً جداً مثل كرويسوس . حتى إذا أشعلت الكومة تذكر كرويسوس كلمات سولون فتوجع بصوت عال وذكر اسمه ثلاث مرات . ولما سئل عن السبب باح به فرق له قلب قورش . ومن الشائق أن نذكر لما إذا جعلته هذه القصة الإغريقية المحضة يلين ، فلم يكن ذلك لوازع خلقى بصفة خاصة فهو لم يدرك أنه كان قاسياً قسوة بشعة وإنما خطر بباله أنه يوشك أن يحرق رجلاً آخر وهو حي ، وأن ذلك الرجل كان قبل ذلك منعماً موقفاً مثله . وهو بهذا يتبع الحكمة الإغريقية القائلة « إعرف نفسك » ومعناها تذكر من أنت أنك رجل عرضة للموت وأحكامه وقيوده . ولهذا فقد أمر بالنار أن تطفأ خوفاً من القصاص العادل ، على حد قول هيرودوتوس ، واعتقاداً منه بأن ما هو بشري لا يثبت على حال واحدة ، غير أن إطفاءها إذ ذاك كان قد أصبح مستحيلاً ولهذا فقد دعا كرويسوس أبوللون أن ينقذه إن كانت قرابينه الغالية قد جلبت له شيئاً من محبة الرب ، وعند ذاك تجمعت السحب في السماء الصافية ونزل المطر مدراراً وانطفأت النار وصار كرويسوس وقورش صديقين بعد ذلك . وقدم كرويسوس نصيحة بارعة لقورش عن كيفية إدارة شئون اللبيين . هذه هي الطريقة التي رأى هيرودوتوس أن التاريخ ينبغي أن يكتب بها .

وفي سنة ٤٩٩ وقع حادث حدد طابع القرن الجديد . فقد ثارت المدن الأيونية على دارا Darius ملك الفرس . وقد انبرى هيرودوتوس لشرح الموقف ، فذكر كيف أن أريستاجوراس Aristagoras حاكم مليتوس ذهب إلى كليومينيس Cleomenes ملك أسبرطه طالباً معونته ووصف له بالتفصيل أجناس آسيا الخاضعة للفرس وجميعهم أغنياء غنى لا يصدق ، كما أنهم لا يميلون للحرب فهم يعتبرون غنيمة باردة للأسبرطيين . ولايضاح قوله

« أحضر معه » كما قال الإسبرطيون « لوحة صغيرة من البرونز منقوشاً عليها محيط الأرض الخارجي بأكمله والبحر والأنهار جميعاً » ، وهذه في الحقيقة أول خريطة ورد عنها أي شيء مكتوب . كما أنه أخذ يقارن في الختام بين فقر الحياة في بلاد الإغريق ورغبتها في آسيا ، فوعده كليومينيس بالرد عليه في اليوم الثالث . وفي ذلك اليوم سأله كليومينيس عن المسافة بين ساحل البحر الأيوني وبين مدينة الملك . ومع أن أريستاجوراس كان ما كرراً في كل ماعدا هذا الموضوع بحيث خدع الملك بمهارة فائقة ، فقد صدرت منه هفوة هنا لأنه ما كان ينبغي عليه أن يقول الحق إن كان يريد ذهاب الإسبرطيين إلى آسيا . ولكنه أخبره بصراحة أن الرحلة تستغرق ثلاثة أشهر . وعند ذلك قطع كليومينيس عليه وصفه للرحلة قائلاً : أيها الضيف الآتي من مليتوس ، غادر أسبرطه قبل الغروب فأنت تذكر أموراً لا يحبها الإسبرطيون وتحاول أن تستدرجهم إلى رحلة تبعد ثلاثة أشهر عن البحر .

ولكن الرجل الأيوني حاول أن يلعب دوراً آخر إذ تظاهر بأنه سائل وعاد إلى كليومينيس فوجده مع ابنته جورجو Gorgo الصغيرة ، وطلب من كليومينيس أن ينحى الطفلة جانباً ويصغى إليه مرة ثانية ، ولكن كليومينيس وافق على الإصغاء إليه دون أن يبعد الطفلة عنه ، ولذا وعد أريستاجوراس أن يعطيه عشر قطع ذهبية إن قبل أن يقدم المعونة الإسبرطية ثم أخذ يزيد فيما يعرضه عليه حتى أوصله إلى خمسين ، وعند ذلك صرخت جورجو قائلة « يا أبت إن لم تبعد فسيغويك هذا الغريب » . فابتعد عنه كليومينيس لذلك ولم تنل أيونيا أية مساعدة من إسبرطه .

ومع ذلك فقد حصل الأيونيون على بعض السفن من آثينا ومن أترتيا الواقعة في يوبويا ، وقد قامت هذه القوات بنهب سارديس Sardis عاصمة كرويسوس القديمة . ومع ذلك فقد فشلت الثورة إذ أظهرت بوضوح لفارس

انها لا أمل لها في الاحتفاظ بأيونيا في وقت السلم مالم تستعرض قوتها على الأقل في بحر إيجه . فأرسلت لذلك حملة سنة ٤٩٠ ضد المدينتين المعتديتين فهبت أرتريا ونزلت قوة فارسية على ساحل أتيكا الشرقى عند مراثون . وكان مع الفرس هيباس بن ييزستراتوس الذى كان مغبطاً لأنه كان قد طرد من أثينا قبل ذلك بعشرين سنة ، وكان المقرر أن يعاد تنصيبه حاكماً تحت حماية الفرس .

ولولا قوة صغيرة مكونة من ألف رجل من بلاتايا لترك الآثينيون وحدهم يواجهون الفرس . وقد انتصروا بعد أن كلفهم ذلك ١٩٢ رجلاً . وقد اشترك في هذا القتال أسخيلوس وأخوه فقتل الأخ وعاد أسخيلوس إلى بيته . وإن لنا أن نبتهج بذلك فهو لم يكن حتى ذلك الوقت قد كتب مسرحيات « الفرس » ، « وسبعة ضد طيبة » و « بروميثيوس » ومسرحيات أوربستيس الثلاث المتتالية .

وكان من الواضح أن فارس ستعيد الكرة ولكن لحسن الحظ شغلها عن ذلك ثورة في مصر كما شغلها موت دارا مدة عشرة سنين . وقد قررت هذه السنين العشر مصير أثينا . فقد تصادف أن عثر على عرق ثمين جداً من الفضة في منطقة التعدين في سونيوم . وقد كان لهذه المدن الإغريقية الصغيرة آراء بسيطة جداً ومباشرة عن المالية العامة والأخلاق العامة وأغلب الأشياء الأخرى . وذلك أنهم اقترحوا أن يوزع المال بين المواطنين على هيئة حصة أرباح ولكن ثمستوكليس Themistocles نظر نظرة أبعد من ذلك . فقد حدث أن أثينا كانت تحارب جزيرة إيجينا المجاورة وهي مدينة تجارية هامة ولكن نقص السفن كان مما يعوقها . ولذلك أغرى ثمستوكليس الآثينيين بإفناق هذا المال الذى لم يكن في الحسبان في إنشاء أسطول ، كانت إيجينا هى الهدف المباشر من إنشائه ولكن الخطر الفارسى كان في ذاكرته كما كان في إمكانه دون شك أن يتنبأ بأن لأثينا مستقبلاً باعتبارها قوة تجارية وبحرية .

وقد أنشئ الأسطول في الوقت المناسب إذ جاء الهجوم الفارسى الثانى في سنة ٤٨٠ ولم يكن في هذه المرة مجرد حملة تأديبية بل كان غزواً برياً كاملاً . وفي هذه المرة تحقق نوع من الوحدة الإغريقية ولو أن أرجوس في البيلوبونيز بقيت في معزل لاشترك الإسبرطيون الذين تكرههم في الحرب . ونحن لانستطيع أن نروى هنا قصة حرب العامين إلا أن هيرودوتوس رواها على أحسن صورة مع أنه وهو أعظم المؤرخين إنسانية لم يفهم استراتيجيتها قط فهماً حقيقياً ، فقد سقطت خطوط الدفاع الشمالية واحداً بعد الآخر ولو أن موقعة ثرموبولاي تعتبر حلقة مجيدة كما حدثت موقعة بحرية في المياه المجاورة بعيداً عن رأس أرتيميزيوم ولكنها لم تكن مثبته لهم ، فقد أظهرت أن السفن الإغريقية التى كان ثلثاها تقريباً آثينياً كما كانت أثقل من السفن الفارسية وأبطأ ، تستطيع أن تحارب بشيء من الأمل ضد أسطول العدو (وأكثره فينيقي وأيونى) في المياه الضيقة حيث لم يكن يستطيع العدو أن يقوم بمناورات . ولكن جاء الوقت الذى كان على الآثينيين أن يغادروا فيه أتيكا وينقلوا غير المحاربين وما استطاعوا من متاع إلى جزيرة سلاميس التى كانوا يستطيعون منها أن يروا الفرس وهم يحرقون بيوتهم ويذمرن معابدهم على الأكروبوليس .

ثم جاء أمر يعتبر من أعظم ما ثار حوله الجدل في التاريخ ، وربما اختلط الأمر على هيرودوتوس بالنسبة لبعض التفاصيل ولعله اعتبر من الحقائق ما كان مجرد تبادل للاتهامات في أعقاب الحرب ، غير أن هذه صورة لحادث إغريقى يصورها أحد الإغريق ، وهى في جوهرها صحيحة عن بلاد الإغريق . ذلك أن الإغريق من سكان الشمال كانوا قد استسلموا وأخذوا يحاربون إلى جانب الفرس ، ولم يبق من المحاربين إلا أهل البيلوبونيز وبعض الجزر وآثينا ، أما أتيكا فقد سقطت . وكانت قوات البيلوبونيز البرية عند المضيق مشغلة بتحصينه ، وكان أغلب القواد البحريين يحذون إرجاع الأسطول

المتحالف من سلاميس مخافة أن يحاصره الفرس هناك، ولكن ثميستوكليس رأى أن المياه الضيقة داخل سلاميس قد تغطي أسطول الإغريق فرصة للانتصار، أما في المضيق فهزيمته مؤكدة حتى لو تجمع الأسطول واتحد وهو مالم يكن محتملاً. فاستحث ثميستوكليس القائد الأعلى الأسبرطي Eurypides يوربياديس على أن يعيد فتح باب المناقشة (على حد قول هيرودوتوس) فوافق وأخذ ثميستوكليس يتكلم قبل أن يفتح يوربياديس باب المناقشة رسمياً في الاجتماع، فقال القائد الكورنثي «يا ثميستوكليس إن الذين يبدأون في الألعاب أسرع مما ينبغي يضربون بالسياط» فأجابه «ولكن الذين يبدأون متأخرين عما ينبغي لا يفوزون بالجوائز» وأخذ يشرح قضيته. لكن أديمانتوس الكورنثي قال إنه ليس له الحق مطلقاً في الكلام لأنه لم يعد يمثل مدينة. فتكلم ثميستوكليس عندهما كما روى هيرودوتوس بغلظة شديدة عن أديمانتوس وكورنثا على السواء قائلاً إن لدى الآثينيين حتى الآن مدينة أوسع ومساحة أكبر من كورنثا. إذ أنه مادام لديهم مائتا سفينة كاملة العدة فإنهم يستطيعون أن يغزوا أرض أى إنسان، ثم التفت إلى يوربياديس وقال لهذا الرجل البائس إنه إن لم يوافق على أن يبقى ويحارب في سلاميس فإن الآثينيين سينسحبون بسفنتهم ويعيدون إنشاء مدينتهم في إيطاليا، فلما توجه يوربياديس بذلك اضطر إلى الموافقة.

بقى عليه بعد ذلك أن يغرى كسيركسيس بالحرب في المياه الضيقة، وقد كان ذلك سهلاً جداً بالنسبة لثميستوكليس. فقد أرسل عبداً يملكه شخصياً في قارب إلى المعسكر الفارسي يقول إنه جاء من طرف ثميستوكليس الذي كان يقف سراً إلى جانب الفرس — وهو أمر كان من الممكن قبوله إلى حد ما، ويعلن أن الإغريق سيتقهرون بالليل عن طريق المنفذ الغربي لخليج سلاميس وأن على الفرس لذلك أن يسدوا المضيق الغربي حتى يوقعوا الإغريق في الشرك، فانخدع الفرس تماماً وأرسلوا قسماً من الأسطول لسد

المنفذ الغربي، كما تجمع باقيه داخل المياه الضيقة فلما غربت الشمس — أين كان؟

لقد انتصروا انتصاراً ساحقاً وكان أعظم الفخر لأثينا. ثم جاء دور الأسبرطيين في الصيف التالي، فقد انهزم جيش الفرس في بلاتايا بفضل ثبات الفرق الأسبرطية ثباتاً رائعاً لا بفضل القيادة الأسبرطية التي كانت ضعيفة (وإن كان أهل طيبة قد حاربوا بشجاعة إلى جانب الفرس). فانهى الغزو الكبير. وكان كل ما بقي هو تحرير أيونيا والتأكد من أن ملك الفرس لن يجرؤ على التدخل بعد ذلك في شئون الإغريق الأحرار. ولكن مما يؤسف له أن ملكهم استطاع بعد ذلك بمائة عام أن يفرض صلحاً من إملائته على الدول الإغريقية المتحاربة دون أن يقاتل في معركة واحدة.

ولقد كان النصر بعيد الأثر في نفس الوقت على بلاد الإغريق، إذ كان الإغريق قبل ذلك يحسنون الظن بأنفسهم دائماً حين يقارنون أنفسهم بالبرابرة. وقد تأيدت لديهم هذه الفكرة فكانوا يرون دائماً أن نظمهم الحرة أحسن من الاستبداد الشرقي، وقد أثبتت الحوادث أنهم على حق. فبينما كان العاهل الآسيوي يرغم الناس على الطاعة عن طريق التغذيب والضرب بالسياط، كان الإغريق يتخذون قراراتهم عن طريق المناقشة والإقناع ثم يتصرفون تصرف رجل واحد وبذلك انتصروا. فلا عجب أن ملأ الجيل التالي أعلى واجهات معابده بصورة منحوتة تمثل الحرب الأسطورية القديمة بين العمالقة من أهل الأرض وآلهة أوليمب. لقد انتصر آلهة الإغريق مرة ثانية فقد هزمت الحرية والعقل الاستبداد والفرع.

وقد كان هناك ما يدعو أثينا خاصة أن تشعر بالزهو والفخر. لقد رأى الناس في أثينا هذا النصر وهم الذين كانوا قد سمعوا من آبائهم كيف حرر سولون أرض أتيكا بالذات من استعباد الأثرياء ووضع قواعد

الديمقراطية ، وقد رأوا بأنفسهم بيزستراتوس يقرض الفقراء بذور القمح ويجعل بالتدريج من أثينا الهادئة مدينة تسترعى بعض التفات الإغريق . كما أنهم رأوا وهم في منتصف العمر نهاية الاستبداد ووضع دستور جديد حر بواسطة كليستينز . ولقد حدثت في أثينا منازعات مريرة كما بلغ الشعور الحزبي فيها غاية الشدة ، واتخذ لونا مسرحيا في القصة التي حكاهما أحد الناس لهرودوتوس عن انتقال أرسايديس Aristides العظيم ليلا وهو زعيم حزبي منى (١) من مقره المؤقت في إيجينا إلى سلاميس قبل المعركة البحرية مباشرة واستدعائه ثميستوكليس من مجلس الحرب وقوله له « لقد كنت أنا وأنت ألد الأعداء أما الآن فالمنافسة بيننا قائمة على أيما يمكنه أن يقدم أعظم خدمة لأثينا ، ولقد تسربت من بين الفرس لأقول لك إن أسطول الفرس محيط بنا فأدخل المجلس وأخبره ، فقال ثميستوكليس « حمداً للرب ! ولكن أدخل » أنت ، وقل لهم ذلك فإنهم يصدقونك ، وقد رأى الآثيني ديمقراطيته الناشئة تصمد لمثل هذه المنازعات الحزبية كما رأى جيش أثينا منتصراً في ماراتون ، ثم رأى مدينته تلجأ إلى البحر دفعة واحدة وتخاطر بكل شيء فيه . ثم رأى مدن أتيكا تحترق والأوكروبليس الخالد موطن كيكروبس Cecrops واركسيوس وثيسوس والربة أثينا نفسها ، وهو خراب يباب . ومع ذلك فقد خرجت منتصرة كما عملت أكثر من غيرها على إنقاذ بلاد الإغريق . ولم يكن لبلاد الإغريق إذ ذاك قائدة واحدة بل قائدتان فكانت تقف مدينته الريفية الهادئة والكل معجب بها إلى جانب اسبرطه مدينة البطولة . ومثل

(١) كان هذا النوع من التني Ostracism تديرا ابتكره كليستينز ليكبح من جماح العداوات الشخصية الموجودة في الحياة العامة في أثينا . فكان المجلس يستطيع أن يقرر هذا التني دون ذكر الأسماء . وعند ذاك كان يستطيع أي مواطن أن يكتب على قطعة من الفخار اسم أي مواطن يجب أن يراه مبعدا عن المدينة ابعاداً شريفاً لمدة عشرة سنوات . فإذا صوت ٦٠٠٠ أو أكثر ضد أي رجل فلا بد من نفيه دون عقوبة أخرى . وقد كانت هذه وسيلة لأبعاد زعيم أي حزب خطر .

هذا النجاح الذي يناله الناس لا بحسن الحظ ولكن بحسن الإدراك وبضبط النفس لا بالتسلط وفرض الذات كان بطبيعة الحال حافزاً لمجهود أكبر . وعندما جاءت الحرب الفارسية كانت أثينا قد عرفت نفسها لتوها فما الذي لم يكن في استطاعتها ؟ . إن هناك شها بين أثينا في سنة ٣٨٠ وانجلترا في سنة ١٥٨٨ ، فحينما نظر الناس كانوا يرون إمكانيات مثيرة . بل إن نظرة الآثيني كانت أبعد مما رآه الإنجليز . فن الوجهة السياسية كان من الممكن أن تصبح أثينا زعيمة حلف بحري يمكن مقارنته بحلف إسبرطه البيلوبونيزي ، كما كان يستطيع الناس أن يفخروا بأن مدينتهم كانت تفعل ما تفعله لا بواسطة حكام يعملون بالنيابة عنهم بل بواسطة الآثينيين العاديين أنفسهم في مجالسهم الأعلى . ومن الوجهة الفكرية كانت دنيا التفكير والعلم بأكملها آخذة في التفتح ، ويعود كثير جداً من الفضل في ذلك إلى ذوى قرباهم في أيونيا . أما في التجارة والصناعة فقد كانت أثينا تعمل على أن تلحق بالمدن الإغريقية الأخرى التي كانت قد سبقتها بكثير . وقد كان أقران ذوق أتيكا وذكاها بموقعها المركزي وموانئها الممتازة وقوتها البحرية الغلبة مما يبعث الرهبة حقاً . وإلى جانب هذا كانت أثينا مثل لندن تتمتع بمزايا معينة مما لا يمكن تقديرها ، وهي مستمدة من استقامتها وأساليبها المبنية على الإدراك السليم . أما من الوجهة الفنية فقد كانت أمامها دنيا جديدة آخذة في التفتح ، فقد كان الكفاح الطويل مع البرونز والرخام قد أوصل فن العمارة إلى حافة الكمال الكلاسي . وكان على الفنانين الآثينيين الذين كانوا يشتغلون على الدوام تقريباً من أجل « البوليس » أن يقرنوا ما بين الرشاقة الأيونية والقوة الدورية . وكان الخزافون والرسمون الآثينيون على وشك أن يحققوا أعظم انتصاراتهم ، وأخذ أعظم الفنون الآثينية كلها وهو دراما المأسى يزداد ثقة واستشارة كل عام ، كما أخذ الفنانون يغامرون مغامرات شائقة جداً في محاولات بسيطة مرحة غير منظمة سرعان ما تمخضت

في حقيقة الأمر عن ملهاة أريستوفانيس ومنافسيه الطريفة وإن أغورتها الأصالة. هكذا كانت روح عصر بريكليس الذي كان جره قد أخذ يبرز، لا سيما إذا تذكرنا أنه كان غارقاً في أشعار هومر الخالدة، وهو الذي علم هذه العادة العقلية (الأرستقراطية في جوهرها مهما وجدت في أية طبقة من طبقات المجتمع) وهي التي تتطلب الجودة قبل الكم والكفاح النبيل قبل العمل العظيم والشرف قبل الثراء.

أما التاريخ السياسي فأني مضطر أن أعالجه بطريقة مختصرة جداً. لقد أدى التحالف الإغريقي واجبه المباشر بأبعاد الفرس عن أوروبا ولكن بقي تحرير أيونيا وتحطيم قوة الفرس البحرية. وقد أظهرت إسبرطه في هذا الموضوع قليلاً من الاهتمام، إذ أن إسبرطه كانت من الوجهة الأساسية دولة برية ذات اقتصاد زراعي. وكان يسرها ألا تكون أية دولة أوبجهرعة من الدول الإغريقية من القوة بحيث تهددها في البيلوبونيزا وتستثير شبح ثورة الرقيق المنزع الموجود هناك باستمرار، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان تحرير أيونيا والدفاع عن جزر بحر إيجه أمراً خاصاً بالسفن أي من شأن أثينا. وقد كانت أثينا على استعداد كبير لهذا العمل الذي كانت تستطيع أن تذكر نفسها بأنه مناسباً باعتبارها الموطن الأصلي للجنس الإيوني.

وقد نظمت أثينا لذلك اتحاداً بحرياً كان مقره الرئيسي جزيرة ديلوس المركزية المقدسة. وقد ساهمت المدن التي اشتركت فيه وهي بالفعل جميع مدن بحر إيجه البحرية، بعدد ثابت من السفن والرجال أو بما يقابل ذلك من النقود إن آثرت ذلك. وكان الذي يحدد التقديرات هو ارستايديس الأثيني أو «ارستايديس العادل». ويدل على عدله الحقيقة القائلة أن أحداً لم يتحد أي تقدير من تقديراته. وكانت الحقيقة البارزة في هذه الأعمال تفوق أثينا الهائل، فقد كان لها أسطول من ٢٠٠ سفينة على حين أن كثيراً من الأعضاء

كان النصيب المقدر لكل منهم هو سفينة واحدة. وكان يفضل عدد كبير من الحلفاء الصغار أن يدفع نصيبه مالا ويكتفي بذلك.

وقد استمرت العمليات الحربية ضد الفرس بضعة أعوام ثم قامت مسألة لا حل لها وهي حق الخروج من الحلف، فقد رفضت جزيرة ناكسوس Naxos الهامة أن تستمر بعد ذلك عضواً في الحلف. فقد توقف تهديد الفرس إذ ذاك فلماذا تساهم ناكسوس إذن بقوات في حلف لم يكن يخفي وراءه في الحقيقة إلا أثينا؟ وقد كانت أثينا تستطيع أن ترد على ذلك رداً معقولاً بقولها إن لم يوجد الحلف فسيعود تهديد الفرس عن قريب، ولذلك عاملت هذا الخروج على أنه ثورة وسحقته وفرضت على أهل ناكسوس جزية يدفعونها. وقد عاملت «الثورات» الأخرى التي من هذا القبيل بنفس الطريقة، ثم أرغمت دول بحر إيجه التي وقفت بمعزل عن الحلف أن تنضم إليه وكان هناك مبرر أيضاً لذلك، إذ لماذا تتمتع أية دولة في بحر إيجه بالأمان الذي يتكفل به غيرها دون أن تساهم فيه؟ ثم حدث أمران يمان عن ذكاء وقد ساعدا على تحويل الحلف إلى إمبرطورية. فقد نقل المركز الرئيسي للحلف من ديلوس إلى أثينا أي من جزيرة صغيرة كان الناس يذهبون إليها لأغراض دينية بصفة أساسية إلى المدينة التي كان يسر الناس أن يذهبوا إليها لقضاء أي مأرب. وقد كان من الممكن تبرير هذا النقل بموضوع مريب هو «سهولة الإدارة»، كما كان يمكن بيان أن خزانة الحلف تكون آمنة في أثينا، بل إنها كانت كذلك بالفعل لأن أثينا كانت قد فقدت لتوها أسطولين في مغامرة مصرية. ولكن رغم كل ذلك فإنه قوى لدى أثينا وغيرها فكرة أن ما كان حلفاً بالاسم كان إمبرطورية بالفعل. ثم أصبحت المنازعات التجارية بين الأعضاء تحال إلى المحاكم الأثينية، وقد كان هذا في الحقيقة تبسيطاً عظيماً في الإجراءات. ففي حالة عدم وجود أي نظام من نظم القانون الدولي كانت الإجراءات القضائية بين أهالي المدن المختلفة ممكنة فقط إذا كان بين المدينتين معاهدة تنص

في حقيقة الأمر عن ملهارة أريستوفانيس ومنافسيه الطريفة وإن أغورتها الأصالة . هكذا كانت روح عصر بريكليس الذي كان فجره قد أخذ يبرز ، لا سيما إذا تذكرنا أنه كان غارقاً في أشعار هومر الخالدة ، وهو الذي علم هذه العادة العقلية (الأرستقراطية في جوهرها مهما وجدت في أية طبقة من طبقات المجتمع) وهي التي تتطلب الجودة قبل الكم والكفاح النبيل قبل العمل العظيم والشرف قبل الثراء .

أما التاريخ السياسي فأني مضطر أن أعالجه بطريقة مختصرة جداً . لقد أدى التحالف الإغريقي واجبه المباشر بأبعاد الفرس عن أوروبا ولكن بقي تحرير أبونيا وتحطيم قوة الفرس البحرية . وقد أظهرت إسبرطه في هذا الموضوع قليلاً من الاهتمام ، إذ أن إسبرطه كانت من الوجهة الأساسية دولة برية ذات اقتصاد زراعي . وكان يسرها ألا تكون أية دولة أوبجورعة من الدول الإغريقية من القوة بحيث تهددها في البيلوبونيزا وتستثير شبح ثورة الرقيق المنزع الموجود هناك باستمرار ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان تحرير أبونيا والدفاع عن جزر بحر إيجه أمراً خاصاً بالسفن أي من شأن أثينا . وقد كانت أثينا على استعداد كبير لهذا العمل الذي كانت تستطيع أن تذكر نفسها بأنه يناسبها باعتبارها الموطن الأصلي للجنس الإيوني .

وقد نظمت أثينا لذلك اتحاداً بحرياً كان مقره الرئيسي جزيرة ديلوس المركزية المقدسة . وقد ساهمت المدن التي اشتركت فيه وهي بالفعل جميع مدن بحر إيجه البحرية ، بعدد ثابت من السفن والرجال أو بما يقابل ذلك من النقود إن آثرت ذلك . وكان الذي يحدد التقديرات هو ارستايديس الأثيني أو « ارستايديس العادل » . ويدل على عدله الحقيقة القائلة أن أحداً لم يتحد أي تقدير من تقديراته . وكانت الحقيقة البارزة في هذه الأعمال تفوق أثينا الهائل ، فقد كان لها أسطول من ٢٠٠ سفينة على حين أن كثير من الأعضاء

كان النصيب المقدر لكل منهم هو سفينة واحدة . وكان يفضل عدد كبير من الحلفاء الصغار أن يدفع نصيبه مالا ويكتفي بذلك .

وقد استمرت العمليات الحربية ضد الفرس بضعة أعوام ثم قامت مسألة لا حل لها وهي حق الخروج من الحلف ، فقد رفضت جزيرة ناكسوس Naxos الهامة أن تستمر بعد ذلك عضواً في الحلف . فقد توقف تهديد الفرس إذ ذاك فلماذا تساهم ناكسوس إذن بقوات في حلف لم يكن يخفي وراءه في الحقيقة إلا أثينا ؟ وقد كانت أثينا تستطيع أن ترد على ذلك رداً معقولاً بقولها إن لم يوجد الحلف فسيعود تهديد الفرس عن قريب ، ولذلك عاملت هذا الخروج على أنه ثورة وسحقته وفرضت على أهل ناكسوس جزية يدفعونها . وقد عاملت « الثورات » الأخرى التي من هذا القبيل بنفس الطريقة ، ثم أرغمت دول بحر إيجه التي وقفت بمعزل عن الحلف أن تنضم إليه وكان هناك مبرر أيضاً لذلك ، إذ لماذا تتمتع أية دولة في بحر إيجه بالأمان الذي يتكفل به غيرها دون أن تساهم فيه ؟ ثم حدث أمران يمان عن ذكاء وقد ساعدا على تحويل الحلف إلى إمبرطورية . فقد نقل المركز الرئيسي للحلف من ديلوس إلى أثينا أي من جزيرة صغيرة كان الناس يذهبون إليها لأغراض دينية بصفة أساسية إلى المدينة التي كان يسر الناس أن يذهبوا إليها لقضاء أي مأرب . وقد كان من الممكن تبرير هذا النقل بموضوع مريب هو « السهولة الإدارية » كما كان يمكن بيان أن خزانة الحلف تكون آمنة في أثينا ، بل إنها كانت كذلك بالفعل لأن أثينا كانت قد فقدت لتوها أسطولين في مغامرة مصرية . ولكن رغم كل ذلك فإنه قوى لدى أثينا وغيرها فكرة أن ما كان حلفاً بالاسم كان إمبرطورية بالفعل . ثم أصبحت المنازعات التجارية بين الأعضاء تحال إلى المحاكم الأثينية ، وقد كان هذا في الحقيقة تبسيطاً عظيماً في الإجراءات . ففي حالة عدم وجود أي نظام من نظم القانون الدولي كانت الإجراءات القضائية بين أهالي المدن المختلفة ممكنة فقط إذا كان بين المدينتين معاهدة تنص

عليها بوضوح ، وإلا فقد كانت مصادرة بضائع الطرف الآخر أخذاً بالثأر — وهو نوع من القرصنة الرسمية — هو الوسيلة الوحيدة للتأكد من أن الشكاوى ينبغي الإصغاء إليها . ولقد كانت المحاكم الأثينية نزيهة بشكل معقول كما كانت غير متأثرة بالأغراض الشخصية . وقد بذلت عناية كبيرة للتأكد من أن أي أثيني لم يكن يتمتع بأي امتياز عند مقاضاة عضو من مدينة مخالفة . ومع ذلك فإن الأمور كانت تبدو سيئة .

وتتضح كفاية أثينا ونزاهتها بوجه عام في إدارة الحلف من حقيقة أن المدن ظلت تنظم له باختيارها ، وأنه عندما وقعت الحرب بينها وبين إسبرطة ظل الأعضاء على وجه العموم على ولائهم لأثينا بشكل يثير الدهشة ولو أنهم كانوا يدعون رعايا مدينة إمبراطورية .

ولكن لم يكن هناك بد من أن يأخذ المواطن الأثيني في التفكير بروح إمبراطورية عندما كان يرى أعضاء الحلف يأتون إلى أثينا للتقاضى ، وعندما كان يعلم أن ثروة الحلف محفوظة في الأكروبوليس الخاص به وأن سياسة الحلف كان يجب أن تكون في الحقيقة مقبولة من أثينا ، وأن قوة الحلف العسكرية كانت تتكون إلى حد كبير من سفن ورجال أثينيين . كان كل ذلك مما يبعث الزهو في الأثينيين كما كان مربحاً لهم ، فقد كان المحلفون من المواطنين يتقاضون أجوراً على عملهم ، وقد كان جزء كبير من المال الذي يساهم به عدد متزايد من الحلفاء بدلاً عن السفن والرجال يذهب بطريقة شرعية إلى جيوب الأثينيين على هيئة أجور مدفوعة في مقابل خدمات .

وفضلاً عن ذلك فقد وجد قدر كبير من المال سبيله إلى أثينا عن طريق سياسة بريكليس في التعمير . وربما كان ذلك مما يثير الريبة والتساؤل أكثر من سواه . فقد أخذت أموال الحلف تتراكم ، بينما لم تكن المعابد التي دمرها الفرس قد أعيد تشييدها بعد ، وقد كان جزء من سياسة بريكليس وهو

امتداد لسياسة بيزستراتوس يهدف إلى جعل أثينا مركز بلاد الإغريق الفنى والفكرى والسياسى لاسيما وأن أثينا كان بها مشكلة للبطالة . ويعتبر البارثنون Parthenon وهو المدخل إلى الأكروبوليس وعلى جانبيه معارض للصور ، هو وغيره من المباني ثمرة هذه الحاجات والرغبات وإن كانت قد قوبلت باحتجاجات حتى في أثينا . ولكن بريكليس رد عليها بأن الحلفاء كانوا يدفعون المال لأثينا من أجل حمايتهم وأنهم لا يدفعون مبلغاً باهظاً . وقد قام الحلف بحمايتهم وكان الأسطول الأثيني كفتاً للغاية كما كان هناك احتياطي كاف من النقود ، فكان لأثينا الحق في إنفاق الفائض على مثل هذه المباني والتماثيل التي كانت تشرفها وتشرف كل بلاد الإغريق . وكان في إمكانه أن يحتج ولعله قد احتج فعلاً بأن أثينا وحدها هي التي سلمت مدينتها باختيارها لمن دمرها لكي تواصل الحرب من أجل حرية الإغريق ، وربما قال إذ ذاك ما قاله بعدئذ في خطبة التأبين « إننا نفتتح مدينتنا على مصراعها للجميع » .

ولكن لماذا لم تصبح أثينا عاصمة دولة إيجية متحدة ؟ لقد استطاعت روما أن تمنح أهل المدن اللاتينية الأخرى وإيطاليا بأكملها والإمبراطورية كلها الحق في أن يكونوا مواطنين بها ، ومادامت روما قد استطاعت ذلك فلماذا لم تفعله ، أثينا ؟ .

إن تبرير ذلك بالكلام عن عدم المقدرة السياسية أو قصر النظر لا يكفي . إن الحقيقة التي لا مفر منها والتي نحاول كثيراً جداً أن نتهرب منها هي أن كل شيء علينا أن ندفع ثمنه . وهناك أشياء كثيرة مرغوب فيها ولكن ثمنها أكبر مما نقدر عليه . ولولم يكن الأمر كذلك لما كان الوجود البشرى مليئاً بالأسى . ونحن أنفسنا (أى الإنجليز) مر بنا مثل يوضح ذلك ، فقد طافت بعقول بعض ساستنا أحلام جميلة عن اقتصاد وطني يخطط تخطيطاً متقناً ويأتى بالنتائج المطلوبة بكفاءة تامة ، وهذا شيء رائع ، غير أن ثمن ذلك كان العمل

الموجه، إلا أن الرجل الإنجليزي يتعوده الغريب على الحرية الشخصية ورفض أن يدفع الثمن .

ولقد ألف الإغريق أيضاً نظام المدينة المستقلة كما حاولنا أن نبين ذلك في فصل سابق . فقد كانت «البوليس» بالنسبة للعقل الإغريق هي التي تحدد الفرق بين الإغريق والبربر . فهي التي مكنته من أن يعيش الحياة الذكية المسؤولة المألوفة بأوجه النشاط التي أراد أن يعيشها . ولم تكن أثينا لتستطيع أن تجعل من حلفائها مواطنين لديها دون أن تقتضب ضروب النشاط السياسي لسكل مواطن أثيني كما تقتضب مسؤوليته . فكان لابد أن يوكل الحكم إلى من يمثلون الدولة الجديدة وعندها كان يشعر الأثيني بأن «البوليس» لم تعد ملكاً له ، فكانت تفقد الحياة طعمها ولذتها . وبهذه المناسبة نرى أن الروماني كان يستطيع تحت الضغط الشديد أن يجعل اللاتين مواطنين له في المدينة Civitas . لأن المدينة كانت مجرد جهاز من أجهزة الحكم ، وطالما أنها كانت تحميه فلم يكن يهمه كثيراً من يدير شئونها ، أما الأثيني فلم يكن يفكر هذا التفكير وكذلك حلفاء أثينا فمن المؤكد ، أن أثينا لو كانت عرضت عليهم أن يكونوا مواطنين لما قبلوا ذلك ، لأن الإغريق إن لم يكن يقيم على مسيرة يوم من مفره الانتخابي كان يرى أن حياته أقل من حياة الرجل الحقيقي .

وقد يبدو هذا شاذاً للعقل الحديث . فلا شك أنه يلوح شاذاً لأولئك الروس الذين يعرفون عنا أننا نؤثر أفكارنا عن الحرية الشخصية أكثر من الانتصارات الحقيقية أو المنتظرة التي يجلبها نظامهم . ولكن كان أمام الإغريق فعلاً أن يختاروا ما يأتي : إما أن يقبلوا طرازاً من الحياة أدنى بكثير مما كانوا يتمتعون به بتوسيع «البوليس» وفقدانها بالفعل وإما أن يهلكوا في النهاية ، فإن أعمالنا الرأي بتلك الروح التي فكر بها قورش عند كومة الخشب المعدة لحرق كرويسس ورأينا أننا أيضاً مجتمع سياسي معرض

للخطر ، ومتعلق تعلق اليأس بفكرة معينة عن الحياة ، فإننا لا نستريح إلى حكمنا على الإغريق بعض الشيء . وقد كانت سياسة بريكليس ، أي تلك السياسة التي كانت سائدة في المجلس الأثيني ، تحاول أن تفيد إلى أقصى حد من النظامين . فتمتع تمتعاً كاملاً بالبوليس وبالإمبراطورية كليهما . وربما كان الحكم الذي نصدره ضد بريكليس منطوياً على إخلاص أكثر لو أننا نحن أنفسنا نجحنا في التوفيق بين حبنا للحرية وحبنا للبقاء .

وقد كان الذي يوجه سياسة أثينا أولاً خلال نصف القرن الذي فصل الحرب الفارسية عن حرب البيلوبونيز هو كيمون Cimon الأرستقراطي (بن مليتياديس Miltiades المنتصر في ماراثون) ثم تلاه بريكليس . وقد كانت سياسة كيمون هي طرد الفرس والاحتفاظ بالعلاقة الطيبة مع إسبرطة . وقد كانت السياسة الأولى أسهل من الثانية . فإن نمو أثينا السريع بل أكثر من ذلك ان تحول الحلف إلى إمبراطورية لا تكاد تكون مقنعة ، أثار الخوف والحقد كليهما إلى حد أن سياسة كيمون أصبحت مستحيلة بشكل واضح . أما بريكليس الذي كانت سيطرته على المجلس من سنة ٤٦١ حتى وفاته ٤٢٩ لا ينافيها أحد تقريباً ، فقد تقبل عداوة إسبرطه على أنه لامفر منها وعقد الصلح مع فارس وحاول أن يجعل تحدى أثينا في بلاد الإغريق بما لا يستطاع . وقد كان النشاط الذي أبداه الأثينيون خلال تلك السنين بما لا يكاد يمكن تصديقه . فقد كان هدفهم الذي حققوه فترة وجيزة من الزمن هو الاحتفاظ بإمبراطورية شملت أو تحكمت لا في بحر إيجه كله فحسب بل في خليج كورنثا وبويوتيا كذلك . وكان هناك من كانوا يحملون ومن استمروا يحملون بغزو صقلية البعيدة . ويجب ألا يخفى كلامنا عن المناقشات والمسارح والمحاكم والمواكب حقيقة أن أثيني القرن الخامس كان رجلاً يحب العمل أولاً وقبل كل شيء . فقد كان عند الأثينيين في سنة ٤٥٦ قدر كبير من المسؤوليات الخاصة في وطنهم ، ولكن ذلك لم يمنعهم من إرسال مائتي

سفينة لمساعدة مصر في ثورة لها ضد الفرس ، وخين دمرت هذه السفن أرسلوا قوة أخرى بمثل هذا العدد لاقت نفس النتيجة . وقد كانت هناك حرب في ذلك الوقت لها ذكر باق لأنها سجلت أسماء الذين قتلوا فيها من قبيلة إريخايد في عام واحد في قبرص ومصر وفينيقيا وهالييس Halieis (في البيلوبونيز) وإيجينا وميجارا . وليس هناك من يقول إن الإغريق قد استغلوا الإمبراطورية كسبتها جهود الآخرين وتضحياتهم . وفي سنة ٤٣١ اشتعلت نار الحرب التي كانت كل بلاد الإغريق تعتقد أنها واقعة لا محالة . وسندكر شيئاً عنها في الفصل التالي ، أما هذا الفصل فيمكن أن نختتمه باستعراض قصير للنظم الديمقراطية التي سارت أثينا في الحرب بمقتضاها . ومتسبب ذلك صورتان للخلق الأثيني مأخوذتان من تاريخ ثوكوديدس عن الحرب ، وقد قدم الأولى كورنثي جاء إلى إسبرطة ليحث الإسبرطيين على إعلان الحرب .

قال الكورنثيون : ليس لديكم فكرة عن الصنف من الناس الذي منه الأثينيون وكيف أنهم يختلفون عنكم كل الاختلاف . إنهم يفكرون دائماً في تدابير جديدة وهم سراع في إعداد خططهم وتنفيذها ، أما أنتم فقانون بما لديكم ولا تريدون أن تعملوا حتى ما كان ضرورياً . وهم جريشون محبون للمغامرة وأصحاب مزاج دموى ، أما أنتم فخريصون وليس لكم ثقة في قوتكم ولا في أحكامكم . وهم يحبون المغامرات الخارجية أما أنتم فتكروهونها لأنهم يعتقدون أنهم يتجهون للكسب أما أنتم فتعتقدون أنكم تتجهون للخسارة . وهم عندما ينتصرون يفيدون من ذلك إلى أقصى حد وإذا انهزموا كان تراجمهم أقل من أي إنسان . وهم يكرسون أنفسهم لأثينا كما لو كانوا ملوكاً لها ويستخدمون عقولهم من أجل أثينا بأعظم طريقة فردية ممكنة . وهم يضعون الخطة فإذا فشلت ظنوا أنهم خسروا شيئاً هاماً ، وإذا نجحت رأوا هذا النجاح تافهاً إذا قيس بما سيفعلونه بعد ذلك . ومحال عليهم أن يتمتعوا

بالسلام ويريحوا أنفسهم أو أن يسمحوا لغيرهم بالسلام والهدوء (١) .

وهاك بريكلير نفسه بعد ذلك بعامين في خطبته التأيينية ، إنه يمتدح أولاً سماحة أثينا ، فالقانون فيها لا يميل مع الأهواء وتكريم الناس قائم على الاستحقاق لا على الحزبية أو الطبقة ، والتسامح شائع في الشؤون الاجتماعية ، وفي الشؤون العامة يسود ضبط النفس وعدم العنف ، كما أن أثينا عظيمة الثراء في أمور الحضارة الروحية والفكرية والمادية .

والى هنا كان بريكلير يقارن أثينا ببلاد الإغريق عامة وهاهو ذا يفكر في إسبرطة بصفة خاصة .

« إننا نسمح لأي إنسان بدخول مدينتنا ولا نطرد الأجانب مخافة أن يروا أكثر مما ينبغي ، فنحن في الحرب نشق في شجاعتنا وجراًتنا أكثر مما نتق في الخدع الحربية والاستعدادات . إن أعداءنا يستعدون للحرب بالتدريب المضني منذ الصغر ، ولكننا نستمتع بالحياة ، وهذا لا يجعلنا أقل جرأة في مواجهة الخطر . وبالفعل لم يجرؤ الإسبرطيون على مهاجمتنا دون مساعدة حلفائهم . ولذا فإن لنا ميزتين ترجعان إلى استعدادنا الطبيعي أكثر مما ترجعان إلى القوانين . فنحن نتفادى الجهود التي تبذل في البداية كما أننا عندما يحين وقت الاختبار نكون مثلهم أكفاء . ونحن نحب الفنون ولكن دون إسراف في حب الظهور كما نحب الأمور العقلية ولكن دون ميل منا إلى النعومة واللين . »

وبعد هذه المقارنة المباشرة مع إسبرطة يعود بريكلير إلى التعميم ثانية فيقول « إن الثروة في أثينا تعطى مجالا للعمل وليست مبرراً للافتخار ، أما الذي يشين المرء فهو الكسل لا الفقر . إن لدى أي رجل منا وقتاً يكرسه لشؤونه الخاصة أو لشؤون المدينة ، ومع ذلك فأصحاب الأعمال أكفاء جداً للحكم على

(١) ترجمة بصرف ثوكوديدس ، الكتاب الأول . فصل ٧٠ .

الأمور السياسية (١). إن البعض يدعو من لا يشترك في الأعمال العامة رجلاً هادئاً أما نحن الاثنين فدعوه عديم النفع . ونحن لا نعتبر الكلام عائقاً عن العمل بل مقدمة ضرورية له ، وإن جرأة غيرنا من الناس لتقوم على الجهل كما يقوم خوفهم على التقدير والتدبير ، أما نحن فنستطيع أن نتدبر الأمور ثم نكون جريئين مع ذلك . ونحن كرماء لا ابتغاء مصلحة ذاتية ولكن عن ثقة في أنفسنا ، ومدينيتها هي في الواقع مدرسة لكل بلاد الإغريق .

لا ريب أن خطبة بريكلير هذه تعطينا صورة مثالية عن أثينا ولكنها رغم كل ذلك صورة حقيقية بصفة جوهرية ، وعلى كل حال فالمثل العليا لقوم جزء هام مما هم عليه . وليست الحقيقة الجوهرية في هذه الصورة مجرد استعراض تام ، بل عندما نفكر في أي جانب من جوانب نشاط أثينا في عهد بريكلير نستطيع أن نرجع إلى هذه الخطبة وما تتضمنه من ثناء عظيم على مدينة أثينا ، فنعتقد بأن الاثنين في هذه الفترة لابد أنهم كانوا فعلاً هكذا في كل الأمور الجوهرية . وعندنا جمال البارثون المذهل — فحجمه متواضع جداً وطوله ٢٢٠ قدماً فقط ولكن تأثيره في منتهى القوة ، وهو إن يكن في الصور الفوتوغرافية مجرد معبد من معابد الإغريق إلا أنه في الحقيقة أروع بناء موجود . كما أن هناك مسرحيات سوفوكليس التي وضعها لهؤلاء الاثنين الذين قابلوها بالإجلال . وأنا نفسي — إن جاز لي أن أجعل نفسي مرجعاً — قد أعطيت محاضرات مفصلة عنها لمدة ثلاثين سنة ، ومع ذلك أجدها الآن أكثر جدة وتشويقاً وإمتلاء بالأفكار مما وجدت في أي وقت سابق ، وليس فيها شيء تافه يمكن إهماله ، وكذلك ليس فيها ما يقصد به إلى الظهور (رغم أن أسلوبها

(١) من الواضح أن هذا نقد لمدن تجارية وصناعية أخرى مثل كورنثا ، وهو يتضمن أمراً شائعاً هو أن هذه المدن لم يكن يحكمها أصحاب الأعمال . وقد يسر المكتب المركزي لحزب المحافظين أن يعرف بالضبط المرجع الذي اقتبسنا منه هذه الفقرة ، توكوديدس ، الكتاب الثاني فصل ٤٠

الفني فائق) كما أنها ليس بها شيء يعتبر في الدرجة الثانية . وهناك أيضاً ما قد يكون أفصح في الدلالة من أي شيء ، أعني الشواهد الحجرية البسيطة التي نحتها نحاتون أسماؤهم مجهولة وهي في جلالها الهادى وإخلاصها مؤثرة إلى أقصى حد . وهناك أشياء عادية مما تستعمل في المنازل لها نفس هذه الصفات ولن يكون الإنسان في أي مكان متأكداً من أنه لن يصادف شيئاً مبتذلاً أو عجيباً أو شاذاً أو سطحيّاً مثلاً يتأكد من ذلك في أثينا في عهد بريكلير . ولا أدل على طابعها في هذا العصر من الملهاة ، ففيها ما يחדش الحياء بشكل فاضح مما لا يمكن معه أن يطبع اليوم ، ومع ذلك فهو مما لا يسخر الإنسان منه . ويرجع كل ذلك إلى أن شعباً من معدن كريم كان يعيش في أحوال جعلته يعتمد على أسس أنواع الجهاد الروحي والعقلي والجسماني .

وهذا يعود بنا ثانية إلى « البوليس » ، فالبوليس إنما وجدت كانت تجعل الحياة كاملة ممتلئة كما كانت تجعل لها معنى ، وقد كان هذا ملاحظاً بصفة خاصة في أثينا حيث بلغت الديمقراطية السياسية أقصى حدودها المنطقية . وهناك بطبيعة الحال من يحدون أن أثينا كانت ديمقراطية على الإطلاق لأن النساء والأجانب المقيمين بها والرقيق لم يكن لهم صوت في إدارة شئونها . وإذا عرفنا الديمقراطية بأنها مشاركة كل سكان البلاد من البالغين في إدارة شئونها فإن أثينا لم تكن ديمقراطية لا هي ولا أية دولة حديثة ، لأن كل دولة حديثة يجب أن تكل أمر الحكم إلى ممثلين من الإداريين المحترفين بسبب حجمها ، وهذا نوع من الأوليغاركية (حكم الأقلية) .

أما إذا عرفناها بأنها اشتراك كل المواطنين في الحكم فعندئذ تكون أثينا ديمقراطية . ويجب أن نتذكر أن المؤهل العادى للمواطن الإغريق هو

أن يكون أبوه على الأقل إن لم يكن أبواه كلاهما مواطنين . لأن الدولة الإغريقية كانت (نظرياً وعاطفياً) مجموعة من الأقارب لا مجرد سكان منطقة ما .

غير أن تعريف الديمقراطية (١) الدقيق غير هام بالنسبة لهدفنا الحالي ، فإيهما هو أن نرى كيف أن نظم أثينا السياسية أثرت في حياة الآثينيين ، وعقله وسنصفها في هذا الفصل ، أما في الفصل التالي فسنلاحظها أثناء العمل تحت ضغط حرب بالغة الخطورة .

وقد كان المجلس أسمى السلطات كلها ، وكان يبذل كل شيء ممكن للاحتفاظ له بمكانته في الحقيقة وعلى الورق . ولم يكن من الممكن في أثينا أن يقبض هذا الجهاز على الحكم . وهذه ميزة أخرى للبلاد ذات الحيز الصغير . وقد كان المجلس يتكون من كل أثينيين بالغين تعترف وحدته الإدارية بشرعيته ، ولم يكن قد سبق أن حرم من حقوقه عمداً بسبب جرم خطير . ولم يبق أثر لحيازة مؤهل الملكية إلا في الجيش ، وهو أمر له مغزاه ، وقد كانت « البوليس » هي مجتمع المواطنين إلى حد بعيد كما أنها كانت دولة فوق البشر إلى حد ضئيل مما ترتب عليه أن المواطن كان عليه أن يجد معداته الحربية ، فكان من نتيجة ذلك أن الرجل الذي كان من الغنى بحيث يمتلك جواداً كان يحارب في سلاح الفرسان على جواده ولو أن « البوليس » كانت تدفع أجر طعام الجواد أثناء الخدمة . أما من

(١) ما دام لمعنى كلمة « ديمقراطية » أهمية في الموضوع فمن الممكن أن نضيف ملاحظة هنا عن استعمال الكلمة عند الإغريق . ففي الكلام العادي كانت Demokratia (ومعناها الحرفي حكم الشعب) هي الديمقراطية السياسية كما وصفناها من قبل . ولكن أصحاب النظريات السياسية لاسيما أفلاطون وأرسطو كانوا يستعملونها بمعنى الحكم بواسطة الشعب ولذلك نددوا بها باعتبارها نوعاً إما من الأوليغارشية أو من الاستبداد المعكوس أي من الحكم الذي تدعو إليه المصلحة الذاتية ، أما الاسم الذي يطلق على الحكم القائم على الموافقة العامة دون علاقة بطبقة من الطبقات فهو Polity

كانوا متوسطي الثراء فقد كانوا يخدمون في سلاح المشاة البطيني ، ويأخذون معهم دروعهم . أما الفقراء الذين لم يكن في إمكانهم إلا التقدم بأنفسهم فقد كانوا يشتغلون مساعدين أو يجذفون في سفن الأسطول . وكان الأجانب المستوطنون يؤدون الخدمات العسكرية إلى جانب المواطنين . أما الرقيق فلم يشتركوا قط في خدمة الجيش أو الأسطول إلا مرة في لحظة من لحظات الخطر العظيم حين دعى الرقيق إلى الانضمام إليهما مع وعدمهم (وعداً أوفوا به) بالحرية وكفاية الحقوق المدنية (لا السياسية) .

وقد كان هذا المجلس وهو اجتماع عام لكل المواطنين من الذكور المقيمين في أثينا هو الهيئة التشريعية الوحيدة ، وكان له الرقابة التامة على الإدارة والقضاء . فلننظر أولاً في موضوع الإدارة . كانت محكمة الأريوباجوس Areopagus القديمة تتكون إذ ذاك (في القرن الخامس) من قضاة سابقين تنحصر مهمتهم في النظر في جرائم القتل . أما القضاة التسعة Archons الذين كانت لهم سلطة كبيرة في وقت ما فقد أصبحوا يختارون من أعضاء المجلس بواسطة التصويت السري سنوياً . فكان من الجائز أن يجد أي مواطن في أي سنة نفسه أحد قضاتها التسع ، وكان معنى هذا بعامية الحال أن تولى منصب القضاء فيها وإن كانت له مسؤولية إدارية إلا أنه لم تكن له سلطة حقيقية ، فقد بقيت السلطة للمجلس الذي كان يجتمع مرة في كل شهر ما لم يدع للاجتماع خصيصاً للفصل في أمر ذي بال ، وكان كل عضو يستطيع أن يخطب إذا استطاع أن يجعل المجلس يصغى إليه ، كما يستطيع أن يقترح ما يشاء على ألا يتعدى ضمانات دستورية دقيقة معينة ، غير أن مثل هذه الهيئة الكبيرة كانت تحتاج إلى لجنة لتحضير أعمالها والتصرف في أمورها الهامة العاجلة ، وقد كانت هذه اللجنة هي مجلس الخمسة Boulê (البوليه) الذي لم يكن ينتخب علناً بل كان يختار بطريق التصويت السري بمعدل خمسين من كل قبيلة . ولما كان هذا المجلس

يختار اعتباطاً ويتكون من قوم مختلفين كل الاختلاف سنوياً لم يكن من الممكن أن يسوده شعور جماعي ، وكان الهدف كل الهدف هو ألا يسيطر شيء على المجلس ، وكان الأعضاء الذين تتكون منهم أكثر اللجان الإدارية (الإدارات الحكومية) هم من مجلس (البولية أو الخمسة) ولكن لما كان خمسة شخص لا يمكن أن يظلوا مجتمعين في جلسة مستمرة كما أن عددهم كان أكثر بكثير من أن يكونوا لجنة تنفيذية ذات كفاية ، فقد كان هناك مجلس داخلي « Pritany » يظل في جلسة مستمرة عشر العام ، وهو يتكون بدوره من الخمسين رجلاً المختارين من كل من القبائل العشر ، وكان أحد هؤلاء ينتخب بالاقتراع السري كل يوم ليكون الرئيس ، وإذا كان هناك اجتماع للمجلس فقد كان يرأسه ، وكان يعتبر الرئيس الأسمى للدولة لمدة أربع وعشرين ساعة . (ولما كانت بلاد الإغريق ذات تصرفات مسرحية شائقة فقد تصادف أن شغل سقراط هذا المنصب يوماً قرب نهاية الحرب عندما ساد المجلس الاضطراب والعنف — كما كان يحدث أحياناً وليس غالباً — ولما طول بطريقتهم غير قانونية بتاتاً باتهام مجلس القواد بأجمعه بالخيانة لفشله في إنقاذ الباقين على قيد الحياة من معركة أرجنوساي Arginusae البحرية التي انتصروا فيها ، فقد تحدى سقراط الجمع المضطرب ورفض أن تؤخذ الأصوات على هذا الاقتراح المخالف للقواعد) وكان على القضاة الذين يتركون مناصبهم أن يقدموا إلى المجلس تقريراً عن أعمالهم الرسمية ، ولم تكن تنتهي مسؤوليتهم حتى يمروا بهذه المراجعة . وهذه تعتبر رقابة أخرى على الإدارة . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة أثينا أو بيع ممتلكاتهم حتى تتم هذه الإجراءات .

وكان هناك منصب واحد هام لا يمكن أن يترك عرضة لمخاطر التصويت السري وهو قيادة القوات البرية أو البحرية ، إذ كان القواد أو أمراء البحر العشرة Strategoi ينتخبون علناً ولكن سنوياً . ولو أن

إعادة انتخابهم كان مسموحاً بها بل كانت أمراً عادياً بالفعل . ولم يكن من غير المألوف أن يكون الآثيني قائداً في معركة وجندياً عادياً في معركة تالية . وقد كانت هذه حالة متطرفة للفكرة الأساسية المطلوبة من الديمقراطية وهي « أن تحكم مرة وأن تحكم مرة أخرى » كما لو كان على عضو نقابة العمال في سنة أن يعود بصفة أو توما تيكية إلى منضدة العمل في السنة التالية . ولما كان هؤلاء هم المواطنون الوحيدون المنتخبون بكل صراحة على أساس الكفاية الخاصة وهم يشغلون وظائف يمثل هذه الأهمية فقد كان للقواد نفوذ عظيم في شؤون المدينة بطبيعة الحال . وقد قاد بريكليلس الآثينيين مدة طويلة جداً عن طريق هذه الوظيفة وعن طريق تفوقه الشخصي في المجلس .

ولقد كان المجلس لا يكتفي بمراقبة التشريع والإدارة فحسب بل بمراقبة العدالة أيضاً . وكما أنه لم يكن هناك إداريون محترفون فكذلك لم يكن هناك قضاة أو محامون محترفون . وقد ظل مبدأ التجاء المعتدى عليه مباشرة إلى زملائه المواطنين طلباً للعدالة مرعياً في المحاكم المحلية فيما يختص بالأمور التافهة وفي المحاكم الآثينية بالنسبة للأمور الجنائية والمدنية الهامة . وكان المحلفون فعلاً قسماً من المجلس يتراوح عددهم بين ١٠٠١، ١٠٠١ تبعاً لأهمية القضية ولم يكن هناك قاض بل كان مجرد رئيس شكلي فقط مثل رئيس المحلفين عندنا . ولم يكن هناك محامون ، فكان الطرفان يترافعان في قضيتهم ، ولو أنه كان في إمكان المدعى أو المدعى عليه في الحقيقة أن يحصل على كاتب محترف للخطب يصوغ له خطبته وإن كان هو يحفظها عندئذ ويلقيها بنفسه ، وقد كان كل من هؤلاء المحلفين الشعبيين من الثقة في القانون وواقع الحياة ، ولم يكن هناك استئناف . وإذا كان الذنب مما لم يقرر القانون عقوبة محددة عليه فقد كان المدعى إذا كسب قضيته يقترح العقوبة ، لأن العدد الكبير من المحلفين لم يكن يستطيع أن يحدد الحكم بطريقة مريحة ، كما أن المتهم كان يقترح

بدلها ، وكان على المحلفين اختيار أحدهما . وهذا يفسر الإجراء الوارد في كتاب أفلاطون « Aplogy » فعندما أدين سقراط طالب الاتهام بعقوبة الإعدام ، أما سقراط فقد اقترح أو لاحرية المدينة مقابلاً لها ثم اقترح رسمياً — لا النفي وهو ما كان المحلفون يقبلونه بسرور — بل غرامة تكاد تكون من قبيل العبث والسخرية .

هذه النظرة الفاحصة ولو أنها موجزة تظهر نقطة جوهرية هي أن الشئون العامة في أثينا كان يتولاها الهواة بقدر الإمكان . أما المحترفون فقد كانوا يمنحون أضييق مجال ممكن ، بل أن الخبير بالفعل كان في العادة عبداً للجميع . وكان كل مواطن بدوره إما جندياً (أو بحاراً) أو مشرعاً أو قاضياً أو إدارياً إن لم يكن بصفته أحد القضاة التسعة الكبار فسيكون ذلك قطعاً بصفته عضواً في مجلس (البوليه أو الخمسمائة) . وقد يرى القارئ أن هذا الاستخدام غير المؤلف للهواة مثير للسخرية . ولقد انتقده سقراط وأفلاطون بالفعل انتقاداً شديداً ، ولو أن ذلك لم يكن لأنه غير مجد بقدر ما كان لأنه يكل مهمة « الفن السياسي » الكبرى — وهي الارتقاء بالناس إلى مستوى أفضل — إلى رجال يجهلون بها جهلاً تاماً .

وقد كان وراء كراهية الآثينيين للاعتراف ما يكاد يكون نظرية قائمة عن « البوليس » مؤداها أن واجب اشتراك الفرد في الوقت الملائم من حياته في كل شئون البوليس إنما هو دين عليه نحو « البوليس » ونحو نفسه على السواء . فقد كان ذلك جزءاً من الحياة المليئة بالنشاط التي كانت « البوليس » وحدها تستطيع أن تتيحها . فلم يكن الحصول عليها في استطاعة الرجل المتوحش الذي يعيش لنفسه فقط ولا « البربري » المتمدين الذي يعيش في إمبراطورية متسعة يحكمها ملك وخدمه الشخصيون . فقد كان حكم الناس لأنفسهم عن طريق المناقشة وكذلك رياضة النفس على النظام والمسؤولية

الشخصية والاشتراك المباشر في حياة البوليس في كل صغيرة وكبيرة هي أنفاس الحياة بالنسبة للآثيني .

ولم يكن ذلك مما يتفق مع حكم دولة متسعة حكماً تمثيلاً . هذا هو السبب في أن أثينا لم تستطع أن تنمو مثل روم فتضم إليها عدداً من « البوليس » الأخرى . فقد كانت مسؤولية اتخاذ الإنسان لقراراته وتنفيذها وتقبل النتائج بالنسبة للآثيني جزءاً ضرورياً من حياة الرجل الحر . وقد كان هذا أحد الأسباب — التي جعلت مأساة أرسخيلوس وسوفوكليس وملهارة أرسطوفانيس هي الفن الذي يحبه الشعب في أثينا بينما السينما هي فننا المحبوب . وقد كانت عادة الآثيني أن يعنى بالأشياء الهامة ولهذا فقد كان يبدو أى فن لا يعالج المواضيع الهامة فناً صبيانياً .

وربما أوحى وصف الدستور الآثيني هذا وهو وصف قصير جداً بحكم الضرورة إلى القارئ بفكرتين على الأقل ، هما أن هذا الأمر كله كان يؤخذ مأخذ الهواية إلى حد بعيد ، كما أن الآثينيين كان عليهم أن يقضوا وقتاً كبيراً جداً في الأعمال الهامة إن كان يرجى لهذا النظام أن يسير حقاً على ما يرام .

فلنبداً بالنقطة الأولى ، لقد كان الحكم عندهم حكم الهواة بأدق معاني هذه الكلمة أى الحكم بواسطة أناس يحبون الحكم والإدارة . وقد يكون التعبير عنها هكذا مضللاً لأن كلمتي « حكم » ، « إدارة » قد اكتسبت لدينا أهمية عظيمة فهما أمران في حد ذاتهما أو مطلبان يكرس بعض الذين أسىء توجيههم حياتهم من أجلهما ، أما بالنسبة للإغريق فقد كانا مجرد وجهين من الأوجه العديدة في حياة « البوليس » . إن مباشرة أعمال « البوليس » لم تكن واجباً على كل إنسان نحو البوليس فقط بل نحو نفسه كذلك . كما أن كل إنسان كان مهتماً ومشغولاً بها إلى حد يشغل كل وقته وجهده فقد كانت

جزءاً من الحياة الكاملة المليئة وقد كان هذا هو السبب في أن الآثيني لم يكن يستخدم الإدارى أو القاضى المحترف قط إن كان في أمكانه ذلك ، فقد كانت « البوليس » نوعاً من « الأسرة الفائقة » . والحياة العائلية تعنى الاشتراك اشتراكاً مباشراً في شئون الأسرة ومشاورتها . وهذا الموقف تجاه « البوليس » يفسر لنا أيضاً السبب في أن الإغريق لم يبتكر - كما نقول - الحكومة التمثيلية ، فما الذى كان يدعوهم إلى ابتكار شيء كان الإغريق جميعاً يكافون من أجل إلغائه وهو أن يحكمه أحد غيره ؟

ولكن أكان هذا الأمر أمر هواية بمعناها الآخر أى بمعنى قلة الكفاية أو عدم الأهمية ؟ إننا نستطيع على ما اعتقد أن نجيب على هذا السؤال بكلمة « لا » ، إذا كان المعيار الذى نقيس به الأشياء هو الحكم كما يوجد عادة بين الناس وليس السكال . فقد كان نظام الحكم عندهم مستقراً إذ أنه نهض بسهولة جداً من ثورتين كان الحكم خلالهما أو ليجاركيما وقد نشأتا بسبب ضغط الحرب الفاشلة . ولقد كفل نظام الحكم الحصول على إمراطورية وحسن إدارتها ، وأفلح في جمع الضرائب وضبط الاقتصاديات والمالية والعملية المتداولة بحزم ملحوظ . ويبدو أنه حافظ على مستوى من العدالة العامة لم تبلغه حكومات معينة في زماننا . ولقد خسر حرباً خطيرة لافتقاره إلى الشجاعة أو الحماسة بسبب أخطاء جسيمة في الحكم على الأمور . وأى نظام من نظم الحكم معرض لذلك ، فإذا حكمنا عليه طبقاً لهذه الأمور جميعاً أى طبقاً لمعايير الكفاية العادية فيجب ألا نصدر الحكم على هذه التجربة من تجارب الديمقراطية المنطقية بأنها لم تكن ناجحة .

أما الآثيني فإنه كان يتقبل كل اختبارات الكفاية هذه على أنها مشروعة

ولكنه كان يضيف إليها اختباراً آخر وهو هل ضمنت للمواطن العادى حياة طيبة إلى حد معقول ، أى هل شجذت تفكيره وأرضت روحه بالإضافة إلى القيام بما ننتظره نحن اليوم من الحكومة ؟ فعند الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن يكون هناك تردد على الإطلاق . ولقد استخدم فلاسفة مثل سقراط وأفلاطون اختباراً أدق بكثير : فتساءلوا عما إذا كان نظام الحكم هذا قد درب الناس على الفضيلة ؟ وقد قال أفلاطون في محاوره Gorgias أن ثيمستوكليس وكيمنون وبريكليس « قد ملأوا المدينة بالتحصينات والسفاسف التى من هذا النوع ، ولكنهم فشلوا تماماً في أول واجب للسياسى وهو جعل المواطنين أفاضل » . غير أن قليلاً جداً من الحكومات هى التى هدفت إلى الكفاية التى من هذا النوع .

وعند التمعن في كفاية نوعها أدنى من هذا يجب أن نتذكر شيئين أحدهما صغر الدولة ، إذ أن هذا الاجتماع الإقليمى الآثيني وهو المجلس مثله كمثيل المجلس المحلى النشيط في أيامنا هذه كان يعالج في أغلب الأحيان مسائل يعرفها كثير من أعضائه على الأقل معرفة مباشرة . ثم إن تعقد الأمور كان أقل بكثير مما هو عليه اليوم . ولا نقصد بالفعل تعقد الأمور الفكرى أو الخلقى فهو هو ذاته دائماً وإنما نقصد تعقد التنظيم . فإذا أعلنت الحرب لم يكن يقتضى الأمر « تعبئة كافة موارد الأمة » وما يستتبعه من لجان لا تنتهى ومن استهلاك هائل للورق بل كان الأمر يستدعى مجرد ذهاب كل إنسان إلى بيته من أجل درعه ورحله وطعامه اليومى وإبلاغ المسؤولين عن حضوره لتلقى الأوامر . وقدار تكب المجلس أسوأ أخطائه باتخاذ قرارات في مواضيع تتعدى نطاق معرفته الشخصية . وهكذا أصدر في وسط الحرب قراراً بغزو صقلية وهو قرار مفعم بالمصائب رغم أن القليلين جداً كما قال ثوكوديديس كانوا يعلمون موقع صقلية لا مقدار حجمها .

وكذلك يجب على الإنسان أن يتذكر أن كل أعضاء هذا المجلس فيما عدا أصغرهم سناً كانت لهم تجربة مباشرة بالإدارة في الوظائف المحلية والقبلية المختلفة وفي المحاكم ، وأن خمسمائة رجل جديد كانوا يشتغلون كل سنة في مجلس (البولييه أو الخمسمائة) ، فيعدون مشروعات القوانين لعرضها على المجلس ويستقبلون البعثات الأجنبية ويعالجون الشؤون المالية وكل ما عدا ذلك من الشؤون . فإذا أخذنا ٣٠٠٠٠ على أنه تقدير معقول لعدد المواطنين في العادة فإنه يتضح أن اشتغال كل مواطن في (البولييه أو مجلس الخمسمائة) كان أقرب احتمالاً من عدم اشتغاله . ولقد كان المجلس غالباً ما يتكون في حقيقة الأمر من رجال يعرفون ما يتكلمون بشأنه عن تجربة شخصية .

وهذا ينقلنا إلى بحثنا الثاني وهو كيف كان الآثيني العادي يجد وقتاً يتسع لهذا كله . فهو لم يكن رجلاً فوق البشر كما كان اليوم عنده يتكون من أربع وعشرين ساعة مثل يومنا الحالى . ومن الواضح أن هذا سؤال هام . لقد كان الإغريق يمتلكون الأرقاء مثلهم مثل كل الشعوب المتمدينة في الزمن القديم وفيما تلاه من الأزمنة . وقد استنتج من ذلك الكثيرون من لم يقرأوا أريستوفانيس بل قرأوا « كوخ العم توم » أن ثقافة أتيكا كانت من شأن طبقة تنعم بالفراغ وتعتمد في معاشها على الرقيق ، وقد يكون في هذه العقيدة مانتعزى به نحن الذين لنا مقدرة اقتصادية أكبر ، وإن كان عندنا من الحضارة الحقيقية أقل منهم بكثير . غير أن هذه عقيدة زائفة من أساسها . إن الشبه قليل جداً بين الرق عند الإغريق في القرنين الخامس والرابع وبين الضياع الرومانية الكبيرة Latifundia التي كان يفاحها الرقيق ، والتي نشأت عن تناقص سكان الريف .

فأولاً إن نظام الرق في الزراعة لم يكن يكون له وجود في بلاد الإغريق ، كما أن التقليد الذي ظل قائماً عندهم هو أن المواطن كان يمتلك أرضه دون أن

يقدم له الرقيق فائدة تذكر في زراعة مثل الأرض المحدودة التي كانت له . إذ كان للعبد أن يأكل تقريباً بقدر ما ينتج من المحصول ، وكان الفلاح الثرى مثله كمثل المواطن الذي يسكن المدينة يفضل أن يكون له قليل من الأرقاء الذين يستخدمهم غالباً في قضاء حاجاته الشخصية والمنزلية . وكان للآثيني الذي يخرج لشراء حاجاته عبدان أمكنه ذلك يحمل له ما يشتره كما كان عنده في البيت عبد أو إثنان أو جارية أو جاريان يؤديان عمل الخادم أو الممرض عندنا . وقد زاد ذلك من مسرات الحياة عندهم ورقى الحضارة إلى حد ما مثلها أعان الخدم الذين أعتدنا أن نستخدمهم سيدات الطبقة الوسطى على لعب البردج عصر كل يوم ، وكما ساعدوا الأساتذة على تأليف الكتب . ولكنهم لم يكونوا عماد الحياة الاقتصادية في أتيكا بكل تأكيد . ويقدر حجة (١) حديث في تاريخ الإغريق أن حوالى ١٢٥٠٠٠ عبد كانوا في أتيكا قبل حرب البيلوبونيز كان يتولى منهم الخدمة المنزلية حوالى ٦٥٠٠٠ أى أكثر من النصف بقليل ، كما كان هناك في تقدير الأستاذ جوم حوالى ٥٠٠٠ آثيني منهم فوق الثامنة عشرة . وبذلك كان العدد الكلى لسكان آثينا أكثر من ١٠٠٠٠٠ . وهذا يجعل نصف عبد تقريباً لكل آثيني في المتوسط . ولكن من المحال أن نقدر عدد الأسر التي لم يكن بها أحد من الأرقاء ، وعدد التي كان بها أرقاء كثيرون ، ويقدر الأستاذ جوم أن ٥٠٠٠٠ من الأرقاء الآخرين كانوا يشتغلون في الصناعة و ١٠٠٠٠ في المناجم . وقد كان الآثينيون يعاملون الأرقاء المشتغلين في المناجم بقلوب قاسية إلى أقصى حد . وهذه هي الوحيدة الوحيدة الخطيرة التي تلطخ إنسانية الآثينيين العامة ، فقد كان لأرقائهم على العموم حرية كبرى وحماية قضائية أكثر بكثير مما يلقاه المواطن السود في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، إلى حد أن الإسبرطيين كانوا يسخرون

(١) تاريخ الإغريق ، المجلد الأول من تاريخ الحضارة الأوربية بقلم — أ — جوم إصدار (آير) ولعل هذا هو أحسن « موجز تاريخي » موجود عن حضارة الإغريق .

من أنك لا تستطيع أن تفرق في شوارع آثينا بين العبد والمواطن ، غير أن الآثينيين كثيراً ما كانوا يجعلون الأرقاء يشتغلون في المناجم حتى الموت ، فقد كانت الأحوال أسوأ بكثير منها في مصانعنا في أفضح الأوقات ، ولو أن الآثينيين كان من حقهم أن يعتذروا بأن الآثينيين لم يدعوا على الأقل بأن هؤلاء الضحايا كانوا مواطنين لهم نفوس خالدة ، كما أن أسوأ الأرقاء هم الذين كانوا يرسلون إلى المناجم . على أن ذلك كان شيئاً بشعاً . فمن جهة كان هذا بلا ريب مما ينطبق عليه المثل القائل « بعيد عن العين بعيد عن القلب » ومن جهة أخرى ما كان يمكن تقريباً تشغيل المناجم دون شيء « من هذا القبيل » . إن أكثر الحضارات لها فضائرها الخاصة ، فنحن نقتل ٤٠٠٠ مواطن سنوياً في الطرقات لأن أسلوب حياتنا الحاضرة لا يمكن استمراره بغير ذلك . إن فهمنا لهذه الظروف لا يعنى بالضرورة الصفح عن ذلك ولكن ليس هناك من ضرر أن حاولنا أن نفهم .

أما الخمسون ألفاً المقدّر اشتغالهم في الصناعة فيبدو أن هذا عدد هائل بالنسبة إلى عدد السكان كله ، فلو كان عندنا في بريطانيا العظمى عدد من الأرقاء المشتغلين بالصناعة يمكن مقارنته بذلك ، أي نحو عشرة ملايين لكننا نعيش الآن في غاية الراحة لولا قوانين الاقتصاد التي من المؤكد أنها تقرر أن أحوالنا كانت تكون أسوأ منها في أي وقت . ولكننا عندما نحاول أن نقدر الأثر الاقتصادي والاجتماعي لهؤلاء الخمسين ألفاً من الأرقاء ، ينبغى لنا أن نتذكر أن عملهم عندما لم تكن هناك آلات لم يكن ينتج فائضاً كبيراً يعيش عليه الآخرون بل كان ينتج شيئاً لم يكن كبيراً بكل تأكيد ، لقد كان هناك حد فعال بالنسبة لاستخدام الأرقاء في الصناعة .

ففي أوقات الكساد كان العبد الكسول خسارة تامة ، فقد كان يتعين إطعامه . وكانت قيمته الكلية أقل من قيمة طعامه . ولذلك نرى أن « المصنع »

العادي كان يستخدم الأرقاء والمواطنين كليهما ، كما كان من الممكن طرد المواطنين . ولقد كان « المصنع » في جميع الأحوال شيئاً صغيراً جداً بالفعل . فلو أنه كان يستخدم عدداً يصل إلى عشرين من الأرقاء لكان يعتبر مشروعاً كبيراً حتماً . وقد أصبحنا نعرف بفضل الكشف حديثاً عن بعض النقوش شيئاً عن إدارة العمل في بعض مباني الأكروبوليس . فنحن نعرف أن آثينا كانت دولة بها أرقاء ، ولذلك فإننا نتوقع بكل أطمئنان أن يكون البارثينون والأريختيوم Erechtheum وبقية المباني قد بنى كلاً منها مقاول يستخدم فرقاً من الأرقاء . فإذا أمعنا الفكر ربما كان من السخف أن نفترض أن العمارة والنحت اللذين بهذه الجودة وهذه الرصانة وهذه الرقة والذكاء هي من ابتكار ملاك الرقيق . فهذه المباني تختلف عن الأهرام كل الاختلاف ، وإنا لنجد أن ما تم بناؤه ليس من قبيل الأهرام ولكنه شيء آخر غيرها مما لا يكاد يصدق العقل . لقد أنشئت هذه المباني عن طريق آلاف من العقود المستقلة ، فأحد المواطنين ومعه أحد الأرقاء يتعاقد على أن يستحضر حمولة عشرة عربات من الرخام من بنتليكوس ، أو مواطن يستخدم اثنين من الآثينيين كما يملك ثلاثة أرقاء يتعاقد على حفر حروز في أحد الأعمدة . لقد أعانهم الرق كما تعيننا الآلة أما القول بأنه كان عماد الاقتصاد الآثيني فهذه مبالغة خطيرة . والقول بأن الرق حدد طابع المجتمع وأبعد المواطن العادي عن العمل الشاق إنما هو قول مضحك . أما الذي أدى إليه فعلاً فهو أنه خفض مستوى الأجور ، إذ أنه لو أصبح شراء الرقيق أكسب في النهاية لما استخدم أحد الأحرار في العمل ، غير أن امتلاك الأرقاء كان عملاً عظيم التوريط .

وفي بحثنا إذن عن مصدر وقت الفراغ الذي يبدو أنه كان عند الآثينيين يمثل هذه الوفرة لابد أن نعطي للرق الأهمية التي يستحقها لا أكثر . وفي أغلب الأحيان كان في وجود الرق مجرد زيادة في فراغ أولئك الذين كانوا يتمتعون براحة كافية . وعلينا أن نعطي أهمية أكثر بكثير ، على ما أعتقد ،

لمستوى المعيشة البسيط كل البساطة الذي كان يعيش فيه حتى الآثني الغنى .
لقد كان بيته وأثاثه وثيابه وطعامه بحالة ينبذها الصانع البريطاني باحتقار ،
وهو لا يستطيع بالفعل أن يعيش عليها في مناخ بريطانيا .

صحيح بطبيعة الحال أن الآلات تنتج لنا أغلب الأشياء التي تعد بالآلوف
أما الإغريق فلم يكن حالهم كذلك ولكن ذلك سلاح ذو حدين . ونحن
لا نبحث الآن موضوع الراحة بل موضوع الفراغ وهو الذي كان يقدره
الإغريق أكثر من كل شيء إلا المجد . وليس من الواضح أن الآلات
زادت من فراغنا بوجه عام ، ولكنها زادت زيادة هائلة من تعقيدات الحياة
بحيث أن قدراً كبيراً من الوقت الذي يوفره لنا الإنتاج الآلي يأخذه منا
العمل الإضافي الذي يخلقه عصر الآلات .

وثالثاً عندما يحسب القارىء مقدار وقت العمل الذي يقضيه ليستعين
به على دفع ثمن الأشياء التي كان الشخص الإغريقي يستغنى عنها بكل بساطة ،
من أمثال أرائك الجلوس والبنىقات وأربطة الرقبة وأغطية الفراش
وأنايب الماء الجارى والتبغ والشاي وظائف الحكومة ، فليفكر في الأعمال
التي يزاولها وتستنفد وقته والتي لم يكن يعملها الرجل الإغريقي ، مثل قراءة
الكتب والصحف اليومية والسفر يومياً للعمل والتسكع حول المنزل وتشذيب
العشب النامي في الحديقة وهو يعتبر من ألد أعداء الحياة الاجتماعية والفكرية
في مناخ بلادنا (إنجلترا) . ثم أن دورة العمل اليومي لم تكن تنظمها الساعة
بل الشمس ، إذ لم يكن هناك ضوء صناعي مفيد . وكان النشاط يبدأ في الفجر ،
ففي محاورة « بروتا جوراس » التي كتبها أفلاطون أن شاباً متحمساً يريد
أن يرى سقراط بسرعة وينادى عليه مبكراً إلى حد أن سقراط كان ما يزال
في الفراش (والآخرى أن نقول على الفراش وأن نفترض أنه ملتف في
عباءته) . وكان على الشاب أن يتحسس طريقه إلى الفراش لأن النور

لم يكن قد بزغ بعد . ومن الواضح أن أفلاطون يعتقد أن هذه الزيارة تمت
في وقت مبكر ، ولو لم تكن فيها مخالفة صارخة . وإننا لنغبط الآثنيين
العاديين الذين يبدو أنهم كانوا يستطيعون أن يقضوا ساعتين كل عصر
في الحمامات أو الجناس يوم (وهو مركز ثقافي رياضي متسع يعده الجمهور
لنفسه) . وليس في وسعنا أن نقطع لأنفسنا مثل هذا الوقت في منتصف
النهار ، بل إننا نستيقظ في الساعة وما يتبع ذلك من الحلاقة والإفطار وارتداء
هذه السترة الكاملة من الدروع الثقيلة . وهكذا لا نبدأ العمل قبل
٨.٣٠ أما الإغريق فقد كان يستيقظ بمجرد أن يبرغ النور وينفض عنه
الغطاء الصوفى الذي كان يلتحف به للنوم ثم يلفه حوله برشاقة جاعلاً منه
سترته . وكان يرسل لحيته ولا يتناول طعاماً للإفطار بل كان مستعداً لمواجهة
العالم في خمس دقائق . ولم يكن العصر هو منتصف اليوم بل هو آخره على
وجه التقريب .

وختاماً لقد كان هناك أجر يدفع عن كثير من أنواع الخدمة العامة كما
كان يدفع أجر عن حضور جلسات الجمعية العمومية (١) وقد وجدت آثينا
في الحقيقة ما وجدناه نحن خلال هذا القرن ، وهو أننا إن أردنا من المواطن
العادى أن يكرس وقتاً للخدمة العامة فالواجب علينا أن نعوضه عن ضياع
وقته . ولو أننا لم نقرر حتى الآن مبلغاً من المال لمساعدة الفقراء على دفع
أجور مقعدهم في مسرح حكومي لا نمتلكه . وقد كان أعضاء « البوليه »
أى مجلس الخمسمائة والقضاة التسعة والموظفون الآخرون والمحلفون الذين
يشتغلون في المحاكم يتقاضون أجوراً ولو أنها قليلة من الأموال العامة التي كانت
إلى حد ما مكاسب الإمبراطورية . ويبدو أنه قد أصبح مقررراً بجلاء أن المواطنين
الآثنيين كانوا يلعبون دوراً أقل في صناعة أتيكا وتجارتها في القرن الرابع

(١) الجمعية العمومية أو مجلس النواب ekklesia ، ومجلس الشيوخ Boulé .

بينما كان دور الأجانب المقيمين أكبر . وليس السبب هو أن الآثينيين كانوا يعتمدون على الرق أكثر في معيشتهم ولكن اعتمادهم على أجور الحكومة كان أكثر .

وهذه التجربة في الحكم الديمقراطي لا يمكن تكرارها أبداً إلا أن نشأت دول مستقلة من الصغر بحيث نستطيع أن نقطعها في يومين مشياً ، كما أن الطريقة المنطوية على الثقة التي استحدث بها الآثينيون رغبتهم في الاشتراك شخصياً وبطريقة مباشرة في كل ناحية من نواحي الحكم إلى حدها الأقصى المنطقي ، يكاد يلوح أنها تحد مقصود لضعف الطبيعة البشرية . فهل من الممكن أن يحظى شعب بأكمله بالحكمة المستمرة وضبط النفس لإدارة شؤونه الخاصة إدارة حكيمة ؟ وهل يستطيع شعب أن يدير شئون إمبراطورية وأموالها الخاصة دون أن يتطرق إليه الفساد ؟ وهل يستطيع أن يدير شئون حرب ؟ وما هي عوامل الإغراء والخطر التي تهاجم الديمقراطية ؟ إن آثينا تمدنا بتجربة معملية تقريباً في الحكم الشعبي إلا أنها حدثت قديماً جداً وبلغت ميته جداً ولعله مما يستحق اهتمامنا اليوم أن نوليها شيئاً من العناية .

الإغريق في الحرب

لقد كان العالم الإغريق منقسماً حينذاك . فقد كانت الإمبراطورية الآثينية التي كان الناس يدعونها علناً « مستبدته » تقف في جانب وتقف في الجانب الآخر إسبرطة وعدد من الولايات التي كانت تعطف على إسبرطة (وبخاصة بويوتيا Boeotia) وكانت الجماعة الأولى قوية في البحر أما الثانية فكانت قوية برآ وكانت الأولى أيونية بصفة أساسية أما الثانية فكانت دورية — على أن هذا التقسيم لم تكن له أهمية في حد ذاته . وكانت آثينا تجذب بل تصر على أن تكون دساتير حلفائها ديمقراطية ، أما الجماعة الأخرى فتجذب الأوليغاركيات (حكومات الأقلية) أو الديمقراطيات المحدودة على أكبر تقدير وهو موقف مألوف . لقد كان هناك شعور عام بأن تصرف آثينا لا يطاق بالنسبة لتقييد الحكم الذاتي عند حلفائها الإسميين . وقد ساعد هذا إسبرطة على أن تتقدم بصفقتها نصيرة الحرية الإغريقية . وكان هناك أيضاً مناسبة تجارية بين آثينا وكورنثا ، كما كان هناك خوف في كورنثا من أن تجارتها مع الإغريق الغريبيين مهددة . وفي هذه المرة كان السكورثيون هم الذين حشوا الإسبرطيين على قبول التحدي الآثيني . ولقد سبق أن ذكرنا وصفاً يصور لنا أخلاق الآثينيين ألقاه في هذه المناسبة خطيب كورنثي في إسبرطة .

لقد كانت هذه الحرب نقطة تحول في تاريخ « البواليس » الإغريقية فقد استمرت على وجه التقريب من سنة ٤٣١ إلى سنة ٤٠٤ أي سبعاً وعشرين سنة من القتال الذي فيما عدا فترات توقف قصيرة استمر في كل جزء من العالم الإغريق تقريباً في كل بحر إيجه ، في خالكيدونية وحوها وفي بويوتيا وحوها حول سواحل البيلوبونيز وفي شمال غرب الإغريق وفي صقلية حيث دمرت

حملتان قويتان أرسلهما الآثينيون على عجل دون أن يبقى منهما أحد تقريباً على قيد الحياة وتركت أتيكا كلها — فيما عدا المدينة ويبريه اللتين كانتا محاطتين بخط من التحصينات — مكشوفة للجيوش الإمبرطية . وكانت عرضة للنهب والتخريب بطريقة منظمة . وفي العام الثاني من الحرب عندما اضطر سكان الريف في أتيكا إلى ترك بيوتهم للأعداء والاحتفاء داخل الأسوار والسكنى حيثما استطاعوا انتشر الوباء واستشرى عدة أشهر . ويعطينا ثوكوديديز (الذي أصيب به ولكنه شفى منه) بطريقة التي تبدو هادئة في الظاهر وصفاً عنه تقشعر منه الأبدان . وهو يعلق أهمية خاصة على الانهيار الخلق الذي سببه . لأن طاعة القانون والدين والأمانة واللياقة تلاشت أثناء هذا العذاب . وقدمات ربع سكان البوليس تقريباً بما فيهم بريكليس : ومع ذلك فقد أفاقت آثينا وخاضت البحار واستوردت قمحها بانتظام وأرسلت الأساطيل والجيوش وكانت تستطيع أن تعقد الصلح في مناسبتين أو ثلاث بشروط ملائمة إلى أن فقدت آخر أسطول لها بطريقة تدعو للذل بعد الوباء بخمس وعشرين سنة واضطرت إلى الاستسلام تحت رحمة إمبرطه .

ومع ذلك فقد استمرت حياة البوليس طول هذا الوقت ، ولم يكن يتقرر شيء له أهمية إلا بوساطة الأهالي في مجلس الأمة . وكان القواد ينتخبون وتفتح الجبهات الثانية والثالثة والرابعة وتناقش شروط الصلح وتدرس التقارير الواردة من الجبهة بوساطة هذا المجلس المكون من جميع المواطنين وهو الذي لم تخنه شجاعته أثناء الحرب إلا مرة واحدة بعد كارثة صقلية ، حين خدع المجلس حتى سلم سلطاته إلى هيئة أصغر منه لم تكن في الحقيقة إلا ستاراً لجماعة من المصممين على أن يكونوا القلة التي تحكم البلاد ، وقد حكموا حكماً إرهابياً عدة أشهر ثم أسقطوا وجرى بديمقراطية محدودة (مدحها ثوكوديديز مدحاً عظيماً) ولكن سرعان ما حمل المجلس العبء ثانياً وصار مفتوحاً للجميع .

ولم تكن الحياة السياسية هي التي استمرت فقط بل ان الحياة الفكرية

والفنية قد استمرت كذلك . إن التفكير في حالة آثينا أثناء الحرب يثير إحساساً بالهوان عند أولئك الذين يذكرون انهيار حياتنا الثقافية في الحرب العالمية الأولى واهتمام السلطات الشديد بإغلاق كل ما يمكنها إغلاقه (فما عدا التجارة والعمل اللذين تركا سيران كالمعتاد) والهوس الشعبي الذي جعل سماع بيتهوفن وفاجنر مما يتنافى مع الوطنية ، وحماقات النقاد والخط من شأن المسرح . فعندما تعرض الآثينيون لأشد المخاطر واقترب منهم العدو حتى عسكر في أتيكا وقتلت نسبة كبيرة من المواطنين واشتد عوز العائلات استمر الآثينيون في أعيادهم لا بقصد اللهو والمتعة بل باعتبارها جزءاً من الحياة التي كانوا يحاربون من أجلها . ففي الروايات المسرحية التي أخرجت لهم وباسمهم استمر سوفوكليس يفكر في المشاكل النهائية للحياة الإنسانية والخلق الإنساني دون أن يذكر كلمة واحدة عن الحرب كما استمر يوريبيديس يعرض بأن النصر أجوف ويقبح الأخذ بالنار ، وأعظم ما يثير الدهشة هو أن أريستوفانيس استمر يسخر من قادة الشعب المحبوبين وقواد الجيش والشعب صاحب السيادة نفسه ، كما استمر يعبر عن كراهيته للحرب وعن مباهاج السلام في ملاحه تجمع بين حضور الذهن والخيال والتفريح وجمال الشعر الغنائي ، وقلة الاحتشام ووضع الجد في قالب الهزل .

وقد كان سقراط طوال هذا الوقت في آثينا يناقش ويقرع الحجة بالحجة وينتقد — إلا عندما كان في بوتيديا يحارب ببسالة في صفوف الجيش — محاولاً أن يقنع كل من يريد أن يصغى إليه أن الخير الأسمى هو خير النفس وأن الجدل الدقيق هو الوسيلة الوحيدة لإدراكه .

ومن جهة أخرى عندما نلتفت إلى سنى الحرب الختامية نجد ما هو جدير بالثناء والتقدير ما وجدنا من قبل ما يستحق إعجابنا . فنجد هذا الشعب نفسه يمزقه الخلاف ويكل نفسه إلى جماعة الكيبياديس ، الذين خانوا آثينا

وإسبرطه كلا بدوره والذين كانوا يقتضون النصر الظاهري من الهزيمة ثم يبدون النصر وينقلبون بوحشية على القواد الذين أحرزوه لهم والذين كانت لهم قدرة على النشاط المتقدم على خسارة كل شيء عن طريق إهمال يوم واحد كما يبدو لنا، وليس في التاريخ ما يكشف عن الخلق الإنساني في قوته وضعفه أكثر من هذه الحرب إلا حلقات قليلة. وشعور الإنسان نحو الحرب مثل هذا الشعور يعود كله تقريباً إلى عبقرية ثوكوديدز مؤرخها المعاصر لها.

وبدلاً من أن أعطى وصفاً متكلفاً عن الحرب سأترجم أو أشرح فقرات قليلة من تاريخ ثوكوديدز آملاً أن يعطى ذلك للقارىء فكرة عن الرجل نفسه وعن الإغريق في وقت الحرب وعن المجلس الآثيني أثناء قيامه بالعمل وعن تأثيره على حياة المواطنين وعن اضمحلال الروح الآثينية بصورة مخزنة تحت ضغط الحرب. وقد كان ثوكوديدز آثينياً مثرياً عريق الأصل وكان معجباً ببريكليس دون خلفائه وقائداً للجيش في مراحل الحرب الأولى وكاتباً يترك عقله أثراً دامغاً على قارئه. أما من حيث القوة المركزة والفهم العميق للأشياء فلا يجارى ثوكوديدز إلا إغريقيان آخران أحدهما إسخيلوس والثاني هو الشاعر الذي كتب الإلياذة.

ويمكننا أن نبدأ بوصف ثوكوديدز لمناقشة جرت في المجلس قبل نشوب الحرب مباشرة. وكان قد جاء وفد من إسبرطه يطلب طلبات دبلوماسية معينة من الآثينيين، من بينها بصفة خاصة أن يرفعوا الحظر على التجارة مع ميجارا وهي عضو في التحالف البيلوبونيزي. وأخيراً جاء آخر السفراء من أسبرطة وهم رامفياس Rhamphias وميليسيبيوس Melesippus وأجيساندر Agesander ولم يتكلموا عن الموضوعات المذكورة من قبل إنما هذا ما قالوه: « إن الإسبرطيين يريدون أن يستمر السلام وهذا يمكن إن تركتم الإغريق وشأنهم » فدعا الآثينيون مجلساً (١) للاجتماع وعرضوا الأمر للمناقشة

(١) هو مجلس « البولي » .

وقرروا أن يناقشوا هذه الطلبات ويردوا عليها رداً نهائياً. وتكلم كثيرون في شتى النواحي فاقترح البعض ضرورة الدخول في الحرب واقترح الآخرون ضرورة سحب القانون الخاص بميجارا وعدم السماح له بأن يقف في طريق السلام، وأخيراً تقدم بريكلis بن كسانثيبيوس Xanthippus كبير مواطني زمانه وأقدرهم سواء على القول أو العمل وأشار عليهم بما يلي:

أن رأيي هو هو دائماً وهو أننا ينبغي ألا نقوم بأى تنازل لإسبرطة. ولو أنى أعلم أن الذين يستميلهم الناس ويغرونهم حتى يعلنوا الحرب يغيرون أفكارهم عندما يجدون أنفسهم في وسط الحرب ويدعون الحوادث تغير من أحكامهم، غير أنه من الواضح لي أنه يجب على أن أقدم لكم نفس النصيحة التي سبق أن قدمتها وأطلب من أولئك الذين يغيرونهم زملاؤهم حتى يدلوا بأصواتهم في جانب الحرب أن يؤيدوا عزماً مشتركاً إذا دهتنا الكوارث، وألا يدعوا ذكاء خاصاً إذا نجحنا لأنه كثيراً ما يحدث أن تكون الأعمال والقرارات على السواء نتائج غير متوقعة بتاتاً. وهذا هو السبب في أننا ننسب للصدقة الأمور التي يتضح أنها جاءت مناقضة لكل ما حسبناه.

ويخلص بريكلis من مثل هذه المقدمة التي تمتدح الثبات والاعتدال في الحكم إلى مناقشة منطقية جداً يقصد بها إلى إثبات أن التنازل حتى عن شيء تافه إنما يفسر بالخوف ويؤدي إلى مطالب جديدة، وأنه إذا استدعى الأمر الحرب فلن يتغلب سكان البيلوبونيز لحاجتهم إلى الموارد والوحدة. ثم قال لو كنا من أهل الجزر فهل كان يوجد أحد لا يمكن غزوه أكثر منا. علينا إذن أن نفكر في أنفسنا بصفتنا من أهل الجزر فنزل عن أرضنا وبيوتنا ونحمى البحار والمدينة (١) ولا نخاطر بمعارك لا فائدة منها من أجل

(١) يدل هذا بوضوح على أن جمهور المستمعين لبريكليس كانوا يعيشون في أتيكا خاصة لا في أثينا وبيريه.

أتيكا . وينبغي علينا أن نحزن لا على ضياع البيوت والأراضي بل على الأرواح التي نفقدها ، فليست هذه هي الأمور التي تكسب الرجال بل الرجال هم الذين يكسبونها ، ولو اعتقدت أنكم تفعلون ذلك لحرصتكم على الخروج منها وتدميرها بأنفسكم لتروا سكان السيلوبونيز أن هذا لن يجلب لهم النصر . إن لدى أسباباً أخرى للثقة إذا امتنعتم عن محاولة كسب أراض جديدة لأنى أخاف من أخطائنا أكثر مما أخاف من خطط العدو . وهكذا بعد أن اقترح بريكليس رداً قوياً ليس فيه تحد ، جلس وكان على المجلس أن يتخذ قراراً . ولما كان الآثينيون يعتقدون أنه قدم أحسن نصيحة فإنهم أدلوا بأصواتهم كما أوصاهم ، ورجع مبعوثو أسبرطه إلى وطنهم ولم يعودوا إلى أثينا .

وقد عجلت بالحرب هجمة مفاجئة من طيبة على بلاتايا سنروها فيما بعد . ثم غزا الإسبرطيون أتيكا وظلوا يدمرون أراضي قرية (أو مدينة) أخارناى Acharnae الهامة . فلما رأى الآثينيون الجيش في أخارناى أى على بعد ستة أميال فقط من المدينة أحسوا بأن ذلك شيء لا يطاق وبأنها إهانة عظيمة أن يكون العدو قائماً بتخريب أرضهم أمام أعينهم ، وهذا شيء لم يكن قد رآه الشبان ولم يره الكبار إلا في حروب الفرس . فصمم الجميع ولا سيما الشبان على الخروج لمقاومتهم وألا يتحملوا ذلك على مضض ، وأخذوا يتجمعون وجرت بينهم مناقشات حامية فكان البعض يحثهم على الخروج والآخرين يحاولون أن يثنوهم عن ذلك ، وكان المتنبتون يقصون عليهم كل أنواع النبوءات والناس يصغون إليهم بحماسة وأخذ الآخريون يحثونهم على الزحف لعلمهم بأنهم يكونون جانباً كبيراً من الجيش ولأن أرضهم هي التي كانت تخرب . وكانت المدينة منزوعة من كل وجه من الوجوه كما كان الناس في غيظ من بريكليس إذ نسوا كل النصيحة التي سبق له أن قدمها لهم وكانوا يلومونه لأنه قائدهم وقد رفض أن يقودهم للخروج وكانوا يعتبرونه مسئولاً عن كل ما أصابهم . فلما رآهم بريكليس غاضبين

ورأى أن وجهة نظرهم ليست سليمة بالمرة ، ولما كان متأكداً من أنه محق في رفض مهاجمة العدو فإنه لم يستدع المجلس إلى الانعقاد في جلسة رسمية أو غير رسمية مخافة أن يتورطوا عند الاجتماع وهم في حالة غضب لا حالة تفكير سليم بل اهتم بالدفاع عن المدينة وجعلها هادئة بقدر الإمكان . وجعل يرسل الفرسان باستمرار ليعبد العدو عن الأرض القريبة من المدينة ثم قام في نهاية العام بهجوم مضاد بإرسال أسطول لتهب شواطئ السيلوبونيز وتخريبها . لقد ذكرت هذا الحادث لنفس السبب الذي لا ريب أنه دفع ثوكوديديز إلى إعادة ذكره وهو الإشارة إلى مقدار الخطر الذي كان يتعرض له الدفاع ضد الحماقة . ونظراً لأسلوب الحياة الآثيني فلم يكن هناك من دفاع في الحقيقة إلا جماع حسن الإدراك عند عامة الشعب . فلم يكن أى حافز قوى عند الجمهور مثل « دعنا نفتتح الجبهة الثانية الآن » يتبدد في الملاحظات المكتوبة بالطباشير على الجدران أو في التهيج الصحفي ، بل كان من الممكن أن يقدم للمجلس رأساً وينفذ مباشرة ، وكان هذا وحده مما يشجع على الشعور بالمسؤولية . كما كان ينتظر من أى مواطن يطالب مثلاً بأن « تفتح جبهة ثانية الآن » أن يوضح كيف يكون ذلك وأين وبأى قوات فلم تكن الدولة عرابه . god mother من الجنيات كما لم يكن يديرها خبراء بل كانت هذا المواطن والمواطنيين الذين يجلسون حوله ويستمعون إليه .

فلما وسعت الحرب الطويلة لا من الثغرة التي بين النبلاء وبين عامة الشعب أو بين الأغنياء وبين الفقراء - بل بين طبقة التجار والصناع الذين أقبلت عليهم الدنيا وبين الزراع الذين قاسوا الويلات ، وكذلك لما أصبح للمدينة قادة ليسوا كبريكليس البعيد النظر ذى الرأى المستقل بل رجال لهم حكمة أقل وروح أحط يميلون إلى استئثار الشعب واستغلاله أكثر من ميلهم إلى كبح جماحه - لم يعد عند ذلك الدفاع ضد الحماقة قوياً إلى الحد الكافي .

وقد حدثت مثل هذه اللحظة في السنة الثانية من الحرب ، وهي من أحلك اللحظات التي قاستها أثينا . إذ أن الإسبرطيين لم يأتوا إلى أتيكا للمرة الثانية فحسب بل اجتاحت الوباء المرعب أثينا كذلك . وهذه هي النتيجة الوحيدة لاستراتيجية بريكليرس التي لم يكن في مقدوره أن يتوقعها « فغير الآثينيون رأيهم وأخذوا يلومون بريكليرس اعتقاداً منهم أنه هو الذي أغراهم بالدخول في الحرب وأنه هو مصدر كوارثهم وكانوا تواقين إلى عقد الصلح مع إسبرطه وأرسلوا لها المبعوثين فعلا دون جدوى . وقد دفعهم اليأس إلى استخدام العنف مع بريكليرس ولذلك دعا المجلس (إذ كان لازال قائمهم) عندما رأى أن الغضب يتأجج في صدورهم وأنهم يفعلون في الحقيقة ما كان قد توقع أن يفعلوه »

لقد كانت خطبة بريكليرس (وهي من الطول بحيث لا يمكننا اقتباسها حتى بعد أن اختصرها ثوكوديديز) رائعة كما كان استقبال هذا الشعب البائس لها رائعاً . وأنه شيء رائع أن نجد زعيماً شعبياً يتكلم بمثل هذه الروح السامية ويعتمد هكذا كل الاعتماد على الحجة المنطقية . وسواء كانت حجة عجيبة أو خاطئة فليس هذا بموضوع بحثنا الآن . وقد كان مضمون الخطبة على العموم ما يأتي :

لقد دعوت هذا المجلس الخاص لأذكركم بحقائق معينة ولأحتج على بعض أخطائكم . تذكروا أنه أهم للبوليس أن تزدهر من أن تقبل الدنيا على أفراد من المواطنين بينما تهلك « البوليس » فإنهم يهلكون معها . أما إن أصاب مواطن سوء الحظ ولم يصب المدينة فإن هناك أملاً في إصلاح حاله .

وأنتم تحت تأثير آلامكم الخاصة غاضبون على لأنى حثتكم على إعلان الحرب . ولهذا فأنتم غاضبون أيضاً من أنفسكم لأنكم أدليتكم بأصواتكم معي . لقد فهمتموني على ما أنا عليه كما أعتقد أى على أنى أبعد نظراً من الكثيرين

وأقدر منهم في الخطابة - فإن الإنسان إذا لم يستطع أن يعبر عن نفسه تعبيراً واضحاً فلن يكون عنده بعد نظر - كما أنى أصدق منهم في الوطنية وفي النزاهة الشخصية . فإن كنتم أدليتكم بأصواتكم معي لأنكم فهمتموني على هذا النحو فلن تستطيعوا أن تتهمونى اتهاماً نزيهاً بأنى أسأت إليكم . أنا لم أغير ولكنكم أنتم الذين تغيرتم . لقد نزلت بكم مصيبة وأنتم لا تستطيعون أن تثابروا على السياسة التي اخترتموها عندما كانت الأمور على ما يرام . إن عزمكم الخائر هو الذي يجعل نصيحتي تبدو لكم خاطئة . إن الغيب الذي لا نتوقعه هو الذي يحطم روح الإنسان .

إن لكم (بوليسا) عظيمة وشهرة عظيمة فيجب أن تكونوا جديرين بهما . والبحر وهو نصف الدنيا ملك لكم . ويجب أن تفكروا في أتيكا على أنها حديقة صغيرة فقط تحيط بقصر . وإذا كنتم تهربون من مشاق السيادة فلا تطالبوا بشيء من مفاخرها . ولا تظنوا أنكم تستطيعون أن تنالوا بسلام عن إمبراطورية تعتبر في الحقيقة حكماً استبدادياً ، فالبدل عن الإمبراطورية بالنسبة لكم هو العبودية .

إننا يجب أن نتحمل ضربات العدو بشجاعة وضربات الآلهة باستسلام . يجب ألا تلوموني على مصائب ليست في الحسبان ما لم تكونوا على استعداد لأن تنسبوا إلى الفضل في الانتصارات التي لم نحسب لها حساباً .

وقد حاول بريكليرس بهذه الخطبة كما قال ثوكوديديز أن يحول غضب الآثينيين عن نفسه كما يحول أفكارهم عن بؤسهم إذ ذاك . فمن الوجهة السياسية أقنعهم فلم يعودوا يحاولون عقد الصلح ولكنهم لم يتوقفوا عن استيائهم منه حتى ألزموه بدفع غرامة من المال . ولكن لم يمض وقت طويل حتى انتخبوه قائداً ثانية ووكلا إليه كل شيء . وهذه هي الطريقة التي يتصرف بها كل جمهور مجتمع .

وإذا جال بفكرنا أن هذا الوباء كان في بشاعة وباء لندن مضافاً إليه فزع الآثينيين من أن العدو خارج حصونهم يحاصرهم بداخلها فإنه يحب علينا أن نعجب بعظمة الرجل الذي استطاع أن يخاطب مواطنيه مثل هذا الخطاب ، كما نعجب بعظمة الشعب الذي استطاع لا أن يصغى فقط لمثل هذه الخطبة في مثل هذا الوقت بل أن يقنع بها فعلاً إلى حد كبير . لقد كان للديمقراطية الآثينية أخطاء وعيوب كثيرة ، غير أن أى تقدير صحيح لها لا بد أن يضع موضع الاعتبار تأثيرها على القوة العقلية والخلقية الرئيسية للشعب الآثيني . وقد يرى البعض أنها فشلت ، غير أن هذا الحكم إن كان صحيحاً فإنه يصدر على مدى إمكانيات الطبيعة البشرية أكثر مما يصدر على نظام سياسى معين ، وقد توفي بريكليس بعد ذلك بشهور قليلة وهو لم يكسب يكون قد شفى من إصابته بهذا الوباء وقد أخذ ثوكوديدز بطريقته المتحفظة يشيد بفضل مثل هذا الرجل المنتهى في العظمة ويقابل بينه وبين خلفائه الذين أغفلوا نصيحة بريكليس بالألا يحاولوا توسيع دائرة الإمبراطورية أثناء الحرب بل « فعلوا عكس ذلك على خط مستقيم . واتبعوا من أجل المطامع الخاصة والربح الخاص سياسة وخيمة فيما يختص بأثينا وحلفائها على السواء بالنسبة لأمر كان يبدو ألعلاقة لها بالحرب ، وهى إن نجحت جلبت الربح والتقدير لبعض الأفراد ولكنها لو فشلت لأضرت بالبوليس في متابعة الحرب » .

إن المقام يجب أن يتسع لمناقشة برلمانية أخرى . ففي سنة ٤٢٨ ثارت لسبوس Lesbos وهى جزيرة كبيرة أكبر مدنها ميتيلينية . وقد كانت إحدى الحليفات القلائل « المستقلة » الباقية وكانت الثورة تهديداً قاتلاً لآثينا . وكان اللسبيون قد اعتمدوا على العون الأسبرطى الذى لم يأت قط . وقد أخذت الثورة وخضع اللسبيون دون قيد أو شرط . فكيف كانوا سيعاملون؟ كان على المجلس أن يقرر ذلك وكانت هناك شخصية مسيطرة على المجلس إذ ذاك هى كليون بائع الجلود (الذى سخر منه أرسطوفانيس Aristophanes

دون شففة على اعتبار أنه مهرج أسمى عنيف .) وكان من الواضح أنه رجل قدير وخطيب مفوه وإن لم يكن على غرار بريكليس ولولا ذلك لما استطاع أن يؤثر في المجلس . ولكنه كان رجلاً ذا طبع حاد وعقل وضيق . وقد حث الآثينيين على أن يتخذوا طريق الشدة . فأرسلت سفينة في ذلك المساء إلى ميتيلينية ومعها تعليمات للقائد الآثيني بقتل جميع الرجال وبيع النساء والأطفال بيع الأرقاء .

« وفي اليوم التالى شعر الآثينيون بالندم وأخذوا يفكرون في أن المرسوم الذى أصدره كان قاسياً ليس فيه أى تمييز فهو يقتل « بوليسا » بأكملها لا المذنبين فقط ، وقد استغل مبعوثون من ميتيلينية Mitylène ذلك بمساعدة بعض الآثينيين فحموا السلطات على دعوة المجلس في الحال .

وبعد بضعة خطب لصالح كل من الجانبين (لم يذكرها ثوكوديدز) نهض كليون Cleon ويمكن تلخيص خطبته فيما يأتى :

إن هذه المناقشة تزيدنى وثوقاً في اعتقادى أن الديمقراطية لا يمكنها أن تحكم إمبراطورية . إن حلفاءكم ليسوا مرتبطين بكم بمنفعتهم بل بقوتكم ، ولهذا فأى شفقة تظهرونها الآن ان تكسب لكم عرفاناً بالجميل بل ستؤخذ على أنها علامة من علامات الضعف وسيثور غيرهم إذا رأوا أن في إمكانهم الثورة دون عقاب . أن التردد هو أسوأ الأخطاء السياسية . وأن من الأفضل أن يكون لنا قوانين رديئة عن ان نقوم بتغييرها باستمرار ، وما سبق أن قررناه مرة يجب إن يبقى . أن المواطن البطيء الفهم يتصرف خيراً من المواطن الماهر فهو يقنع بإطاعة القانون ويحكم على الخطب بطريقة نزيهة عملية بينما يحاول الآخر أن يبدو أبرع من القانون ويعامل الخطب على أنها تمهيلات خطائية يكون نقدها على هذا الأساس . وهؤلاء هم الذين أعادوا فتح هذه المناقشة ولا شك أنهم سيحاولون أن يثبتوا أن الميتيلينيين قد قدموا لنا خدمة لا أنهم أساءوا إلينا .

إنه خطأكم لأنكم تعاملون مجلساً يزن الأمور بميزان الحكمة كما لو كان مشهداً مسرحياً . لقد أساءت إليكم ميثيلينييه أكثر مما أساءت إليكم أي مدينة بمفردها . لقد كانت ثورتها عارمة ليس لها عذر أو مبرر فليعاقبوا كما يستحقون فما فعلوه كان عن روية وتدبير ولا يمكن تبرير إلا الأعمال التي لا تصدر باختيار الإنسان . ولا تجعلوا هناك تفرقة حمقاء بين الاستقراطيين والعوام فلقد انضم العوام إلى الآخرين ضدنا وكان من الممكن أن يفيدوا من الثورة لو أنها نجحت ، أما وأنها قد فشلت فليدفعوا الثمن وإلا فلن يبقى لكم حلفاء . إن العطف واجب نحو الرحماء لا نحو الأعداء الألداء . وينبغي أن تظهروا الاعتدال نحو أولئك الذين ستكون ميولهم نحوكم طيبة في المستقبل لانحو أولئك الذين لن تنقص كراهيتهم لكم ، أما من جهة هذا العائق الثالث نحو الإمبراطورية وهو شهوة الخطابة - والخطابة يمكن شراؤها - فدعوا الخطباء البارعين يبدوا مهارتهم في أشياء ذات أهمية صغيرة .

وهي خطبة بارعة بها من الحق ما يكاد يكفي لإخفاء تملقه الرعاع بشكل جزئي وتشجيعه للعنف ، غير أن الإنسان ليتساءل هل كان يجرؤ كليون أن يتكلم هكذا بحضرة بريكليس ؟

وقد رد عليه رجل لم يذكر قط في مكان آخر وإن كان اسمه يستحق البقاء كما خلده ثوكوديديز وهو دودوتوس Diodotus بن يوكراتيس Eucrates .

« إن التسرع يتبع الحماسة والغضب يتبع الخشونة وانحطاط العقلية وكلاهما أعداء للنصح الرشيد . ومن يجادل في أن الأعمال ينبغي ألا تفسرها الأقوال ، إما أنه غبي أو خائن فهو غبي إذا ظن أنه يمكنه أن يعبر بأية وسيلة أخرى عن شيء غير مؤكد يقع في المستقبل ، وهو خائن إذا تهرب من الدفاع عن قضية شائنة وحاول بدلا من ذلك أن يربك خصمه وجمهوره بالاتهام الباطل .

وأخبت الكل هم أولئك الذين يذكرون تلميحا أن الخطباء مرتشون . إن الاتهام بالجهل يمكن تحمله ولكن لا يمكن تحمل الاتهام بالرشوة لأن الخطيب إذا كان ناجحا في حياته أصبح موضعاً للشبهة ، على حين أنه إذا فشل اعتقد الناس أنه عاجز وخائن أيضاً ، وهكذا يمنع الطيبون من تقديم نصيحتهم للمدينة . فالمشورة الحكيمة التي تعطى بإخلاص أصبح الاشتباه فيها لا يقل عن النصيحة الفاسدة .

ولكني لم أقف لأدافع عن الميثيلينيين ولا لأتهم أحداً غيرهم فليست المسألة مسألة جرم ارتكبهه ولكنها مسألة مصالحنا . ونحن الآن لانفكر في الحاضر وفيما يستحقونه ولكن في المستقبل وكيف يمكن أن يخدمونا أجل خدمة . إن كليون يؤكّد أن قتلهم يخدمنا أجل خدمة بتثييط عزم الآخرين على الثورة وأنا أناقض ذلك بشكل جلي .

إن عقوبة الإعدام قد شرعت في مدن كثيرة لذنوب كثيرة ومع ذلك فالناس يرتكبون الجرائم بدافع من الأمل في النجاح ، ولم تقم أية مدينة بالثورة إلا وهي معتقدة أن الثورة ستنجح . إن الناس مبالغون بطبيعتهم إلى ارتكاب الأخطاء في الأمور العامة والخاصة . وقد فشلت العقوبات المتزايدة في القوة في منع ذلك ولكن الفقر يوحى بالإهمال بسبب الحاجة ، والثروة توحى بالطمع بسبب الاعتداد والكبرياء وما عدا ذلك من أحوال الحياة توحى بالانفعالات المناسبة ، فالمحاولة يزجها الأمل والرغبة تعاون الرجاء والصدفة تستحث الناس أكثر بأن تتيح لهم أحيانا مالا يتوقعونه من النجاح وهكذا تشجع الناس على التعرض لأخطار فوق إمكانياتهم . وبالإضافة إلى ذلك فإن كل فرد حين يعمل مع الآخرين يتماهى في أفكاره إلى حد التطرف . وبذلك دعونا لارتكب عملا من أعمال الحق بالوثوق في عقوبة الإعدام ، وعدم إعطاء الذين ثاروا أي مجال لتغيير رأيهم . فأية مدينة تأثرت في وقتنا

الحالى إذا وجدت أنها لا تستطيع الفوز فإنها تستسلم وهى قادرة على دفع تعويض لنا . ولكن سياسة كليون ستضطر كل مدينة تائرة إلى الثبات حتى النهاية فلا تترك لنا إلا الخرائب . وبالإضافة إلى ذلك فالعامة فى كل مدينة مبالون لكم إيجاباً فإذا ثار الأرستقراطيون فيما أنهم لا ينضمون إليهم أو ينضمون إليهم على كره منهم . والعامة فى ميتيلينيه لم يساعدوا الثورة وعندما حصلوا على السلاح سلموا المدينة لكم فإذا قتلتموهم الآن فسيكون هذا لفائدة الأرستقراطيين .

أنا لا أرغب أكثر من كليون فى أن يكون رائدكم العطف والاعتدال ولكن أطلب منكم أن تتيحوا لقادة الثورة محاكمة متزنة وأن تدعوا الباقين دون عقاب . فهذه هى السياسة المفيدة والقوية لأن الفريق الذى يفكر بحكمة ضد عدوه يكون مخيفاً أكثر من الذى يتصرف بعنف هو وليد الإهمال .

وقد انتهى التصويت ولكن ديودوتوس فاز .

« وقد أرسلوا فى الحال سفينة حربية أخرى بكل سرعة لكيلا يجدوا (البوليس) قد دمرت لأن السفينة الأولى قد سبقتها بيوم وليلة . وقد قدم مبعوثو ميتيلينيه الخمر وكعك الشعير للبحارة ووعدوهم بمكافآت عظيمة إن وصلوا إليها أولاً . وقد أظهر البحارة من الحماسة ما جعلهم يأكلون ويشربون وهم يحذفون . وكانوا ينامون مناوبة . وحيث أنه تصادف عدم وجود رياح معاكسة كما أن السفينة الأولى لم تكن قد تعجلت فى مثل هذه المهمة البغيضة بينما جرت الثانية قد ما كما وصفت فان — باخيس (القائد الآثينى) كان قد قرأ المرسوم وكان على وشك تنفيذه عندما وصلت السفينة الثانية إلى البر ومنعت المذبحة . لقد كانت ميتيلينيه قريبة جداً من الدمار . »

إن هذه المناقشة ومناسبتها ونتائجها توحى إلينا بأفكار كثيرة عن وحشية القتال بين هؤلاء الإغريق المتحضرين لا يكاد يوجد لها مثل منذ ذلك الوقت حتى

زماننا المتحضر وكذلك عن اكتمال الحياة فى آثينا اكتمالاً ترضى عنه النفوس عندما كان يطلب من المواطن العادى أن يبت فى أمور يمثل هذه الضخامة وهذا التعقيد . فإلحاح أنه كان يشتمز من الاستبداد وحكم الأقلية اللذين يسلبان من حياته هذا النشاط الفياض الذى ينطوى على المسؤولية كما يتركه دون دفاع فى نواح أخرى . ولكن الأولى بنا أن نتمعن فى خطبة ديودوتوس فهى أولاً خالية تماماً من العاطفية ، وهوينفى علناً أنه يطالب باستعمال الرأفة . فديودوتوس لا يرسم صوراً لصفوف من الأجساد الراقدة على شاطئ لسبوس وللأرامل والأيتام الباكين وهم يساقون إلى الأسر بل هو يناقش قضيته فقط محتجاً بالمصلحة القائمة على حسن الإدراك . وأنه ليكون من الخطر البالغ أن تستنبط من هذا أن ديودوتوس والآثينيين عموماً كانوا من العاكفين على ممارسة سياسة الدولة ذوى القلوب الجامدة . إن هذا الجمع بالذات من المواطنين الذين اشتركوا فى هذه المناقشة ربما اجتمعوا فى الأسبوع التالى فى المسرح وشاهدوا مسرحية ليوريديديس — مسرحية مثل « هيكوبا Hecuba » أو « نساء طروادة » عن نفس هذا الموضوع أى موضوع قسوة الانتقام وعدم جدواه ، مسرحية يتم إخراجها رسمياً ويختارها قاضى المحكمة العليا Archon المسئول . وليس لنا أى حق فى أن نفترض أن ديودوتوس لم يكن يحس بأى عاطفة . ولكن المناسبة فى نظره كانت تتطلب التفكير المنطقي لا العاطفة . وهو يواجه كليون لا يظهر إحساسات أرق بل باستخدام حجج أدق ، وهذه الخطبة تشبه من هذه الناحية الشعر الإغريقى والفن الإغريقى حيث أن سيطرة العقل على الوجدان تزيد من التأثير الكلى .

وهاتان الخطبتان تعتبران نموذجاً إغريقياً من وجه آخر ، ولو أن شرحى لمعناهما لا يكاد يكون فيه إنصاف لهذا الوجه وهو الشغف بالتعميم . وجملة ديودوتوس الأخيرة يصح أن تكون مثالا لذلك . فلم يكن الإغريقى

يشعر بالسعادة إلا إذا استطاع أن يوجد الصلة بين الحالة الخاصة والقانون العام ، ففي التعميم يمكن رؤية الحقيقة واختبارها .

إن من الشائق تتبع سلوك المجلس طوال الحرب في تاريخ ثوكوديديز لنرى كيف نما نوع معين من عدم المسؤولية — وتعتبر ملاحظات كليون عن المسرح دليلاً على ذلك — وكيف ازداد عدم تحمله للرقابة سواء كانت رقابة الفطنة أو رقابة القوانين وكيف أخذ مذهب كليون عن استخدام القوة يسود أكثر فأكثر وخاصة في معاملة ميلوس المحايدة البريئة معاملة بربرية ، وكيف وجه المجلس هياجه إلى القواد الخففين بل حتى إلى الناجحين ، حتى ليأخذ الإنسان في التساؤل متعجباً عما كان يدعو أى قائد للمخاطرة بخدمة بلاده ، وبالرغم من قليل من الأمثلة البارزة على الاعتدال والنبيل الحقيقي فإن هذا على وجه العموم سجل كئيب للانحلال تحت وطأة الحرب والقيادة الانتهازية . وينبغي أن نقرأ تاريخ ثوكوديديز المفجع حسبما أراده هو منه فلا نقرأه باعتباره مجرد سجل لما فعله شعب معين في هذه الظروف الخاصة بل باعتباره تحليلاً للسلوك الإنساني في السياسة والحرب . ولما كان القيام بذلك على الوجه الصحيح يحتاج إلى كتاب وحده فليس من الممكن عمله هنا ، ومادمنا إلى الآن نغنى بمدينة إغريقية دون غيرها فيصح أن نختتم هذا الفصل بحادثين يزيدان من فهمنا للموضوع .

فأولهما له صفة اللقطة السريعة التي ترينا شيئاً من حظوظ « بوليس » إغريقية عادية جداً في الحرب وشيئاً عن الإمبراطورية الآثينية من وجهة نظر حليف خاضع لها . فقد أخرجت أسبرطه أثناء الحرب رجلاً واحداً فقط هو براسيداس يعتبر شخصاً جذاباً وعلى جانب من العبقرية كذلك . وقد قاد معركة باهرة في شمال بلاد الإغريق حيث كان لأثينا كثير من الحلفاء البحريين لا سيما مدينة أمفيبوليس الهامة التي استولى عليها

(وبالمناسبة كان ثوكوديديز نفسه القائد الآثيني في ذلك الوقت في هذا الإقليم وقد نفي من أثينا لفشله في الوصول إلى ميدان المعركة بسرعة كافية لإنقاذ أمفيبوليس ولم يرجع إلا عندما انتهت الحرب بعد عشرين عاماً ، ومع ذلك فإنه يروى ذلك بأدق طريقة موضوعية دون كلمة دفاع واحدة بل ولا يذكر نفيه إلا بعد ذلك بكثير في مناسبة مختلفة جداً) .

« وفي نفس الصيف زحف براسيداس Brasidas مع الخالكيديين على كسانتوس قبل حصاد الكروم بقليل ، وكان أهل كسانتوس منقسمين بشأن السماح له بالدخول ، فكان هناك الذين اشتركوا مع الخالكيديين في دعوته ، والعوام المعارضون له . ولكن عندما استحثهم براسيداس على السماح له بالدخول وحده على أن يصدر قرارهم بعد أن يستمعوا إلى ما كان عليه أن يقوله لهم ، سمحوا فعلاً له بالدخول خوفاً على فاكهتهم التي كانت لا تزال على الأشجار . فجاء ليتكلم أمام الناس وكان خطيباً قديراً جداً على رغم أنه إسبرطي » .

وأخذ براسيداس يعرض القضية الإسبرطية قائلاً إن الإسبرطيين يحررون بلاد الإغريق من الاستبداد الآثيني . وأخذ يعلن دهشته من أن يجد بواب أكانثوس Acanthus مغلقة أمامه في نهاية زحفه الخطر في بلاد الإغريق ويعدهم بأنهم لو انضموا إلى التحالف الإسبرطي فسيجدون الاستقلال التام ، وأن إسبرطة لن تتدخل بأية وسيلة في سياستهم الداخلية أما إذا رفضوا فإنه سوف يخرب بلادهم وهو ما يقضى به العدل وأن يكن على كره منه .

وقد كان براسيداس رجلاً صادقاً وكانت خطبته في تلك الظروف تستميل الناس إليه . وبالإضافة إلى ذلك فإن بلاد الإغريق لم تكن على وجه العموم تعرف قيمة الوعود الإسبرطية التي لم تكن تساوى شيئاً . وهكذا « بعد أن تكلم الكثيرون إلى جانب الفريقين أعطوا أصواتهم

سراً . ولما كانت الوعود التي أعطاها براسيداس جذابة ولما كانوا خائفين على فاكهتهم مالت الأغلبية إلى جانب الثورة على الآثينيين وجعلوا براسيداس ضامناً للإيمان التي حلفتها السلطات الإمبرطية قبل إرساله ، على أن الذين ينضمون إليه يكونون حلفاء مستقلين . وعلى هذا الأساس سمحوا للجيش بالدخول ، ولم يمض وقت طويل حتى انضمت — ستاجيروس Stagirus إليهم في الثورة — هكذا كانت حوادث الصيف .

وليكن بدء قصة بلاتايا المحزنة هو آخر صوره نعطيها عن الإغريق حين يتحاربون ، فقد كانت بلاتايا مدينة صغيرة في بويوتيا قرب حدود أتيكا . وكانت كل حكومات مدن بويوتيا أو ليجركيه كما كانت متحالفة في العادة مع طيبه أهم تلك المدن . وكانت بلاتايا ديمقراطية على علاقات ودية مع الآثينيين . ومما يجدر ذكره أن سكان بلاتايا كانوا الإغريق الوحيدين الذين ساعدوا أثينا في مراثون . وقد كانت هذه الصلة بين مدينة من بويوتيا وأثينا ، يثير طيبه باستمرار . وفي أثناء التوتر الذي سبق الحرب مباشرة سنة ٤٣١ ساعد الحادث الآتي على التعجيل بالحرب :

« دخل جنود طيبه بأسلحتهم بلاتايا في أوائل الربيع حوالي سنة ٣٠٠ في أول جولة من جولات الحراسة بالليل تحت قيادة قائدين من قواد الاتحاد البويوتي . وكان قد دعاها إلى ذلك وسمح لهم بدخولها بعض سكان بلاتايا وهم ناوكلايديس وشركاؤه الذين أرادوا أن يحطموا خصومهم ويسلبوا المدينة لأهل طيبة حتى يحظوا بالسلطة لأنفسهم وكان أهل طيبة من جهتهم يرون أن الحرب آتية . وكانوا مهتمين بالاستحواذ على بلاتايا قبل فشيئها . وحيث أن الوقت كان وقت سلم فلم تكن هناك حراسة مما جعل دخولهم المدينة أسهل . وقد وضعوا السلاح على أرض السوق وأخذ يحرضهم أولئك الذين أدخلوهم المدينة على الذهاب توالاً إلى بيوت أعدائهم . ولكنهم بدلاً عن

ذلك صمموا على محاولة استرضاء الناس وأن يضموا المدينة إليهم بالاتفاق ظناً منهم أن هذه أحسن طريقة ولذلك أذاعوا أن كل مواطن يريد أن يكون حليفاً للبويوتيين عليه أن يأخذ سلاحه وينضم إليهم طبقاً للعوائد التقليدية .

ولما علم أهل بويوتيا أن جنود طيبه في المدينة ذعروا وخيل إليهم (لعجزهم عن رؤيتهم في الظلام) أنهم أكثر منهم عدداً بكثير . فوافقوا على شروطهم دون مقاومة لأن أهل طيبه لم يستخدموا العنف مع أي إنسان . ولكنهم أثناء المفاوضات رأوا أن الطيبيين لم يكونوا كثيرين واعتقدوا أنه يمكنهم التغلب عليهم بسهولة لأن غالبية أهل بلاتايا لم يكونوا يرغبون في ترك تحالفهم مع أثينا . فقرروا أن يقوموا بالمحاولة وأخذوا يتجمعون بعمل ثغرات في الجدران التي تفصل بيوتهم بعضها عن بعض ووضعوا عربات البضاعة بعرض الشوارع كالمباريس واتخذوا إجراءات أخرى مناسبة فلما تم الاستعداد فاجأوهم قبل الفجر حين تكون ظروف الطيبيين أسوأ وهم في مدينة أجنبية .

ولما رأى الطيبيون أنهم خدعوا ضموا صفوفهم وحاولوا أن يصدوا الهجوم ، فردوهم على أعقابهم مرتين أو ثلاث مرات . ولكن البلاتيين هاجموهم ثانية بضجة شديدة بينما كان النساء والرقيق على الأسطح في نفس الوقت يصرخون ويقذفونهم بالأحجار والقراميد . وكان قد سقط مطر غزير أيضاً بالليل مما جعل البلاتيين يصابون بالفرح ويهربون من المدينة ، غير أن أكثرهم لم يكونوا يعرفونها أو يعرفون أين يلجأون طلباً للأمان في الظلام والوحل ولهذا قتل كثيرون منهم . وكان أحد سكان بلاتايا قد أقفل أحد الأبواب الكبيرة التي دخلوا منها مستخدماً ذراع الحربة كالمزلاج . فلم يكن الفرار ممكناً من هذا الطريق وقد تسلق بعضهم سور المدينة ليتجنبوا المطاردين ووثبوا أرضاً ولكن أكثرهم قتل . وانطلق البعض لا الكثيرون من باب

ليست عليه حراسة لأن امرأة أعطتهم بلطة حطموا بها المزلاج . واندفعت الأكرية التي كانت تقف معاً إلى بناء كبير كانت أبوابه مفتوحة ظناً منهم أنها أبواب المدينة . فلما وجدهم أهل بلاتايا قد وقعوا في الشراك تناقشوا في هل يشعلون النار في المبنى ويحرقونهم حيث كانوا . ولكنهم قبلوا في النهاية استسلام هؤلاء وغيرهم من الطيبين الذين وجدوهم يتجولون في المدينة وذلك دون شرط .

وقد اتخذ هؤلاء النساء رهائن لإرغام جيش طيبة الزاحف على ترك بلاتايا ثم قتلوا في الحال وهي نصيحة من أثينا تنطوى على حكمة أكثر جاءت بعد الأوان . ويمكن ذكر نهاية القصة ونهاية بلاتايا باختصار . فقد حاصر سكان البيلوبونيز المدينة ففر جزء من الأهالي بحسارة وسط الحصار مخترقين صفوف العدو ووصلوا أثينا سالمين . واستسلم الباقون في النهاية بشرط أن يخضعوا للإسبرطيين بصفقتهم قضاتهم فيعاقبون المذنبين على ألا يكون العقاب مخالفاً للعدالة . وكانت فكرة الإسبرطيين عن العدالة هي أن يسألوا كل واحد من أهل بلاتايا على حده عما إذا كان قد فعل شيئاً أثناء هذه الحرب لمساعدة إسبرطة وحلفائها . وقد أشار متكلم بلسان أهل بلاتايا إلى أنه لم يكن هناك ما يدعوه لذلك لأنهم بحكم حقهم الصريح المقرر بالمعاهدة كان عليهم أن يكونوا متحالفين مع أثينا متى اختاروا ذلك ، كما أشار أيضاً إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها مدينته لبلاد الإغريق أثناء الحربين الفارسييتين كما أشار إلى خدمة قدمت لإسبرطة بعد ذلك . وذكر الإسبرطيين أيضاً بالفضيحة والعار الذي يؤولون به في أعين الإغريق بتدمير مدينة في مثل شهرة بلاتايا . ولكن لم يجد كل ذلك شيئاً فقد كرر الإسبرطيون سؤالهم « هل قدمتم لإسبرطة أي خدمة في هذه الحرب ؟ » .

ومن بين الذين كانوا يقولون لا كان الرجال يقتلون والنساء يعن سبائهن . هكذا كانت إذن نهاية بلاتايا في السنة الثالثة والتسعين من تحالفها مع أثينا .

ويصف ثوكوديدز عمداً هذا الأمر المريع بعدميتيليني مباشرة، والتناقض بينهما بين . ففي أثينا حظى صوت الإنسانية على الأقل بفرصة سماعه في المجلس وفي المسرح على السواء . وأما إسبرطة فلم يكن بها شعراء حينذاك . ومن المحتمل أن معاملة الإسبرطيين لأهل بلاتايا هي التي حفزت يوربيديس لكتابة أندروماخا وهي مسرحية عن زوجة هكتور الملكة الأسيرة التي حولها الشاعر إلى هجوم شديد على قسوة الإسبرطيين وخداعهم ، ومع ذلك فقد استسلم الآثينيون إلى فلسفة القوة المجردة إلى حد أنهم هم أنفسهم ارتكبوا جريمة أفظع من جريمة الإسبرطيين بعد ذلك بحوالي عشر سنين وذلك بمهاجمة جزيرة ميلوس المحايدة التي لم يقع منها أي اعتداء وبقتل سكانها أو استعبادهم . وقد استعرض ثوكوديدز في حوار صوري النتائج السياسية والأخلاقية التي ينطوى عليها هذا العمل بطريقة غير تاريخية بالمرة . وهو لا يعلق عليه بل ينتقل مباشرة إلى الحق الجنوني في نظره وهو الخاص بالهجوم الآثيني المشنوم على صقلية .

وثوكوديدز مثله كمثل أكثر الفنانين الإغريق يعمل على البناء لا على الاستعراض فيعبر عن أعمق أفكاره بترتيب مادته ترتيباً معيارياً .

اضمحلال (البوليس)

شاهدت حرب البيلوبونيز في الواقع نهاية دولة المدينة باعتبارها قوة خلاقة تشكل حياة كل أفرادها وتحقق أغراضها. وقد أخذت بلاد الإغريق خلال القرن الرابع تتجه باستمرار نحو اتجاهات فكرية جديدة وأسلوب حياة جديدة حتى أن عصر بريكليس من الوجهة العقلية لا بد أنه كان تلوح لأولئك الذين ولدوا في نهاية القرن بعيداً بعد العصور الوسطى عنا.

إن التاريخ السياسي لبلاد الإغريق خلال هذا القرن مضطرب ومتعب وباعث على الكآبة ويكفيها منه ملخص قصير جداً. لقد توقف كسب إسبرطة للحرب على أخطاء الآثينيين أكثر مما توقف على البراعة، كما توقف على نجاح إسبرطة أكثر من آثينا في الحصول على مساعدة الفرس التي كان ثمنها الانسحاب من أيونيا. فما كسبته إسبرطة وآثينا معاً من كسر سيس Xerxes رده آثينا وإسبرطة لارتكس سيس Artaxerxes وهما تتحاربان، لقد انتهت إمبراطورية آثينا ولكن «التحرير» الذي وعدت به إسبرطة كان من السوء بحيث أن كثيراً من الإغريق كانوا يؤثرون عليه العودة إلى استبداد «آثينا». فقد كان معنى «التحرير» هو فرض حكومات الأقلية (الأوليجركية) في كل مكان تقريباً مع حاكم إسبرطي لحفظ النظام. ونحن نرى إسبرطة في أسوأ حالاتها في هذه الفترة. فإن الإسبرطي لم يتعلم قط كيف يكون حسن المعاملة في الخارج، فقد كان في في بلده مطيعاً ومقتصدًا بالضرورة، أما في الخارج فلم يكن يؤتمن على السلطة أو المال «فالحرية التي منحت لبلاد الإغريق كانت حرية إسبرطة في تهديد من تشاء، أما من أفاد

حقاً من الحرب فهي فارس التي استردت أيونيا. ولم تكن تستطيع بلاد الإغريق وهي مفككة أن تسترجعها منها، ولذلك كان حكم كل مدينة إغريقية لنفسها حكماً كاملاً مما يرغب فيه الجميع سواء منهم الإغريق أنفسهم أو إسبرطة أو فارس.

ومن بين الحكومات الأوليجركية التي أقامت إسبرطة أو أيديتها كانت توجد في آثينا جماعة من القساة المتعطشين لسفك الدماء يعرفون باسم «الثلاثين» وعلى رأسهم شخص يدعى كريتياس كان قبل ذلك زميلاً لسقراط وقد حكموا حكماً إرهابياً لمدة أشهر قليلة. ولكن حكومة الأقلية ما كانت تستطيع البقاء طويلاً في آثينا. فقد أعيدت الديمقراطية بشجاعة واعتدال يكفران بعض الشيء عن الحق والعنف - المستخدم أحياناً - اللذين أظهرتهما الديمقراطية أثناء الحرب. صحيح أن الديمقراطية العائدة قد حرصت في سنة ٣٣٩ ق.م على إعدام سقراط، غير أن ذلك كان بعيداً عن أن يكون عملاً من أعمال الغباء الوحشي. دع القارئ يتذكر ما شهدته وقاساه المحلفون الذين نظروا هذه القضية - فقد هزم الإسبرطيون مدينتهم وأجاعوها حتى أوشكت على الهلاك وجردوها من أسلحتها وحصونها وتحطمت ديمقراطيتها وتعرض الناس لاضطهاد واستبداد وحشي. ودعه كذلك يفكر في أن الرجل الذي سبق أن ألحق بآثينا أشد الضرر كما سبق أن قدم أبرز الخدمات لإسبرطة هو الأرسقراطي الآثيني الكيبياديس Alcibiades وأن الكيبياديس هذا كان قبل ذلك رفيقاً دائماً لسقراط - وأن كريتياس Critias المرعب كان رفيقاً ثانياً له. ودعه يفكر كذلك في أنه بالرغم من أن سقراط كان مواطناً إخلاصه واضح أشد الوضوح فقد كان أيضاً ناقداً صريحاً لمبدأ الديمقراطية. ولن يكون هناك ما يدعو للعجب إذا ظن كثير من الآثينيين السذج أن خيانة الكيبياديس وغضب كريتياس وعصايته من حكومة الأقلية إنما كانا نتيجة مباشرة لتعاليم سقراط. وإذا كان غيرهم كثيرين - بمن نسبوا ويلات المدينة، وإن لم يكن ذلك دون أسباب معقولة، إلى قلب معايير

السلوك والأخلاق - قد أرجعوا بعض المسؤولية في ذلك إلى تساؤل سقراط العاني المستمر عن كل شيء ، فهل يمكن لاستفتاء يجريه معهد جالوب اليوم في مثل تلك الظروف أن يرى سقراط ، وبخاصة بعد دفاعه هذا الدفاع الذي لا ينطوي على أي تساهل ؟ نحن نشك في أن الأرقام تكون في صالحه أي نشك في حصوله على أصوات أكثر من ٦٠ إلى ٥٠١ . ودع القارئ يفكر في أن عقوبة الموت التي تلت ذلك كانت باختياره فقد رفض عمداً أن يقترح الذهاب إلى المنفى كما رفض عمداً أن يحمل سراً خارج السجن . وليس هناك ما هو أسوأ من موقف سقراط أثناء المحاكمة وبعدها . ويجب ألا نصيب هذا السمو بالعاطفية بأن نمثل سقراط على صورة ضحية لجماعة من الغوغاء الجهلة . إن موته يكاد يكون مأساة من مآسي هيجل أي ، صراعاً يكون الطرفان فيه على حق .

لم تستمر سيطرة إسبرطة مدة طويلة . فقد كان عنفها الاستبدادي مما أثار ضدها حلفاً من المدن الأخرى حاربها الحرب المعروفة باسم « الحرب الكورنثية » ثم جاء الصلح ثانية سنة ٣٨٧ في صورة مخزية هي مرسوم من ملك الفرس يجعل كل المدن الإغريقية تتمتع بحكم نفسها . وقد كانت المدن الرئيسية إذ ذاك هي أثينا وإسبرطة وطيبة . وكانت كل اثنتين منها على استعداد للتجمع لمنع الثالثة من أن تصبح أقوى مما ينبغي . وكانت أثينا آخذة في الانتعاش ببطء سواء من الوجهة الاقتصادية أو السياسية حتى أنها كونت حلفاً ثانياً . فقد كانت دول بحر إيجه في حاجة شديدة إلى نوع من السلطة المركزية . وفي سنة ٣٧١ وقع حادث هز بلاد الإغريق هزاً عنيفاً . فقد هزمت طيبة جيش إسبرطة في قتال مباشر في ليوكترا .

فقد كان في طيبة في ذلك الوقت رجلان عبقریان هما بيلوبيداس وأباميندس . وكانا قد ابتكرا تكتيكاً عسكرياً جديداً جريئاً فبدلاً من جعل

المشاة المزودين بالدروع الثقيلة والأسلحة يصطفون ثمانية صفوف (على جانبيها الفرسان وجنود المناوشات) أنقصا من صفوف الجناح والقلب وأكثر من صفوف الجناح الآخر حتى بلغت حداً غير عادي وهو خمسون صفاً . وهذه الكتلة من الرجال قامت ، كما في هجوم لعبة الرجبي ، باختراق صفوف الإسبرطيين بثقلها ليس إلا . فحدث ما لم يكن يمكن تصديقه . ولكن لم يكن لطيبه أي فكرة سياسية تساهم بها . وقد زحف أباميندس أربع مرات وسط البيلوبونيز لكي ينشئ مدينة جديدة مركزية من الأركادين سكان الجبال ضد إسبرطة . وفي آخر حروبه كسب معركة معدة منظمة في مانتانيا ولكنه قتل أثناءها وانهار تفوق طيبة التي أعطت إسبرطة ما كانت تستحقه . ولكن هذا الدرس الخاص من دروس العدالة أساءت بلاد الإغريق استخدامه عند ظهور تهديد في الشمال لم يكن أحد يشبهه في وجوده .

ذلك أن مقدونيا لم تكن تعتبر قط جزءاً من بلاد الإغريق . فقد كانت بلاداً بدائية غير متحضرة لا تكاد تكون متحدة ، تحت حكم أسرة ملكية تدعى أنها من أصل هيليني وأن جدّها الأكبر هو إخميليس ولا أقل من ذلك . وكان لها حاشية بلغت من الحضارة على الأقل ما جعلها تغري يوربيديس بالذهاب إليها من أثينا قرب آخر حياته . وفي سنة ٣٥٩ ق.م تولى فيليب الثاني العرش بالطريقة المعهودة أي عن طريق سلسلة من الاغتيالات العائلية . وقد كان داهية طموحاً نشيطاً . وكان قد قضى جزءاً من شبابه في طيبة حيث رأى مقدار ما أخذت بلاد الإغريق تبلغه من من الضعف وتعلم شيئاً من تكتيك بيلوبيداس الحربي الجديد . فأخذه عنه وأجرى فيه تحسيناً . وهو ابتكار الرباعي المقدوني المشهور الذي ظل يسيطر على ميادين القتال حتى هزمته الفصيلة الرومانية . إن الهدف الذي وضعه فيليب الصغير نصب عينيه كان حكم العالم الإغريق بما فيه أثينا إن أمكن وبدونها إذا لزم الأمر . وهو ما كان يبدو للنظر السطحي مستحيلاً

فقد كانت تهدد مقدونيا من الشمال الغربي قبائل إيليرية ، كما أنها كانت بلاداً متأخرة تفصلها عن بحر إيجه حلقة من المدن الإغريقية . وكان الأسطول الآثيني قد عاد إلى تفوقه مرة ثانية إلا أن فيليب كانت لديه بعض المزايا الكبرى ومن بينها القوة البشرية الكافية ومنجم للذهب كان قد كشف حديثاً . وفضلاً عن ذلك كانت له الامتيازات التي يتمتع بها المستبدون دائماً وهي السرية والسرعة والخيانة . وقد تصدى للقبائل الإيليرية فجعل مقدونيا تنعم بالأمن في وقت وجيز جداً واستولى على مدينة أمفيبوليس الإغريقية التي كان من الممكن أن تعوق زحفه نحو الجنوب . وأمفيبوليس Amphipolis هي المستعمرة الآثينية التي كان ثوكوديدز قد فشل في إنقاذها من براسيداس . وقد فتحها فيليب بطبيعة الحال ليوفر على الآثينيين العناء كما كان يعتزم تسليمها لهم في الحال أو بعد قليل ! ثم وجه التفاته إلى المدن الإغريقية الأخرى لا سيما أولينثوس Olynthus التي سبق أن كانت مركزاً لاتحاد هائل جداً . ولما كانت إسبرطة لا تحب الاتحادات فقد كان حلفها للتحالف الأولينثي مما سهل الأمر على فيليب . وقد ابتداءً عند ذاك صراع طويل مفرج بين أعظم شخصيتين في سياسة القرن الرابع وهما فيليب نفسه ومواطن آثيني حر كان كاتباً محترفاً للخطب ووطنياً تشبع بآراء ثوكوديدز وربما كان أعظم خطيب جاد به الزمان ألا وهو ديموستينيز . وكان قد رأى الخطر متأخراً بعض الشيء بل أنه لم يره أولاً في صورته الكاملة . ولكنه رآه على الأقل وأخذ يرجو الآثينيين في يأس متزايد في خطبة بعد أخرى أن يقفوا ويقاوموا ، وكانت أثينا في سنة ٣٥٠ على النقيض المؤسف من أثينا في سنة ٤٥٠ . ففي سنة ٤٥٠ كانت قوات أثينا في كل مكان وكان المواطنون مستعدين لأي شيء أما في سنة ٣٥٠ فقد اضطر ديموستينيز أن يتوسل إليهم أن يدافعوا عن أعظم مصالحهم الحيوية ويرسلوا قوة يتكون جزء منها على الأقل من المواطنين ، إذ أن استخدام الجنود المرتزقة كان قد أصبح شائعاً وأن

يرغموا الجيش على البقاء في مكان الحرب حتى لا يذهب إلى جهة أخرى تكون معركتها أكثر ربحاً . وكان مضطراً أن يرجوهم التوقف عن إرسال « جيوش على الورق » فلا يرسلوا قائداً مهمته أن يستخدم الجنود المرتزقة الذين كثيراً ما كانوا يتركون دون أجر . وقال لهم « إن حلفاءكم يخشون الحملات التي من هذا القبيل مثل خشيتهم من الموت » ولكن الآثينيين لم يكونوا يريدون رؤية الحقائق الكريهة بل كانوا يرغبون في تصديق فيليب عند قوله « هذا بالتأكيد هو آخر مطلب لي خاص بالأرض » كما كانوا يرغبون في الإنصات إلى وزراء المالية الحريصين وإلى ناصحين أقل منهم أمانة وهم الذين كانوا يسخرون من ديموستينيز ويؤكدون للآثينيين أن فيليب كان رجلاً أميناً مثقفاً وأنه أحسن صديق لهم . وقد نشرت صحيفة إنجليزية في سنة ١٩٣٧ عنواناً ضخماً هو « هل مات هتلر ؟ » وفي سنة ٣٥٧ ق.م . قال ديموستينيز للآثينيين « أنكم تجرون هنا وهناك يسأل بعضكم بعضاً هل مات فيليب ؟ لا . إنه لم يمت ولكنه مريض . وما الفرق عندنا بين أن يكون ميتاً أو حياً ؟ أنكم إذا سرتهم في أموركم على هذا النحو فسيؤدي عملكم إلى قيام فيليب آخر ضدكم » إن الشبه بين الحاليين قريب لدرجة تجعل قراءة خطب ديموستينيز السياسية مريرة لا تحتمل . ولعل التاريخ الحديث كان يختلف عما هو عليه الآن كل الاختلاف لو كان عندنا سياسي يقود الناس ويعرف خطب ديموستينيز ، وكذلك لو كان عندنا مجلس للعموم قادر على أن يرى أن تاريخ الإغريق قد يكون لديه ما يقوله عن المسائل المعاصرة ، وأن ما حدث قبل زماننا بكثير قد لا يكون بالضرورة غير ملائم ليومنا هذا .

وفي النهاية عندما تضاف تراخي الآثينيين مع حزازات الإغريق والخيانة الواضحة من بعض أصدقاء فيليب من الآثينيين على إحداث أسوأ ما يمكن ، انتصر ديموستينيز فقامت أثينا بمجهود عظيم يستحق الثناء ، فأنهت نزاعها مع طيبة الذي استمر عهداً طويلاً وزحفت الجيوش المجتمعة معاً

ضد فيليب ولكن النتيجة كانت ذلك الانتصار الغادر في خايرونيا الذي قضى على الحرية ، واضطر الإغريق في النهاية أن يفعلوا ما أمروا به فركز فيليب الحاميات المقدونية في ثلاث مدن استراتيجية أصبحت « أصفاد الإغريق » .

وتوفي بعد ذلك بسنتين ولو أن ابنه وخليفته كان الملك المقدوني العادي التافه لكان من الممكن جداً أن ينتهي الأمر بالبلاد إلى ضالة الشأن ، ولكان من الممكن أن تستعيد بلاد الإغريق حكمها لنفسها الذي كان يتسم بطابع الفوضى . ولكن خليفة فيليب لم يكن تافهاً فقد كان الاسكندر الأكبر وهو من أكثر من نعرفهم من الناس إثارة للدهشة . كان شاباً في العشرين وكان في حركته كالبرق الخاطف . ففي خلال خمسة عشر شهراً قمع فتنة في تساليا وزحف وسط بلاد الإغريق على مدن كانت تدل بأصواتها لتشكر قتلة فيليب كما كانت تفكر في الثورة ، فكادت تهلك من الرعب . وقاد معركة سريعة حتى نهر الدانوب ليؤمن مؤخرته . ولما أغرى ذهب الفرس طيبة على الثورة ضد حاميتها المقدونية كما أغرى غيرها من المدن على التفكير في الثورة زحف مرة ثانية إلى بلاد الإغريق واستولى على طيبة ودمرها وترك فيها بيتاً واحداً قائماً هو :

بيت بنداروس ، حين وقعت على الأرض ، المعابد والأبراج .

استغرق ذلك كله خمسة عشر شهراً فقط ، وقد وعى كل من الإغريق وجيران مقدونيا الشماليين دروسهم ، وقد عبر الإسكندر البحر إلى آسيا في الربيع التالي (٣٣٤ ق . م) كما أنه مات بعد إحدى عشرة سنة وعمره ٣٣ سنة . ولكن الإمبراطورية الفارسية كانت قد أصبحت مقدونية حينذاك كما أصبح البنجاب كذلك فترة قصيرة ، وهو الذي لم يكن الفرس قد حكموه قبل ذلك قط . على أن الإسكندر لم يقيم بغزو كاسح فقط فإنه كان يدعم

فتوحه حيث ذهب بإنشاء مدن إغريقية بطريقة مدروسة بعناية . وبعضها لا سيما الإسكندرية في القطر المصري تحمل إلى هذا اليوم الاسم الذي أعطاه لها .

ولما مات فيليب كانت دول من أمثال أثينا وطيبة تعتبر كبيرة قوية في نظر الإغريق ، أما عندما مات الإسكندر فقد كان يرنو الإغريق من وطنهم إلى إمبراطورية تمتد من الأدرياتيك إلى نهر السند ومن بحر قزوين إلى مصر العليا . فقد أحدثت هذه السنوات الثلاث عشرة تغيراً كبيراً . إذ انتهت بلاد الإغريق الكلاسية واتخذت الحياة منذ ذلك الوقت شكلاً ومعنى مختلفاً كل الاختلاف .

ونحن إذ نواجه مثل هذا الانهيار المفاجيء لنظام سياسي بأكمله نبحث بطبيعة الحال عن تفسير له . وليس من الصعب أن نجد سبباً مباشراً أعلى الأقل ، وهو أن الحروب التي استمرت قرناً كانت قد أنهكت بلاد الإغريق من الوجهة المادية والروحية . ولم يكن من الممكن أن تسير الأمور على هذا النحو فلم تعد دولة المدينة تقدم أسلوباً مقبولاً من أساليب الحياة . وكما تحاول أوروبا الغربية اليوم في ظروف مشابهة إلى حد ما أن تتحسس طريقها إلى وحدة سياسية أكبر ، فكذلك كان هناك في القرن الرابع قبل الميلاد بعض من أخذوا يتباعدون إما عن « البوليس » نفسها أو عن المبدأ الديمقراطي . فلقد كان إيسوكراتيس « الشيخ البليغ » الذي ذكره ميلتون في قصيدته ميالا كل الميل إلى المبدأ الملكي . فقد أثنى على رجل يدعى إيفاجوراس كان حاكماً مستبداً في قبرص ، كما أخذ يدعو إلى أن المدن الإغريقية عليها بدلاً من أن يحارب بعضها بعضاً أن تنضم تحت لواء فيليب في هجوم كبير على الإمبراطورية الفارسية الآخذة في الاضمحلال . كما أن أفلاطون كان قد أعرض عن الديمقراطية وهو يائس وأعلن فكرة « الملك

الفيلسوف « - ولم يكتف بذلك بل قام بزيارتين لصقلية يحده أمل يائس في أن يجعل من ديونيسيوس حاكم سر قوسة الشاب ملكا فيلسوفاً .

غير أن البوليس لم تثبت فشلها من الوجهة الخارجية فقط بعدم إعطائها بلاد الإغريق أسلوباً معقولاً من أساليب الحياة بل ان الزمام كان قد أخذ يفلت من يدها من الوجهة الداخلية أيضاً كما يمكننا أن نشاهد ذلك بأجلى وضوح في حالة أثينا . فالمقابلة بين عصر ديموستينيز وعصر بريكليلس مما يثير الفزع ، ففكرة استخدام الجنود المرتزقة كانت تبدو لأثينا في عهد بريكليلس إنكاراً للبوليس وهو ما كانت تعنيه بالفعل . إن أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد تطينا فكرة الخول السياسي الذي يكاد يصل إلى حد عدم الاكتراث ، فقد كان الناس مهتمين بأمور أخرى غير البوليس ولم يتصرف الآثينيون بطريقة جديدة باسمهم العظيم إلا في آخر يوم نزل به القضاء المحتوم غير أن الوقت كان قد فات إذ ذاك .

إن التضاد بين العهدين يصل إلى حد بعيد إذ أن أثينا لم تكن قد أنهكتها حرب البيلوبونيز الطويلة فقط فإن المجتمعات تفتق من مثل هذا الإنهاك . ولقد كانت أثينا بالفعل في القرن الرابع نشيطة ومحبة للغامرة بدرجة كبيرة في أوجه أخرى . ونحن لانستطيع أن ننسب التغيير إلى مجرد الخور ولا إلى مجرد رد فعل إجهاد الحياة السياسية في القرن الخامس لأن رد الفعل يستنفد قوته بمضى الزمن . إن الذي نقابله في القرن الرابع هو تغير دائم في مزاج الناس يدل على ظهور موقف مختلف تجاه الحياة ، فقد كان هناك اتجاه أعظم نحو الفردية في القرن الرابع يمكننا أن نراه أينما نظرنا في الفن والفلسفة والحياة . فالنحت مثلاً يبدأ في الاتجاه إلى ذاته يفحصها وإلى الاهتمام بالخصائص الفردية والأمزجة العابرة بدلاً من أن يعبر عن المثل العليا والعموميات . فهو يبدأ في الحقيقة في تصوير الناس لا « الإنسان »

وهذا نفس ما حدث بالنسبة للدراما . ونحن نرى في الدراما أن التغير لم يكن مفاجئاً . ففي العشرين سنة الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد كانت المأساة قد أخذت تبتعد عن الموضوعات الهامة والعامة وتهتم بالشخصيات الشاذة (كما في مسرحيتي الكترا Electra وأوريستيس ليوريديديس) أو تعنى بالقصص الرومانتية عن المخاطر الغريبة وضروب الفرار المثيرة (كما في مسرحيتي إيفيجينيا في تاوريس وهيلين) . كما نجد في فلسفات ذلك العهد مدارس مثل الكلبيين Cynics الزاهدين في الملذات أو القورينائيين Cyrenaics الداعين إلى الملذات ، وكان أعظم سؤال يتردد هو أين يوجد الخير ؟ خير الإنسان ؟ ولم يكن الجواب على ذلك يقيم للبوليس أى حساب . أما الكلبيون ومثلهم المتطرف هوديجينيس فقد قرروا أن الفضيلة والحكمة تدركان بالحياة طبقاً للطبيعة وبند ألوان الغرور مثل الرغبة في التكريم والراحة . وهكذا عاش ديوجينيس معتكفاً وكان على البوليس أن تستغنى عنه . أما القورينائيون فقد كان مذهبهم طلب الملذات وهم يرون أن إدراك الحكمة يكون باختيار الملذات اختياراً صحيحاً وتجنب ما يعكر صفو الحياة ، ولهذا فقد تجنبوا البوليس هم كذلك . وقد صيغت كلمة Cosmopolis (الوطن العالمي) فعلاً في ذلك الوقت لتعبر عن فكرة أن المجتمع الذي يدين له الرجل العاقل بالطاعة لم يكن شيئاً أقل من مجتمع الناس ، فأينما عاش الرجل العاقل فإنه كان مواطناً زميلاً لكل رجل عاقل آخر ، ولكن بصرف النظر عن هذا المعنى الفلسفي فقد كانت فكرة الوطن العالمي هي التي تقابل بالضرورة فكرة الفردية الجديدة وتكملها أى أن الوطن العالمي كان قد بدأ يحل محل البوليس .

فإذا تركنا الفن والفلسفة والتفتنا إلى الحياة والسياسة نجد مايعتبر في جوهره نفس الشيء . فالمواطن العادي مهتم بشئونه الخاصة أكثر من اهتمامه « بالبوليس » فإن كان فقيراً فهو يميل إلى اعتبار « البوليس » مصدراً

للبنافع.. مثال ذلك أن ديموستينيز كافع كفاحاً شديداً لإقناع الناس بأن يكرسوا للدفاع الوطني الإيرادات التي كانوا يجعلونها بانتظام لصندوق المسرح، وهو ليس المال المعد لخراج المسرحيات ولكنه المال المعد لتمكين المواطنين من دخول المسرح والمهرجانات الأخرى مجاناً. إن المحافظة على هذا المال يمكن الدفاع عنها متى افترضنا فقط أن المواطن كان يبدى من الهمة في خدمة «البوليس» مثلما كان يبدى في قبول ما تمنحه له من المزايا. وإذا كان المواطن غنياً فإن انشغاله بأموره الخاصة كان أشد وقد كان ديموستينيز يعقد مقارنة تبين الفرق بين المنازل الفخمة التي كان يبنها أغنياء عصره وبين المنازل البسيطة التي كان أغنياء القرن السابق يقتنعون بها، كما أن الملهاة (الكوميديا) كانت تبين بوضوح عظيم تغير مزاج الجمهور. فقد كانت الملهاة قديماً سياسية تماماً إذ كانت حياة «البوليس» هي محل الانتقاد والسخرية على المسرح. أما في القرن الرابع فقد كانت تجد مادتها في الحياة الخاصة والحياة المنزلية. وكانت نكتها عن الطبّاحين وأثمان السمك كما كانت عن الزوجات السليطات والأطباء الذين تعوزهم الكفاية.

وبمقارنة أثينا في عهد بريكليس بأثينا في عهد ديموستينيز نجد اختلافات أخرى ذات مغزى وإن كان يبدو أن علاقتها قليلة بنمو الفردية التي نحن بصدد بيانها. فالشخصيات التي توجه المجلس لم تعد موظفي الدولة المسئولين كما أصبح قيام موظفي الدولة المسئولين بالقيادة في ميدان القتال أقل من ذي قبل. ومن المؤكد أن انفصال هذه الوظائف لم يكن مطلقاً، ومع ذلك فما له دلالة أن نجد خطباء محترفين مثل ديموستينيز ومنافسه إيسخينيس Aeschines من البارزين في المجلس الذين يوفدون بصفة مبعوثين ومع ذلك فهما لا يشغلان وظائف حكومية كما أن اشتغالهما بالقيادة في ميدان القتال أندر من ذلك. وكذلك نجد سياسياً مثل أويولوس الذي كرس مواهبه العظيمة للإدارة الرشيدة والذي لم يشتهر فيما عدا ذلك، كما نجد قوادا مثل إيفيكرا تيس Iphicrates وخابرياس Chabrias

الذين كانوا محترفين بالفعل يخدمان دولا أجنبية حين لم تحتجها أثينا ويعيشان خارجها بالفعل. وقد تزوج إيفيكرا تيس بنت ملك من تراقيا وساعده بالفعل ضد أثينا ذات مرة بينما عين الآثينيون زوجاً آخر لابنة ذلك الملك اسمه خاريديموس Charidemus قائداً بصفة منظمة مع أنه لم يكن أثينياً بالمرّة بل كان مجرد قائد موهوب للجنود المرتزقة.

فإذا أجلنا النظر بعد ذلك في بلاد الإغريق كلها فإننا نجد أن نظام البوليس قد أخذ ينهار، وإذا نظرنا داخل أثينا نجد أن البوليس كانت آخذة في التفكك بل إن انهيار دولة المدينة يبدو أشد بغتة مما كان في الحقيقة، فلم يكن الأمر أمر معركة واحدة ولا أمر عشرة أعوام بل ولا جيل واحد، فما الذي جرى؟ لقد وجدنا بعض الدلالات ولكن ماذا كان السبب؟ لماذا انهارت «البوليس» في القرن الرابع لافي الخامس؟ ولماذا استطاعت بلاد الإغريق أن تتصافر ضد فارس ولم تستطع ذلك ضد فيليب؟ هل هناك أية علاقة بين هذا الانهيار وبين الفردية التي لاحظناها؟ أو بين ذلك وبين الاستخدام المشؤم للجنود المحترفين؟ لو أننا تمعنا مرة ثانية فيما كانت البوليس تعنيه وتتضمنه فإننا نعتقد أننا نتمكن من اكتشاف علاقة وثيقة بين كل هذه الأمور.

لقد جعلت «البوليس» للهاوى فكان مثلها الأعلى أن كل مواطن عليه أن يلعب دوره في أوجه نشاطها الكثيرة جميعاً (وهذا يختلف باختلاف ما إذا كانت البوليس ديمقراطية أو أوليجاركية) وهو مثل أعلى يمكن أن نقبل أنه وصل إليها من فكرة هوميروس عن «التفوق» aretè باعتبارها امتيازاً ونشاطاً شاملاً فهي تنطوي على احترام للحياة بصفاتها كلا أو وحدة وكره للتخصّص نتيجة لذلك، كما أنها تتضمن احتقاراً للكفاية أولعها تتضمن فكرة أسمى بكثير من الكفاية أي الكفاية التي توجد في الحياة نفسها

لا في أحد مناحيها فقط . وقد سبق لنا أن رأينا إلى أي مدى ذهبت أثينا الديمقراطية في تقييد مجال الخير المحترف . لقد كان واجباً على الإنسان نحو نفسه ونحو البوليس أن يكون كل شيء .

ولكن فكرة الهاوى هذه تتضمن أيضاً أن الحياة فضلاً عن كونها كلا متكاملًا فهي بسيطة . فإذا كان على رجل واحد أن يؤدي كل أدواره في الفترة التي يعيشها فيجب ألا تكون هذه الأدوار أصعب مما يستطيع الرجل العادي أن يتعلمه ، وهذا هو الأمر الذي انهارت «البوليس» عنده . إن الرجل الغربي منذ عهد الإغريق لم يستطع قط أن يدع الأشياء وشأنها بل لابد أن يسأل ويكتشف ويتحسن ويتقدم والتقدم هو الذي حطم «البوليس» .

لننظر أولاً إلى الناحية الدولية . إن القاريء الحديث الذي يتجه إلى أفلاطون وأرسطو ، هذين الفيلسوفين السياسيين اللذين يختلفان عن بعضهما كل الاختلاف لابد أنه يعجب من إصرارهما على أن «البوليس» ينبغي أن تكون مكثفية اكتفاء ذاتياً من الناحية الاقتصادية . فالأكتفاء الذاتي بالنسبة إليهما يكاد يكون أول قانون في وجودها . وهما يوثران إلغاء التجارة بصورة عملية . ويبدو من الوجهة التاريخية على الأقل أنهما كانا على حق . لقد كانا يعتقدان اعتقاداً راسخاً أن نظام المدن الصغيرة الإغريق كان الأساس الوحيد الصالح للحياة المتحضرة من الوجهة الحقيقية وهذا مبدأ معقول . غير أن مثل هذا النظام كان من الممكن أن يصح فقط لو أن أحد شروط ثلاثة تحقق وأولها أن كل «بوليس» ينبغي أن تدبر أمورها وتسيرها بذكاء وضبط للنفس لم يبد أن الجنس البشري قادر عليهما إلى الآن . وثانيها . على أسوأ الفروض أن «البوليس» ينبغي أن تكون من القوة بحيث تحافظ على النظام دون رغبة في التدخل بلا لزوم في شئون غيرها الخاصة وهذا ما فعلته أسبرطه حيناً من الدهر وبطريقة جزئية . وثالثها أن النظام بأكمله ينبغي أن يكون من الاتساع بحيث أن أعضائه ينبغي ألا يتعدى أحدهم على

اختصاص الآخر ، وبعبارة أخرى يجب أن يكونوا مكثفين اكتفاء ذاتياً . وقد كان هذا الشرط مستوفى في العصر القديم ، غير أن فتح البحر الأبيض المتوسط ونمو التجارة غير الأمور ، إذ أدت المنافسات التجارية في الحال إلى حروب على نطاق واسع . فأخذ العالم الإغريقي يتقلص وأصبح لا مفر من الاصطدامات . وقد دفع نمو أثينا هذه العملية إلى الأمام . فقد كان نظامها الاقتصادي كله يناقض قانون الاكتفاء الذاتي لأن أثينا منذ عهد سولون أخذت تعتمد أكثر فأكثر على تصدير النبيذ والزيت والبضائع المصنوعة وعلى استيراد القمح من البحر الأسود ومصر . ولهذا فقد كان عليها أن تشرف على جزر بحر إيجه بصورة ما وبخاصة الدردنيل . غير أن مثل هذا الإشراف كان لا يتفق مع نظام دولة المدينة كما أوضحت ذلك بلاد الإغريق لأثينا بطريقة جافة . وبدأ النظام يختل حالماً بدا يناقض القانون الذي يقوم عليه وجوده .

ولكن «البوليس» فرضت البساطة في أمور أخرى غير الأمور الاقتصادية . دعنا نتمعن في التكتيك الحربي والبحري وهو مالا يعتبر طرفة كبيرة منا . إننا جميعاً نعرف كيف يحارب الإغريق اليوم من قمة جبل إلى قمة جبل آخر . إنها طريقة للقتال فرضتها عليهم طبيعة البلاد . ومع ذلك فقد كانت الحرب التي تشنها دولة المدينة في هذه البلاد ذاتها يقوم بها مشاة يحملون سلاحاً ثقيلاً ولا يستطيعون الحرب إلا فوق أرض منبسطة . فقد كان الفرسان بل وأعجب من ذلك الجنود المزودون بأسلحة خفيفة يستخدمون للمعاونة فقط لحماية الجناحين وحماية حركة التمهقر وما أشبه ذلك . وهذا أمر يبدو خلواً من الذكاء بصورة غريبة بين قوم يحبون المغامرة جاًجاً . ولكن تفسير ذلك سهل ، فقد كان الجندي هو المواطن وكان أكثر المواطنين فلاحين وكان لابد للمعارك من أن تكون قصيرة إذ أن المحاصيل إذا لم تزرع وتحصد جاءت وماتت البوليس ولهذا كانوا يبحثون دائماً عن قرار

حاسم سريع . والجنود الجلبليون نادراً ما يستطيعون تحقيق ذلك ، وفضلاً عن ذلك فمع أن المواطن كان ينتظر منه أن يكون كفتاً في استخدام السيف والدرع وفي نظام الاشتباك في القتال عن كشب وهو نظام بسيط وإن يكن شاقاً إلا أنه لم يكن يملك الوقت الضروري لإتقان فن الحرب الجبلية الذي تزيد مشقته على سابقه . ولقد كان لدى أسبرطة وحدها جيش محترف من المواطنين (يساعد على تموينه عمل الأرقاء) ولما كانت متفوقة في حرب الاشتباك عن كشب فإنه لم يكن لديها دافع يحفزها إلى تغيير وسائلها .

ولكن حدث أن قائداً آثينياً مغامراً قاد أثناء حرب البيلوبونيز معركة في المنطقة الجبلية الواقعة غربي بلاد الإغريق دون أن يلقي نجاحاً كبيراً ووجد أن موقف المشاة المزودين بالأسلحة الثقيلة خطير ضد الجنود المزودين بالأسلحة الخفيفة الذين يعرفون كيف يضربون الضربة ويفرون ثم يضربون الضربة الثانية . ولم يذهب هذا الدرس هباءً إذ أن تكتيك الجنود المسلحين بأسلحة خفيفة قد درس دراسة كان من أثرها أن القائد الآثيني إيفيكرا تيس Iphicrates ومعه بعض الجنود المزودين بالأسلحة الخفيفة فاجأ فصيلة إسبرطية على أرض وعرة ومزقتها كل ممزق . لم تكن لهذا الحادث في حد ذاته أهمية كبيرة ولكنه رغم ذلك كان نذيراً بما سيحدث ، إذ كان يدل على أن التكتيكات العسكرية كانت قد أخذت تبلغ من التخصص حداً فوق متناول الجندي المواطن . فالיום الذي كان يستطيع فيه سياسي مثل بريكلئس أن يكون كذلك قائداً كفتاً للجنود كان قد ذهب أو كاد . فقد أخذ القتال يصبح مهنة تحتاج إلى مهارة . ولقد سبق لنا أن قابلنا بعض القواد المحترفين ، كما كان من السهل أن تؤلف الجيوش من بين العاطلين والمطرودين أو مجرد المغامرين الذين خلفتهم الحروب الطويلة وراءها . ولقد كان العشرة آلاف جندي المشهورين بقيادة كسينوفون يؤلفون مثل هذه القوة . ولهذا كان هناك بعض العذر للآثينيين في أنهم أخذوا يعتمدون على الجنود

المرتزقة أكثر مما يلزم أي على المحترفين ، فقد كان من الممكن الإشارة إلى أن هذا هو الشيء العملي ، غير أن الخطر من الالتجاء إليه واضح . أما من جهة خصمهم النهائي فيليب فقد كان له جيش قائم حسن التدريب على أحدث تكتيك مستعد للضرب في أي وقت وفي أي مكان . وهو جيش مكون من الجلبليين الجفأة الذين لم تثقل المدنية كاهلهم . ولم تكن البوليس تستطيع أن تقاوم هذه الوسيلة بمثلها دون أن تتوقف عن أن تصبح بوليسا .

وتنطبق نفس القصة على التكتيك البحري فقد تحققت هنا أيضاً مهارة الخبرة ولكنها تكلفت ثمناً لم تستطع «البوليس» في النهاية دفعه . ففي الحرب الفارسية كانت السفن الإغريقية بطيئة ثقيلة . فأصحابها يشتغلون فوق الأرض وخبرتهم بالملاحة قليلة مثلها كمثل الأسطول الروماني في الحرب البونية الأولى . وكانت الفكرة هي دفع سفينتهم بشدة نحو العدو ثم محاربتهم من فوق سطحها . أما بعد ذلك بخمسين سنة أي في حرب البيلوبونيز الأولى فقد كانت السفينة الآثينية ذات صفوف المجاذيف الثلاثة سفينة بالمعنى الحقيقي مبنية كسفينة السباق . فقد ضحى الآثينيون بالثقل في سبيل السرعة وخفة الحركة . وكان المجذفون وهم طبعاً من المواطنين لا الأرقاء — مدربين إلى درجة عالية من البراعة . ففي إحدى الخطط البحرية مثلاً كانوا يجذفون تجديفاً سريعاً متجهين نحو سفينة العدو كأنما يريدون مصادمتها ثم ينحرفون عنها في آخر لحظة ممكنة فتغرق المجاذيف القريبة بجانب سفينة العدو وتكتسح كل المجاذيف التي في هذا الجانب ، بينما يحدث الرماة الذين على السطح أقصى ما يستطيعون من الضرر ثم يدورون بسرعة نحو العدو الذي شلوا حركته ويضربونه كما يشاءون .

مثل هذه الخطط تحتاج إلى دقة عظيمة وشجاعة من جانب كل من يعينهم الأمر . ولذلك كاد يكون لزاماً على الملاحين أن يكونوا محترفين في الحقيقة . ولكن كيف تجعل من المواطنين الذين يحتاجون إلى كسب عيشهم ملاحين

محترفين ؟ وما دامت مقدرة العمال على الإنتاج ضعيفة جداً فكيف كانت تستطيع أثينا أن تكرر مثل هذا العدد الكبير من العمال لأسطولها ؟ كان ذلك ممكناً فقط لأنها كانت تأخذ الجزية من حلفائها الخاضعين لها . فكانت الوحدة السياسية الكبيرة وهي الإمبراطورية الآثينية هي التي تستطيع في الحقيقة دفع تكاليف هذه الدرجة من التخصص ، أما «البوليس» فلم تكن تستطيع ذلك . ولكن الوحدة الكبيرة لم يكن يستطيع الناس قبولها - وهذه نقطة لها بعض الأهمية بالنسبة لأوروبا الغربية حالياً . وقد نالت أثينا في الحقيقة هذه الخبرة البحرية (وغير ذلك من الأمور) عن طريق استغلال المدن الأخرى . وكان هذا إهانة لعواطف الإغريق . ففيه إنكار لأحد القوانين الأساسية للنظام كله . وقد جلب هذا الإنكار معه عقوبته .

رأينا منذ لحظة أن التقيد الاقتصادي باعتباره إنكاراً للاكتفاء الذاتي كان يتعارض مع البوليس في ناحيتها الدولية . والآن ونحن ندرس حالة أثينا خاصة يمكننا أن نلاحظ أن نتائجه من الوجهة الداخلية كانت خطيرة كذلك . ومع أن قانون أفلاطون صحيح بالفعل بالنسبة للخارج فلا شك أن تجربة أثينا الداخلية هي التي أدت إلى صياغته . فقبل منتصف القرن الخامس كانت بيريه قد أصبحت إلى حد كبير أكثر موانئ البحر المتوسط حركة ، وقد أعلن بريكليس بفخر وهو يرفض قانون أفلاطون مقدماً « أن منتجات العالم أجمع تأتينا » . وهو ما كان يحدث بالفعل ، فإنها كانت تأتيهم - ومن بينها الطاعون . ولقد ازدهرت بيريه وأثينا نفسها وأقام بهما أجناب مغامرون وظهرت بها صناعات وأصبحت المدينة المزودة مركز العالم . وقد كان ذلك شيئاً رائعاً ومثيراً جداً ولكنه كان أكبر مما تستطيع البوليس أن تهضمه . وقد كانت البوليس مكونة من مجتمع من أصحاب المصالح ، ولكن مصالح العناصر التجارية والزراعية الآثينية وكذلك طابعهم بدأت تتشعب بشكل شديد ، فكانت العناصر التجارية تتكون من الديمقراطيين المتطرفين

والاستعماريين وحزب الحرب . فإن كانوا أغنياء منحتمهم الحرب فرصاً للتوسع التجاري ، وإن كانوا فقراء أعطتهم عملاً وأجرأ ولكنها كانت تعطى سكان الريف يوتاً غير مسقوفة وتؤدي إلى قطع ما يملكون من أشجار الزيتون البطيئة النمو . وكان أكثر زعماء المجلس بعد بريكليس من أهل بيريه وهم التجار الناجحون من أمثال كليون . فكانوا ذوي مقدرة عظيمة أحياناً ولكنهم كانوا انتهازيين . إذ كانت لهم بحكم طبيعتهم وتدريبهم آراء متحيزة مما جعل لهم خصوصاً ذوي آراء أشد منهم تحيزاً وعنفاً . وبالإضافة إلى ذلك أن تعقيد الحياة المتزايد الناشئ من هذا النمو التجاري جعل هناك نوعاً من القوة المركزية الطاردة داخل «البوليس» . فأصبحت شئون الناس الخاصة أكثر تشويقاً وتطرفاً في مطالبها بحيث أخذوا يميلون إلى الانسحاب من الأمور العامة وأصبح الخول السياسي في أثينا في القرن الرابع نتيجة مباشرة لذلك .

ولكن هذا التقدم المدمر لم يكن مقصوداً على الجانب المادي للحياة ، ومن الحق أن نؤكد أنه بدأ به . وكان أريستوفانيس يرى أن سبب ذلك هو محاولة الناس أن يكونوا أمهر مما ينبغي . ويمكننا أن نذكر الكثير تأييداً لهذا الرأي البسيط .

فقد ظلت الأخلاق الإغريقية أجيالاً عديدة مثل الخطط الحرية الإغريقية تقليدية محضة تقوم على فضائل العدالة والشجاعة وضبط النفس والحكمة وهي الفضائل الأساسية . وكان يبشر شاعر بعد آخر بنفس هذه العقيدة أي بجمال العدالة وخطر الطمع وحماسة العنف . فكانت عقيدة خلقية لا يمارسها كل الإغريق بالفعل أكثر مما يمارس العالم المسيحي بأجمعه المسيحية . ورغم ذلك فقد كانت مثل المسيحية مثلاً يحتذى مسلياً به . فإن ارتكب إنسان إساءة كان معروفاً أنه قد ارتكب إساءة . وهذا هو الأساس

القوى البسيط الذى كان من الممكن أن تقوم عليه حياة مشتركة . وهنا أيضاً نجد مصدر قوة الفن الإغريق الكلاسى وبساطته . وقد قام الفن الأوروبى الوحيد الآخر الذى يقارب الفن الإغريق فى هذه الصفات وهو فن القرن الثالث عشر على مثل هذا الأساس .

ولكن القرن الخامس غير ذلك كله . فقبل نهايته لم يكن يعرف إنسان أين هو . إذ أن المهرة من الناس أخذوا يقلبون كل شىء رأساً على عقب أما البسطاء فكانوا يشعرون أنهم متخلفون عن زمانهم . فإن تكلم أحد عن الفضيلة وجد الرد « إن هذا كله يتوقف على ما تقصده بالفضيلة » وهو ما لم يكن يعرفه أحد . وهذا من أسباب انصراف الشعراء عن هذا الميدان . وكما أن الأفكار الجديدة ومكتشفات العلوم الطبيعية قد غيرت نظرنا تغيراً كبيراً خلال السنين المائة الأخيرة فهدمت عند كثير من الناس الدين والأخلاق التى توارثوها حتى أصبح الشيطان لا يجد ما يعمل به ، وأصبح الإثم فى نظرهم لا وجود له وأصبحت كل العيوب الإنسانية نتائج لطبيعة الجسد أو ناشئة عن البيئة ، كذلك شجعت تأملات الفلاسفة الأيونيين الجريئة فى القرنين السادس وأوائل الخامس على البحث العلمى المنظم فى اتجاهات كثيرة مما كانت نتيجته زعزعة كثير من الأفكار المسلم بها فى الأخلاق زعزعة شديدة .

حقاً لقد كان هناك سقراط وهو أنبل من عاش بالتأكيد . فقد اهتم بتأملات الفلاسفة الطبيعيين ولكنه عدل عنها باعتبارها عديمة الجدوى وتافهة كذلك متى قورنت بالسؤال الهام التالى : كيف ينبغي لنا أن نعيش ؟ ولم يكن هو يعرف الجواب على هذا السؤال ، ولكنه أخذ يعمل على اكتشافه بفحص أفكار الآخرين فحصاً دقيقاً . وقد بين هذا الفحص لسقراط وللشبان الذين كانوا يتبعونه أينما ذهب أن الأخلاق التقليدية لا أساس لها فى المنطق . ولم يستطع أحد فى أثينا أن يعطى تعريفاً لآية فضيلة خلقية

أو فكرية يمكن أن يظل قائماً صحيحاً بعد محادثة مع هذا البناء الهائل تستغرق عشرة دقائق . وقد كان تأثير ذلك هداماً على بعض الشبان . فقد تحطمت عقيدتهم فى التقاليد الموروثة ، ولم يستبدلوها بشىء آخر وتزعزع إيمانهم بالبوليس . إذ كيف كانت تستطيع البوليس أن تدرب مواطنيها على الفضيلة علماً بأن أحداً لم يكن يعلم ما هى . ولهذا أخذ سقراط يتحسر على حق أثينا الديمقراطية التى كانت تهتم باستشارة خبير فى شىء تافه مثل بناء جدار أو حوض لبناء السفن بينما كانت تسمح لأى إنسان بأن يصرح بما يحول فى ذهنه الذى لم يتهذب بالنسبة لمسائل الأخلاق والسلوك التى كانت أهم من ذلك بما لا يقاس .

لقد كان الهدف السامى لسقراط ولأفلاطون من بعده هو وضع الفضيلة على أساس منطقي لا يمكن مهاجمته وجعلها موضوعاً لعلم دقيق يمكن الإحاطة به وتعليمه لا لرأى تقليدى خطير ، وهذا هدف يستحق الشناء ولكنه أدى إلى الجمهورية مباشرة وهى النقيض المحترف للبوليس الهاوية . لأن تدريب المواطنين على الفضيلة أى على حكم البوليس يجب أن يوصل إلى أولئك الذين يعرفون ماذا يقصد بالفضيلة . وإصرار أفلاطون على العلم كان تأثيره تفتيت المجتمع إلى أفراد كل منهم خبير فى مطلب واحد فقط يلزمه أن يقتصر عليه . وسيد الفنون وأهمها وأصعبها هو « فن السياسة » . ومن يتقن هذا الفن عند اكتشافه يجب أن يحكم . ويكفينا ذكر هذا القدر عن « البوليس » ونظريتها القائلة أن الحياة الطيبة معناها الاشتراك فى كل شىء .

وقد أنتجت هذه الفورة الفكرية فضلاً عن سقراط جمهرة من قوم أقل منه هم السوفسطائيون الذين كان تأثيرهم على البوليس أهم من تأثيره . إن لفظ « سوفسطائى » ليس له معنى يحيط من قدر الإنسان بالمرة . أما الذى أعطاه هذا المعنى فهو سقراط لأنه كان يكره أساليبهم وأهدافهم

على السواء ، إذ كانوا مدرسين لامستفسرين ، وكانت أهدافهم عملية لافلسفية . ومعنى الكلمة هو معلم « الحكمة » Sophia وهي إحدى الكلمات الإغريقية الصعبة التي معناها إما « الحكمة » أو « المهارة » أو « المقدرة العملية » . ولعل كلمة « أستاذ » هي تقريباً المقابل الحديث لكلمة « سوفسطائي » فهي مثل الكلمة الأولى لها معان تتفاوت بين أساتذة اللغة الإغريقية وأساتذة علم فراسة الدماغ . ومع أن بعض الأساتذة يشتغلون بالبحث إلا أنهم جميعاً يقومون بالتعليم وتدفع لهم أجور . وقد كان هذا عاراً كبيراً على السوفسطائيين . وقد كان بعضهم أساتذة جادين ومربين أو علماء . بينما كان الآخرون أشبه بياعة السلع التافهة المتجولين فكانوا يعلنون أنهم يعلمون الفن السامى الذى يهدف إلى التقدم فى الحياة . فهل تريد تحسين ذاكرتك ؟ أم تريد أن يكون لك ١٠٠٠ ج دخلاً فى السنة ؟ إن من السوفسطائيين من كان يعلمك ذلك بأجر . فقد كان السوفسطائيون يذهبون من مدينة لأخرى يلقون محاضرات عن موضوعاتهم الخاصة . ومنهم من كان يتعهد فعلاً بأن يحاضر فى أى موضوع وإن كان ذلك دائماً فى مقابل أجر . وقد كان الشبان الطموحون المتسائلون يحبونهم حباً جماً . ويمكننا أن نشير إلى أثر تعليمهم تحت عناوين :

أولها أنهم مثل سقراط أخذوا ينقدون الأخلاق البالية . وقد قام البعض بمحاولات جدية لإرسائها على أساس وطيء . وكان الآخرون يعلمون مذاهب جديدة مثيرة مثل « ثراسيماخوس » Thrasymachus الذى يبرز اسمه فى أول كتاب « الجمهورية » والذى يصوره الكاتب لنا كرجل عديم الإحساس لا يطيق أى فكرة ولو غامضة عن العدالة . ولنضرب مثلاً واضحاً دقيقاً ، إنه عندما أكره على أن يبين رأيه واضحاً دقيقاً قال « العدالة بكل بساطة هي مصلحة الطرف الأقوى » . وكان يرى بروتاجوراس وهو رجل أعظم من سابقه بكثير أنه ليس هناك خير أو شر مجرد « فالإنسان

هو مقياس كل شيء » أى أن الحق والأخلاق أمور نسبية . ونحن الذين رأينا إلى أية استعمالات دنيئة يمكن أن ننزل بالمذهب العلمى القائل ببقاء الأصلح يمكننا أن نتصور بدون صعوبة كبيرة أية منفعة يمكن أهل العنف والمطامع أن يجنوها من هذا القول . ومن الممكن أن تعطى مظهرأ علمياً أو فلسفياً محترماً لأى شر . والناس يستطيعون أن يعملوا أعمالاً خبيثة دون أن يعلمهم السوفسطائيون ، غير أنه كان من المفيد أن يتعلموا الحجج التي تجعلها طيبة فى نظر الرجل البسيط .

أما السوفسطائيون الذين لم يتعرضوا للأخلاق فقد كان لهم تأثير كالآخرين . إذ أن التعليم كان أثراً من الآثار الفرعية لحياة البوليس يشترك فيه الجميع . وكان أصحاب المواهب الفطرية يسبقون الباقين وإن كان الكل موجودين فى صعيد واحد ، وهكذا بقيت وحدة البوليس . وبظهور السوفسطائيين أصبح هناك تخصص فى التعليم كما دخله الاحتراف ، فأصبح مباحاً فقط للذين يستطيعون أن يدفعوا أجره وكذلك يريدونه . وهكذا أصبحت هناك هوة حقيقية لأول مرة بين المستنيرين والبسطاء . مما كانت نتيجته الطبيعية ان الطبقات المتعلمة فى المدن المختلفة أخذت تشعر أنها تشترك فيما بينها أكثر مما يشترك المتعلمون مع غير المتعلمين فى مدينتهم نفسها . وهكذا أصبح الوطن العالمى أقرب .

وقد كانت البلاغة أهم فن عملى يعلمه السفسطائيون وكان الإغريق قد حللوا فن الإقناع لشدة أهميته لهم وأتقنوه ونظموه . فقد كان قبل ذلك مسألة ذكاء فطرى ومران ثم صار من الممكن تعلمه إذ ذاك فى مقابل أجر يدفع فأخذ الناس يمارسونه بحماسة .

ولقد كان الآثينيون الذين يجدون لذة كافية فى الكلام الذى توفرت حججه وحسنت صياغته يفتنون — لفترة ماعلى الأقل — بالأسلوب

المتقن والمناقشات الدقيقة التي ابتكرها هؤلاء المحترفون وعلوها حتى أصبحوا — على حد قول كليون — خبراء أكثر منهم مواطنين . بينما كان الرجل البسيط الذي ينهزم في المناقشة أو يخسر قضية يتدمر من الطريقة التي كانت تحور بها العدالة (ومسرحية السحب ، لارستوفانيس توضح هذا) فأنت أن لم تتقن هذا الأسلوب الجديد تصبح أو يمكن أن تصبح في مركز ضعيف إن كان عليك أن تعرض قضية على زملائك المواطنين . وهذه هي نفس الظاهرة التي وجدناها من قبل . فالحخير الواسع الخبرة والمتخصص لم يكن له مكان طبيعي في البوليس . فإذا ظهر ، وهو ما كان يحدث في كثير من فروع الحياة ، كان يؤدي إلى إضعاف تماسك المدينة وتخطى الحدود الطبيعية لها .

العقل الإغريقي

الآن وقد ألقينا نظرة فاحصة موجزة على تاريخ الإغريق حتى انتهت فعلا دولة المدينة يمكننا أن نتوقف لنلقي نظرة على طبيعة العقل الإغريقي وبعض مآثره خلال هذه الحقبة .

ربما كانت أبرز علامة مميزة للعقل الإغريقي هو إدراكه للأشياء ككل متكامل . وقد سبق لنا أن قابلنا بعض الأمثلة البارزة التي تعبر عن ذلك في الطريقة التي يتبعها هومر ، فرغم حبه العظيم لذكر التفاصيل وما يميز كلا منها على حده ، فإنه يعرضها باحكام في إطار شامل . أو الطريقة التي تدل على أن كثيراً من الإغريق متعددو الجوانب في وقت واحد ، فسولون مصلح سياسي واقتصادي ورجل من رجال الأعمال وشاعر . أو الطريقة التي لا تكون فيها البوليس نفسها أداة للحكم بل شيئاً يتعلق بالحياة كلها تقريباً . وبينما العقل الحديث يقسم الأشياء ويخصصها ويفكر فيها باعتبارها أصنافاً ، نجد طبيعة الإغريق على النقيض من ذلك فهو ينظر أوسع نظرة ويرى الأشياء كلا عضواً . وقد أوضح خطبتا كليون وديودوتوس نفس الشيء بالضبط وهو أن موضوع البحث يجب تعميمه .

دعنا نحاول الآن أن نوضح هذه النظرة الكلية أكثر من ذلك مبتدئين بهذا الشيء الإغريقي الصميم — اللغة الإغريقية .

إن من يبدأ تعلم الإغريقية يجد صعوبات مستمرة بالنسبة لكلمات معينة يعتقد أنها كان يجب أن تكون بسيطة وهي في الحقيقة كذلك ولكنها تبدو في البداية صعبة بشكل غير متوقع . فهناك كلمة كالوس Kalos وعكسها أيسخروس

aischros ، يقال له أن الكلمة الأولى معناها « جميل » وهو يعرف ما يقابلها باللاتينية بولكر Pulcher ويتهج بذلك كل الابتهاج ، ثم يقرأ عن « بوليس كالي » أي مدينة جميلة . ويسمى هومر إسبرطه « كالليجونايكوس » أي « مدينة النساء الجميلات » ويبدو للقارىء كل شيء على ما يرام ولكنه يقرأ بعد ذلك أن الفضيلة « جميلة » وأن موت الإنسان من أجل بلاده شيء جميل . وأن صاحب النفس الكبيرة يكافح ليدرك « الجمال » وأن السلاح الحسن أو الميناء الواسع « جميل » فيستنتج من ذلك أن الإغريق كانوا يرون الأشياء بصفة جوهرية من وجهة نظر جمالية ، ويتأيد استنتاجه عندما يجد أن كلمة « إيسخروس » وباللاتينية . توريس Turpis تفيد بالإنجليزية معنى « خسيس . أو شائن . أو قبيح » . وهكذا يمكن أن يكون الإنسان « دينياً » لافي خلقه فقط بل أيضاً في مظهره . كم كان رائعاً من الإغريق أن يحولوا الفضيلة إلى الجمال والريذة إلى القبح !

ولكن الإغريق لم يفعل شيئاً من هذا القبيل . إننا نحن الذين نفعل ذلك بتقسيمنا المدرجات إلى أصناف متباينة وإن تكن متوازية فمنها الأخلاق والفكرى والجمالى والعمل (١) . أما الإغريق فلم يكن يفعل ذلك ، حتى الفلاسفة كانوا لا يرغبون في ذلك . فعندما يجعل أفلاطون سقراط يبدأ إحدى المناقشات بقوله « أنت توافقنى على أن هناك شيئاً اسمه كالون (جميل) قد نكون متأكدين من أنه سيربك مناظره بالانزلاق بلطف من كالون (جميل) إلى كالون (شريف) . فالكلمة معناها في الحقيقة شيء مثل « جدير بالإعجاب الشديد » ، وقد تستعمل دون أكثرات في أى نوع من هذه الأنواع مثل كلمة « حسن » عندنا تقريباً ، وفي الإنجليزية كلمات مثل هذه ، فكلمة « ردى »

(١) قد لا يجد القارىء العربى وجهاً للغرابة في استخدام اللفظ الواحد للدلالة على معنى خلقى وفكرى وجمالى الخ . على عكس القارىء الإنجليزى (المترجم) .

يمكن أن يوصف بها السلوك أو الشعراء أو السمك وهى في كل حالة منها تفيد معنى مختلفاً كل الاختلاف ، أما في الإغريقية فرفض تخصيص المعنى شيء عادى .

فكلمة « همارتيا hamartia » معناها « خطأ . و ، غلطة ، و « جريمة » أو حتى « خطيئة » ومعناها الحرفى هو « عدم إصابة الهدف » أو « طلقة رديئة » ، وقد نقول متعجبين « كم كان تفكير هؤلاء الإغريق منطقياً ! فالخطيئة هى بالضبط عدم إصابة الهدف ، « فلعلك تكون أحسن حظاً في المرة التالية » وهكذا يبدو أننا نجد ما يؤيد رأينا عندما نجد أن بعض الفضائل الإغريقية يبدو أنها فكرية بقدر ما هى أخلاقية . وهى حقيقة تجعلها غير قابلة للترجمة . لأن ألفاظنا تهتم بالتفرقة بين الأشياء . فهناك كلمة « سوفروسونه Sophrosynê » ومعناها الحرفى « حضور الذهن بكل قواه » ولكنها في سياق الكلام قد تفيد معنى « الحكمة » أو « الحرص » أو الاعتدال أو العفة أو الرشد ، أو « التواضع » أو « ضبط النفس » أى أنها قد تعنى شيئاً فكرياً خاسجاً أو أخلاقياً محضاً أو بين بين . فالصعوبة التى نجدها بالنسبة لهذه الكلمة أو بالنسبة لكلمة همارتيا ترجع إلى أن تفكيرنا يتخذله مناحى مستقلة . فكلمة « همارتيا » ومعناها ، طلقة لم تصب الهدف ، لا يقصد منها « لعلك تكون أحسن حظاً في المرة التالية » بل معناها أقرب إلى أن يكون « ان الخطأ العقلى يستحق اللوم وقد يكون مميّزاً مثل الخطأ الأخلاقى » .

كما أننا استيفاء لدراستنا نجد الإغريق يستعملون كلمات تزخر بالمعنى الأخلاقى في النواحي التى ينبغى علينا فيها أن نستخدم ألفاظاً لها دلالة فكرية كما في حالة النظريات السياسية مثلاً ، فالسياسة العدوانية يحتمل أن تكون « أديكيا » أى (ظلماً) حتى وإن لم تكن (هوبريس hybris) أى (خبثاً طائشاً) بينما « تضخم الثروة » أو « الكسب غير المشروع » هو « بليونيكسيا Pleonexia » أى « محاولة الحصول على أكثر من نصيبك » وهو خطأ من الوجهة الفكرية والأخلاقية معاً وتحد لسنن الكون .

دعنا نرجع إلى هومر لحظة . لقد كان شاعر الإلياذة مدركاً للفروق بين الطبقات ، وهذه من أهم الصفات اللازمة اليوم للفنان في رأى بعض الضالين .

فهو يكتب عن الملوك والأمراء وحدهم ، والجندى العادى لا يلعب دوراً في القصيدة ، وفضلاً عن ذلك فهو لاء الملوك والأمراء يراعى في تصويرهم أن يتقيدوا بحدود طبقتهم وزمانهم . فهم غفرون ، قساة منتقمون يلمعون في الحرب ولو أنهم يكرهونها في نفس الوقت . كيف كان يمكن إذن أن يصبح مثل هؤلاء الأبطال مثلاً للطبقة الوسطى التي جاءت بعد ذلك ومصدراً حياً للإلهام ؟ ذلك أنهم باعتبارهم أغريقاً كانوا لا يستطيعون أن يروا أنفسهم إلا في أوسع دائرة ممكنة أى أن يروا أنهم رجال . فلم يكن مثلهم الأعلى هو مثل أعلى للفرسان بصفة خاصة كالشهادة في الفروسية والحب بل ما كانوا يدعونه أريتيه areté وهي كلمة إغريقية أخرى تعتبر نموذجاً لغيرها في دلالتها . فعندما نصادفها عند أفلاطون نترجمها « الفضيلة » ويضيع منا بذلك كل أثر لتذوقها « فالفضيلة » في اللغة الإنجليزية الحديثة على الأقل تكاد تكون كلمة أخلاقية محضة . أما أريتيه فإنها تستخدم دون اكتراث في كل النواحي وتعنى مجرد « الامتياز » ويمكن أن يتحدد معناها بطبيعة الحال من سياق الكلام . « فالأريتيه » بالنسبة لحسان السباق هي السرعة وبالنسبة لحسان جر العربات هي القوة . فإذا استعمات في سياق الكلام عامة عن رجل فإنها تشير إلى الامتياز في الأساليب التي يستطيع الإنسان أن يكون ممتازاً فيها — سواء منها الأخلاقية أو الفكرية أو الطبيعية أو العملية . وهكذا تجد أن بطل الأوديسا محارب عظيم ومدبر أريب وخطيب قادر على الارتجال ورجل ذو قلب جرىء وحكمة بالغة يعرف أن عليه أن يتحمل ما يرسله الآلهة من نوازل دون أن يشكو من الشكوى ويستطيع أن يصنع سفينة ويبحر بها ويشق خطاً مستقيماً بالمحراث مثل غيره

من الناس يهزم كل نفور صغير مغرور في قذف القرص ويتحدى شبان فايكيا في الملاكمة والمصارعة والعدو ويسلخ جلد الثور ويقطعه إرباً ويطبخه وتستدر إحدى الأغاني دموعه . وهو في الحقيقة بارع في كل ناحية ولديه « أريتيه » فائقة ، ومثله أيضاً بطل القصيدة الأقدم من الأوديسا ، أخيليس أروع المحاربين وأسرع العدائين وأنبى الناس نفساً . ويخبرنا هومر في بيت مشهور من الشعر كيف تلقى أخيليس العلم . فقد عهد أبوه بالصبي إلى فونيكس Phoenix العجوز وطلب إليه أن يدربه ليكون « مؤلفاً للخطب وقائماً بروائع الأعمال » ، وقد حاول البطل الإغريق أن يجمع في ذاته الفضائل التي قسمها عصر البطولة الذي نعيش نحن فيه بين الفرسان ورجال الدين .

وهذا هو أحد الأسباب في بقاء الملاحم وسيلة لتعليم عصر حضارته أرقى من عصرها بكثير . إن « الأريتية » وهي المثل الأعلى للبطولة مع أنها راسخة الجذور في عصرها وظروفها كانت من العمق والشمول بحيث أمكنها أن تصبح مثلاً أعلى لعصر يختلف عن عصرها كل الاختلاف . وفي النبذة التي ترجمتها من الإلياذة أحد التفاصيل التي يترأى لى أنها إغريقية للغاية ، أعنى قوله « لقد تمزق قلبه داخل صدره المغطى بالشعر ، فهل كان ينبغي عليه أن يقتل ابن أتريوس أو يصرف غضبه » وقد كتب تينسون عن لحظة مشابهة وهو يترجم عن فيرجيل Virgil : —

« فأصبح عقله اللماح موزعاً بين هذا الطريق وذاك » . والعقل بلاريب ليس هو القلب . ولو أن تينسون أو فيرجيل ذكر في نفس الوقت الذي يذكر فيه القلب أو العقل أحد التفاصيل المادية الخاصة بالجسد الذي يسكن فيه هذا العقل أو القلب لأخذتنا الدهشة . أما هومر فإنه يبدو له طبيعياً للغاية أن الصدر يكسوه الشعر لأنه يرى الرجل كله في نفس الوقت .

ليست هذه النقطة مما أقصد تأكيد أهميته ، ولكنها ترينا ناحية أخرى

من نواحي الشمول السكلى للعقل ، وهى ناحية كان يظهر فيها الإغريق على طرفي نقيض مع « البرابرة » ومع أكثر الشعوب الحديثة . فالتفرقة الحادة التى ميز بها العالم المسيحى والشرقى بشكل طبيعى بين الجسد والنفس وبين المادى والروحى كانت غريبة على الإغريق حتى عصر سقراط وأفلاطون على الأقل . إذ أن الإغريق كان يرى الإنسان كله ، أما أن الجسد هو قبر النفس فهذه فكرة نقابلها فعلاً فى بعض ديانات الأسرار الإغريقية . وقد كان لازماً على أفلاطون أن يميز تمييزاً حاداً بين الجسم والنفس فى مذهبه عن الخلود . ورغم ذلك كله فليست هذه فكرة إغريقية اختص بها الإغريق . وقد جعل الإغريق التدريب الجسمانى جزءاً أساسياً من التربية لا لأنه قال لنفسه « لاحظنا أننا يجب ألا ننسى الجسم » بل لأنه لم يكن يمكن أن يخطر بباله أن يدرب إلا الإنسان بأكمله . فقد كان وجود جمنازيوم (ملعب تمارس فيه الألعاب الرياضية) فى البوليس أمراً طبيعياً كوجود مسرح أو سفن حربية . وكان الرجال من جميع الأعمار يتمرنون فيه باستمرار لعل الرياضة البدنية فحسب بل على الرياضة العقلية أيضاً .

غير أن « الألعاب » المحلية والدولية هى التى تبين بوضوح هذه الناحية من العقل الإغريق . وقد يلام الإنسان عندنا على أنه « يتخذ الألعاب ديناً له » أما الإغريق فلم يكن يفعل ذلك ولكنه كان يفعل أحياناً شيئاً أعجب منه ، إذ كان يجعل الألعاب جزءاً من دينه . ولكى يكون ذلك واضحاً كل الوضوح نقول إن الألعاب الأولمبية وهى أعظم المهرجانات الدولية كانت تقام لتمجيد الإله الأولمبي زيوس ، كما كانت تقام الألعاب البوذية لتمجيد أبوللون والألعاب فى عيد الباناثينيا Panathenaia لتمجيد أثينا . فضلاً عن أنها كانت تقام إلى جوار الأمكنة المقدسة ، وكان الشعور الذى دعا إلى ذلك شعوراً طبيعياً جداً . فقد كانت المباراة وسيلة إثارة « الأريتيه » البشرية وإظهارها ، وقد كان هذا قرباناً جديراً أن يقدم للرب . وبمنفس

الطريقة كانت تقام الألعاب تكريماً لبطل قد مات مثل باتروكلوس Patroclus فى الإلياذة . ولكن لما كانت « الأريتيه » خاصة بالعقل كما كانت خاصة بالجسم فلم يكن هناك شئ من عدم التناسب أو التصنع فى الجمع بين المباريات الموسيقية والرياضية . فقد كان العزف على الناي مباراة ثابتة مقررة فى الألعاب البوذية . ألم يكن أبوللون نفسه « رب الناي » ؟ .

لقد كان المقصود من الألعاب هو اختبار « الأريتيه » الخاصة بالإنسان كله لا بمهارة معينة فيه فحسب . وقد كانت الألعاب المعتادة هى العدو السريع لمسافة ٢٠٠ ياردة والسباق الطويل (ميل ونصف) والسباق مع لبس الدروع وقذف القرص والحرية والوثب الطويل والمصارعة والملاكمة (من نوع خطير جداً) وسباق العربات . وكانت الحفلة الكبرى هى البنتاثلون (مباراة الألعاب الخمس) فى السباق والوثب وقذف القرص والحرب والمصارعة فإن فزت فيها كنت رجلاً حقاً . ولا حاجة بنا إلى القول بأن سباق المراثون لم يسمع عنه إلا فى العصور الحديثة . وكان من الجائز أن يعتبره الإغريق شيئاً فظيلاً . أما عن المهارة التى يبدىها الأبطال الحديثون فى ألعاب مثل الجولف والبيليارد فمن المؤكد أن الإغريق كانوا يعجبون بها كل الإعجاب ويرون فيها شيئاً رائعاً يصلح للرقيق بفرض أن الإنسان لم يجد لهم فائدة أكثر من تدريبهم على هذا النحو . إذ كان ينتظر من الإغريق أن يقول إنه محال أن يكتسب الإنسان مثل هذه المهارة ثم يعيش فى نفس الوقت الحياة التى تليق برجل مواطن . إن مثل هذا الشعور هو الذى تنطوى عليه ملاحظة أرسطو « إن السيد المذهب ينبغي أن يكون قادراً على عزف الناي ولكن على ألا تكون مهارته فيه أكثر مما ينبغي » .

إن « الفائز » فى إحدى الألعاب العظمى كان « رجلاً » بل إنه كاد يكون بالفعل أكثر من رجل فيكون « بطلاً » يعامله مواطنوه معاملة

الآبطال . وكان يحظى بالتكريم العلني العام الذي ربما تضمن تقديم العشاء له في قاعة المدينة من المصروفات العامة بقية عمره (ليضاهي إلى حد ما أكليل أغصان الزيتون البري الذي كان يمنح للمنتصر) . ولقد نمت بين الدوريين بصفة خاصة عادة تكليف شاعر بنظم أغنية رصينة تكريماً للبطل تغني في وليمة أو مهرجان ديني ، وهكذا حدث أن من بين أعظم وأرصن شاعرين في القرن الخامس أسخيلوس ، وبنداروس كان الثاني معروفاً لنا بأنه مختص في نظم أغاني النصر (باستثناء شذرات من قصائد أخرى) وانها لفكرة غريبة بالنسبة لنا أن يكتب شاعر رصين أغاني للرياضيين والأعجب من ذلك أن نجد في مثل هذه الأغنية قطعة كهذه : —

إن من يكسب فجأة جائزة نفمة

في أعوام الشباب الخصبية

يسمو به الأمل وتنمو لرجولته أجنحة

وينطوى قلبه على ما هو أفضل من الثروة .

واسكن موسم ابتهاج الإنسان قصير ،

فسرعان ما يقع على الأرض وبجثث جذوره قضاء رهيب .

مدته يوم - هكذا الإنسان . إنه طيف في الحلم .

ومع ذلك فعندما يتنزل عليه البهاء الذي يضيفه عليه الرب .

يتلألأ عليه سناء وضاء فما أحلى الحياة !

فيا أمنا العزيزة ايجينا أرشدي هذه المدينة إلى طريق الحرية .

بوساطة زيوس وبفضل البطل أياكوس .

وبليوس وتيلامون القوي وإخيليس .

هذا شعر عظيم حتى بعد أن انتزع من لغته الإغريقية الأصلية ، وعلى الإنسان أن يلتبس له نظيراً مناسباً في « سفر الجامعة » وهذا الشعر خاتمة أغنية ألفت للاحتفاء بانتصار قتي مهذب من أيجينا في مباراة مصارعة الأولاد في دلفوى .

ولست كل أغاني بنداروس حزينة رصينة كهذه ، بأية حال ، ولكنه لما نظم هذه الأغنية كان شيخاً طاعناً في السن ، وقد كانت أثينا تهدد سكان إيجينا وهم من أقاربه الذين كان يكن لهم إحساسات ودية جداً . وهذا هو سبب الابتهاج الجدى الموجه لآبطال ايجينا في الختام ، وهذه الرصانة لم تكن أمراً غير عادي بأية حال . ولا يفكر بنداروس في مجرد المباراة الرياضية التي لا يتواضع فيصفها أبداً بل يفكر في « الامتياز » الذي بدا من المنتصر ، ومن الطبيعي أن ينتقل الشاعر الإغريقي منه إلى أى نوع من « الامتياز » سواء عند الفرد أو عند البوليس فهو يرى الانتصار في أوسع نطاق .

إن الامتياز الجسماني والخالق والفكرى مضافاً إلى « الثراء البسيط » كلها أجزاء من كل عند بنداروس ، وربما كان هذا أحد الأسباب التي تجعل الإنسان يشعر وهو واقع تحت تأثير سحره أنه هو الشاعر الحقيقي الوحيد الذي نظم الشعر . هذا الإدراك السامى للألعاب وإن يكن بنداروس قد حوله إلى شيء أسمى من إدراك الرجل العادي كان حقيقة إلى حد كبير ، وإن تسكن مع ذلك « مدته يوماً » يتلألأ عليه سناء وضاء والبهاء الذي يضيفه الرب ، غير أن هذا الاندماج التام لما هو جسماني وفكرى وخالق وروحي وحسى قد انحل وتفكك . فقد كتب يوريبديدس بعد وفاة بنداروس بعشرين عاماً نبذة في تجميع المنتصرين في الألعاب الأولمبية ذوى القوة العضلية والعقول الجوفاء الذين يحظون بأطراء مدينة لا يسهمون فيها بشيء .

وقد كتب بنداروس نفسه أغنية هي الوحيدة التي كتبها دون اكرات، إلى من يدعى كسنوفون من سكان كورنثا، ويلوح أنه كان شبه محترف ومتكالب على الجوائز ليس إلا.

أن هذا الاستعداد الغريزي لرؤية الأشياء كلا متكاملا هو مصدر سلامة الحياة الإغريقية الجوهريّة. وقد كان للإغريق نزواتهم فلا تخلو سجلاتهم السياسية كما لا تخلو سجلات غيرهم من الشعوب من نوبات الوحشية، فالمنفى الجائع قد يدمر مدينته إن استطاع أن يعود إلى الحكم سواء كان أوليجاركيّاً أو ديموقراطياً. ولكن المعيار الذي اتخذوه لكافة أوجه نشاطهم كان هو التوازن المعقول. فمن الصعب أن يفكر الإنسان في إغريق يمكن أن يدعى متطرفاً في حماسه. فالتصعب الديني المعروف عن الشرق وعن العصور الوسطى لم يكن له محل في العصر الكلاسي في بلاد الإغريق، كما لم يكن هناك محل بمناسبة هذا الموضوع لضروب التطرف الأقل من ذلك تشويقاً والموجودة في زماننا من أمثال المذهب التجاري. وقد عرف الإغريق النشوة الصوفية وكانوا ينشدونها في طقوس ديونيسيوس الدينية ولكن هذا كان جزءاً من خطة معينة شاملة لجملة أمور، وهناك مغزى كبير في الأسطورة الدينية القائلة إن أبولون كان يترك دلفوى مدة ثلاثة أشهر من العام ويحل ديونيسيوس محله، ويرسم يوريبديدس صورة لمتعصب ديني هو هيبولوتوس الطاهر العذري الذي عبد الربّة العذراء أرتيميس Artemis ولم يقيم بتكريم الهة الحب أفروديتا، وهو من هذا الطراز الذي ربما كانت تجعل منه العصور الوسطى قديساً. أما يوريبديدس فيجعل منه شخصاً فاشلاً مفجوعاً. فعلى الإنسان أن يعبد هاتين الربتين وإن كان يبدو أنهما متعاديّتان. ولقد دمرت أفروديتا هيبولوتوس الذي استخف بها ولم تستطع أرتيميس أن تفعل شيئاً لحمايته.

علينا الآن أن ننتقل إلى نقطة أخرى امتاز بها العقل الإغريقي وهي اعتقاده الراسخ في التفكير المنطقي. هناك قصة ممتعة ربما كان بها قذف وتشهير وهي عن فيلسوف صيني سئل عما ترتكز عليه الأرض فقال « على سلحفاة » ف قيل له « وعلام ترتكز السلحفاة ؟ » فقال « على مائدة ». ف قيل له « وعلام ترتكز المائدة ؟ » فقال « على فيل » فسئل « وعلام يرتكز الفيل ؟ » فقال « لا تكن فضولياً ». وسواء كانت هذه القصة صينية أو لا فمن المؤكد أنها ليست هيلينية لأن الإغريق لم يكن يشك لحظة في أن العالم ليس متقلب الأهواء بل هو خاضع لقانون ثابت ولهذا فإنه قابل للتفسير. وإننا لنجد هذه الفكرة حتى عند هومر الذي جاء قبل عهد الفلاسفة. فوراء الآلهة توجد قوة غامضة (وإن كانت أحياناً تعتبر هي والآلهة شيئاً واحداً) يسميها هومر أناانكي . Ananke أى الضرورة أو نظام الأشياء الذي لا تستطيع حتى الآلهة نقضه. وتقوم المأساة (التراجيديا) الإغريقية على الإيمان بأن القانون لا المصادفة هو الذي له السيادة في الشئون البشرية. فإذا أخذنا مثلاً صعباً إلى حد ما وهو أوديب الملك لسوفوكليس نجد أن المتنبيين قد تنبأوا قبل أن يولد أوديب بأنه سيقتل أباه ويتزوج من أمه. وقد ارتكب هذه الأمور عن جهل تام بها. ولكننا لو فسرنا ذلك بأن معناه أن الإنسان لعبة مسخرة بيد قدر شرير كانت المسرحية هراء. إنما الذي يريده سوفوكليس هو أن هناك هدفاً مقصوداً في أعقد الحوادث التي يبدو أن بعضها يقترب ببعض بمجرد الصدفة ولو أن المقصود قد لانعرفه. ولقد استطاع أبوللون أن يتنبأ بما سيعمله أوديب لأن الآلهة يستطيعون رؤية المقصود بأكمله. أما عند إيسخولوس فالقانون أبسط من ذلك، إذ هو قانون أخلاقى فالعقوبة تتبع الجريمة كما يتبع الليل النهار. ولقد كان هذا الإيمان الراسخ بالقانون سبباً في أن هوايتهم

Whitehead دعا شعراء المأساة عند الإغريق - لا الفلاسفة الأوائل - المؤسسين الحقيقيين للتفكير العلمي . غير أننا نستطيع أن نوضح هذا الاعتقاد الفطري في التفكير المنطقي عند الفلاسفة الأولين ولو أن مانرويه عنهم يجب أن يكون وجيزاً .

إن التفكير الإغريق وفرض النظريات عن أصل الكون وطبيعته لا يبدآن بأية حال بطاليس الميائي حيث تبدآن في أكثر تواريخ الفلسفة . ولكن طاليس Thales كان أول من عبر عن أفكاره بعبارات منطقية لأسطورية . وقد كان طاليس تاجراً سبق له أن سافر إلى مصر وتعلم هناك شيئاً عن الرياضيات المصرية والفلك الكلداني . وكان الكلدانيون قد وضعوا علماً محترماً جداً عن سلوك الأجرام في السماء ولو أن الذي دعاهم لذلك لم يكن دافعاً من دوافع الكسل كمجرد حب الاستطلاع . فقد كانوا قوماً عمليين واستخدموا الفلك في أمر هام هو تنظيم التوقيت ، وفضلاً عن ذلك فقد كانوا مثل قراء صحف الاحد عندنا (في إنجلترا) يريدون معرفة ما سرف يحدث لهم . وافترضوا أن النجوم ستخبرهم (أما الإغريق في العصر الكلاسي فقد كان عندهم أحتقار تام للتنجيم) وكانوا قد اجتهدوا جداً في الحساب التجاري كما اجتهد المصريون في الهندسة العملية (كلمة هندسة عند الإغريق معناها قياس الأرض) . وقد كان المصريون شعباً عظيم الذكاء ، قاسوا انحدار النيل لمسافة ٧٠٠ ميل فلم يتجاوز خطأهم عدداً قليلاً من البوصات . واكتشفوا أن المربع المقام على وتر مثلث قائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المقامين على الضلعين الآخرين كما استخدموا هذه الحقيقة ، ولم يفعل الإغريق شيئاً يمكن مقارنته بذلك إذ كان تفكيرهم يمتاز بانصرافه إلى المسائل الأخلاقية والدينية والاجتماعية . أما تفكيرهم وفرضهم للنظريات الخاصة بالعالم المادي فقد كانا ينصبان على مسألة كيف نشأ العالم أكثر من اهتمامهم بمعرفة كيف كان يسير .

وما نعرفه عن طاليس قليل جداً وهو مأخوذ عن الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة الذين جاءوا بعده ولكنه هام جداً ، إذ كان قد تعلم من الفلك ما يكفي للتنبؤ بأنه سيكون هناك كسوف كلي للشمس في سنة ٥٨٥ . وقد حدث هذا الكسوف فعلاً في وقته في اليوم الذي نسميه ٢٨ مايو . وقد طبق ما كان قد تعلمه من هندسة على مسألة قياس بعد سفينة في البحر . ويقال إنه قدم خدمة كذلك لفن الملاحة والتقويم . ومن الواضح أنه كان رجلاً عملياً . وبما أنه إغريقي فقد كان مهتماً ومغرمًا بالسياسة لأنه (طبقاً لما رواه هيرودوتوس) وجه للمدن الأيونية الحائرة الاقتراح الرشيد بأنه ينبغي عليها أن تؤلف حلفاً سياسياً مركزه في تيوس Teos . وتروى عن طاليس القصة المعتادة عن الأستاذ الشارد الذهن . وهي تتلخص في أنه أثناء مسيره كان مستغرقاً في التطلع إلى السماء حتى أنه سقط في بئر ، ولكن أرسطو - وهو فيلسوف إلى حد ما ولذلك لا تخلو روايته من الغرض - قد حكى عنه قصة من نوع آخر ، وهي أن طاليس قد لأمه الناس على إضاعة وقته في هواية تافهة . ولما كان قد لاحظ من دلالات معينة أن المحصول التالي للزيتون سيكون وفيراً فقد اشترى حق استخدام كل معاصر الزيتون في لسبوس ، حتى إذا جاء المحصول الكبير وأراد كل واحد أن يعصر زيتته فوراً اضطروا جميعاً أن يذهبوا لطاليس لعصره . وهكذا أظهر أن الفيلسوف يمكنه أن يكسب مالا كافياً إن رأى أن جمع المال يستحق ذلك .

وقد كان الأمر الهام الذي فعله طاليس هو أنه سأل سؤالاً بسيطاً وأجاب عنه إجابة غير صحيحة ، وكان سؤاله هو : مم صنعت الدنيا ؟ أما جوابه فهو : « من الماء » .

إننا نجد هنا نقطة كثيرة شائقة أولها مجرد توجيه السؤال . فمع أن هؤلاء الإغريق كانوا رجالاً عمليين إلا أنهم كانوا مغرمين بتوجيه أسئلة

لا فائدة منها . مثال ذلك أن هيرودوتوس ذهب إلى مصر ووجد هناك إلهاً كان من الواضح بالنسبة إليه أنه هيراكليس ولو أنه كان أقدم منه بكثير . فاستنتج من ذلك أن الإغريق عرفوا هيراكليس عن المصريين . وبما أنه قد صار عظيم الشوق والشغف فقد قام برحلة خاصة إلى صور . Tyre حيث سمع أن هناك معبدًا قديمًا جداً مكرسًا لهذا الإله كما قام برحلة أخرى إلى ثاسوس Thasos . ومثل هذه الاستفسارات الخالية من الغرض هي من خصائص الأيونيين بصفة خاصة . ولكن لنرجع إلى طاليس فقد أراد أن يعرف شيئاً لا فائدة منه بتاتاً ، وهو ما لم يكن يمكن أن يخطر ببال أحد الرومان - واقترض أن من الممكن الإجابة عليه فكيف توصل إلى إجابة ؟ لا نعرف لسوء الحظ ولكن ما دمنا نعرف كيف اتجه للعمل بعض من جاءوا على أثره مباشرة بما فيهم هيرودوتوس النابغة فإننا نستطيع أن نحزر إلى حد ما . إن الماء موجود في كل مكان فهو يحيط باليابس وينزل من السماء ويتفجر من الأرض وفضلاً عن ذلك فهو يكون « الدلتات (١) » كما كان يعرف طاليس معرفة جيدة جداً . . . ومن الواضح أنه يدخل في تكوين كثير من الأجسام الصلبة كما أن له خاصية التحول بدوره إلى صلب وسائل وغاز . ونظرًا إلى الاعتقاد الشائع بأن هؤلاء المفكرين من الإغريق كانوا مجرد نظريين فإن مما يستحق الذكر أن نلاحظ أن امبيدوكليس Empedokles استخدم وعاء الخمر الجلودى لإثبات أن الهواء شيء مادي ، كما استخدم ساعة مائية للاستدلال على وجود الضغط الجوي ، وأن كسنوفانيس Xenophanes بنى نظرية عن التحول الجيولوجي على وجود القواقع البحرية فوق الجبال وانطباع الطحالب البحرية والأسماك في محاجر سرقوسة . لقد كان هؤلاء الناس

(١) الدالات جمع دال (الحرف الأبجدي) أوجع دلتا الأنهار ، ذلك لأن شكل الحرف هو نفسه شكل الدلتا (Δ)

قادرين جداً على استخدام أعينهم وعقولهم معاً . ولا حاجة بنا إلى افتراض أن إجابة طاليس لم تقم إلا على أساس التفكير المنطقي المجرد .

غير أن أعظم ما له دلالة هو أنه افترض رغم المظاهر أن العالم يتكون لا من أشياء كثيرة بل من شيء واحد وهنا نقابل سمة دائمة مميزة للتفكير الإغريق وهي : يتحتم أن يكون كل من العالم الفيزيائي والمعنوي على السواء لا معقولاً فحسب وبالتالي يمكن معرفته بل لا بد أن يكون كل منهما بسيطاً أيضاً . فتعدد الأشياء المادية الظاهري سطحي فقط . وسنرى عن قريب أن المؤلف المسرحي الإغريقي كان يفكر بنفس الطريقة تماماً فيقول « لا تهتم بشأن تنوع الحياة وخصبها الظاهري بل عليك بالغوص إلى الحقيقة البسيطة » ولو أن طاليس استطاع أن يقابل كيماءياً من أبناء القرن التاسع عشر وأن يسمع منه أن العناصر سبعة وستون (أو كائناً ما كان عددها) فلربما اعترض بأن هذا العدد أكثر مما ينبغي بكثير جداً . ولو أنه قابل فيزيائياً من أبناء القرن العشرين وسمع منه أن كل هذه العناصر في الحقيقة تراكيب مختلفة لشيء واحد فلعله كان يجيبه « هذا ما كنت دائماً أقوله » .

وقبل أن نترك طاليس يجدر بالذكر أن نشير إلى تحرره التام من أي تصوف ديني كان من المعقول أن نتوقعه من مفكر قد استخدم كل أسلافه عبارات أسطورية للتعبير عن أنفسهم . ولو أنه افترض أن العناصر في العالم ثلاثة أو سبعة أو أي عدد مقدس آخر لما كان ذلك عجبياً . ولسنا نرى بين الأيونيين شيئاً من هذا القبيل . ولو أن الغموض كان شديداً بدرجة كافية في مدرسة سنذكرها عما قريب وهي مدرسة الفيثاغوريين .

من المحال إعطاء ولو مجرد ملخص عن سير الحركة الفلسفية التي بدأها

طاليس، ومع ذلك فمن الممكن أن نذكر بعض تطوراتها. وسنرى فيها جميعاً بكل وضوح الجرأة في التفكير وكأنما رفع العقل البشرى أطراف أقدامه من قاع البحر وأخذ يسبح ويسبح بثقة مدهشة. وقد صنع أنا كسيمندر Anaximander خليفة طاليس المباشر — وهو رجل عملي آخر — أول خريطة وقاد بعض المستعمرين من ميليتوس إلى أبولونيا. ويلوح أنه استدل بطريقة منطقية على أن الحقيقة الفيزيائية القصوى لا يمكن أن تكون هي نفسها إحدى المواد الفيزيائية، ولذلك استبدل بالماء « شيئاً غير محدد » ليس له خواص، ولكنه يحتوى في ذاته على « متناقضات فهو ساخن وبارد رطب وجاف. وتتكون موضوعات الحس من ذلك الشيء الغير المحدد عن طريق هذه المتناقضات تحت تأثير حركة أبدية ثم تعود إليه بعد أن تبلى. وكانت لدى أنا كسيمندر أيضاً فكرة عن توازن القوى في الطبيعة عبر عنها بوساطة لفظة « ديكه » Dikē التي تفيد معنى العدالة إن وردت في سياق كلام آخر. وقد صور الحركة الأبدية على هيئة دوامة مركزها الأرض، وهي فكرة مكنت أنا كسيمندر من تحسين رأى طاليس القائل بأن الأرض المسطحة ترتكز على الماء، فقد كان رأى أنا كسيمندر أنها معلقة دون شيء يسكها في الفضاء، وأن بعدها عن محيط الدوامة متساو في كل اتجاه.

وقد كان هذا تقدماً ملحوظاً جداً. ويمكننا مشاهدة حرية تفكير أنا كسيمندر في أروع حالاتها في النظريات التي وضعها عن أصل الجنس البشرى وهو الذي اقتبسته الميثولوجيا (علم الأساطير) بطريقة غير مباشرة من الآلهة والتيتان (عائلة الأساطير Titans). وقد اقترح هذا الأيونى فكرة أن كل المخلوقات الحية نشأت من الماء عندما بخرته الشمس، وأن الإنسان كان سمكة في الأصل. ويمكننا أن نلاحظ هنا، باعتبار ذلك مما يوضح طبيعة عقليته أنه من جهة لم تدفعه مجموعة من الأدلة العلمية التي لم

يستطع أن يقاومها إلى فرض جديد قد يكون نائياً. كما أنه لم يكن هناك قدر كبير من الحقائق الملاحظة والمصنفة حتى بدأ أرسطو في العمل. ومن ناحية أخرى أن هذه نظرية لم تكن حدساً جاء عفواً الخاطر، فهي مبنية في جزء منها على التفكير المنطقي المحض. فالحيوانات الأخرى سرعان ما تعول نفسها بنفسها، أما الإنسان فيحتاج إلى مدة طويلة من الرضاعة ولو أن حاله كان هكذا دائماً لما استطاع قط أن يبقى بعد أن هلك غيره. والإنسان بناء على ذلك قد ارتقى من حيوانات أخرى وهذه هي النقطة الشائكة. إن الوصول إلى استنتاجات أخرى يمكن من الوجهة المنطقية، ولكن حدث أن قيل لنا إن أنا كسيمندر لاحظ عادات سمك القرش الناعم وهو سمك له خصائص الثدييات ولا علم لنا بالاستدلالات المنطقية الأخرى، ولكننا نستطيع أن نرى أن اقتران التفكير المنطقي المحض بالملاحظة هو الذي أدى به إلى تقدير نظرية أثارت ذعر أجدادنا عندما أعيد ذكرها لهم.

ولقد أظهرت المدرسة الإيليامية ثقة أعظم من ذلك بالعقل (لا سيما بارمينيديس Parmenides وزينو Zeno مبتكر المتناقضات المشهورة) وقد أخضعنا نظريات الأيونيين الفيزيائية للفحص المنطقي وتوصلا عن طريق التفكير المنطقي فيما وراء الطبيعة إلى تقرير النظرية الذرية. ويمكن بيان تفكير بارمينيديس المنطقي هكذا: العدم غير موجود أى أنه ليس هناك لأشياء، ولهذا فالموجود أبدي لأنه إن لم يكن كذلك فلا بد أنه نشأ من العدم أو أنه سينتهى إلى العدم مع أن العدم ليس له وجود. كما أن الحركة وهم لأن أى شيء لا يتحرك إلا بالذهاب إلى الفراغ أى إلى لا شيء. وقد قرر كذلك أن المادة متجانسة لأنها لا يمكن أن تختلط بلا شيء لتصبح أندر. والكون شكل واحد متناسق مملوء تماماً بمادة متجانسة عديمة الحركة.

وهذا هراء بالطبع، ولكن الباحث لا يحتقر النتيجة السلبية. والبحث

في قوانين المنطق كان نتيجة لتفكير بارمينيديس ، كما أن نظرية ليوكيبوس Leucippus وديموكريتوس Democritus كانت نتيجة أخرى لتفكيره وهما اللذان قبلتا فكرة بارمينيديس عن الكون . ولكنهما افترضا عدداً لانهائياً من الذرات كما افترضا الفراغ الذي يمكنها أن تتحرك فيه . وهذه هي الذرات التي تكون كل شيء موجود والتي تنضم أو تنفصل بحركة طبيعية .

وهناك مسألة أخرى كانت محل نقاش وهي طبيعة العلم وإمكانه . فقد كان من المفروض قبل ذلك فعلاً أن الحقيقة شيء ثابت . ولكن كاتباً مغموراً منصرفاً إلى النبوءات يدعى هيراقليطس دعا إلى المذهب المفزع القائل بأن العكس هو الصحيح ، أي أن الكون يقوم في جوهره على التغير . فكل شيء في حالة تتابع مستمر ، فأنت لا تستطيع أن تخطو إلى نفس النهر مرتين ، فهو في المرة الثانية ليس نفس النهر . وهو قول جاء به من بعده شخص سريع الخاطر نقحه قائلاً « لا تستطيع أن تخطو داخل النهر مرة واحدة » مادام يتغير أثناء خطوك فهل تستطيع إذن أن تقول إن شيئاً موجود عندما يكون دائماً في حالة تحول إلى شيء آخر؟ وفلسفة هيراقليطس هذه كان لها تأثير على أفلاطون . لأن التفرقة بين عالم الحس المتغير الناقص الذي لا يمكن معرفته في النهاية وعالم الحقيقة الكامل الذي لا يتغير والقابل للمعرفة هي بالطبع أساسية بالنسبة للمذهب الأفلاطوني .

ليس الفلاسفة وحدهم أصحاب هذه العادة العقلية ، عادة إغفال ما على السطح ، أي المظاهر العابرة للأشياء كالتعدد والتنوع ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة الباطنة المبسطة . ألسنا نجد شيئاً شديداً جداً بهذا في النحت الإغريقي الذي لم يحاول أدنى محاولة حتى أوائل القرن الرابع على الأقل أن يصور الأفراد بل كافح دائماً للوصول إلى الكمال في تصوير الرياضي أو الإله أو نحت تمثال له ؟ ونحن نجد بكل تأكيد شيئاً شديداً بذلك في المأساة الإغريقية ،

وبين المسرحيات الإغريقية ومسرحياتنا الكلاسيكية نرى نفس الفرق الذي نراه بين فن العمارة الإغريقية والقوطية . وهذه الفروق توضح العادة العقلية التي نحن بصدددها . فكما أن فن العمارة القوطية مولع بتعدد الأجزاء وإحداث أقصى تضاد بين النور والظل والزخرفة التي تقتبس مادتها من ملكة الطبيعة كلها كالطير والوحوش والأزهار وصور الملوك والقديسين والملائكة والصور السخيفة المضحكة أيضاً ، فكذلك المأساة في عهد اليصابات تقدم على مسرحها المزدحم المتنوع كل أصناف الحياة المعقدة الخصبة ، من ملوك ومواطنين ومستشارين وجنود وعشاق وهزليات وأطفال وجنيات فكل شيء هناك . لقد قيل إن الكاتدرائية القوطية لا تتم أبداً . أما مسرحيات شيكسبير ، على العكس من ذلك ، فكثيراً ما اقتضبت ، ولكن من الذي يستطيع أن يضيف شيئاً إلى معبد إغريقي بحيث لا يعتبره الناس كالورم البارز في الجسم أو يقتطع منظرًا من مسرحية إغريقية دون أن يجعل فهمها غير ممكن ؟ .

وليس السبب في هذه الاختلافات أن الإغريق كان لديهم فهم للشكل المسرحي يمتاز عن سواهم أو كان لهم خيال أو لذة في الحياة أقل من سواهم ولكنهم فكروا تفكيراً مختلفاً عن غيرهم . ولعل التمثيل يجعل الأمر واضحاً . في أثناء استحضار القارئ في ذهنه لمسرحيات شيكسبير التاريخية دعه يدرس المسرحية الإغريقية الوحيدة الباقية عن موضوع تاريخي وهي مسرحية «الفرس» بقلم ايسخولوس التي كتبها بعد الحادث الذي تعالجه بأقل من عشر سنين ، والتي مثلت أمام الآثينيين الذين كانوا قد لعبوا دوراً ملحوظاً جداً في الصراع . وكان ذلك بالصدفة تحت الأكروبروليس مباشرة وهو الذي كان الفرس قد نهبوه ودنسوه . ولو كان الكاتب كاتباً مسرحياً من عهد اليصابات لأعطانا صورة شاملة لمنظر الحرب كلها ولحظات اليأس والأمل والنصر ، ولرأينا على المسرح القواد الذين وضعوا الخطط وبعض

الجنود الذين فازوا بالنصر . أما في مسرحية « الفرس » فإننا لا نرى شيئاً من هذا القبيل . إذ يقع المنظر في العاصمة الفارسية ويرى حادث واحد فقط من وجهة النظر الفارسية . ومجرى الحرب مبسط إلى حد أن معركة أرتيمسيوم البحرية لم تذكر بل ولادفاع الأبطال عن ثرموبيليه كما لم يذكر إغريق واحد باسمه . ويكاد التضاد بين الحالتين لا يكون أتم من ذلك .

والقول بأن المسرح الآثيني والشكل المسرحي الإغريقي لم يسمحا بمعالجة الحرب بطريقة واقعة قول صحيح ، ولكنه ليس صحيحاً بدرجة كافية . فالأمر الحقيقي هنا هو أن المسرح والشكل المسرحي ترجع حالتها التي كانا عليها سويّاً إلى أن الكتاب المسرحيين لم تكن لهم رغبة في أن يكونوا واقعيين . إن الكتاب المسرحيين هم الذين يصنعون المسرح والشكل المسرحي ، وليس المسرح والشكل المسرحي هما اللذان يتحكمان في الكتاب المسرحيين . غير أننا نشاهد أن كل شيء من تفاصيل المسرحية ليس طبيعياً فحسب بل وضرورياً كذلك ، متى أدركنا أن إيسخولوس لم يكن يقصد كتابة مسرحية « تاريخية » بل مسرحية تقوم على فكرة أن الجبروت والغطرسة Hybris (وهو في هذه الحالة التحدي الجاح الذي أظهره كرسيس لمشيمة السماء) لا مفر من أن تعاقبه السماء . فزيوس يقهر كرسيس في المسرحية ، والإغريق ما هم إلا وسطاؤه فحسب بل إنهم روح بلاد الإغريق كذلك . وليس الحادث بل معناه الجوهرى هو الذى يضاف عليه إيسخولوس اللون المسرحي . وإذا لم تعبر الحوادث التاريخية في أحد التفاصيل الصغيرة عن المعنى الجوهرى بوضوح كاف فإن إيسخولوس كان يغيرها . وهكذا يوضح مقدماً قول أرسطو المأثور إن الشعر أكثر فلسفة من التاريخ .

والآن نبدأ في رؤية العلاقة بين الكثير من صفات الإغريق بعضها وبعض — بين ثقته في قوة التفكير وشعوره القوى بالشكل المسرحي وجهه

للتناسق وميله الخلاق أو البناء واتجاهه للاعتماد على التفكير المنطقي قبل كل شيء . ولا ريب أن هناك مسالك متعددة داخل هذه الغابة الكثيفة من الأفكار ولكن لما كنا قد شققنا طريقنا من طالس إلى إيسخولوس فدعنا نتابع مسيرنا من هذه النقطة .

لقد أدليت بفكرة أن الغريزة التي جعلت الفلاسفة الأوائل ينفذون من خلال مظهر الطبيعة الخارجى إلى الحقيقة والوحدة المفروض وجودهما تحت هذا المظهر إنما هي نفس الغريزة التي يظهرها شاعر المأساة الذى لا يكسب مجرى الحرب الصبغة المسرحية بل يستخدم حوادث الحرب أو بعض هذه الحوادث لكي يقدم ما يرى أنه معناها الحقيقي . ولما كان الفنان الإغريقي يعمل هذا باستمرار فإنه بمعنى خاص يقوم دائماً بعملية الخلق والبناء . صحيح كل الصحة أن الفنانين جميعاً يعملون ذلك ولكنهم لا يعملونه جميعاً بنفس الطريقة . فالاختلاف كل الاختلاف إنما هو بين إعطاء صورة عن الحياة تتكامل عن طريق الانتخاب والتأليف وإبراز التضاد مما يكون له أهمية ومغزى ، وبين تفسيرها بالطريقة الإغريقية . فأحدهما يؤدي إلى التنوع والاتساع ويؤدي الآخر إلى البساطة والتركيز الشديد . ولما كان الإغريق يحاولون أن يعطوا صورة تمثل الحياة بل أن يعبر عن فكره بكل قوة ووضوح فإن الشكل الذى يحققه يكون منطقياً ومحكماً أكثر من غيره بكثير . وربما ساعد مثال آخر بعقد مقارنة بين مسرحيتين تشتركان في أنهما تستخدمان قدراً هائلاً من المادة القصصية وهما « أنطونيوكليوباترة » و « أجامنون » ! فنيكسبير يعتمد في وضع عقدة قصته على بلوتارخ . ولنا أن نقول على وجه التقريب إنه يودع فيها ما يجده في بلوتارخ . وبلوتارخ باعتباره مؤرخاً يسجل في سياق ما يرويه أن أحد ضباط بومبي أشار عليه بخطة بارعة هي الإبحار إلى عرض البحر مع الحكماء الثلاثة (Triumvirs) وإلقاؤهم

من فوق سطح السفينة . ثم يقرأ شيكسبير هذا ويتحقق من أنه يصلح أن يكون منظراً حسناً فيضغه في مسرحيته . أما علاقة ذلك بحب أنطونيوكليوباترة المفجع (وهو موضوع المسرحية على ما أظن) ، فليس واضحاً بالمرة ، ولكنه يساعد على إعطاء عمق وامتداد للنظر بأكمله ، كما أن هناك بعض السفلة من الناس مثل ميناس لكي يكون كل شيء في موضعه بلا ريب . أما بالنسبة لمسرحية أجاممنون فإنني محتاج إلى نبذة طويلة جداً لأختصر إلى أقصى حد تلك المادة الأسطورية التي يستخدمها إيسخولوس فعلاً ، من اغتصاب هيلينا إلى حملة طرواده ونجاحها وتاريخ كاسندرا (Cassandra) ومصرع أجاممنون وكاسندرا بل والشجار الذي وقع في الجبل السابق ، بين أتريوس والد أجاممنون وشقيقه . وهذا يدل على وفرة هذه المادة . ولكن عقدة المسرحية مختصرة جداً . فقد أعلن قدوم أجاممنون ثم ما لبث أن دخل بيته ومعه أسيرته الأميرة كاسندرا ، ولكن زوجته كليتمنسترا قتلتهما معاً قائلة إنه يستحق ذلك لأنه ضحى بابهتهما إلى أرتيميس كيما تتقدم الحملة . ثم دخل عشيقها ايجستوس (Aegisthus) ليقول إن أجاممنون يستحق ذلك لسبب مختلف . وهذا كل ما هناك . لقد كان لدى إيسخولوس مثل شيكسبير قصة طويلة معقدة ليتخذها مادة مسرحيته والفرق بينهما هو أن إيسخولوس مزق القصة إرباً ثم أخذ في بناء مسرحية من هذه القطع تدور حول فكرة معينة عن العدالة ، تتلخص على وجه التقريب في أن القصص الذي يقع لمجرد الأخذ بالثأر يؤدي إلى الفوضى . فالهيكل الذي يبنى عليه مسرحيته ليس هو القصة بل هو هذه الفكرة . وهو يطرح أجزاء القصة التي لا يريد أن جانباً مثل قصة الحرب وإغراء ايجستوس لكليتمنسترا . أما الأجزاء التي يريد أن يريدها فهو يستخدمها لا بترتيبها الزمني بل بالترتيب الذي يناسبه (وهو يستطيع أن يعالج قصته هكذا لأن جمهور المشاهدين كان يعرف خطوطها الرئيسية من قبل . وقد كانت إحدى مزايا استخدام الأساطير أنها

كانت توفر على المؤلف المسرحي عملية الشرح المتعبة) وهو بهذا المعنى خلق شيئاً جديداً . فهو يتحكم تحكماً تاماً في شكل المسرحية . وموضوع مسرحيته هو أن الجريمة التي يكون عقابها جريمة يجب أن تعاقب هي الأخرى بجريمة . وهو يقرر هذا مرة واثنين وثلاث مرات بشدة متزايدة باستمرار ينشأ عنها تركيب متين منطقي جميل . والمسرحيات الإغريقية جميعاً تنبنى هكذا على فكرة واحدة ولا يدخلها شيء لا يساهم فيها مساهمة مباشرة . والذي يحدث في الحقيقة في المسرحيات الإغريقية هو أن ميناس هو الذي يلتقي به من فوق سطح السفينة . ومن هنا تأتي قوة المسرحيات ووضوحها . ولقد قيل إن هناك نماذج من هملت بقدر ما هناك من الممثلين القادرين على تمثيل الدور . ولا يمكن أن يقال مثل هذا عن أية مأساة إغريقية . فالعلاقة بين المعنى والشكل المسرحي منطقية بحيث أن أي تفسير ناب يمكن دحضه بطريقة مقنعة . فهو إن لم يعمل لكل تفاصيل المسرحية يكون خاطئاً لأن التعليل الصحيح يوضح كل شيء .

هذا على ما أظن هو أصل المنطق والوضوح اللذين يظهران بكل جلاء في شعور الإغريق بالشكل المسرحي . فالفنان عنده فكرة واضحة جداً عما سيقول وعنده تحكم تام في مادته . وغرام الإغريق بالتناسق والتماثل هو بمثل هذا الوضوح . وتتفرع عنه جملة تفرعات شائقة . فنحن نجد لديه إنما نظرنا تقديراً للنموذج الذي يحتذى وللتوازن ، ويمكننا أن ننظر أولاً في حالة واضحة أو حالتين . لقد سبق لنا ذكر فن العمارة ، فالخروج على النظام في وضع تصميم كل كاتدرائية قوطية تقريباً يوحى لعقولنا بفكرة الطاقة الديناميكية — فكرة الحياة . أما بالنسبة للعقل الإغريقي فهذا أمر ممقوت ولا يوحى إلا بالنقص . فالبناء الكامل الذي ينفذ كما أدركه صاحب فكرته من الطبيعي أن يكون متناسقاً . كما يمكننا أن نوجه التفاتنا إلى الشر الإغريقي بولعه بالتوازن والطباق (التضاد) اللذين كثيراً ما يصلان إلى حد

الإفراط . والطباق عند الكتاب المجيدين أو الخطباء يأتي من حدة الذكاء الذي يحلل الفكرة تواءم إلى الأجزاء التي تتكون منها (وهناك مثل حسن على ذلك في واقعة شخصية لثيمستوكليس يعتبر عدم ذكرها في مكان ما من هذا الكتاب أمراً مؤسفاً ، فهي هيلينية للغاية : ذلك أن رجلاً حسوداً من جزيرة سريفسوس (seriphus) الضئيلة الأهمية قال لثيمستوكليس « إنك مدين بشهرتك لاجدارتك الشخصية بل لأنك آثني بحكم المصادفة المحضة » . فاجابه ثيمستوكليس « هناك شيء من الصحة فيما تقول : فلو أنني كنت من سريفسوس لما أصبحت مشهوراً وكذلك أنت لو كنت من أثينا » (غير أن الجزء الثاني من الطباق يكون شكلياً محضاً في بعض الأحيان حتى عند ثوكودديدز ، كما نجد في أسلوب النثر الذي أتقنه بعض السوفسطائيين . إن الطباق الذي يبرزه التشابه في الأساليب والأفكار بأنواعه المختلفة وكذلك السجع متعب بصورة لا يمكن التعبير عنها . فلم يكن العيب في الأسلوب الإغريقي هو انعدام الترتيب والشكل مما يدل على العجز ولكن العيب هو مراعاتهما بطريقة متكلفة . ولم يكن الإغريقي يحب أن يكون كل ما يبدعه متناسقاً أو مطابقاً لنموذج فقط بل إنه كان يعتقد أن العالم بأسره لا بد أن يكون متناسقاً ، وهذا أمر طبيعي إذ يتطلب العقل والكمال شكلاً متناسقاً في روائع أعمال الإنسان ، والإنسان جزء من الطبيعة وعلى ذلك تكون الطبيعة أيضاً متناسقة لأنها قائمة على العقل (١) طبقاً للفرض .

ولم تكن تعوز الإغريق الدلائل على وجود التناسق في الطبيعة ، فالنور يوازن الظلمة على مدار السنة ، والبرودة توازن الحرارة بل إن الرياح

(١) كلمة العقل في الإغريقية بمعناها الحالي هي « لوجوس » التي تترجم خطأ في العادة بلفظة « كلمة » والأولى أن نقول « الكلام » أو الفكرة التي تفهم من الكلام . « في البدء كان الكلمة » معناها الحقيقي في البدء كانت الفكرة .

المتقلبة نفسها تراعى توازناً عاماً . وقد كانت حركات النجوم التي تسيير طبقاً للقانون معروفة من قبل فيما عدا الكواكب « الجوارى » . فالتمائل والقانون والمنطق كانت أوجهاً مختلفة لشيء واحد .

ولهذا كان الإغريق ميالاً إلى فرض نموذج حيث لا ينتظر أن يوجد نموذج في الحقيقة . كما كان يعتمد على العقل حين كان الأولى أن ينصحه الناس باستخدام الملاحظة والاستنتاج . وقد أوضح الجغرافيون الأوائل النقطة الأولى (أي فكرة التماثل) فقد أثارت روعة النيل هيروودوتوس وهو في مصر بدرجة هائلة فقام بعمل كل الاستفسارات التي استطاعها عن منبعه . وقد استطاع رجل أن يخبره نقلاً عن اثنين قبله قصة عن بعض الشبان المغامرين ، من قبيلة كانت تعيش بالقرب من سيرت Syrtis (١) في خليج سدره ، Sutra الذين تجاسروا على السير جنوباً في صحراء ليبيا ، وبعد رحلة خطيرة نقلهم رجال صغار الحجم (أقزام) إلى مكان آخر . وكان يجري أمام بلدتهم من الغرب إلى الشرق نهر عظيم فيه تماسيح ، وقد حزر مخبر هيروودوتوس أنه هو النيل ، وقال هيروودوتوس « والتفكير المنطقي يؤيد ذلك » والسبب في ذلك هو التماثل الطبيعي . فكما أن النيل يقطع أفريقيا طولاً فإن الدانوب يقطع أوربا بالعرض ومصبات الدانوب تواجه مصبات النيل مباشرة ، والدانوب ينبع على بعد كبير إلى الغرب بين الكلت بالقرب من مدينة بيرني على حد قول هيروودوتوس ، الذي من الواضح أنه سمع اسم بيرنيز ولكنه حوره إلى اسم مكان أو شعب . وما هو أوضح من ذلك هو أن النيل نفسه ينبع من الغرب أيضاً . ولهذا فإن منبعه ومصباته تواجه مثيلاتها في الدانوب وهذه من خصائص المراحل الأولى للجغرافية الإغريقية . فعندها أن

(١) في طرابلس بليبيا (المترجم) .

الذى صنع الكرة الأرضية صنعها مناسبة لطبيعة الحال كما صنعها بشكل منسق .

أما النقطة الثانية وهى أن الإغريق استخدموا التفكير المنطقي حيث كان ينبغي لهم أن يستخدموا الطرق العلمية فيمكن إيضاحها من مناقشة جدلية في تاريخ الطب الإغريق نذكرها بنصها :

« هناك طائفة من كتبوا في الطب يتخذون أساس مناقشتهم فرضاً قد تعسفوا في اختياره كالحر والبارد والرطب واليابس أو أى شيء يصلح لذلك . وهم يعللون هكذا من عدد أسباب الأمراض والوفاة بين الناس ، يجعلها نفس الأسباب في جميع الحالات . هؤلاء الكتاب مخطئون في كثير من بياناتهم (١) الفعالية ولكن أسوأ أخطائهم أن الذى يعالجون أمره هو صناعة من أهم الصناعات » .

إن ما ذكرناه هو بداية مقال « عن الطب القديم » وصل إلينا تحت اسم أبقرات من كوس وهو أعظم شخصية في طب القرن الخامس . وليس معروفاً كما لا يهمننا إن كان أبقرات قد كتب حقاً هذه المقالة . فالأمر المهم هو احتياج العالم على المفروض فيه أنه فيلسوف وأمثاله ممن هبطوا على الطب من أقطار الفلاسفة الطبيعية الواسعة (كما كانوا يفهمونها) فأخذوا يضعون الفروض العامة وهى ليست الفروض العلمية التى تعتبر نظريات مؤقتة توضع لشرح الحقائق الملاحظة بل هى تعميمات لا تحظى بالتأييد فهى أشبه بالبدييات الرياضية . وهذه الطريقة حسنة جداً كما يقول الكاتب بعد ذلك بالنسبة للألغاز التى لا يمكن النفاذ إليها كتلك التى توجد فى السماء أو تحت الأرض ولكنها ليست الطريقة التى تمارس بها أية « صناعة » (أو فن) لأن كلمة

(١) النص هنا غير مؤكد .

Techné الإغريقية تفيد معنى الإثنين ، وهو يستمر قائلاً : إن أساس الطب معروف من زمن بعيد ، سواء منه المبدأ أو الطريقة . وقد أدت الطريقة إلى اكتشافات كثيرة ممتازة ، وسيكتشف مابقى إذا عرف مستفسر كيف ما سبق أن تعلمه الناس ، وجعله أساساً لبحث جديد . ولكن من يرفض كل ذلك ويحتقره ويحاول أن يتابع الاستفسار بأية طريقة أخرى يكون فريسة للخطأ كما يكون هو السبب فيه . ومحاولته مستحيلة وسأثبت أنها مستحيلة » .

ومعنى هذا أن العلم الذى من الممكن أن نحصل فيه على مجموعة من الحقائق عن طريق الملاحظة والتجربة كان من الإغريق من يمكنه أن يتبع فيه طريقة علمية بشكل كاف . وقد سبق أن رأينا هذا فى وصف ثوكوديدز للوباء فهو يعطى وصفاً دقيقاً لآثاره العقلية والخلقية . ويقدم لهذا الوصف بقوله « يمكن أى إنسان سواء كان طبيباً أو رجلاً عادياً أن يقول ما يحول بخاطره عن الأصل المحتمل للوباء والأسباب التى يظن أنها كانت كافية لإحداث مثل هذا الاضطراب الكبير . أما من جهتي فأصفه كما بدا لى وسأدون تلك الأعراض التى قد تساعد على التعرف عليه ثانية لو فرض وعاد ، لأنى أصبت به أنا نفسى وقد لاحظت غيرى من الذين أعيبوا به » .

هذا هو الاتجاه العلمى . وليس لثوكوديدز علاقة بالتعميمات التى يعوزها الدليل . وهل يمكن أن يكون هناك ماله صفة علمية أكثر من النبذة الآتية من « القانون (١) » .

يجب أن يعنى الإنسان فى الطب لا بوضع النظريات المقبولة بل بالخبرة

(١) لمبقراط فى الطبعة التى حققها جونز .

والتفكير المنطقي معاً . وأنا موافق على أن وضع النظريات المقبولة ينبغي أن يقبل بشرط أن يكون مبنياً على الحقائق وأن تقوم استنتاجاته بشكل منظم على الملاحظة . ولكن النتائج التي يصل إليها الإنسان بواسطة التفكير المنطقي وحده لا تكاد تكون نافعة ولا تفيد إلا تلك النتائج التي يصل إليها الإنسان من ملاحظة الحقائق .

ولدينا مثال ممتاز على الملاحظة الدقيقة للحقائق في كتاب « الأوبئة » الذي يبدو أنه كتاب طبيب رحالة ، عن الحالات المرضية . والكاتب منظم جداً فهو يبدأ بتدوين الجو السائد ، ثم يبين بصفة عامة سير أدواء مرضاه ، ذا كراً السن والجنس والتفاصيل الأخرى التي يمكن أن يكون لها علاقة بها . وهانذا أعطى المثال النموذجي الآتي لأنه قصير وفيه ذكر اسم مكان مهم شائق .

أصيب الشاب المريض الذي كان يرقد في « سوق الكاذبين » بالحمى بعد الجرى وبعد مجهود جسماني غير عادي . اليوم الأول : اضطراب الأمعاء ، إفرازات الأمعاء كثيرة رقيقة صفراوية ، البول قليل مائل للسواد ، لا نوم ، عطش — اليوم الثاني : الأعراض أسوأ والإفرازات المعوية أردأ ، لا نوم . عملية التفكير مختلة ، العرق خفيف — اليوم الثالث : غير مستريح ، عطشان ، شعور بالغثيان ، كثير التقلب والحركة ، مكروب ، مشقت الذهن ، داكن الأطراف وباردها ، جانب الكشح متوتران ومرتحيان نوعاً — اليوم الرابع : لا نوم ، الحالة تميل للسوء — اليوم الخامس : توفي . حوالى العشرين .

هناك نقد ، من القرن التاسع عشر لكتاب الأوبئة (ذكره الدكتور جونز) وهو نقد شائق لأنه يخفق في إدراك الموضوع بأكمله . وهو يتلخص في أن مؤلف (الأوبئة) كان مراقباً غير إنساني لآلام الناس

فهو لم يعمل شيئاً لتخفيفها . وهو في الواقع يذكر علاجه مرة أو مرتين كقوله مثلاً « الكمادات الساخنة » لم تأت براحة . والحقيقة أنه يكتب بصفته مشخصاً للأمراض أكثر مما يكتب بصفته طبيباً باطنياً ، وهو يلتزم هذه الصفة . لقد كان الإغريق أكثر اتباعاً للطريقة العلمية مما أمكن ناقد الحديث أن يدرك .

وتدل هذه الاقتباسات بوضوح على أنه كان هناك إغريق فهموا الطريقة العلمية واتبعوها كما أنها تدل كذلك على أن غيرهم كانوا يستخدمون مجرد الطرق المنطقية ، وكما قال الدكتور « جونز » بينما أخذت الفكرة التي تعزو المرض إلى عامل ديني تختفي تدريجياً ، ظهر عنصر مزعج آخر مثله يناهض تقدم الطب القائم على العلم وبدأ يثبت وجوده . إذ حلت الفلسفة محل الدين وأخذت الفلسفة الإغريقية تنشد تجانس المظاهر الطبيعية المتعددة ، وأدت الرغبة في إيجاد هذا التجانس إلى التخمين وإهمال الحقيقة في محاولة وضع نظرية شاملة . وقد أدى نفس الدافع الذي جعل طاليس يعلن أن كل الأشياء من الماء بكاتب مقال في مجموعة كتابات إبقراط إلى التمسك بفكرة أن الأمراض كلها يسببها الهواء ، أي كما قال دارمبيرج إن الفلاسفة قد حاولوا أن يفسروا الطبيعة وعيونهم مغمضة . ولم يكن في ذلك شذوذ من جانب الإغريق . فالعقل البشري معتاد على تمرين مثير هو عبور الفجوات وثباً كما لو لم يكن لها وجود . فعقيدة التثليث مثلاً سحرت نظرية الموسيقى في القرون الوسطى بصورة تبدو لنا اليوم نائية إلى حد ما .

ولكن دعنا لا نتعالى أكثر مما ينبغي على هؤلاء الإغريق الذين كانت أعينهم مغمضة « فقد تركوا شيئاً آخر مفتوحاً على مصراعيه وهو عقولهم » ومع أن إغماض العيون قد أخر نمو العلم فإن تفتح العقول قد أدى إلى

أشياء كالرياضات والبحث فيما وراء الطبيعة مما كان له من الأهمية مثل ما سبقه .

وربما كانت الرياضات أعظم المكتشفات التي امتاز بها الإغريق كما أنها أعظم ما أثارهم . وسوف يزداد فهمنا لأولئك الذين كانوا يغمضون أعينهم على الحقائق إذا ظللنا نتذكر أولاً اعتقاد الإغريق أن الكون كل متكامل منطقي وأنه لذلك بسيط (رغم المظاهر) ويحتمل أن يكون متناسقاً ، ثم إذا حاولنا أن نتصور تأثير الرياضيات المبدئية على عقولهم .

وقد حدث أني أنا نفسي - أن جاز لي أن أتكلم عن شخصي لحظة - استطعت أن أفعل ذلك عن طريق موضوع بحث رياضي قت به بنفسي لأتحايل به على الأرق (للقراء من الرياضيين أن يتسموا) فقد خطر ببالى أن أتساءل عن الفرق بين مربع عدد وبين حاصل ضرب العددين المجاورين فثبت لي أن $10 \times 10 = 100$ ، $11 \times 9 = 99$ أى أقل من الأول بواحد . وقد كان شائعاً أن أجد أن الفرق بين 6×6 ، 7×5 يساوى نفس الفرق السابق . وقد اكتشفت بنشوة متزايدة كما أثبت جبرياً القانون الذي ينص على أن حاصل الضرب هذا - يجب أن يكون دائماً أقل من المربع بواحد ، وقد كانت الخطوة التالية هي أن أفحص خواص الأعداد المجاورة التي تتناقص وتتزايد واحداً . لقد اكتشفت بسرور عظيم نظاماً كاملاً للخواص العددية كان من علموني الرياضة قد تركوني في جهل تام به (وهو ما يسرنى أن أقوله) وقد أخذت أتتبع حل المتسلسلة $10 \times 10 = 100$ ، $11 \times 9 = 99$ ، $12 \times 8 = 96$ ، $13 \times 7 = 91$ ووجدت أن الفروق هي على التوالي ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، وهي المتسلسلة ذات الأعداد الفردية . بل أعجب من ذلك اكتشافي أنه لو طرح كل حاصل

ضرب على التوالي من المائة الأصلية لنشأت عن ذلك المتسلسلة ١ ، ٤ ، ٩ ، ١٦ .

لم يكن المدرسون قد ذكروا لي قط ، كما لم يخطر ببالى قط ، أن الأعداد تلعب مع بعضها البعض هذه الألعاب الهامة الجميلة من الأزل إلى الأبد مستقلة (في الظاهر) عن الزمان والمكان والعقل البشرى . ولقد كانت هذه نظرة بالغة الأثر إلى عالم جديد متصف بالكمال .

عند ذلك عرفت كيف كان شعور الفيشاغورين عندما توصلوا إلى نفس هذه الاكتشافات التي ذهبت سدى فيما يختص بي . إن الحقيقة النهائية المبسطة التي كان الآيونيون يحاولون اكتشافها في شيء فيزيائى كانت في الحقيقة هي « العدد » . هل أعلن هيراقليط أن كل شيء دائم التغير ؟ إن هنا أشياء لا تتغير ، موجودات أبدية خالصة من شوائب الجسد المفسد ومستقلة عن الحواس التي يعتورها النقص ويستطيع العقل أن يفهمها على الوجه الأكمل . وفضلاً عن ذلك فلما كان العدد قد أمكن إدراكه مكانياً فقد كان لهذه الموجودات الرياضية صفة اشترط الإغريق وجودها في الشيء الكامل وهي أنها متناسقة والفكرة فيها نموذج يحتذى . ويمكننا توضيح ذلك بأن نعكس وضع المتسلسلة التي ذكرناها آنفاً كما يمكننا الحصول على متسلسلة المربعات بإضافة الأعداد الفردية التي تليها : --

$$1 + 3 = 4 , 4 + 5 = 9 , 9 + 7 = 16 , \dots$$

وقد كانت هذه الحقائق نماذج عند الفيشاغورين لأن تفكيرهم الرياضى كان يسير طبقاً لأساليب هندسية ومن ثم كانوا يعبرون عن مربع العدد هكذا

$$\begin{array}{c} \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \end{array} \quad \begin{array}{c} \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \\ \cdot \end{array}$$

وكما ازداد التفكير الإغريقي تقدماً في هذا العالم الجديد بدا أن ما عرفه بالفطرة من الممكن إثبات صحته، أي أن التعدد الظاهري توجد تحته البساطة وأن القانون هو السائد لا المصادفة وأن الكون قائم على العقل وأن التفكير المنطقي يمكن أن يكشف عن حقيقته الكامنة وأن الطريق إلى الحق يمر بالعقل لا بالحواس.

والذي زاد من قوة هذه العقيدة هو ما اعتادته الطبيعة من أن تكون هندسية، فلا شك أن أحد الفيثاغوريين قد لاحظ التكوين الهندسي للأزهار والبلورات الكبيرة. وليس عندنا بيان مدون عن ذلك ولكننا نسمع فعلاً أصداً للنشوة التي حدثت عندما اكتشفت المدرسة الفيثاغورية الأساس الرياضي للتوافقات الموسيقية، ولا زال يبدو للعقل غير الرياضي بالمرّة أن من معجزات المصادفة أن ما تتقبله الأذن باعتباره نفس النغمة عند ضرب أوكتاف أعلى إنما يحدثه وتر طوله نصف طول وتر النغمة الأولى تماماً. وهذه أبسط ظاهرة من سلسلة كاملة من النسب التي تعتبر فترات موسيقية أيضاً. وقد رأى العقل الإغريقي في هذا ما يخرج عن مجرد المصادفة وما يخرج عن كونه مجرد ظاهرة شائعة في الفيزياء. فالعقل الإغريقي (كما ينبغي لنا أن نقرر ذلك) معتاد على أن يبني حججه في المناقشة على المشابهة وعلى عبور الفجوات، والسبب الحقيقي في ذلك هو افتراضه أن الكون بأكمله أو الطبيعة وحدة — الكون الفيزيائي والأخلاقي والديني معاً. فإذا تذكرنا هذا، إذا تذكرنا كيف كان يفكر في الخلق الحميد باعتباره وسطاً بين ضدين وضبطاً حسناً للنغم وانسجاماً للنفس، وإذا تذكرنا الدور العظيم الذي كانت تلعبه الموسيقى Mousikê. (وهي التي كانت تشتمل على الشعر والرقص) في التريسة الإغريقية، كما إذا تذكرنا أن العلاقات الرياضية كانت قد أخذت تتكشف في الكون الفيزيائي — إذن لأمكننا أن نفهم كيف انطلق الفيثاغوريون مدفوعين بنشوة أبحاثهم في خواص الوتر الرنان إلى التفكير في إمكان إيجاد

أساس رياضي كذلك للدين والأخلاق. فأنشأوا مذهباً صوفياً للأعداد كان يعبر فيه عن الله أو الخير بالرقم (١) أي الوحدة كما يرمز للعدالة بالرقم (٤) وهو العدد المربع التالي وهكذا. لقد كانت محاولة تتم عن شهامة ولكن تاريخ الإنسان قد أرانا منذ ذلك الوقت أنه أسهل لنا بكثير أن نتحكم في الكون الفيزيائي من أن نتحكم في الكون الأخلاقي.

وقد كان أفلاطون طالباً مولعاً بالرياضيات وكان مكتوباً على باب الأكاديمية بالإغريقية (ميديس أجيو مريتوس إيسيتو) وهي عبارة معناها «الكفاية الهندسية مطلوبة» وقد كان أحد أقواله — إن الله يمارس الهندسة على الدوام، وهو تعبير فلسفي صادر من نفس الدافع الغريزي الذي حرك هيرودوتوس إلى أن يحول بذهنه ما فعله خاصاً بالنيل. وقد كان أفلاطون يجمع إلى الحافظ الرياضي عقيدة سقراط في أن أتم دراسة للجنس البشري هي الإنسان وما ننشده من خير مطلق للإنسان، وقد ورث كذلك طريقة سقراط في الجدل أي البحث عن طريق التساؤل المنطقي عن Logos (لوجوس) وهو التعريف الجامع لكل الفضائل، وكان يعتقد مثل سقراط أن الفضيلة هي المعرفة وأن الرجل الذي يعرف ما هي الفضيلة لا بد أن يمارسها لأن الفضيلة باعتبارها خيراً مفضلة بالضرورة على ما هو شر. وبالنسبة لهذه النقطة ربما كان صحيحاً أن سقراط وأفلاطون قللوا من شأن ضعف الإرادة وإن كان صحيحاً أيضاً أنه من المحتمل أننا نقلل من شأن ما كانا يقصدان «بالمعرفة». فأفلاطون مثل بعض من تقدموه فرق تفريقاً حاداً بين المعرفة والرأي، فالمعرفة ليست ما قاله الناس للإنسان أو أروه له أو علموه له، فهي لا يمكن أن تكون إلا ما اكتشفه الإنسان بنفسه بواسطة البحث الطويل المتعمق. وفضلاً عن ذلك فإن الشيء الدائم لا العابر هو الذي يمكن أن يكون مادة المعرفة أي «ما هو كائن» وليست الأشياء الحسية التي تصير دائماً شيئاً آخر. وهكذا يصل أفلاطون في الحقيقة إلى درجة لا تبعد كثيراً عن «صاحب

المزامير الذي يقول : « معرفة الله بدء الحكمة » ولو أنه يصل إلى هذا الموقف بطريق مختلف جداً . فمعرفة ما هو كائن تأتي فقط عن طريق حياة مكرسة للمجاهدة الفكرية ، ودراسة الرياضيات هي المقدمة التي تؤدي إليها لأنها تبعد العقل من الأشياء الحسية الفجة إلى التأمل في الأشياء التي صلته بالحقيقة أكبر ، فنحن نستطيع أن ندرك الحقائق التي لا تتغير بواسطة العقل وحده ، أما الحواس فإنها قادرة على أن ترينا صوراً عابرة ناقصة ليس إلا من الحقيقة . وأسمى الحقائق والأفكار هو الخير . ومع أن أفلاطون لا يجعل من الله والخير شيئاً واحداً بصورة قطعية فإنه يتكلم عن طبيعة الخير الإلهية بطريقة لا تجعل من كونهما شيئاً واحداً إلا اختلافاً طفيفاً .

هذه هي المعرفة التي متى حصل الإنسان عليها لا يستطيع أن يعمل سوءاً . إنها معرفة الوجود والخير وهما في الحقيقة خاصتان بالله . والمعرفة أغزر وأوسع من معرفتنا الفكرية المحضة الحالية لأن القوة الدافعة إليها رغبة خلقية كما أنها فكرية . وهدفها هو الحقيقة التي تنتظم كل شيء . وهي تنتمي في الواقع إلى نفس الاعتقاد المسيحي بالرحمة ولو اختلفت عنه في صفته ، وهذه ذروة أبحاث مفكرى الإغريق عن الحقيقة الباطنة ، عن (لوجوس Logos) والكلمة هي الله .

الأساطير والدين

ليس الغرض من هذا الفصل أن نلخص جزءاً واسعاً ومعقداً جداً من الحياة الإغريقية والفكر الإغريق وإنما القصد منه مجرد تفسير متناقضات ظاهرية معينة ربما تكون متعبة للقارىء .

لقد قضينا بعض الوقت نتكلم بالتفصيل عن الفكرة القائلة إن الإغريق كان يبحث بغيريته عن الوحدة والنظام في الكون . وربما أدى بنا ذلك إلى أن نتنظر منه أن يكون موحداً لله ، ولكننا نجده بدلاً من ذلك يؤكد عبادة آلهة متعددين تعدداً هائلاً . وحتى في الأزمنة الكلاسيكية أى في عهد الاستنارة يبدو أن الشعراء يخترعون آرباباً جديداً دون ترو . فالأمل والخوف وكثير من أمثال هذه المدركات يمكن أن تصبح آلهة دون أن تدعو إلى دهشة أحد . وكلنا نعرف كيف أن القديس بولس (كما ورد في النص المنقول نقلاً غير دقيق في الترجمة المعتمدة للعهد الجديد) وجد الآثينيين يخافون الله جداً ، غير أنهم يخافون عدداً كبيراً من الآرباب . وفضلاً عن ذلك فإننى أأمل أن نكون قد رأينا أن الجزء الأكبر من الشعر والفن الكلاسيكي رصين بشكل ملحوظ ، وهو بعيد كل البعد عن أن يعوزه المرح والسحر . وبالرغم من ذلك فصفته البارزة هي الشعور بالمسؤولية الخلقية . ولكن يبدو أن الأساطير التي نشأ منها هذا الفن لا يمكن تصديقها منطقاً . ومن الجائز أن قصص أهواء الآرباب المتقلبة ووحشيتهم وعشقهم الآثم تلقى في روعنا أن الإغريق كانوا يستهينون بواجباتهم الأخلاقية فعلاً ولكن هذه الفكرة تعتبر زائفة تماماً .

هاتان صعوبتان خطيرتان وتفسيرهما بكل اختصار أن كلمة « ثيوس »

الإغريقية ليس معناها الله . إذ لم تكن العلاقة في الأزمنة القديمة بين اللاهوت والمبادئ الأخلاقية كما يجب أن تكون في نظرنا ، فلم تكن في الحقيقة بينهما أية علاقة فعلية على الإطلاق . ولا مفر من أن يكون فهمنا للأساطير خاطئاً ، وأن نتناولها في شكلها النهائي الخاطئ . مادامنا نقابلها لأول مرة في صورتها العامة المتأخرة . فنحن سواء عرفنا ذلك أو لم نعرف ، نبدأ بأوفيد Ovid ومراجعته الإغريقية المتأخرة مع أننا لكي نفهم الأساطير فهما صحيحاً يجب علينا أن نبدأ من البداية لا من النهاية .

فلننظر أولاً في تعدد الآلهة : يظهر أن الإغريق الأولين فكروا في الآلهة بقدر ما فكر غيرهم من الشعوب البدائية . فحياتنا في الحقيقة معرضة لقوى خارجية لا نستطيع التحكم فيها كالجو مثلاً ، فهذه القوى أرباب وكل ما نستطيع أن نعمله هو أن نحاول أن نظل على علاقة طيبة بهم . هذه القوى لا تفرق أبداً بين الناس . فالمطر يسقط على العادل والظالم . ثم إن هناك قوى أخرى . أو هذا ما نرجوه — هي التي تحميننا ، مثل أرباب القبيلة والعشيرة والعائلة والبيت . هؤلاء الأعضاء في المجتمع الاشتراكي الذين لا تدركهم الأبصار تجب معاملتهم باحترام شديد كما يجب أن تقدم القرابين لكافة الأرباب طبقاً للطقوس المقررة فقد تستثيرهم أية مخالفة . ولا يبدو أنهم يلتزمون بالقوانين التي تتحكم في السلوك الإنساني ، بل من الواضح في الحقيقة أن بعضهم لا يلتزمون بها ، بمعنى أنه ليس هناك ارتباط جوهري بين اللاهوت والأخلاق .

غير أن طبع الشعب الإغريق يتضح من الطريقة التي نمت بها هذه الديانة البدائية حتى في عصر ما قبل التاريخ . وقد ظلت القوى الإلهية بين أقارب الإغريق من اللاتين كثيرة كثرة هائلة كما لم يكن لها أسماء ، وظلت طقوس العبادة تراعى بمنتهى الدقة ذكر الصيغ القديمة التي كان من الجائز أن معناها

صار منسياً ، طالما استمرت الديانة في البقاء . وقد كان هناك مجرد تصور (لقوة) « نومن numen » لانكاد نستطيع ترجمتها ، بشيء معين مثل « الروح » كانت تختص بكل عمل من أعمال الإنسان تقريباً منذ أول صرخة له كطفل حتى اختفائه النهائي في القبر . وإذا روعيت الشعائر بالشكل المضبوط فلم يكن يهم ما عداها . أما عند الإغريق فقد كانت الأمور تتطور بشكل يختلف عن ذلك كل الاختلاف . ففي أول الأمر كان شعورهم المسرحي المرح الخلاق ، يجعلهم بالضرورة يصورون « القوى » بصورة أشبه بصورة الإنسان . ويكاد الإنسان يقول إن الأرباب ماهم إلا ملوك . وثانياً لقد أنقص الدافع إلى الوحدة والنظام عدد الآلهة وجمعهم في أسرة واحدة ومجلس واحد الأسرة . ويكفي مثل واحد لهذا الجمع فإن زيوس ذلك الإله القبلي القوي الكبير كان يعتبر كذلك إله السماء وكان هناك أيضاً معبود اسمه هيركاوس Herkeios كان يحمي « مزرعة الفلاح » . وقد أصبح هذان الإلهان إلهاً واحداً يلقب بزيوس هيركاوس وهكذا أصبحت كلمة هيركاوس صفة لزيوس تدل على مظهر خاص لزيوس فيما يتعلق بوظيفته الخاصة بحماية المزرعة .

ولكن هذا الدافع إلى الوحدة والنظام سار شوطاً أبعد من ذلك ، فمع أن بعض القوى لا تخضع للقانون وهي أحياناً في نزاع ظاهر بعضها مع بعض إلا أن في الكون قانوناً منظماً قد تحاول خرقه دون أن تفلح في ذلك قط . وبعبارة أخرى إن هناك قوة أقوى من الآلهة ، فالآلهة ليست قادرة على كل شيء . وهذه القوة الغامضة تدعى أنانكي Ananke أي « ما لا بد منه » أو مويرا Moira أي « مقسمة الأنصبة » أو « القدر » وتحتوي فكرة القوة العالمية الشخصية على العنصر الأول الذي نشأ منه الدين والعلم على السواء .

وكانت المرحلة الثانية هي الجمع بين اللاهوت والأخلاق . ولم تكن

هذه العملية بالطبع واضحة منظمة كما لا بد أن يوحى بذلك أى ملخص قصير. فالإغريق لم يكن يستطيع أن يحترم الصيغ الشكلية مثل الرومانى . ونحن نستطيع أن نرى على الأقل طريقتين كان يتم بواسطتهما عبور الفجوة التى بين الدين والأخلاق . فقد كان تقديم القرابين للآلهة يتطلب طهارة دقيقة طبقاً للطقوس . فالرجل الذى سفك الدماء لم يكن يصح له أن يشترك فى تقديمها إلا بعد أن يتطهر . وكان من الطبيعى أن هذا الطلب الإلهى للطهارة الظاهرية يمتد بمضى الزمن حتى يشمل الطهارة الباطنية ، كما أن ذنباً معيناً مما لم يكن قانون البشر يستطيع معاقبتها أو لم يكن الناس يستطيعون اكتشافها صارت مما يعاقب عليه الآلهة . ففى ظروف الحياة البدائية لم يكن طريد القانون أو اللاجئ يلقى حماية قضائية ، كما لم يكن يستطيع الشخص الوضع أن يحصل عليها بسهولة . ولهذا فقد كان راجى الشفاعة وكذلك الضيف والسائل يعتبرون موضعاً لعناية الآلهة الخاصة ، وكذلك الحنث فى الدين كان ذنباً من المحال إثباته ولهذا كان ما تمتعته الآلهة بصفة خاصة . وفوق كل شيء فقد رفض الإغريق فى النهاية أن يفرقوا بين الطبيعة والطبيعة البشرية . ولهذا فقد رأوا أن القوى التى تحكم العالم الفيزيائى لا بد أن تحكم عالم الأخلاق أيضاً . وكان الآلهة عند هذا الحد قد صاروا روحانيين ولم تعد أنانى فوق زيوس بل أصبحت هى التعبير عن إرادته وصارت القوى الإلهية الأخرى مثل ربات الانتقام أو Erinyes اللاتى يعاقبن على ارتكاب أعمال العنف والمظالم من أعوانه الأوفياء .

ولكن ألم يكن هناك أى تضارب بين مثل هذه الفكرة عن زيوس وبين الأساطير التى تظهره بمظهر العنف وسرعة الإثارة والحب الجنىسى ؟ كان هناك مثل هذا التضارب بالتأكيد ، ولكن قبل أن نتكلم عن التضارب يجدر بنا أن نكتشف كيف جاءت الأساطير إلى الوجود .

ليس يعنينا هنا نوعان من الأساطير وهما الأساطير التاريخية أو التى تدعى أن لها أصلاً تاريخياً مثل أساطير طروادة والقصص التى من أمثال بيرسوس وهو يقطع رأس الجورجون (الغولة) ، وهى أساطير شعبية وقصص جنيا Marchen . أما الذى يعنينا فذلك الذى يشبه قهر زيوس لأبيه كرونوس Cronos وتشويهه ، وكذلك الأعداد الهائلة من الربات والحوريات (عرائس البحر) والنساء من البشر اللاتى كان زيوس وابوللون موفقين فى جهن . فهذه هى القصص التى تضلنا والتى أساءت إلى كرامة الإغريق أنفسهم فى عصور التفكير ، فكيف نشأت ؟ .

لقد كانت هذه الأساطير على العموم تفسيرات لأشياء معينة ، وقد اكتسبت لونها وحياة لأن الإغريق لم يكن بوسعهم إلا أن يفعلوا ذلك .

إنها كانت مجرد تفسيرات ، فقد كان هناك عدد هائل من الشعائر الدينية التى يمارسونها ، والتقاليد التى يذكرها الناس ذكراً غامضاً والتى كانت فى حاجة إلى التفسير . ولما كانت الحقائق منسية فقد حلت محلها القصص الخيالية . لقد أعطت الفصول السابقة مجرد فكرة ناقصة جداً عن تعدد ديانة ما قبل التاريخ فى بلاد الإغريق . فقد تكلمنا بطريقة عامة عن تعدد الآلهة بين الإغريق القدماء ، ولكن دعنا نفكر فى أن هؤلاء « الإغريق القدماء » لم يكونوا أمة متماسكة بل طوائف من الناس ظلوا يتدافعون ويتصارعون قروناً وقيمون هنا ثم يقيمون هناك ، ويقومون باستمرار باتصالات جديدة مع جيران جدد . ودعنا نفكر أيضاً فى أن الديانات العظيمة الرقى وحدها كاليهودية والمسيحية والإسلام لا تتساح فى موضوع الألوهية ولا تقبل إلا الله . أما الديانة القائمة على عبادة آلهة متعددين فإنها ترحب بطبيعتها بالآلهة الجدد . فإذا استقرت طائفة من الجنس الإغريق القديم بين جيران جدد أو إن فرضت نفسها عليهم فقد كان من

الطبيعى أن تستمر فى عبادة آلهتها هى ، ولكنها كانت تكرم كذلك الآلهة الموجودين فى تلك الناحية من قبل . وهكذا دعنا نضرب مثلاً يعتبر نموذجاً لآلاف غيره : لقد كان يقام مهرجان فى أموكلاى بالقرب من إسبرطة يعرف باسم هوا كينثيا لتكريم ، أبوللون وهيا كنثوس على السواء . وقد كانت تتميز طقوس هيا كنثوس الدينية المكتوبة بسكب الخمر فوق الأرض زلنى إليه . وكان اليوم الثانى من أيام المهرجان الثلاثة يكرس لأبوللون . وكان أكثر بهجة بكثير من سابقه ولاشك أن الأصل البعيد لهذا المهرجان المزدوج يرجع إلى أن قوماً جدداً ممن يعبدون الإله أبوللون الأوليى استقروا فى أموكلاى بين قوم كانت عبادتهم تختلف كل الاختلاف عن ديانة هؤلاء ، أى بين قوم كانوا يعبدون إلهاً من آلهة الأرض لا من آلهة السماء . وقد كانت التقوى والحرص كلاهما يحزمان إهمال العبادة الموجودة هناك ، ولذلك جمع القوم بين القديم والجديد . فلما انقضت الأجيال نسى الناس أصل العبادة المزدوجة بل نسوا فعلاً وجود إله الأرض ذاته ، ولكن التقوى وعادة المحافظة على الآراء أبطت الطقوس حية . عم إذن كان كل هذا الموضوع ؟ إن سكب القربان على الأرض لا يمكن أن يدل إلا على شيء واحد هو أنه كان يقدم لميت . ولما كان لأبوللون نصيب فى مهرجان هيا كنثوس Hyacinthus فلا بد أن هيا كنثوس الميت كان صديقاً حميماً لأبوللون . ومن هنا جاءت القصة التفسيرية التى تقول إن هيا كنثوس كان شاباً أحبه أبوللون ولكنه قتله مصادفة بقرص كان يقذفه . إن كلمة « هيا كنثوس » كما رأينا ليست كلمة إغريقية ، كما أن عبادة إله أرضى ليست إغريقية . لدينا إذن فى هذه الشعيرة الدينية كما فى القصة سجل لاندماج ثقافتين مختلفتين كل الاختلاف وصدى لهذا الاندماج .

وفى كثير جداً من الأحوال كان المعبود السابق ربة من الربات ، وفى

هذه الحالة كان من الطبيعى جعلها زوجة للإله الوافد . أما إن كان هذا المعبود إلهاً فمن الممكن أن يصبح ولداً للإله الذى يحل محله . غير أن هذا كان يتطلب أمماً فتكون حورية أو آلهة محلية . وقد كان هذا أمراً طبيعياً جداً يدل على غاية البراءة . ولكن لما كان مثل هذا الأمر قد حدث فى كثير جداً من الوديان والجزر التى لا عداد لها وهى التى استقر بها الإغريق ، وكان يثبت أن هؤلاء الآلهة الذين حلوا محل غيرهم كانوا هم وزيوس وأبوللون شيئاً واحداً فقد بدأ يظهر أن زيوس وأبوللون لهما ذرية هائلة من عدد كبير جداً من الإلهات والحوريات ونساء البشر اللاتى نلن الخطوة لديهما . ولكن عشق الآلهة الجنسى هذا جاء مجرد نتيجة عرضية للأساطير وليس هو المقصود منها . والسبب فى أنه لم يسىء من فوره إلى العاطفة الدينية أن الناس كانت تعرف حق المعرفة أنه تفسير لا أكثر . فلم تكن له صفة الحججة الدامغة التى تستخدم للتربية والتعليم وإنما كان مجرد « ما يقوله الناس » فهو تفسير . ومع أنه قد صارت له أهمية التقاليد المتوارثة فقد كان تفسيراً يمكن أن تقبله أو ترفضه . أما الأمر الجوهرى فى الشعيرة الدينية فقد كان تكريم الإله ، ولم يكن هناك ما يلزمك بتصديق القصة التى عن هذه الشعيرة .

غير أنه كان هناك نوع آخر من الأساطير أكثر بساطة كان له أصل مختلف ولو أن المقصود منه كان التفسير كذلك . فما الذى دعا مثلاً إلى اختراع القصة المروية عن زيوس والتى أساءت مثل هذه الإساءة البالغة إلى الإغريق المتأخرين وهى القائلة بأن زيوس قد قهر أباه كرونوس مستخدماً فى ذلك العنف وتركه سجيناً فى أقصى أعماق الجحيم ؟ وتعليل ذلك باختصار أن مثل هذه الأساطير كانت محاولة للتصدي لأصل الأشياء الخاصة بالعالم الفيزيائى أولاً ثم بالآلهة بعد ذلك . ففى البدء كانت الفوضى « Chaos » أى

« فراغ قد فغر فاه » ثم انبعثت الأرض الواسعة المستوية وهي الأم الحقيقية لكل شيء سواء الآلهة أو الناس ، وقد نشأ منها أورانوس Ouranos (السماء) . ومن اتحاد الأرض والسماء نشأ الليل والنهار وذرية كاملة من الكائنات البشعة التي تعتبر صوراً لقوى سيكولوجية وفيزيائية ، وقد كان من الطبيعي تصوير الخروج التدريجي للنظام من الفوضى بطريقة إنسانية . ثم لماذا لم تستمر الأرض وأورانوس في ولادة مثل هذه الذرية الأولى ؟ وكيف جاء النظام ؟ لقد قهر أورانوس وكبله بالسلاسل ابن جديد له أسمى منه هو كرونوس . وعلى طول الزمن قهر زيوس بالمثل كرونوس وحل محله ، وبواسطته حدث العالم والنظام الأخلاقي الذي نعرفه . أما أن كرونوس كان ابناً لأورانوس كما أن زيوس هو ابن كرونوس فأمر عرضي جداً . فلم يكن هناك أحد آخر يمكنهما أن يكونا ولديه . فقد كان على عصر متأخر يشتد فيه الفساد أن يتمسك بمثل هذه التفاصيل الصغيرة يأخذ في الإحساس بالمهانة من تصرف الآلهة ذلك التصرف الذي لا يليق بالأبناء .

لقد كان تعدد الآلهة عند الإغريق إذن ديانة « طبيعية » زادها تعقيداً وتعددًا تجزئة الجنس الإغريقي واندماج نوعين مختلفين من الديانات في جهات من بلاد الإغريق على الأقل ، أحدهما خاص بالمجتمع الإشتراكي والآخر خاص بعبادة الطبيعة . وإذا لنرى ميل الإغريق الغريزي للوحدة والمنطق في إنشاءهم للنظام الأولي الذي يرأسه زيوس أبو الآلهة والناس ، وقد أدبجت فيه الآلهة الهيلينية الخاصة بالقبائل والسماء وإلهات الطبيعة وآلهتها غير الهيلينية في الظاهر وجمع هائل بأكله من الدايمونيس daimones (أي الأرواح لا الشياطين) مثل ربات الانتقام والمعاني المجردة التي تجسمت أشخاصاً مثل (العدالة — Dikē) ، (القانون — Themis) فأصبح نظاماً واحداً متماسكاً ، وكذلك نرى هذا الميل في الطريقة التي وضعت بها الأخلاق تحت حماية الآلهة وإن كانت في الأصل موضوعاً بهم البشر والمجتمع وحده كما نراه كذلك في فكرة أنانكي

« أوميرا » الموحدة التي كانت في الأصل أسمى من الآلهة ولكنها أصبحت فيما بعد مطابقة لإرادة زيوس ، فجاء هذا الحشد الهائل من الأساطير عن قصد تفسيراً لهذا الأمر أو ذاك ، ولم يكن هناك مفر من أن يكسوه خيال الإغريق النشيط ثوباً مسرحياً .

ولكن عندما بدأت الأخلاق تتلاقى مع الدين ، وعندما لم تعد الآلهة قوى طبيعية واجتماعية وسيكولوجية فحسب بل قوى أخلاقية أيضاً ، أصبح عنصر العشق الجنسي في الأساطير حجر عثرة ، فكان يعتبر تحدياً تقبله الفلاسفة والفنانون بطرق مختلفة فاستبعد الفنانون أونوسوا ما لم يحبوه فيه ، أما ما تبقى فقد استخدموه في الخلق والإبداع ولكن الفلاسفة نبذوه نبذاً كلياً . وقد سبق أن أشار إلى ذلك الفيلسوف الأيوني كسينوفانيس في القرن السادس بقوله « لو كانت الحير متدينة لتصورت آلهتها على هيئة حمير » . بهذا نختم كلامنا عن تمثيل الآلهة على هيئة البشر وهو لب الأساطير . وقد كان يوربيديس يندد « بقصص الشعراء الزرية » مع أنه كان شاعراً وكان يرى أن الإله الذي يخطئ ليس بإله والذي يشتهي شيئاً لا يمكن أن يكون لإله لأن الله كامل تام ، ويتدد أفلاطون بالشعراء كل التنديد لنشرهم قصصاً تافهة زائفة بل وخبيثة بالفعل عن الآلهة ، كقولهم إنهم يتحاربون أو يستسلمون للانفعالات مثل الحزن والغضب والحبور وهو لا يقبل هو مرفي « جمهوريته » على كره منه . وهو غاضب جداً على شعراء المأسى لنشرهم أفكاراً لا تليق بالإله المعبود .

من الجائز جداً أنه كان هناك شعراء للمأسى من طبقة أدنى يستحقون انتقادات أفلاطون ، أما بالنسبة لشعراء المأسى الذين نعرفهم فإن حملة أفلاطون تعتبر سخيفة ، فهي الهجوم الذي يقوم به على الفنان فيلسوف لا يسلم بأن هناك طريقاً آخر يؤدي إلى الحقيقة إلا طريقه ، وهي هجوم

فيلسوف متزمت في فهمه كان أقرب إلى أن يكون شاعراً من كثير ممن تحابلوا حتى أصبحوا شعراء ، فقد ابتكر بعضاً من أعمق وأجمل الأساطير الإغريقية (١) . إن هناك ، على حد قول أفلاطون ، نزاعاً طويلاً بين الفلسفة والشعر ، كان قائماً بالفعل من جانب الفلاسفة كما كان قائماً قبل كل شيء في نفس أفلاطون .

ولكن الشعراء لم يكونوا يشعرون بهذا النزاع . لقد كان بنداروس وايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس شعراء فلسفيين إن كان الشعراء الفلاسفة حقاً قد وجدوا يوماً ما . وقد كانت طريقتهم الطبيعية هي استخدام الأساطير حتى الأساطير التي تتنافى مع الأخلاق . ومن المهم أن نفهم كيف استخدموها ، فقد كان الشعراء المسرحيون يكتبون في الظاهر مسرحيات « عن » شخصيات أسطورية . والواقع أنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل . إن هؤلاء الرجال لم يضيعوا وقتهم ووقت بلدهم في تصوير شخصيات مأخوذة من « سفينة نوح » ولو أن شيئاً من هذا القبيل يبدو أن النقاد قد افترضوه ، وهم الذين كتبوا أنهم قد ضاقوا ذرعاً بالأساطير التي استخدمها الشعراء ، مع أنه ليس هناك ما هو أكثر زيفاً وأقل ذكاء من ذلك ، فإن الشعراء قد أخذوا مسرحياتهم من واقع مكافاتهم للمشاكل الدينية والخلقية والفلسفية الموجودة في زمانهم ، وقد استخدموا الأساطير إلى حد كبير مثلها استخدام شيكسبير هولينشد Holinshed وبمثل حريته في التصرف . وقصة يوريبيديس « المسماة » ميديا Medea معروفة معرفة كافية ، فإن ميديا التي خانها زوجها جاسون تقتل فضلاً عن زوجة جاسون الكورثية الجديدة أولادها وهم أولاد جاسون . والحادث الرئيسي هنا وهو قتل الأم لأولادها من ابتكار يوريبيديس . ففي بعض الروايات السابقة أن أهل كورنثام الذين

(١) أنظر مثلاً إلى الصفحات القليلة الأخيرة من محاوره « جورجياس »

قتلوا الأولاد . ومعنى هذا أن يوريبيديس غير الأسطورة تغييراً تاماً لكي يعبر عن فكرته هو . ولم تكن فكرته ، كما يبدو أن بعض المخرجين الحديثين يظنونها ، هي أن يخلق دوراً لمثلة مآسى من نجوم المسرح أو أن يكتب بحثاً سيكولوجياً لا يكاد يحتمل تصديقه ، وإنما كان يقصد أن يبين أن العاطفة التي لا يتحكم فيها العقل تدمر من تعانيتها بالذات كما تدمر المجتمع كله . وكان ايسخولوس بالمثل يستطيع أن يستخدم أعنف الأساطير القديمة ويملاها بالمعزى العميق . ففي مسرحية بروميثيوس يستخدم قصة نشأة الكون القديمة الخاصة بقتال الآلهة بعضهم لبعض ويتحدى بروميثيوس لزيوس ومقاساته عذاب الدهر نتيجة لذلك . ومطالبة اريستيميس لأجاممنون في مسرحية « أوريستيا Oresteia » بأن يقدم ابنته قرباناً لها لإنهاء أسطورة ترجع في أصلها إلى أبعد العصور التي كانت تقدم فيها القرابين البشرية . ولا تحدث تصرفات أبوللون مع كاسندرا وهي التي وردت بعد ذلك في المسرحية صدمات نفسية أقل من سابقتها بكثير ، ولكنه اتخذ من هذه الأساطير قصتين مسرحيتين قويتين — إحداهما ناقصة للأسف — وهما تحتلان مكانهما بين أسمى روائع ما أنتجه العقل البشرى . فهما مسرحيتان عن مولد قوة التفكير ونموها وعن مولد النظام والرحمة بين الآلهة والناس على السواء .

وهكذا يستطيع الإنسان أن يظهر كيف أن الأساطير قد بقيت حيوية تزخر بمعنى ديني فلسفي عميق عند كل الكتاب المسرحيين وعند بنداروس وإن يكن بطريقة مختلفة نوعاً ما . فقد ظلت تفسيرية في جوهرها كما كانت دائماً . ولو أنها أصبحت بعد ذلك في أيدي هؤلاء الشعراء القورين الأقوياء شرحاً للحياة الإنسانية وللنفس البشرية .

غير أن مستقبل التفكير الديني عند الإغريق لم يكن رهناً بالأساطير ولا بالآلهة الأولمبيين بل ولا بديانات الأسرار التي كانت شخصية أكثر

من سواها كما كانت مكتملة للعبادات الأولمبية ولكنه كان رهناً بالفلاسفة ، فالعصر الإغريق في المسيحية هائل ومستمد من أفلاطون . إن زيوس الذى كتب عنه أيسخولوس ولو أنه كان طاهراً علياً إلا أنه كان معبوداً خاصاً بالبوليس الإغريقية بدرجة لا تسمح له بأن يصبح إله الجنس البشرى . كما أن إله اليهود ما كان من الممكن أن يصبح إله الأمم الأخرى كذلك دون تغيير جسيم . لقد كانت الفلسفة الإغريقية لا سيما فكرة أفلاطون عن المعبود المطلق الباقي هى التى أعدت العالم لاستقبال دين عالمى .

أما فيما يتعلق بالأساطير الإغريقية فإن بعض مسرحيات يوربيديس المتأخرة تبين كيف أن مركز الجاذبية كان آخذاً في الانتقال . إذ أخذ التفكير الجدى يسير فى اتجاهات فلسفية محضة وأخذ يوم الشعر الراقى فى الغروب كما أخذت وحدة الأساطير والدين الكلاسيكية فى التفكك . فقد أخذ يوربيديس حوالى نهاية القرن الخامس يستخدم الأساطير بطريق السخرية واللغو والإغراق فى العاطفية والخيال (كما فى «أيون» و «إيفيجينيا فى ثاورس» و «هيلينا») فقد صرنا إذ ذاك قاب قوسين من المرحلة النهائية للأساطير الإغريقية ، وهى المرحلة التى نعرفها عنهم أكثر من سواها بفضل الشعراء الهيلينيين والرومانيين . وقد تمت التفرقة بين الأساطير والتفكير كنتيجة لفتوحات الإسكندر . فأخذت الآلهة التى لاتعيا الذاكرة والمعبودات المحلية لبلاد الإغريق وطقوس عباداتهم المحلية تبدو بعيدة جداً وشاحبة للإغريق الذين يعيشون معيشة الغرب تحت حكم ملك قوى فى مدن مصر وآسيا الإغريقية أو نصف الإغريقية . وكما نشأ فيما بيننا اهتمام وشوق إلى الفواكلور عندما انتزع الشعب من الريف انتزاعاً ، وسبق زرافات إلى المدن فكذلك نجد فى العصر الهليني الجديد ، عندما تشتت الإغريق وانتهت الحياة القديمة أن النشاط فى البحث عن الخرافات المحلية وطقوس عبادات الوطن قد عم وأن هذه الخرافات والطقوس قد صنفت فى قوائم ولم تعد

أساطير حية بل مجرد آثار جذابة اتجه إليها الشعراء والفنانون بحماسة وهم شعراء مطلعون — مثل بعض من نعرفهم اليوم — وأخذوا يؤلفون لا من أجل بوليس حية يرونها بأعينهم بل من أجل الجمهور المتعلم حيثما وجد ، وهو منتشر فى العالم الكبير الجديد . هذا العصر أى العصر الإسكندري هو الوقت الذى نمت فيه الأساطير حتى صارت نوعاً من الجنون الأدبى والفنى ، حين أخذ الشعراء يروون فى أشعار رشيقة قصصاً جميلة أو فاضحة عن عشق الآلهة وتغيير أشكالهم بطريقة عجيبة . وكان هؤلاء الشعراء من المغمورين الذين لم يجدوا الإلهام أو الجمهور الذى يستمع إلى شيء أهم من ذلك . وهذا هو العصر الذى يقع بيننا وبين الإغريق الكلاسيين ويجعلنا نظن أن الإغريق كانوا عابثين لا يرجى لهم صلاح . ولم يكن هذا العصر مفتقراً إلى مفكرين من أهل الجد ولكن هؤلاء كانوا فلاسفة العصر وعلماء لا شعراء . ومعالجة هؤلاء الشعراء للأساطير جذابة فى أولها ، ولكنها سرعان ما تصبح شيئاً مملاً لا يطاق ، فهى شيء ميت أما عند بنداروس وإيسخولوس وسوفوكليس ويوربيديس فقد كانت تزخر بالحياة .

الحياة والأخلاق

نفي كسينوفون الذي كان قائداً للعشرة آلاف جندي من أثينا لأسباب غير واضحة كل الموضوع ثم أصبح صديقاً شخصياً حميماً لأجيسيلوس ملك إسبرطة الذي أعطاه قطعة أرض في البيلوبونيز في مكان يدعى سكيلوس بالقرب من أوليميا وهو مكان يصلح لسكنى من لا يمكنه أن يسكن في أتيكا لأن كل إنسان كان من عادته أن يذهب إلى أوليميا إن قريباً وإن بعيداً ، وفي هذا المكان لا بد أنه كتب أكثر كتبه بما فيها «التقهر - الانسحاب» Anabasis وهو وصف لحملة قورش وماتلاها جعل منه مناسبة لوصف مكان اعتكافه الريفى .

وكان عشر غنائم العشرة آلاف جندي قد خصص لأبوللون وأرتيميس . وقد كان القواد مسئولين عن ذلك كل على حده . وما تسلمه كسينوفون من أجل أبوللون وهبه في دلفوى لخزافة الآثينيين . أما ما كان يجب دفعه لأرتيميس حامية أفسوس (ديانا حامية أهل أفسوس) فقد تركه في عهدة من يدعى ميغابيزوس Megabyzus وهو كاهن من كهنة أرتيميس لأرث كسينوفون كان ذاهباً مع أجيسيلوس وباقي العشرة آلاف (الآن ٨٦٠٠) في معركة ضد طيبة وبالتالى ضد أثينا . وبالنظر إلى بقاءه حياً بعد المعركة فقد زاره ميغابيزوس في معتكفه الريفى القريب عند قدومه لمشاهدة الألعاب الأولمبية ورد إليه المال اللازم دفعه لأرتيميس ، فاشترى به كسينوفون أرضاً في جهة أشار عليه بها أبوللون في دلفوى . والواقع أن نهر سيلينوس يخترق هذه الأرض كما يجرى أيضاً أمام معبد أرتيميس في أفسوس وفيه يوجد السمك والمحار . وكان هناك صيد في الأرض الموجودة في سكيلوس من كل أنواع الحيوان الذى يمكنك ذكره . وقد بنى كسينوفون من هذا

المال مذبحاً ومعبداً وحدد عشر محصول الأرض سنوياً لتقديم قربان للربة في مهرجان كان يدعو إليه كل المواطنين والجيران وزوجاتهم . وكانت الربة تمد من يحضرون بوجبة شعير وخبز ونبيذ وحلوى ونصيب من القرابين التى تقدم من المرعى المقدس وكذلك من حيوانات الصيد . لأن أولاد كسينوفون والمواطنين الآخرين كانوا يذهبون للصيد قبل المهرجان كما كان يشترك معهم في ذلك الرجال أيضاً إن أرادوا ، وقد كانت الحيوانات كالخنازير البرية والغزلان والوعول تصاد أحياناً من الأرض المقدسة وأحياناً أخرى من فولوى Pholoe . وكانت الأرض واقعة على الدرب الموصل من إسبرطة إلى أوليميا على بعد ميلين ونصف ميل من معبد زيوس في أوليميا . وهى تشتمل على مرعى وتلال تكسوها الأشجار تعيش عليها الخنازير والماعز والبقر والحيل . حتى أن دواب الحمل الخاصة بمن يأتون إلى الوليمة كانت تأكل منها كما تشاء ، وكان حول المعبد بستان مزروع به كل نوع من أشجار الفاكهة . وكان المعبد نموذجاً صغيراً للمعبد أفسوس كما كان التمثال مصنوعاً من شجر السرو وهو نسخة من التمثال الذهبى الذى هناك . وكان مكتوباً على أحد الأعمدة التى إلى جوار المعبد . « هذا العقار مكرس لأرتيميس ، وكل من يمتلكه ويتمتع بمنتجاته يجب أن يوزع منها العشر كل سنة ويصلح المعبد من الفائض فإن لم يفعل ذلك فإن الربة تنظر فى أمره » .

إن هذه لصورة خلاصة لمظهر واحد من مظاهر الحياة الريفية فى إحدى أنحاء بلاد الإغريق التى تمتاز عن غيرها باعتدال الجو . ويستطيع الإنسان أن يتصور أن المواطنين والجيران قد أخذهم شئ من الحيرة بشأن هذا الغريب ذى الأهمية البالغة الذى استقر بين ظهرانيهم . وهو رجل سبق أن قاد أولئك المرتزقة عائداً بهم من أقصى الأرض ، وكانت علاقته طيبة جداً

بأجيسيلوس ملك أسبرطة التي كان يؤلف كتابا عنها ، كما كان يؤلف غير ذلك من الكتب — فيما يقال — بما فيها كتاب أو كتابان عن أثيني عجيب ليس ذا أهمية ولو أن كسينوفون كثيراً ما كان يتحدث عنه فهو فيلسوف كان يدعى سقراط أو نحو ذلك . ولو أنك لا تكاد تعتقد بوجود كثير من هذا الهراء عن كسينوفون — فهو رجل متدين جداً وعاقل وعملي جداً — ولكن يحتمل أنه كان يبالي في مراعاة الصغار فقد كان يعطى قيمة كبرى بالفعل لوضع كل شيء في موضعه . ويظهر هذا واضحاً جداً من رسالة صغيرة شيقة جداً عنوانها بالإغريقية « إقتصاديات » ومعناه الحرفي إدارة البيت والأرض . وهى معروضة بطريقة لطيفة جداً على هيئة حوار بين سقراط وبين إيسخوماخوس Ischomachus وهو سيد أثيني من أهل الريف . وهذه هى المرة الوحيدة التى نجد فيها من يحاور سقراط يقوم بأغلب الحديث . فعند إيسخوماخوس ما يقوله عن تدريب زوجته ، إذ هى لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة عندما تزوجها . لأن النساء فى إقليم البحر الأبيض المتوسط يتزوجن فى وقت مبكر فعلاً ، وكانت قد قضت طفولتها فى عزلة تامة حتى لا تعرف أكثر مما ينبغى . وقد كانت تعرف كيف تصنع قيصاً من الصوف وكيف تشرف على الخدم وهم يغزلون ، ولكن إيسخوماخوس تولى تعليمها غير ذلك من الأمور مبتدئاً بتعليم قربان مصحوب بالصلوات . وقد شاركته فى ذلك زوجته الصغيرة عن تقوى كتنقوى زوجها . وقد بين لها أنه اختارها كما اختاره أبواها ليكون كل منهما أحسن شريك أنسب لإدارة منزلها وأنجاب ذرية ممتازة فى كل شيء تكون عوناً لهما فى شيخوختهما . وقد كان نصيبه أن يتولى شئون البيت الخارجية . وسنسمع عن قريب كيفية اختيار الوكيل والعمال وتدريبهم ليواصلوا العمل بإخلاص وانشراح بينما كان عليها أن تعتنى إلى أقصى حد بتدبير ما يحضره . ومن رعاية الله أن جعل طبيعى الرجال والنساء مختلفتين تبعاً لذلك . ولو أنهما من حيث الفضائل الخلقية يقفان

على قدم المساواة . وهو يقارن الزوجة بملك النحل فعليها مراعاة التدبير بحيث لا تستهلك فى شهر ما ينبغى استهلاكه فى عام ، كما أن عليها أن تصنع الثياب لمن هم فى حاجة إليها وتراعى حفظ الأذنية المجففة لتكون صالحة عند الحاجة إليها ، وربما كان واجب العناية بالأرقاء أثناء مرضهم من أبغض الأمور ، غير أن الزوجة الصغيرة تبدد كل مخاوفه بهذا الصدد قائلة « ستمكون العناية بهم من أحب الوظائف إلى فإن الذين نحسن معاملتهم غالباً ما يكونون حافظين للجميل ومرتبطين بى أكثر من ذى قبل » .

ويستمر الدرس بما فيه من ملاحظات على تدريب الخادما على الصناعات المنزلية . لقد وصلنا الآن إلى البيت نفسه . إن ترتيبه يجرى بعناية شديدة ودون أى إسراف حتى يلائم الغرض منه ، وتبدو كل غرفة وكأنها ترحب بما يوضع فيها . وهكذا نرى أن الغرفة الداخلية تحتوى على أثمن السجاجيد والأوانى لأنها أثمن الغرف . أما القمح فإنه يوضع فى أجف الغرف كما يوضع النبيذ فى أرطب الغرف والطفح بينما توضع أصص الأزهار الفاخرة وغيرها من القطع الفنية التى نحب رؤيتها فى أكثر غرفة يدخلها النور . والمنزل يواجه الجنوب بحيث أن غرف الجلوس تدخلها الشمس فى الشتاء ولكنها ظلية فى الصيف (وليس من شك فى أن خارجها صف ضئيل من الأشجار) وقد كان إيسخوماخوس يصر على الترتيب والنظام . إذ كيف يكون حال الجيش أو فرقة المغنين بدون مراعاة النظام الدقيق ؟ وقد ذكر لزوجته قصة سفينة فينيقية رآها ذات مرة وحبالها المتنوعة مخزونة فى حيز يبلغ من الصغر حداً لا يصدق فهو لا يزيد عن غرفة طعام ذات حجم مناسب ، غير أن كل شيء بها كان من السهل الوصول إليه بعد طلبه باحظة . وكان يستطيع البحار أن يضع يده مباشرة على ما يحتاجه عند أشد العواوى . ولا ريب أن النظام شيء ممتاز جداً فى حد ذاته . فما أجمل منظر الثياب والأحذية بل وأوانى الطبخ عندما تنظم تنظيماً مناسباً .

أما فيما يتعلق بأسلوب حياته الخاص فقد أوضح إيسخوماخوس لسقراط أنه يستيقظ مبكراً (أى عند الفجر بالتأكيد) حتى إذا أراد أن يزور رجلاً في شأن من شئون العمل فمن المحتمل أن يجده في منزله كما أنه يفيد من المشى (ويفهم من هذا ضمناً أن المشى أفضل من الانتظار إلى ما قبل الظهيرة حتى يعثر على من يريد في السوق) فإن لم يكن له عمل خاص في المدينة فإن الخادم ينطلق بحصانه إلى المزرعة أما هو فإنه يمشى على قدميه بقصد الرياضة لأن هذا أفضل من المشى ذهاباً وإياباً في أحد أروقة المدينة . وهو يرى في المزرعة ما يقوم به الناس من عمل فإن خطر بياله إجراء أى تحسين أو صاهم به ثم ركب جواده مخترقاً الحقول كما لو كان في ساحة الحرب واضعاً نصب عينيه أن يحافظ عليه من العرج . ثم يعطى حصانه للسائس ويعود للمدينة مشياً أحياناً وجرياً أحياناً أخرى . ثم يمسح عن بدنه الفائض من الزيت لأن الرياضى كان يدلك جسمه بالزيت ويزيل الفائض (بالإسترجيل) وهى آلة مقوسة للتدليك . بعد ذلك كان يتناول إيسخوماخوس غذاء وهو أول طعام اليوم . وكان حريصاً على ألا يفرط في الأكل . أما ماذا كان يصنع في بقية اليوم فلم نسمع عنه شيئاً . ولا شك أنه كان مملوئاً بالعمل الخاص والعام وبالكلام مع أمثال سقراط من الناس . وقد كان سقراط يعجب بهذا الأسلوب من أساليب العيش ويقول ، « ليس من عجب إذن ان تعتبر من أحسن فرساننا وأعنى مواطنينا ما دمت شديد العناية بهذين الأمرين على السواء » فيجيبه إيسخوماخوس « ومع ذلك فأنا لست محبوباً بين الناس » وهنا لا تلوح أية ابتسامة على وجهه كما لا تلوح أية بسمة على وجه كسينوفون .

إلى أى مدى يعتبر كل هذا نموذجياً ؟ لو كان لدينا قدر من أمثال ما ذكرناه نقارنه به لأمكننا الإجابة على هذا السؤال ، ولكن ليس لدينا شيء من ذلك . والذي يخطر ببالى أنه ليس نموذجياً بالمرّة بصرف النظر عن كون

إيسخوماخوس رجلاً غنياً . إن هناك أثراً من طابع القرن الثامن عشر موجوداً عند كسينوفون — تقواه الدقيقة وحبّه للنظام ووقاره الممتاز وأسلوبه الدارج المحبوب . وقد وجد صحبة الأسبرطيين مما تناسب ذوقه ، ومن المحتمل أنه اشتغل مع المستبدن الثلاثين ذوى السمعة السيئة الذين أُرهبوا أثينا فترة قصيرة بعد انتهاء حرب البيلوبونيز . وعلى العموم فهو ليس بالآثني النموذجي . وإنه ليكون من قبيل السداجة البالغة أن نفترض أن الآراء التى وردت عن الزواج وتربية البنات — وهى المنسوبة إلى إيسخوماخوس الذى لا تبدو عليه مخائل النجابة العظيمة — تمثل العادات الآثينية السائدة .

إننا لا بد أن نعود إلى هذه المسألة غير أن أمرين من الأمور التفصيلية التى تعتبر بالتأكيد نموذجاً لما كان يحدث هما عدم تناول طعام الإفطار والارتباط الوثيق بين حياة المدينة وحياة الريف .

قد رأينا الآن شيئاً من حياة الريف فى أوائل القرن الرابع ولو أن ذلك كان من وجهة نظر قائد متقاعد له ذوق فى نوع من التاريخ والفلسفة لا يمتاز بالعمق الكبير . هل فى استطاعتنا حقاً أن ننقل إلى الريف بين الرعاة على الجبال أو مع الفلاح العامل فى واد بعيد ؟ هذا أمر صعب بشكل عجيب ، فليس عندنا سجلات كالتى فى الأديرة أو فى بيوت سادة الأرض من النبلاء ، وهى التى يحظى بها مؤرخ القرون الوسطى . ولم تكن المؤلفات التى تصدر فى دولة المدينة مستفيضة أو كثيرة الاستطراء . ونحن نسمع عن احتفالات ريفية ولو أنها ليست كلها بلاشك من النوع اللائق كاحتفال كسينوفون . كما نسمع عن خرافات ريفية قديمة ومعتقدات غريبة لأن الأجزاء البرية فى بلاد الإغريق كانت موحشة ، ففى أركاديا يظهر أن شيئاً بدائياً جداً مثل تقديم قربان بشرى كان يمارسه الناس ، فى القرن الخامس .

ويعطينا أريستوفانيس في مسرحيته « الأخاريون » ، السلام (١) ، بصفة خاصة ، صورة للفلاح الأتيكي الذي أرغمه الاحتلال الإمبرطى على الانتقال إلى المدينة رغم أنه يكرهها . وفي مسرحية أهل أخارناى نقابل شخصيتين مثل « هارى لاودر » فهما فلاحان من طيبة وميجارا أضرت بهما الحرب ضرراً بليغاً ولكن ليس هناك وصف تفصيلي أو متتابع عنهما . وعلمنا أن نرجع إلى هز يود قبل قرنين أو أكثر ونحن واثقون من أن صورة العمل المتواصل والتخطيط لم يكن قد عفا عليها الزمان وأن نتقدم قرناً عبر الزمان حتى نصل إلى ثيوكريتوس Theocritus ورعاه الذين تركوا وراءهم نتاجاً أدبياً هائلاً مما ترنموا به عن دامون ودافنس ولوكيداس (٢) ، كما تركوا خلفاً لهم من الرعاة الذين يعيشون اليوم ولو أنهم لا يرتجلون كأسلافهم الأغاني السداسية الوزن الرشيقة اللاذعة وما تمتاز به من ترجيع . فإنهم على الأقل يترنمون على مزاميرهم ويبتدعون الأغاني أو هكذا كانوا يفعلون حتى جعلتهم الحرب يفكرون في شيء آخر . إن الراعى عند ثيوكريتوس يبدو لنا طبعاً في صورة مثالية ولكن هذه المثالية قد لا تكون عظيمة جداً في أنشودتين (٤ ، ٥) من أكثر أناشيد الرعاة واقعية . وتعطينا أنشودة ثيوكريتوس السابعة صورة بهيجة عن نزهة ريفية وسير طويل ذات يوم حار في جزيرة كوس . فإذا تقدمنا أربعة قرون أخرى عبر الزمن لنصل إلى كتابات ديونخوسوستوم Dio Chrysostom وهو خطيب متألق اعتنق الفلسفة ، نجد وصفاً مفصلاً فيه عطف شديد على أسرتين من الصيادين البسطاء كانتا تعيشان في وحدة تامة على أرض بور في ناحية بعيدة من يوبويا ومن

(١) نظم الشاعر مسرحيتين : أهل أخارنا (Acharnai) والسلام (Eirene) .

(٢) هذه أسماء رعاة خلفها ثيوكريتوس في أناشيده ، أوردها المؤلف في صورة الجمع للدلالة على كثرتها في ديوان ثيوكريتوس ومقلديه من شعراء اليونان والرومان .

بينهما رجل لم يأت إلى المدينة في حياته قط أما الثانى فجاءها مرتين ، ووصفه لهما شائق جذاب (١) .

وتعطينا المسرحيات بين الحين والحين صورة سريعة واضحة إلى حد ما عن شخصية ريفية . ففي « اليكترا » التى كتبها يوريبديدس عمل إيجستوس Aegisthus الخبيث على إبعاد البطلة أو زواجها من فلاح ساذج حتى لا يطالب أولادها بالحق فى استرداد التاج من المغتصب . ونراها عند الفجر وهى تحمل جرة ماء من الينبوع رغم أن زوجها يحتج بأنها لا حاجة بها إلى هذا العمل فتجيبه « ولكنى أعمله لأنك كنت طيباً معى ، ولديك مما تعمله خارج البيت ما فيه الكفاية ، أما أنا فعلى أن أرعى شئون البيت فإنه مما يسر الرجل الكادح أن يعود إلى بيته فيجد كل شى فى أحسن نظام » ثم إذا خلت إلى نفسها برهة بعد قليل لتنتحب على أجامنون ظهر أعضاء الجوقة على هيئة فتيات جئن يدعونها للمهرجان فتقول اليكترا « لا ، إني لا أستطيع أن أرقص أو أبتهج . أنظرن إلى شعري الأشعث وثيابي المهلهلة ، أهذه جديرة بأجامنون وبطروادة التى استولى عليها ؟ » فيكون الجواب « لكن الربة ذات شأن عظيم ! تعالى وسوف أعيرك ثياباً موشاة وحلياً من الذهب » ولكن أخاها أوريستيس Orestes الذى طال انتظاره يصل مع پولاديس Pylades الأمين ليشأرا من القتل — وإن لم تكن الروح التى تحمزه روح بطولة عالية . وهو لا يفصح عن هويته . أما اليكترا فيصيحها ذعر قاتل من رؤية رجلين مدججين بالسلاح على مقربة جداً من بيتها . ويعود الفلاح فى الوقت المناسب فيحس بالفضيحة حين يرى زوجته تحدث شباناً بالباب فهذا لا يليق وهو يخالف التقاليد كل

(١) يمكن الاطلاع عليه بسهولة ملخصاً فى كتاب ج . ا . ك تومسون Gr. Tradition

المخالفة . واليكثرا توضح الأمر قائلة إنهما صديقان لأخيها جاء برسالة من أوريسستيس وهذا بالفعل كل ما باح به أوريسستيس ، فيقول الفلاح « أدخلنا إذن ، إن يتي متواضع ولكنني أضع كل ما فيه تحت تصرفكما » وهو يسارع إلى الدخول قبلهما فيتيح ذلك لأوريسستيس فرصة إلقاء خطبة وعظمية عن عدم الاغترار بالمظاهر يقول فيها « أنظروا إلى هذا الرجل فهو شخص عادي تستهين العين بمرآه ولكن ما أعظم نبهه ! » والذي نلاحظه هو أن أوريسستيس نفسه وهو من البيت المملوك قد برهن في هذه المسرحية على أنه ذئب بدرجة غير عادية . ثم يدخل المسافرين البيت بينما يحمل عبيدهما المتاع ويعود الفلاح إلى الظهور ، وتبكت زوجته بقولها « أنت تعلم أيها الأحمق كم يعرضنا الفقر بنابه فلماذا أدخلت هؤلاء السادة ومراكزم في الحياة أعلى منك بكثير ؟ » فيجيب هذا الرجل المعقول « حسناً ؟ إن كانوا سادة مهذبين — وإنهم لبيدون كذلك ، ألا يرضيهم ما يجدونه ؟ » فتقول « ما دمت قد ارتكبت هذا الخطأ الفاحش فابحث عن عبيد الذي كان يخدمني وهو الآن شيخ كبير ، فسيصره أن يسمع أن أوريسستيس لا زال على قيد الحياة وسيعطيك شيئاً لطعامهم » فيجيب « حسناً جداً ، أدخل وأعدى كل شيء فإن المرأة إذا أخرجت تستطيع أن تجد الكثير لأعداد وجبة طيبة . إن لدينا طعاماً في البيت يكفيهم يوماً (تخرج اليكثرا) . إنه شيء عظيم أن تكون غنياً فإنك تستطيع أن تكون كريماً مع الضيوف وتعالج نفسك عند المرض ، أما بالنسبة للطعام فذلك لا يؤدي إلا إلى فرق بسيط لأن الغنى لا يستطيع أن يأكل أكثر من الفقير ، وعندما يصل العبد المسن وقد اشتد به التعب من الصعود الطويل ، لأن الفلاح ليس مزارعاً غنياً من مزارعي السهل ، نجد قد أحضر معه حملاً وبعض أنواع الجبن وشيئاً من الخبز المعتقة . ومع أنها ليست كثيرة جداً فهي حلوة قوية يمكن خلطها بخمر مخففة . كما أحضر

أكاليل الزهر وهي المقابل الهيليني الرشيق للملابس السهرة عندنا . غير أن ما هو أقرب صلة بموضوع القصة أنه يعرف أوريسستيس فلا يكون أمام البطل مجال للتردد بعد ذلك وتسرع القصة إلى نهايتها البشعة الشائنة .

وقد وردت في مسرحية « أوريسستيس » ليوريبيديس خطبة صريحة تتم عن أمانة ، وقد ألقاها في مجلس أرجوس مزارع يشتغل بيديه ، إذ كانت تجري محاكمة أوريسستيس لقتله أمه وإيجستوس ، فوقف تالوثيوس ، Talthubius المنادى الرسمي في الاجتماعات العامة وألقى خطبة غير محددة المعاني تتم عن مكروخداع (كما قال يوريبيديس) وهو من ذلك الصنف الذي يحتفظ بصداقة الحزب الغالب .

وقد ظل ينظر دائماً وعلى وجهه ابتسامة خفيفة ناحية أصدقاء إيجستوس ، ثم تلاه ديوميديس Diomedes الجندي الجاف قائلاً « لا تقتلوهم بل احترموا الواجبات والروابط المقدسة بإرسالهم إلى المنفى » وقد أثار ذلك هتافات الاستحسان وهتافات الاستهجان ، أما الخطيب التالي فكان ذنباً عنيفاً متدفقا كالسيل وقد اقترح أن يقتل أوريسستيس رجماً بالحجارة ، وقد استهجم الخطيب التالي على عكس ذلك فقد كان رجلاً شجاعاً ولو أن مظهره لا يسترعى النظر ، كما أنه لم يكن يأتي إلى المدينة إلا نادراً فهو مزارع يعمل بيديه — هؤلاء وحدهم هم الرجال الذين يحافظون على سلامة البلاد — ولكنه كان ذكياً يميل إلى قرع الحججة بالحجة كما كان أميناً فوق الملام . وقد اقترح أن يتزوج أوريسستيس علناً لأنه ثار لأبيه وقتل امرأة شريرة كافرة غادرة . ويرى يوريبيديس أن هذا الاقتراح كان من الجائز جداً قبوله لولم يكن أوريسستيس من الحق بحيث يتكلم مدافعاً عن نفسه .

ومن الواضح أن يوريبيديس كان معجباً بالفلاحين ، أما عند سوفوكليس فلا ينصرف الكلام إلى الفلاحين عموماً بل إلى رجل منهم . ففي « أوديب ملكا »

نجد أن الرسول الآتي من كورنثا كان راعياً تعود أن يقضى كل صيف في السنين الماضية مع قطعانه فوق مرتفعات كيثايرون Cithaeron . كما لا يزال يفعل الإغريق عندما تجف المراعى التي على السفوح . وقد قضى ثلاثة من فصول الصيف على الجانب الآخر من كيثايرون مع راع من طيبة كان عبداً للملكها لا يوس . وفي ذات مرة أقبل راعى طيبة ومعه طفل كانت قد صدرت إليه الأوامر بتركه في العراء حتى يموت ولكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على ارتكاب هذا المنكر، فأخذه منه الراعى الكورنثي وسلمه للملك الذي لم يكن له ولد، فسر به واتخذه ولداً ورباه كما لو كان ابنه ، فلما بلغ الطفل أشده ترك كورنثا فجأة ولم يعد إلها قط لسبب لم يدركه الراعى الكورنثي . فقد ذهب أوديب إلى طيبة وقدم لأهلها خدمة عظيمة منحوه من أجلها العرش الشاغر لأن لا يوس كان قد قتله للصوص ، فتزوج الملكة . ثم مات ملك كورنثا المسن بعد ذلك بسنين وتحدث الناس هناك بدعوة أوديب ليخلفه . فرأى الراعى فرصته السانحة في الحال ، وانطلق إلى طيبة بأسرع ما يمكن ليكون أول من يزف البشرى إلى أوديب وهو ينتظر منه مكافأة سخية . وفضلاً عن ذلك فقد كان من حقه أن يطمع في عطف أوديب لأنه هو الذي أنقذ حياته وهو طفل . وهكذا نجده يدخل المسرحية وهو كثير الأهمية عظيم الأدب نافع وواثق جداً من أنه قد بنى صرح مستقبله ، ولكنه يتعثر عند خروجه من المسرحية وهو رجل محطم للغاية لأن نتيجة الشفقة التي أراد بها الخير لطفل لا حول له كانت أن أوديب قد كبر ليقتل أباه وليتزوج أمه .

وهناك جندي بسيط في مسرحية « أنتيجونا » شبيه جداً بهذا الكورنثي ، فهو مستقل الرأي واضح الحديث وعلى جانب من الدهاء والحنق ومولع بمناقضة آراء الغير ، وكان عليه أن يبلغ كريون أن أحد الناس قد عصا أمره ودفن جثة الخائن ، فثار كريون ثورة عارمة وأرغى وأزبد عن الخيانة والفساد ثم انقلب على الحارس التعس وأخبره أنه إن لم يأت

بالمذنب فلا بد من إعدامه شنعاً ليكون هذا درساً يعلمه معنى قبول الرشاوى .

الحارس : هل يمكنني أن أقول شيئاً أم يجب على أن أذهب فحسب ؟

كريون : أأست تعرف حتى الآن أن كل كلمة منك تسوءني ؟

الحارس : أين تؤذيك ؟ أفي أذنيك أم في نفسك ؟

كريون : لماذا تتقصى موضع استيائنا ؟

الحارس : إني أبعث الآسى إلى أذنيك فحسب أما المذنب فهو الذي يجلب الحزن لعقلك .

كريون : تبتاً لك فلست إلا ثرثاراً .

الحارس : (ببراعة) أليس هذا برهاناً على أنني لم ارتكب هذه الفعل ؟

كريون : بلى لقد ارتكبتها ! لقد بعث نفسك من أجل المال .

الحارس : وا أسفاه ! إنه لشيء مريع أن يظفر الإنسان إلى الاستنتاج الخاطئ .

إن بيان سوفوكليس الساحر أخذ يشغلنا عن موضوعنا أكثر مما ينبغي ، فقد كنا نتكلم عن الحياة الريفية ، والأدلة هي من قبيل ما ذكرناه . وليس هناك كثير سواها . غير أننا قبل أن نتجه إلى حياة المدن دعنا ننظر في شاهد من شواهد القبور عثر عليه في أخارناى وهو الإقليم الجليل في أتيكا الذي كان يأتى منه الفحم النبأى . (والمفروض) أنه شاهد يخلد ذكرى عبد مات ، وهو مكتوب بالنثر العادى ماعدا الصفة الهومرية المستعملة مع « آثينا » .

هذا النصب التذكارى الجميل يشير إلى قبر مانيس بن أوروماس .

لقد كان أحسن « فروجى » في آثينا ذات حلبات الرقص الواسعة .

وأقسم بزيوس أنى لم أر قط خطأً أفضل منه سواى . لقد قتل في الحرب .

والآن يمكننا أن ندخل في معترك الحياة الصاخبة في آثينا . وليست الصعوبة فيها هي ندرة الأدلة بل وجود ثغرات عارضة مربكة في تلك الأدلة ، وما الدليل على ذلك ؟

إننا نجد في الأدب الإغريقي أولاً وقبل كل شيء مسرحيات أريستوفانيس والأجزاء الهامة الباقية من ملاهي منادروس (ولو أنها تقع خارج نطاق العصر الذي ندرسه) وبعض مؤلفات كسينوفون وهي دون ذلك في الأهمية مثل كتاب « الاقتصاديات » الذي ذكرناه وكتاب « الذكريات » (مذكرات سقراط) وآرائه الفلسفية (حديث المائدة) والإيرادات (مالية آثينا العامة) وخطب ديموستينيز الخاصة بالمحاكم (وهي ليست جميعاً لديموستينيز فعلاً ولكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً) وكثير من المناظر التي تعج بالحياة عند أفلاطون ولا سيما آرائه الفلسفية الرائعة ، وشخصيات ثيوفراستوس theophrastus اللاذعة المسلية وهي التي ينبغي ألا يظل يجهلها أي شخص له اهتمام بالإنسانية مدة تزيد على عشرة دقائق إن كان ذلك في إمكانه . كل ما ذكرناه من أحسن ما يقرأ ولو أن واجبنا أن نقول إن بعض من قاموا بترجمته قد نشروا ستاراً من العظمة بين القاريء وبين الأصل الإغريقي . ومن بين الأدلة الأخرى عدد وفير من أصص الزهر المزينة بمناظر من الحياة اليومية وكذلك بعض النقوش والرسوم الجنائزية .

إن من الحق أن نحاول تلخيص كل ذلك في صفحات قليلة . وأولى بنا أن نتناول بالدرس قليلاً من النقاط العامة وأن نذكر ما نستطيع من معلومات دقيقة بمناسبة هذه الدراسة : —

« لا تقل عن أي إنسان إنه سعيد إلا بعد موته » قد مرت بنا هذه الحكمة من قبل ، وإن أية معرفة مهما تكن سطحية بالحياة الإغريقية والآثينية تعيننا على توضيح سبب ذيوها .

إن الحياة ومن ثمة التفكير قد قام بالقرب من الصخرة التي يقيم فيها العوز ونوع من صعوبة العيش ، فكانت النتيجة نوعاً من الشدة لها ما بعدها من رد الفعل ، فقد كان من الممكن أن يسبب القحط المحلي أو الفيضان مجاعة محلية . ففي سنة ١٩٣٠ حدث أني كنت سائراً وسط البيلوبونيز وبينما كنا نشترى زاداً من إحدى القرى نهنا دليلنا إلى ضرورة شراء خبز إضافي لأن المحصول الزراعي في القرية التالية وهي على مسيرة نصف يوم كان قد أصيب بالبلل إلى درجة جعلت الخبز هناك لا يصلح للأكل . هذا ما حدث ، فالذي يفيض عما يقيم أود الحياة هو من الضالة ، كما أن مصاريف النقل هي من الارتفاع ، بحيث أن حادثاً يقع لسوء الحظ كتلف المحصول لا يمكن إصلاحه .

ثم كانت الحرب وقد اضرت بنا كثيراً أما بالنسبة للإغريق فقد كانت أسوأ من وجوه كثيرة . وقد سجل كسينوفون في « الذكريات » محاورة بين سقراط ومن يدعى « أريستارخوس Aristarchus » وهو من ملاك الأرض الأغنياء ، ولكن الأعداء كانوا قد احتلوا كل أملاكه بحيث لم يضع كل إيراده فحسب بل إن أربع عشرة سيدة من قريباته اللاتي فررن من الأعداء أصبحن تحت رعايته . إن الدولة الحديثة تبذل قصارى جهودها لابتكار الوسائل المختلفة لتخفيف وقع مثل هذه الضربات على الأفراد ، أما البوليس الإغريقية بمآلتها البدائية وممارستها للمذهب الفردي بحذايره لم تقم حتى بمحاولة ذلك . فهذا أريستارخوس يقول « أنا لا أعرف كيف أستبقيهن على قيد الحياة ، ولا يمكنني أن أقترض لعدم وجود ضمان لدى ، ولا أستطيع أن أبيع أثاث بيتي إذ ليس هناك من يشتريه » . وقد اقترح سقراط حلاً بسيطاً قائلاً « إن النساء يعرفن بطبيعة الحال كيف يغزلن ويصنعن الثياب ، كما أن هناك سوقاً للثياب ، فأشترصو ذاً ودعهن يشتغلن » ففعل أريستارخوس ذلك ثم عاد يقول بعد ذلك إن النساء يشتغلن بنشاط وإنهن أكثر بهجة ولطفاً كما أنهن يكسبن من المال ما يكفي للإنفاق عليهن ، وكانت شكواه الوحيدة

أنهن كن يتهمنه بأنه يحيا حياة الكسل . فقال سقراط « آه ، أقصص عليهن قصة الشاه التي كانت تشكو من أن كلب الحراسة لا يعمل شيئاً » .

وهذه قصة أخرى من قصص الحرب وردت في الفصل ٥٦ من كتاب ديموسثينيز، ذلك أن رجلاً يدعى يوكسيثيوس نبذه زملاؤه من أهل المدينة بعد فحص موضوعه فحصاً دقيقاً على اعتبار أنه غير مولود قانوناً في أثينا ، فلجأ للحكمة محتجاً بأنه قرار ظالم وأنه يودى به إن صح إلى الخراب ، إذ يهوى مركزه إلى مستوى الأجنبي المقيم ، وهو بهذه الصفة لا يستطيع امتلاك الأرض كما يصبح خاضعاً لبعض القيود الأخرى التي يصبح جداً أن تودى بمعاشه (وقد قيل أحياناً إن مثل هذا الرجل كان عرضة لأن يباع بيع الرقيق والظاهر أن هذا خطأ) وقد جاء في جانب من الأدلة التي كانت ضده أن أباه كان يرطن رطانة أجنبية (غير آثينية . وهو أمر شائق يدل على أن كل الآثينيين الصميمين كانت لهم نفس اللهجة — بخلاف اللندنيين — كما كانوا نفورين بذلك . غير أن المدعى عليه ذكر أن أباه أخذ أسيراً أثناء حرب البيلوبونيز وبيع على أنه عبد في لوكاس (بالقرب من كورفو) وعاش هناك أعواماً كثيرة فتأثرت لذلك لهجته الآثينية بطبيعة الحال . وقد نال حريته على يدى مثل تصادف أن كان يزور لوكاس وقد دفع أقاربه هنا فديته وعاد إلى وطنه . فإذا صحت هذه القصة فإننا نستطيع أن نحرز أن العبد الآثيني أمكنه أن يقابل الممثل الآثيني الذي أخبر أقارب العبد عن مكانه . أما إن كانت القصة موضوعة فإن مؤلفها على الأقل كان يتوقع أن يصدقها الناس وإن كان يبدو أنه أبرز الدليل على صحته .

وبالإضافة إلى ما كانت تأتي به الحرب من أحداث كانت هناك أخطار في البحر من القرصان لا سيما بعد سقوط الإمبراطورية الآثينية اليقظة . ففي الفصل ٥٣ من ديموسثينيز أن رجلاً انطلق للبحث عن العبيد الآبقين

فأسرته سفينة مسلحة وصفدته بالإغلال (مما أضر بساقيه ضرراً بليغاً) وباعته في آيجينا ، وقد كانت فديته ٢٦ ميناى Minae أو ٢٦٠٠ دراخمه . ويمكن ألا نعتبر الدراخمه من حيث قيمتها الشرائية الفعلية أقل من الجنيه بكثير . طبقاً لسعر الجنيه الحالى . وقد ذهب إلى صديق يرهن البضائع والأموال حتى يساعده على جمع المبلغ . وتساعدنا الحوادث التي من هذا القبيل على أن نفهم الأهمية التي كان يعلقها الإغريق دائماً على الصداقة . فقد كان الإنسان الذي ليس له أصدقاء عاجزاً حقاً عن الدفاع عن نفسه في مثل هذا العالم .

كما أننا نجد في الفصل ٥٢ من ديموسثينيز حادثاً مماثلاً وقع لرجل من هيراكليا يدعى لوكون Lycon كان على وشك الإبحار إلى ليبيا . فذهب إلى باسيون Pasion صاحب المصرف الذي كان يعامله مالياً (١) بصحبة شهود وتأكد من حسابه (١٦٤٠ دراخمه) وأفهم باسيون أن يدفع المال لكيفيسياديس Cephisiades من أهل سكودوس وهو شريك لوكون في أعماله وقد كان بالخارج في رحلة خاصة بشئون العمل . ولما كان باسيون لا يعرف كيفيسياديس فقد كان على الشاهدين اللذين أخذهما لوكون معه أن يثبتا شخصيته للمصرف عند عودته إلى أثينا . ثم أبحر لوكون ولكن القرصان أسروا سفينته فمات من جرح سببه له سهم أصابه . فأخذ قنصل هيراكليا في أرجوس على عاتقه رعاية أمتعته ثم طالب بعد حين بحسابه من المصرف ولكن المصرف كان قد دفعه لكيفيسياديس وفقاً لتعليمات لوكون . ونحن كالعامة نجعل نتيجة هذه الحالة لأن علماء الأزمنة التالية الذين احتفظوا بهذا الكلام لم يهتموا به بصفته وثائق بل باعتباره نماذج لأسلوب ديموسثينيز .

(١) أنظر الفصل الذى كتبه ت . س . جلوفر عن « بيت باسيون » في كتابه « من بريكليس إلى فيليب » ففيه موضوع شائق بهيج عن الشؤون المصرفية .

وهكذا نستطيع أن نقضى وقتاً طويلاً نواصل الحديث عن مصادرات وقتل ونفى جرت على نطاق واسع وإن لم نتعرض لمخاطر الثورات . ولم تكن شكوى أثينا من هذا الداء خاصة ، بمقدار ما كانت تشكو منه بعض الدويلات الأخرى ، غير أنها عوضاً عن ذلك كانت تعاني أوباً أخرى كان المواطنون الذين هم أهل للمهاجمة يعانون من صنف من الناس يفيد اسمهم الإغريقى (طفيل . Sycophant) معنى أكثر بكثير مما يدل عليه اللفظ في اللغات الحديثة ، ولدينا شكوى مرة من هذا الوباء الاجتماعى من أرسطوفانيس ومن بعده . ويسجل كسينوفون في كتابه (الذكريات Memorabilia الفصل الثانى الفقرة التاسعة) محادثة بين سقراط وصديق موسر يدعى كريتو Crito أشار إلى أنه كان من الصعب جداً أن يعيش الإنسان بسلام « لأن الناس يقيمون الدعاوى ضدى في هذه اللحظة لا لأنى أسأت إليهم ولكن لأنهم يعتقدون أنى أفضل أن أدفع لهم مالا على أن أتحمل مشاق الذهاب إلى المحكمة » . ولما كان سقراط رجلاً عملياً (كما هو دائماً في الذكريات) فقد اقترح على كريتو أن يعقد أواصر الصداقة مع رجل يدعى أرخيديموس وهو ذو مقدرة ونزاهة عظمى كما أنه خطيب مفوه ولو أنه فقير إلا أنه كان يكره الطرق السهلة التى تؤدى للثراء . ولهذا كان من عادة كريتو أن يدعو أرخيديموس Archedemus كلما قام بتقديم قربان (وهو تصرف جدير بالملاحظة) . وفى مقابل ذلك وجه أرخيديموس عنايته إلى بعض هؤلاء « الطفيليين » فكتشف بعض المخالفات التى ارتكبوها وأخذ يقاضيههم بلا رحمة بمعونته بعض المواطنين الذين كانوا قد أرغموا على دفع أتاوات لهم تفادياً لاتهاماتهم ، مما ألجأ هؤلاء إلى الوعد بترك كريتو وشأنه وإلى دفع مبلغ لأرخيديموس فضلاً عن ذلك . وحين عيره الناس بأنه متطفل على كريتو كان رده « أيهما أشرف ، أن تكون صديقاً للأمناء وعدوا للخبيثاء أو أن تجعل الأمناء أعداءك والخبيثاء أصدقاءك ؟ » .

ولدينا صورة لمثل هذا الطفيل ، وهو ستيفانوس Stephanus ، فى خطبة عنوانها « ضد نيارا Neara » مكتوبة بأسلوب شيق وإن تكن منافية جداً للأخلاق (الفصل ٥٩ فى ديموستينيز ولو أن من الجائز أنه لم يكتبه) فقد وصف ستيفانوس فى هذا الهجوم العنيف بأنه يفرض الأتاوات على الناس ويعيش على المال الذى تكسبه زوجته من طرق غير شريفة ، وقد زوج بناتها العديداً للمؤسسات بطرق غير قانونية من مواطنين آثنيين ، فقد كان يتظاهر زوراً بأنهن بناته من أم آثينية . وقد قال عنه الرجل الذى يقاضيه إنه لا يحصل على دخل يذكر من الحياة السياسية لأنه لم يكن معدوداً من الخطباء المنظمين ، بل كان متطفلاً يجلس بالقرب من المنصة يعلن الاتهامات ويقدم المعلومات لمن يستأجرها ويضيف اسمه إلى مقترحات الآخرين . ثم تعرض له كاليستراتوس Callistratus وهو من زعماء رجال الحكم إذ ذاك ، ولو أنه لم يكن حسن الحظ فقد حكم عليه فى آخر الأمر بالإعدام فى لحظة من لحظات غضب الشعب ، لأن رجلاً حديث النعمة من أهل تساليا قام بغارة بحرية على يبريه .

وينبغى ألا نصدق دائماً الاتهامات التى كانت توجه فى المحاكم الآثينية دون تحفظ . ومع ذلك فإن الشكاوى من التآمر وشهادة الزور كانت شائعة جداً كما كانت مؤيدة بالحجة والدليل فى بعض الأحيان بحيث أنه لم يكن من الممكن أن تكون مجهولة أو أن يكون من الصعب على رجال من ذوى التصميم والمهارة أن يستغلوا بهذه الطريقة « محاكم الشعب » هذه التى تتألف من الهواة . وقد كان من الصيغ العادية التى تتردد عادة « لقد خدعكم تماماً هؤلاء الأوباش الذين لا مبدأ لهم إلى حد أن » مثال ذلك أن أبولودوروس Apollodorus أحد الذين اتهموا ستيفانوس فى هذه الخطبة روى أنه كان عضواً فى البولية Boulê عندما قرر المجلس أن يرسل كل قوته إلى أولينثوس Olynthus ولهذا اقترح « أبولودوروس » أنه مادامت أثينا فى حرب فينبغى أن يحول الدخل الفائض من المال المخصص للمهرجان إلى الحرب .

ولما كان هذا مطابقاً للقانون فقد أقر المجلس الاقتراح دون معارضة .
ولكن استفانوس هاجمه على أنه غير دستوري وقدم شهادة زور ليؤيد تهمة أن
أبولودوروس كان مديناً للخزانة سنين كثيرة ، ولهذا أصبح ممنوعاً من تقديم
أى اقتراح فى المجلس » وقد كان قرار المحلفين فى صالحه لتقديمه كثيراً من
الاتهامات التى لم يكن لها علاقة بتأتا بالموضوع » ورغم توسلات
أبولودوروس فقد طالب استفانوس بغرامة هائلة قدرها ١٥ « تالنت »
(يمكننا أن نقدرها بحوالى ٧٥٠٠٠ جنيه) وهى على حد قول أبولودوروس
تبلغ خمسة أضعاف ما كان يمتلك ، ولو أن الغرامة لم تدفع فى خلال السنة
لتضاعفت ولصودرت كل أملاكه ولا تتهى الأمر بأبولودوروس وأسرته إلى
التسول ، ولما تزوج أحد من ابنته ، ولكن المحلفين خفضوا الغرامة إلى
« تالنت » واحد استطاع أن يدفعه بكل مشقة قائلاً : « إني أشكركم على
ذلك فغضبكم أيها السادة لا يرجع إلى المحلفين الذين خدعوا بل إلى الشخص
الذى خدعهم » ثم استمر فى حديثه قائلاً « ولذلك فإن لدى داعياً قوياً
لتقديم هذه الدعوى ضده » وقد كان المتقاضون يتكلمون بصراحة تامة عن
رغبتهم فى الانتقام لسببين على الأقل ، فإن هذا التفسير عند تصديقه كان يدفع
عنهم شبهة كونهم « طفيليين » كما أن طلب الانتقام كان مسألة شرف وكرامة
شخصية .

أما فيما يتعلق بيوكسيثيوس Euxitheus الذى ذكرناه منذ قليل فهناك قصة
شائعة يبدو أنها صحيحة . ذلك أن المستأنف (على حد قوله) كان قد أساء إلى
سياسى عنيف عديم الذمة يدعى يوبوليديس Eubulides ، إذ كان قد شهد
ضده فى قضية خسرها يوبوليديس بأغلبية أصوات كبيرة فكان انتقام
يوبوليديس هو أن يدبر شطب يوكسيثيوس من السجل لأنه إذا أمكن إثبات أن
المدعى قد تسلل إلى السجل بطريقة غير قانونية فإنه كان معرضاً لأن يباع
بيع الرقيق وتصادر ممتلكاته . ويلوح بصورة غامضة أن طريقة يوبوليديس

كانت مألوفة ، فقد تصادف أنه كان عضواً فى البولية وبهذه الصفة طلب
اجتماع أهل الناحية لفحص السجل وأضاع أكثر اليوم فى إلقاء الخطب
وصياغة القرارات بحيث أن التصويت الفعلى لم يبدأ إلا فى وقت متأخر
جداً ، وكان الظلام قد حل قبل أن ينادى على المدعى وهو الذى فاجأه
الموضوع كله فى الظاهر . وكان أكثر رجال الناحية قد ذهبوا إلى بيوتهم
لأن أكثرهم كانوا يقيمون فى الواقع فى ناحية تبعد عن المدينة بأربعة أميال
تقريباً ، ولم يبق معه إلا الذين كان يوبوليديس قد أغراهم على البقاء بالرشوة ،
ورغم احتجاجات المدعى فقد أصر يوبوليديس على أخذ الأصوات « ولم
يكن الذين أعطوا أصواتهم أكثر من ثلاثين ولكن عند إحصاء الأصوات
بلغت أكثر من ستين حتى أننا دهشنا جميعاً » ولا عجب فى ذلك . وعند
قراءة هذه الخطب الممتعة يحسن بنا أن نتذكر شيئين ، أحدهما واضح إلى
حد كبير وهو أن الإنسان يقابل فى دور القضاء محتالين أكثر مما يجد فى
المجتمعات العامة ، وثانيهما هو العصر الذى تنتمى إليه وهو منتصف القرن
الرابع . وهما يقدمان لنا فى الحقيقة دليلاً وافياً على الحجة التى أوردناها فى
الفصل الخاص « باضمحلال البوليس » . فقد كانت الحياة فى أثينا من التعقيد
بحيث أن فكرة الهواية التى كانت تمتاز بها البوليس لم تعد مجدية تماماً ، إذ
أن أوان النظرية التى قام عليها الدستور الآثينى ، ومثله فى ذلك مثل
الدستور الأمريكى — كان قد فات .

ومن الممكن أن نذكر الكثير عن الأعباء والمضايقات التى كانت
المصالح العامة تورط فيها الأغنياء وكذلك ضروب القلق والمخاطر التى
كان منصب الدولة يعرض لها الرجل الفقير ، غير أن هناك جوانب
أخرى من الحياة تتطلب الاهتمام . وإنه لمن الخطأ أن نناقش مخاطر
الحياة العامة ما دام الجانب العادى فيها والذى لا يتميز بأية أحداث
لم يسجله التاريخ ، وقد ذكرنا ما يكفى لبيان أن الحياة حتى فى أثينا لم تكن

من الأمن والرتابة بحيث يمكن أن توصف بالسخف . فالواقع أن الانتقال من حضارة سوفوكليس وأفلاطون التي تنسم بالسكالم إلى الحياة الإغريقية في حالتها البدائية هو نوع من التجربة التي تشبه القصاص العقلى .

إن اهتمام غالبية الرجال موجه للمرأة أما غالبية النساء فاهتمامهن موجه لأنفسهن . ولندرس إذن مركز المرأة في أثينا . أن الرأى المسلم به وهو الذى لم يجد فيما أعلم أحداً يناوئه إلا « أ . جوم » (١) هو أن المرأة الأثينية كانت تعيش في عزلة شبه شرقية كما كان ينظر إليها بقليل من الاعتبار إن لم يكن بازدراء .

والدليل على ذلك مستمد من الأدب مباشرة من جهة ومن مركز النساء القانونى من جهة أخرى وهو دون مركز الرجال . فالأدب الإغريقى يرينا مجتمعاً كله من الذكور وليس للحياة المنزلية دور فيه . والملمهة القديمة تعالج كل ما يتصل بالرجال وحدهم تقريباً (فيما عدا « لوسستراتا » Lysistrata « والنساء فى البرلمان » وهما من القطع الأدبية الشاذة) والمتجادلون فى محاورات أفلاطون هم دائماً من الرجال ، ومأدبة أفلاطون وكسينوفون ترينا بجلاء أنه عندما كان يحتفى أحد سرة القوم بضيوفه كانت تحضر هذه الندوات من النساء من لم يكن قد بقى لها شرف إلا سمعتها المهنية . وقد كانت شهادة الشهود فى قضية ناييرا بأن إحدى الزوجات تناولت العشاء مع ضيوف زوجها وشربت معهم خمرأ دليلاً على أنها عاهرة . وقد كان البيت الأثينى مقسماً إلى « غرف للرجال » و « غرف للنساء » وكان القسم المخصص للنساء مزوداً بالمرابيح والقضبان (كما فى كتاب الاقتصاديات لكسينوفون) ولم تكن النساء تخرج إلا تحت الرقابة الشديدة إلا إذا ذهبن لحضور إحدى حفلات النساء . وفى مأساتى (الكترا) أنتيجون لسوفوكليس) أمرت الفتيات

(١) فى كتابه ، مقالات فى التاريخ والأدب ، طبعة بلاكول ؛ ١٩٣٧ .

مرتين بفضاظة أن يدخلن البيوت فهى المسكان المناسب لهن . وقد اقتبس جب عند تعليقه على أنتيجونا ٥٧٩ نبذة شعرية تقول « ولا تجعل فى الإمكان رؤيتها خارج المنزل قبل زواجها » ، كما أنه اقتبس من لوسستراتا التي كتبها أريستوفانيس « إن من الصعب على المرأة (المتزوجة) أن تهرب من بيتها » . ولقد كان الرجل هو الذى يتولى الشراء من الحيوانات ويعطى ما يشتريه لخدمته كي يحمله (والرجل الوضع فى ثيوفراستوس كان يحمل كل ما يشتريه إلى البيت بنفسه) وفى ملاهى متاندر (القرن الثالث ق . م) نجد أن الشاب الذى أحب فتاة حباً رومانتيكاً كانت مقابله لها فى مهرجان باستمرار ، ويفهم من هذا ضمناً أن فرصة الاستهداف لهذا العناء لم تكن تواتيه إلا قليلاً فى الحياة الاجتماعية العادية . (ولعلنا نذكر أن إيسخوماخوس الوقور « اختار » زوجته الصغيرة ، مما نفترض معه أنه كان قد رآها قبل ذلك على الأقل . كما أننا نسمع من ثيوفراستوس أن الشاب قد يناجى محبوبته بأغنية بالليل) على أن ألوان المحبة الرومانتية التي نسمع عنها فى الواقع هى مع الغلمان والشبان ، وهى مما يتردد على مسامعنا بكثرة . وقد كان حب أفراد من نفس الجنس يعتبر أمراً طبيعياً ويعامل بنفس الصراحة التي يعامل بها حب أفراد من الجنس المخالف ، (وقد كانت له ناحيته السامية وناحيته الوضيعة مثل النوع الآخر) . ولأفلاطون بعض النبذ الجميلة التي يصف فيها ملاحه الغلمان وحياءهم والسرقه والاحترام للذين كان يعاملهم بها الرجال (١) . وقد كان والدا الفتاة هما اللذان يدبران أمر زواجها . وقد رأينا من نظرتنا الوجيزة إلى إيسخوماخوس كما أورده كسينوفون أنه على الأقل لم ينظر إلى الزواج على أن فيه متعة كبيرة ، فالزوجة هى مديرة شئون البيت وليست

(١) تخيل الذين يجدون هذا الموضوع شائقاً أو هاماً إلى كتاب « الحياة الجنسية فى بلاد الإغريق القديمة » بقلم هانس لخت .

أكثر من ذلك بكثير ، بل إنه يقول نعلنا أنه يفضل أن تكون زوجته الصغيرة جاهلة تماماً حتى يعلمها بنفسه ما يريد منها أن تعرفه . وكانت الفتيات محرومات من التعليم . وقد كان الآثيني يتجه إلى طبقة النساء الأجنبية المثقفات ثقافة راقية إن أراد صحبة النساء الذكيات ، وهن في الغالب من الأيونيات اللاتي كن يعرفن باسم « الخليلات » . *hetaerae* . وقد كن يشغلن مركزاً وسطاً بين السيدة الآثينية والعاهرة . وقد كانت أسباسيا *Aspasia* خلية بريكليس الشهيرة تنتمي إلى هذه الطبقة . واسمها بالمناسبة معناه « مرحباً » . وهكذا نقرأ عند ديموستينيز قوله « إننا نتخذ الخليلات من أجل المتعة والمحظيات (الجوارى) من أجل العناية اليومية بأشخاصنا ونتخذ الزوجات ليلدن لنا أطفالاً شرعيين وليكن حارسات أمينات على بيوتنا وأسراننا » . وفي الختام إن أى وصف لمركز المرأة في أثينا لن نفيه حقه دون الإشارة إلى بريكليس وأرسطو ، فقد قال بريكليس في خطبته التأبينية « إن أحسن صيت يمكن أن يكون للمرأة هو ألا يتكلم الرجال عنها بخير أو بشر » . ومن رأى أرسطو (في كتاب السياسة) أن الذكر المتفوق بحكم الطبيعة وأن الأنثى أقل منه ولهذا فالرجل يحكم أما المرأة فتحكم .

ولهذا فإن رأى يكاد يجمع كما قلت على أن المرأة الآثينية كانت تتمتع بحرية ضئيلة جداً بل إن بعض الكتاب قد ذهبوا إلى حد التحدث عن « الازدراء الذى كان يشعر به الإغريق المثقفون نحو زوجاتهم » . ويقتضينا صدق رأى أن نقارن كبت النساء في أثينا بالحرة والاحترام اللذين كن يتمتعن به في المجتمع الهومرى وفي إسبرطة التاريخية .

ويبدو أن الدليل القانوني يؤيد ما ذكرناه فالمرأة لم تمل حقوقها السياسية والمدنية ، أى أنها لم تكن تستطيع حضور الجمعية العامة أو شغل الوظائف العامة ، ولم يكن لها حق تملك العقارات أو إدارة الأعمال بصفة قانونية . وكان

يجب على كل أنثى منذ ولادتها إلى أن تموت أن تكون تحت وصاية زوجها أو أقرب أقاربها الذكور ، وقد كانت لا تتمتع بأية حماية قانونية إلا عن طريقه فقط . وكان ولى الأمر يزوج المرأة ويقدم صداقها للزوج . وكان يرد الصداق إلى ولى الأمر مع الزوجة عند الطلاق . وأعظم نص قانوني بعداً عن محيط أفكارنا هو الذى كان يتعلق بالإبنة التى ترث والدآ قد مات دون أن يكتب وصية ، فقد كان أقرب أقاربها الذكور له الحق فى طلب الزواج منها ، فإن كان متزوجاً من قبل ، كان من حقه أن يطلق امرأته لكي يتزوج من هذه الوريثة ، (ينبغى علينا أن نبين أن قانون أتيكا كان يعترف فى جميع الأحوال بزواج العم من بنت أخيه أو الخال من بنت أخته بل كان يعترف بزواج الأخ من أخته غير الشقيقة) وإلا أصبح أقرب أقاربها الذكور وصياً على الوريثة وعليه أن يزوجها بصداق لائق . والواقع أن الرجل الذى لم يكن له ولد كالم يكن له أمل فى إنجاب ولد ، كان يتبنى فى العادة شاباً لا طفلاً ، على أن يكون مثلاً أخا الزوجة أو زوج الأخت ، لأن الغرض من التبنى لم يكن إرضاء لعاطفة أو شفاء لمرض نفسى ، بل كان الغرض أن يترك من ورائه رئيساً صالحاً للأسرة ليواصل حقها المشروع فى البقاء وممارسة شعائرها الدينية . ولكن من الواضح أن كثيراً من الرجال توفوا قبل أن تتضح لهم ضرورة التبنى ، فبقيت لهم وريثات . وقد أكد لنا إيسايوس *Isaeus* (وهو خطيب تخصص فى قضايا الميراث المتنازع عليه) أوأ كدلمستعميه ، والمعنى قد لا يكون واحداً فى الحالتين ، « أن كثيراً من الرجال سرحوا نساءهم » ليتزوجوا من وريثات . وفيما عدا ذلك كانت قوانين الطلاق تطبق على الأزواج والزوجات بنزاهة لا غبار عليها وإن لم تكن نزاهة مطلقة . « وكان يمكن فسخ أى زواج لا يعقب ذرية متى طلب ذلك أقارب الزوجة » على حد التعبير الدقيق لجب .

هل بقي لنا أن نذكر شيئاً أكثر من ذلك؟ فإذا أضيف الدليل القانوني إلى الدليل المستمد من الأدب — وأظن أن هذا الملخص الموجز بالضرورة يصورهما معاً — ألا يكون واضحاً جداً أن الآثني كان يعامل نساءه بكثير من عدم الاكتراث الذي لا يمكن أن تكون لفظة احتقار قاسية إذا استعملت بدلاً منه؟ هل يمكننا أن نشك في الأدلة القائلة بأن النساء في هذا المجتمع الذي كانت فيه الغلبة للذكور كن يتحركن في دائرة محدودة جداً بحيث يمكننا إلى حد كبير أن نعتبرهن « طائفة » مهيضة الجناح؟

كثيراً ما نجد في القصص البوليسية أن رجل البوليس السري ينتهي إلى نقطة يكون عندها ملماً بجميع الحقائق التي يرى أنها تفضي به إلى نتيجة واحدة، ولا يكون هناك مجال للشك على الإطلاق سوى أن بيننا وبين نهاية القصة عشرة فصول. أما رجل البوليس فيحس إحساساً غامضاً بالقلق، فع أن كل شيء في موضعه إلا أنه يبدو خاطئاً فلا بد أن هناك شيئاً في ناحية ما لم يكتشفه بعد.

أنا أعترف أن شعوري يماثل شعور هذا الرجل. والخطأ هو تلك الصورة المرسومة عن الرجل الآثني. لقد كان الآثني أخطأه ولكن أبرز مزاياه كانت ذكاه اللامع وحبسه لمعاشرة الناس وإنسانيته وحيه للاستطلاع. فالقول بأنه كان عادة يعامل نصف أبناء جنسه دون أكثر احتقاراً بل باحتقار لا معنى له في رأي، فمن الصعب أن نرى الآثني أكثر احتقاراً للمرأة مما يعزى إلى رب الأسرة الروماني.

دعنا أولاً نتناول قليلاً من الاعتبارات العامة التي قد تغرينا بشيء من التردد. أما فيما يختص ببلاد الإغريق فإن أكثرنا إمعاناً في الهيكلية ما هو إلا شخص أجنبي. وكلنا يعلم كم يبعد تقدير الأجنبي وإن كان ذكياً عن الحقيقة

فإنه يرى حقائق لا يمكن إنكارها ولكنه يسيء تفسيرها لأن خبرته العقلية مختلفة كما أنه لا يرى الحقائق الأخرى. مثال ذلك أن الفرصة سنحت لي مرة للحصول على تحليل للخلق الإنجليزي من شاب ألماني لم يكن ينقصه الذكاء، وقد كان يعرف إنجلترا بريفها وحضرها معرفة لا بأس بها. وقد قال لي إن الإنجليز يلعبون الكريكت لفائدته الصحية باعتبار ذلك أمراً واضحاً بالبداهة. وعندما ذكرت له في أثناء المناقشة تلك الزهور التي يحب كل صاحب كوخ أن يزرعها وجدت أنه كان يحسبها زهوراً بريّة، وقد كانت صورته عن الرجل الإنجليزي مضحكة للغاية بطبيعة الحال. ونحن نعتقد أن لكل فرنسي خلية (ودليلنا هو الروايات والمسرحيات الفرنسية) وأن كل فرنسي لا يحب زوجته (فكل الزيجات الفرنسية وليدة المصلحة) وأن الحياة المنزلية في فرنسا لا وجود لها (فالرجال يتجمعون في القهاوى التي لا تغشها السيدات الفضليات) وأن مركز المرأة الفرنسية القانوني أقل بكثير من مركز المرأة الإنجليزية وأن النساء في فرنسا بناء على ذلك أقل حرية واحتراماً ونفوذاً مما في إنجلترا — وقد اعتدنا أن نسمع هذا الرأي ونعلم مقدار ما فيه من سخف، فما أيسر ما يفوت الأجنبي أن يرى الشيء الهام.

وهناك نقطة عامة وهي المغالطة القائمة على افتراض أن ما ليس عندنا دليل عليه (أي الحياة المنزلية) لم يكن له وجود، فإننا لا نعرف إن كان قد وجد أو لم يوجد. ولكن هل من الممكن أن يسكت الأدب الإغريقي عن الحياة المنزلية إن كان للحياة المنزلية أية أهمية؟ إن الجواب المنتظر هو « لا » أما الجواب الصحيح فهو « نعم ». إن الحجة التي يدل عليها الصمت في أي أدب حديث حجة قوية جداً ولكنها ذات قيمة ضئيلة جداً في الأدب الإغريقي. لقد لاحظنا كيف أن هومر يمتنع عن رسم المناظر التي خلف الصورة وهي التي كنا ننتظرها منه، بينما يعطينا ملابسات لا تتوقعها. وقد لاحظنا كيف أن الشعراء المسرحيين يشتغلون بالإلشاء

لا بالتصوير، ففي مسرحية أجاممنون لا يرينا إيسخولوس الطرقات والسوق وبيوت المواطنين العاديين ورعاة الغنم والطباخين وخدم المطبخ الذين يعملون في القصر. ولسنا نستنتج من ذلك أن هؤلاء لم يكن لهم وجود ولا أن إيسخولوس لم يكن عنده اهتمام وشغف بهذه الأشياء. فإننا نستطيع أن نرى في الحال أن هذه الأشياء لا تدخل في مسرحيته لأنه لم يكن هناك ما يدعوا إلى ذلك، فكل الفن الكلاسي الإغريقي كان له معيار دقيق عن كل ما يتصل بالموضوعات التي يعالجها.

فالنقطة المتصلة بالموضوع هي مادة الأدب في ذلك العهد. وإذا لم نأخذ حذرنا فإننا نفكر في الأدب بدافع من غريزتنا باعتباره يشتمل على الروايات وتواريخ الحياة والرسائل واليوميات، أي يشتمل بكل إيجاز على الأدب الذي يختص بالأفراد سواء كانوا حقيقيين أو خياليين. أما الأدب الإغريقي الكلاسي فهو لا يدور حول الفرد بل هو «سياسي». والواقع أن الأدب الوحيد الذي لا نعرفه ولا يعتمد على القواعد المقررة هو «الذكريات Memorabilia»، «لكسينوفون» و«المأدبة» وهما لاترعمان أنهما سيرة سقراط الحقيقية وإنما تعالجان بصراحة قصة سقراط الفيلسوف. ألسنا نجد أن شخصية إيسخوماخوس التي صورها كسينوفون غير رومانتيه إلى حد ما؟ ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق أن كتبناه عن هذه النقطة أن كسينوفون لم يكن يكتب عن الحياة الزوجية في أثينا وإنما كان يكتب عن التدبير المنزلي مثله كمثل مسز بيتون.

ثم إن هناك نقطة أشار إليها «جوم» بكل حذق وهي أن أدلتنا شحيحة وأن من السهل إساءة تفسير ما لدينا. ويجمع جوم نحو إثني عشر قولاً مأثوراً عن النساء والزواج مختارة من أقوال كتاب القرن التاسع عشر تعطى فكرة زائفة إن لم ننظر إليها في ضوء جميع الملابس ونقرها وفقاً

لها وهو أمر في إمكاننا. خذ مثلاً قول بريكليرس المأثور الذي ظل يتردد صده خلال العصور. إنه نموذج على الاحتقار الذي كان يشعر به الآثينيون نحو النساء — هذا جائز ولكن افرض أن جلادستون كان قد قال «أنا لا يهمني أن أسمع اسم سيدة يتردد هنا وهناك في أحاديث الناس سواء كان ذلك بخير أو بشر» فهل يتضمن هذا القول معنى الاحتقار أو الاحترام والأدب اللذين قد عفا عليهما الزمن.

وقد قيل أيضاً إن القاعدة التي كانت متبعة في أثينا هي الإشارة إلى المرأة المتزوجة لا باسمها (كما لو كان مثلاً كليوبوليه) بل باعتبارها «زوجة نيكاتور» فالمرأة الآثينية، تلك المسكينة، لم يكن لها حتى اسم معروف بل كانت مغمورة! هذا صحيح ولكن عندنا نحن (معشر الإنجليز) عندما تتزوج شايلا جاكسون تصبح مسز كلارك. نعم يظل اسمها فعلاً شايلا عند صديقاتها ولكن لا يذكرها أحد باسم شايلا جاكسون — فعلينا إذن أن نكون حذرين.

إن النقطة العامة الأخيرة التي سأذكرها ربما كانت أهم النقاط، فعندما نناقش هذا الموضوع ما الذي نتكلم عنه في الحقيقة؟ هل نقارن مركز المرأة في أثينا بمركز المرأة في مانشستر. أو نحاول أن نقدر خلق الرجل الآثيني وحضارته على أساس المركز الذي كان يجعله لنسائه (إلى حد ما)؟ إن هناك فرقاً كبيراً بين الحالتين، فإن كنا نعي الأمر الأول فن المناسب أن نقول إن المرأة في مانشستر تستطيع التصويت والاشتراك في الحياة السياسية، ولكن إذا قلنا إننا أكثر استنارة وأدباً من الآثيني لأننا نعطي النساء حق التصويت فهذا من قبيل الهراء، إذ نكون قائمين بعمل مقارنة بين تفاصيل صورتين مع تجاهل أن الصورتين مختلفتان كل الاختلاف. إن المرأة في مانشستر التي تريد أن تذهب إلى لندن تستطيع ذلك بنفس الشروط التي تسرى على الرجل

بالضبط فهي تستطيع أن تشتري تذكرتها صيفاً أو شتاء كما أن الأجر واحد بالنسبة للجميع . أما الآثني الذي كان يريد الذهاب إلى طيبة فقد كان يمكنه أن يركب بغلة . وقد كانت الرحلة عبر الجبال مرهقة وخطيرة في الشتاء . وإن أرادت امرأة الذهاب فقد كان ذلك ممكناً متى انتظرت الموسم المناسب ولو أن ذلك كان من قبيل المجازفة الخطيرة . من المعقول جداً أن تحصل المرأة على حقوقها السياسية في الدولة الحديثة وذلك أولاً لأن المدنية - إذا استعملنا الكلمة هذه المرة بمعناها غير الدقيق - قد جعلت الفروق الجسدية التي بين الجنسين ذات أهمية سياسية ضئيلة جداً ، فالمرأة تستطيع استخدام القطار والدراجة والتليفون والصحف بنفس الشروط السارية على الرجل ، وعلى العكس من ذلك أن موظف البنك أو المشرف الجامعي مادام صحيح الجسم لا لزوم لأن تكون عضلاته أقوى من المرأة العادية ، فهو يعلم أن ليس هناك من فرصة تتطلب منه أن يمشي عشرين ميلاً في الأسبوع القادم في الشمس المحرقة لابساً درعاً ثقيلاً على أن يحارب بشدة كما يحارب زميله وإلا عرض حياة زميله للخطر ، وثانياً لقد تغير مفهوم السياسة والإدارة . صحيح أن القرار السياسي كان يؤثر إذ ذاك كما يؤثر الآن في كل فرد بصرف النظر عن السن والجنس . ولكن الدائرة التي كانت تحيط بها تصرفات الحكومة كانت أضيق بكثير منها الآن . وكانت تختص بوجه عام بأمور كان الرجال وحدهم لا محالة هم الذين كانوا يستطيعون الحكم عليها طبقاً لخبرتهم وتنفيذها بجهودهم . إن من أسباب إعطاء النساء حق التصويت اليوم أن أحكامهن بالنسبة لكثير من شؤون السياسة الحالية يحتمل أن تكون مناسبة مثلها كمثل أحكام الرجال ، وربما كانت أحسن منها ، بينما لا يحتمل أن يكن أكثر جهلاً بالأمور الهامة من الرجال . كما ينبغي ألا ننسى ما يحتمل أن يعتبر فرقاً أكبر . فنحن نظن أن اعتبار المجتمع حشداً من الأفراد أمر طبيعي مع أنه ليس بالأمور الطبيعي من وجهة النظر التاريخية بل هو تطور محلي . فالرأى الطبيعي هو أن المجتمع

جمع من الأسرات ولكل منها ربها المسئول ، وليست هذه الفكرة إغريقية فقط بل هي رومانية هندية صينية تيوتونية كذلك .

من حق كل إنسان أن يقول إنه ما كان يجب أن يكون امرأة في أثينا القديمة حتى مقابل ثروة لا مثيل لها . وقد لا يأسف الإنسان على أنه لم يكن رجلاً أثينياً كذلك ، إذ أن « البوليس » بصرف النظر عن ظروف الحياة العادية فيها كانت تفرض عليه أيضاً بعض المطالب المتعبة للغاية . أما الذي ليس من سلامة التقدير فهو أن نقول للآثني « نحن نعامل النساء أفضل منكم بكثير في بلدنا (جولد رزجرين) ألا ترون أنكم أدنياء إلى حد ما ؟ »

بعد هذه المناقشة العامة دعنا ننظر إلى البراهين من جديد . سنحاول أن نتذكر المسألتين كلاهما على حده . هل تقرر العقيدة الراضخة الحقائق على وجه صحيح ؟ وإن كان الأمر كذلك فهل تستخلص منها الاستنتاجات الصحيحة ؟ أي هل كانت حياة المرأة الأثينية مقيدة ومبتورة ؟ وإن كان الأمر كذلك هل كان السبب أن الرجال ينظرون إليهن دون اكتراث أو بازدراء ؟

قد رأينا أن الدليل الأدبي نادر وأنه بمعنى من المعاني يعتبر من جانب واحد فحسب بحيث لا نطمئن إلى أنه يعطينا صورة صادقة كاملة . إنه يقرر أن الرجل إذا أقام حفلة عشاء لم تظهر فيها امرأته وأن الآثني المذهب كان يحب صحبة الرجال ، وهو يخالف في ذلك المذهبين من أهل لندن وهم الذين لم يطرق مسامعهم أن نادياً بها لا يسمح بدخول النساء بحرية تامة . ولكن هل كان الآثني يقوم بدور المضيف أو الضيف كل مساء طول العام ؟ وهل لم يكن للنساء حفلاتهن الاجتماعية ؟ لقد كان يورينديس متأثراً بفكرة وجود هذه الحفلات ، وكثيراً ما كان يقول عبارات مثل « ما أشد ضرر محيئ النساء إلى البيت للثروة » . وهل كان الآثني يتناول عشاءه على انفراد

حين لم يكن يوجد عنده ضيوف كأنه كوكلوبس في كهفه ؟ ألم يكن يخطر في باله قط أن يتحدث مع زوجته عن أى شىء سوى تدير شؤون البيت وإنجاب الأطفال الشرعيين ؟ إن ستفانوس ونيأيرا يرفعان رأسيهما الموصومتين بالعار فيقول المـدعى فى ختام خطبته للمحلفين وهم المائة أو المئتان أو الثلاثمائة : —

« أيها السادة إن برأتكم هذه المرأة فاذا عسى أن تقولوا لزوجاتكم وبناتكم عندما تعودون إلى بيوتكم ؟ إنهن سيسألنكم أين كنتم ؟ » فتجيئون « كنا فى المحاكم ، فيقلن « ماذا كانت القضية ؟ » « فتردون بطبيعة الحال » ضد نيأيرا المتهمة بأنها تزوجت آثينياً بطريقة غير مشروعة وبأنها زوجت إحدى بناتها وهى عاهرة من ثيوجينيس Theogenes قاضى المحكمة العليا . . . » وستذكرون لمن تفاصيل القضية وكيف تم إثباتها بكل دقة . فإذا فرغتم سيسألنكم « وماذا فعلتم ؟ » فتجيئون « برأتها » وعند ذلك تكونون قد وضعتم الحطب فى النار . هذا أمر طبيعى جداً وهذا هو السبب فى أنى اقتبست هذه الفقرة وهى من الأدلة البسيطة التى لدينا والخاصة بالعلاقات العادية التى بين الرجل وزوجته وبناته . والذى حدث هو بالضبط ما يمكن أن يحدث اليوم ، فلا ينتظر أن يرد المحلف على نساءه قائلاً « لقد نسيت أنفسكن ! أنكن آثينيات ممن ينبغى عليهن أن يظهرن نادراً ولا يسمع لهن صوت على الإطلاق » .

وهاك نبذة أدبية صغيرة أخرى ، فى مأدبة كسينوفون نجد أن أحد الضيوف وهو يدعى نيكرا توس Niceratus قد تزوج حديثاً ، وهو يحفظ أشعار هومر عن ظهر قلب ويشرح للمجتمعين مقدار ما أفاده من ادب هومر كالاستراتيجية والبلاغة والفلاحة وما إلى ذلك ، ثم يلتفت مزهواً إلى مضيفه قائلاً « ومع ذلك فقد تعلمت من هومر شيئاً آخر حيث جاء فى أقواله :

إن أكل البصل مستاغ مع شرب النبيذ . ويمكننا أن نختبر صحة هذا القول الآن . فدعهم يأتونا بقليل من البصل فإنكم تتمتعون عندئذ بالخمر أكثر بكثير من ذى قبل ، فيقول آخر « مرحى ! إن نيكرا توس يريد أن يذهب إلى البيت ورائحة البصل تفوح من فيه حتى تظن زوجته أن أى امرأة أخرى لم تفكر فى تقبيله » إنها ملاحظة تافهة بالطبع ولكنها بالضبط من قبيل التكت المرسلة التى قد يسمعها الإنسان أى مساء فى ناد إنجليزى أو بيت من بيوت الدعارة .

ولكن ثمة دليل لم نذكره وهو ليس بمثل هذه البساطة وهو يهدف إلى نفس الاتجاه ولا يمكن فهمه لو سلمنا بالرأى السائد . فمن المصادفات أن نجد لدينا عدداً كبيراً من الأصص المصورة (من القرن الخامس) عليها مناظر تصور الحياة المنزلية وفيها عدد من الأواني الجنائزية تمثل زوجة ميتة وهى حية تتلقى من زوجها وأولادها وعبيدها الوداع الأخير . وهناك شواهد قبور — عادية جداً — محفور عليها مناظر مماثلة . وهى فى بساطتها الجميلة التى لا تسكلف فيها من أعظم الأشياء المؤثرة التى خلقتها لنا بلاد الإغريق ، وهى ترتقى إلى مستوى نبذة أندروماخا فى الإلياذة التى سبق أن بسطتها . وأنا أنقل هنا عبارة من رسالة لجوم اقتبسها هو من مقالة (١) عن بعض القبور الآثينية . « منظر داما سترانا وزوجها وقد تشابكت أيديهما عند الفراق وثمة طفل بجوار المقعد وإحدى قريباتهم . وقد ركز كل من الزوج والزوجة عينيه فى عيني الآخر . وأنتك لتجد فى عمق نظرة الفراق الهادئة الجواب على كل الاستفسارات الخاصة بمركز الزوجة والام فى المجتمع الآثينى » . أن هومر يقول فى أبيات مشهورة من شعره « ليس أجمل من رؤية رجل وامرأته يعيشان فى حياة زوجية مخلصة ويتبادلان نفس الأفكار ، ولو أراد مصور لهومر أن يصور هذا الشعر لاتجه من تلقاء ذاته إلى هذه

(١) بقلم ج . س . بليك ريد فى المانشستر جارديان .

الصور والرسوم المنحوتة التي صنعت من أجل قوم كان تقديرهم للنساء وخاصة للزوجات تقديراً تافهاً !

ولن أتكلم عن الأصص أكثر من ذلك ولكني سأعود إلى المأساة الآثينية. إن إحدى سماتها البارزة هي التابع الرائع لبطلات المآسي — ثلاث كليمنسترات وأربع اليكترات وتكميسا وانتيجونا وإيسمينيا وديانيرا وموكاستا وميديا وفايدرا Phaedra وأندروماخا وهيكلوبا وهيلينا وكلهن متباينات الخلق بطبيعة الحال ولكنهن صورن جميعاً صوراً تفيض بالحياة وليس من يبنهن من هي جامدة كالدمية. وأكثر من ذلك أن الشخصيات التي ملئت نشاطاً ومغامرة وذكاء قد ورد ذكرها أكثر من تقيضها. وقد يقال إن الأمر طبيعي جداً في المسرحيات. ربما كان ذلك ولكن ليس مما لا مندوحة عنه أن تكون النساء عند يوريبيديس، الطبيبات، منهن والخبيثات، أكثر مغامرة من الرجال في كثير من الأحيان. فالمرأة الذكية القادرة على إحكام التدبير حينما يسقط في أيدي الرجال تكاد تكون دائماً الشخصية التقليدية عند يوريبيديس، مثل هيلينا وإيفيجينيا (في مسرحية إيفيجينيا في توريس). أما عن المغامرة فإننا نجد العبد المسن لكريوسا Creousa التي أسست معاملتها في مسرحية « إيون » هيا عليك أن تفعل شيئاً يليق بالمرأة. الجأى إلى السيف ! سمميه !! (١). إن من الصعب علينا أن نعتقد أن كتاب المسرحيات لم يصوروا بتاتاً ولو بطريق الصدفة تلك المخلوقات القاصرة التي علينا أن نفترض أنهم كانوا يعيشون بينها فعلاً، وأنهم استمدوا تلك الشخصيات التي تفيض حيوية من الكتب ومن هومر، كما لو أن كاتباً من كتاب المسرح الحديثين لم يأبه بمعاصريه بدافع الاحتقار واتجه إلى تشوسر وشيكسبير يستمد منهما شخصياته النسائية وأفلح في هذا الاتجاه. إن يوريبيديس فعلاً قد

(١) إيون — ٨٤٣ :

جعل النساء يشكون مما يلاقينه على أيدي الرجال، وكثير من ذلك يحدث في المجتمع الحديث كما كان يحدث في المجتمع القديم، وهو يجعل في الوقت نفسه كثيراً من رجال مسرحياته يقاسون الويلات على أيدي نساء محبات للانتقام لا يمكن كبح جماهن. إن بعض المحدثين يهتمون يوريبيديس بأنه من المدافعين عن حقوق المرأة بينما كان يسميه النقاد القدماء عدواً للمرأة، وهم في رأيي على حق أكثر من المحدثين. وهو لم يكن يرى على الأقل أن من الممكن إهمالهن لا هو ولا إيسخولوس أو سوفوكليس.

الآن وقد توفر لدينا من الأسباب الوجية ما يبرر ارتيابنا على كل حال في فكرة الغلو في كبت النساء وازدراأهن، دعنا نفحص بعض الأدلة من جديد كشأن رجل البوليس السري السالف الذكر. اقتبس جب قول أريستوفانيس « من الصعب على النساء الخروج » في عبارة له تتم فيما عدا ذلك عن فرض الرقابة الشديدة على الفتيات غير المتزوجات، وهذا القول يوحي بفكرة أن النساء المتزوجات أيضاً كن يحتجن احتجاجاً شديداً في بيوتهن. وأى مشغل بال الأدب الكلاسي قد يفكر في أن كسينوفون تحدث في موضع ما عن وضع المتاريس والقضبان على أبواب مساكن النساء. ولكننا لو رجعنا فعلاً إلى عبارة أريستوفانيس لاستقرت في أذهاننا فكرة مختلفة، فالعبارة قد وردت هكذا على لسان سيدة متزوجة : « إن من الصعب على النساء أن يبارحن بيوتهن مع ضرورة البقاء في خدمة الزوج واستبقاء الخادم متيقظة وغسل أجسام الأطفال وإطعامهم... » وقد سمعنا عن أشياء مشابهة لذلك في زماننا وهكذا يختفي من هذه العبارة الجانب المفرع على الأقل. ولكن ألم يكن يسمح للمرأة بالخروج ما لم يكن هناك شخص يحافظ عليها ؟ إننا نجد العون هنا من ثيوفراستوس النشط، فهو يصف بدقته المعتادة في التمييز بين الناس ثلاث شخصيات يمكننا أن ندعو كلا منها « وضعياً »، فالأولى تمثل شخصية رجل شحيح بشكل واضح، فمن خصائصه أن يأتي

قبل اليوم المعين لدفع الأجور ليظفر بثلاثة قروش تكون قد استحققت له عن قرص، كما أنه يقلب البيت رأساً على عقب إن أضاعت زوجته قطعة من ذات القرشين، وهو يمنع أى أمرىء تحدثه نفسه أن يأكل إحدى ثمار التين من حديقته أو من التقاط ثمرة أو زيتونة من بستانه، ثم هناك « صاحب الكسب الحرام » على حد تعبيره الحرفى وهو الذى ينقص المكيال والمقياس ويسىء من تغذية عبيده ويتطفل على أصدقائه بطرق حقيرة . ولكن الذى يعنيننا حالياً هو الرجل الثالث فهو يشتري حاجات الأسرة كما جرت عادة الرجال، ولكنه بدلاً من تسليمها لعبده لكي يحملها إلى البيت يحملها هو بنفسه فى إحدى طيات جلبابه القصير سواء كانت لحماً أو خضراً أو أى شيء آخر، ومع أن زوجته قدمت له صداقاً قدره ٥٠٠ رة جنيه فإنه لم يكن يسمح لها بخادم . وعندما كانت تخرج كان يستأجر فتاة صغيرة من سوق النساء لترافقها . وهذا النوع من الحقارة يعتبر *aneleutheria* أى السلوك الذى لا يليق بالرجل المهذب، ويعرفه ثيوفراستوس بأنه « نقص فى الكرامة الذاتية متى كان للأمر علاقة بالنقود » . ومعنى هذا أن السيدة كان لها الحق فى أن تجد الرفقة المناسبة عند الخروج، ويصح أن أضيف هنا شيئاً بسيطاً من ثيوفراستوس يساهم بصفة هامة فى تأييد حجتنا مع الاعتذار التقليدى عن إسفافه . فإحدى شخصياته هى « المهرج الجلف » الذى يقف عند باب الحلاق ويعلن على رؤوس الأشهاد أنه يريد أن يشرب حتى يسكر وإذا رأى سيدة قادمة رفع ثيابه وكشف عن عورته ! ولقد كانت طرقات أثينا تضم كافة أصناف الناس، وربما كانت هناك أسباب قوية تدعو إلى عدم السماح للفتيات بالسير فى الطرقات دون حراسة .

ثم إذا تمعنا فعلاً فى النبذة الخاصة بالمتاريس والقضبان نجد أن الغرض منها هو « ألا يتيسر للجوارى أن يلدن أطفالاً دون أن ندرى (١) وكذلك (١) يلاحظ كسينوفون وأرسطو أن إنجاب الأطفال يجعل العبد الصالح أكثر تودداً من سيده ومهما يكن فإن المرء يود ولا شك أن يلم بفكرة عن يولد فى بيته .

لنمنع تسرب أى شيء من أما كن إقامة السيدات بطريقة غير مشروعة » وهو ما يعيننا على أن نذكر إلى أى مدى كان يعتبر البيت الإغريق مصنعاً كذلك . فبصرف النظر عما نعهده من الأعمال المنزلية كان البيت يقوم بصنع الملابس من الصوف الخام وطحن القمح الذى يحضره الزوج وخبز الطحين وإعداد الطعام للشتاء . ويجب علينا فى الحقيقة أن نستبعد من أذهاننا فكرة وجود أكثر أنواع الحيوانات التى نعهدها، عند الإغريق، وكذلك السلع التى تنسلها فى لفافات . ومن الواضح أن وظيفة المرأة كانت ذات مسئولية عظيمة . إن هوليود تبين لنا عن طريق الموعظة والمثال أن الحب القائم على العواطف والمغامرات هو الأساس الوحيد الذى يمكن أن يقوم عليه الزواج السعيد الدائم، فهل كان الإغريق حتماً بليد المشاعر ومبغضاً لبنى جنسه لأنه كان يفكر بطريقة مخالفة ؟ لقد كان على علم بقوة الحب الرومانتى إذ كان يصفه بوجه عام بأنه شيء هدام (انظر أنتيجونا سطر ٧٨١ نظم سوفوكليس وميديا سطر ٦٢٨ وما بعده ليوريبيديس) « عندما يكون الحب معتدلاً فلا شيء أكثر منه سحراً ولكن أنقذنى من النوع الآخر ! » .

فلنسلم بأن الرجل كان له خليلاته وما هو أسوأ من ذلك، فما قولنا فى النبذة الواردة فى خطبة نيأيرا ؟ ماذا نقول حقاً ؟ لقد كانت تستخدم أحياناً كما لو كانت وثيقة معتمدة كالمستندات الحكومية — فما هى ؟ إنها ملاحظة ذكرها فى معرض المرافعة فى قضية شائنة رجل خبر الحياة لهيئة محلفين مكونة من مائة آثينى عادى أو أكثر من مائة، وكثير منهم انضم إلى تلك الهيئة ليظفر بثمانية وثلاثين قرشاً أجراً يعينه على سداد حساب بائع السمك فى آخر الأسبوع « إنهن خليلات ولا شك ! جوار حسان ! باهظات التكاليف بالنسبة لأمثالنا ! ومع ذلك فشكراً لك على مجاملتك ! » وعلى أى حال ماذا قال صاحب العبارة ؟ إن حجته كلها موجهة إلى إبراز ضخامة الجرم الذى اقترفه ستيفانوس بدس أرومة أجنبية فاسدة على الدولة .

وليس هذا من قبيل التظاهر بالنبل فهو يرجع في أصله إلى الفكرة القائلة إن البولي ليس تنتظم قوماً تربطهم وشائج القرى ، ولهذا فهو يقول « لا بأس من وجود التحليلات والجوارى ولكن حين نصل إلى الأساس الصلب الذى تقوم عليه حياة بوليسنا وجوهر وجود أسرنا كل على حده ، إلى من نتجه ؟ إلى زوجاتنا ! » إن هذه العبارة بدلا من أن تتضمن معنى احتقار الزوجة ترفعها إلى مكانة لا تدركها النساء الأخريات ، فهي تتمشى في الحقيقة مع الدليل المستمد من الرسوم الموجودة على الأصص . إن مقومات حياتنا المادية والاجتماعية المختلفة كل الاختلاف وميراثنا من القصص الرومانتيه خلال القرون ، هي التي تحملنا على أساءة تفسير مثل هذه العبارات وعلى محاولة نقض الدليل المستمد من الرسوم والمسرحيات . إن عالماً كثير الحيوية والنشاط والحساسية مثل ت . ر . جلوفر يمثل سقراط وهو يقول ما يأتى لصديق « هل ثمة أحد هو محل لثقتك أكثر من زوجتك في الشئون الخطيرة أو تتحدث إليه أقل منها (١) ؟ » . ولكن معنى العبارة الإغريقية الواضح هو : « تأمنه على أشياء أخطر ومجادلاتك معه أقل ؟ » والسبب في أن مجادلاته مع زوجته أقل هو كما يفهم (من مضمون الكلام) انهما يعملان معاً بروح المشاركة والتفاهم .

وقد كان الأولاد يرسلون إلى المدرسة ويتعلمون القراءة والكتابة والشعر والموسيقى والألعاب الرياضية ، أما البنات فما كن يذهبن إلى المدرسة قط — وهو دليل آخر على أن الآثينيين كانوا يحتقرون النساء ويفضلون عليهم الأغبياء من الرجال . فالمرأة الآثينية كانت أمية وغير متعلمة حتى أنها حين كانت تذهب إلى المسرح وتسمع أنتيجونا تتكلم بهذا السمو وهذا الذكاء

(١) كتاب جلوفر « من بريكلير إلى فيليب س ٣٤٦ ، كسينوفون » الاقتصاديات الفصل

لا بد أنها كانت تفتح عينها اللتين تمان عن غباء في دهشة وهي تتساءل أى مخلوقة كانت تلك ، وكيف استطاع سوفوكليس أن يتصور أن امرأة يمكن أن تكون هكذا .

من الواضح أن هذا تهريج مضحك ناشئ للمرة الثانية من خلطنا بين آثينا ومانشستر .

إذ أننا أولاً نفترض أمراً يجوز أولاً يجوز أن يكون صحيحاً عندما نحتج بأن الفتاة مادامت لم تذهب إلى المدرسة فهي أمية ، فهناك من الأطفال من نعرف أنهم تلقوا فن القراءة في البيوت . ومانعلمه عن الذكاء الآثينى وحب الاستطلاع يوحى إلينا بأن افتراضنا لم يكن سديداً . وثانياً أن من لا يعرفون القراءة اليوم يعدون دون البشر ، غير أن هذا لا ينطبق على مجتمع كانت الكتب فيه نادرة بالقياس إلى زماننا . ولقد كانت القدرة على القراءة غير مهمة عند الآثينى العادى إذا قورن بنا . فقد كانت مصادر التربية الحقيقية عنده هي المحادثة والمناظرة والمسرح أكثر مما كانت الكلمة المكتوبة .

فلم يكن يرسل الولد إلى المدرسة ليعمل من أجل إجازة دراسية تعطيه ميزات تعليمية (أى مؤهلات لوظيفة أفضل من العمل اليدوى الذى نقدره أكثر من الإغريق بكثير) . فقد كان الإغريق يرسل الأولاد إلى المدرسة بطريقته المحدودة الشاذة ليتلقوا التدريب على الرجولة فى الأخلاق والآداب والتربية البدنية . فالقراءة والكتابة كانت تدرس ولكن هذه الأوليات ما كان يمكن أن تستغرق وقتاً طويلاً جداً . وفيما عدا ذلك كان منهج الدراسة الأولية عبارة عن تعلم الشعر والموسيقى Mousikê والتربية البدنية . وقد كان « للموسيقى » أهمية كبرى باعتبارها وسيلة للتدرب على القيم الخلقية والحكمة ، كما أنه لم يغفل الأثر الخلقى الذى للرياضة البدنية gymnastikê .

ماذا كانت تعمل الفتاة فى نفس الوقت ؟ لقد كانت تتلقى الإرشاد من

أمها في الفنون التي تهم المواطنة . فإن قلنا في « عمل البيت » بدا ذلك مهنياً أما إن قلنا في التدبير المنزلي فإنه يبدو محترماً بصورة واضحة . وقد رأينا كم كان هذا العمل متنوعاً وعظيم المسؤولية . فافترضنا أنها لم تتعلم شيئاً غير ذلك لا يستند إلى دليل . وفكرة أن والدها ما كان يناقشها في شأن من شئون السياسة تدحضه عبارة نيأيرا .

ولكن هل كانت عند النساء فرصة للمشاركة في التعليم الحقيقي الذي كانت تتيحه أثينا ؟ « كلا » بالنسبة للجمعية العامة والمحاكم إلا عن طريق غير مباشر . وماذا كانت الحال بالنسبة للمسرح ؟ هل كان يسمح للنساء بالدخول ؟ هذه نقطة شيقة جداً والدليل عليها متواتر واضح ومقرر بالإجماع . نعم كن يدخلن . وسأعطيك مثلاً على ذلك أو مثلين . فأفلاطون إذ يستنكر الشعر عامة والمأساة خاصة يسمى الشعر نوعاً من البلاغة موجهاً للأولاد والنساء والرجال والأرقاء والمواطنين الأحرار دون تمييز . ولن يكون هذا مفهوماً إذا كان المواطنون الذكور وحدهم هم الذين يسمح لهم بمشاهدة المهرجان . ففي مسرحية الضفادع التي كتبها أريستوفانيس نراه يجعل ايسخولوس يهاجم يوريبديدس « لفجوره » فهو يقول « ان يوريبديدس قد وضع على المسرح من العاهرات الفاجرات ما جعل النساء الفضليات ينتحرن خجلاً » فما الذي كان يلجئن إلى ذلك إن كن مقصورات في خدورهن ؟ « حياة ايسخولوس » القديمة تروى لنا أن الجوقة التي كانت تتكون من ربات الإلتقام في مسرحية « اليومنيديس » كانت مربعة إلى حد أن الأولاد كانوا يموتون من الفزع كما كانت تصاب النساء بالإجهاض — وهي قصة فيها سخف كثير ولكن من الواضح أن من رواها لأول مرة كان يعتقد أن النساء كن يذهبن فعلاً إلى المسرح .

إن الدليل قاطع ولكن في معالجة هذا الموضوع يظهر أن الأدباء منحازون وذن مبزر لرأى سبق لهم أن اعتنقوه عن أى الأشياء هو الصواب الذي

لا غبار عليه . لقد كانت النساء الآثينيات يعشن بلاريب في حالة تكاد تكون عزلة شرقية . وقد كان يتخلل الملهاة الآثينية القديمة ابتذال يبدو أنه كان يجعلها غير مناسبة للأولاد والنساء على الإطلاق . وهذه الأسباب تغالى بعض الكتاب فأكدوا أنهم لم يكن يحضرن أية حفلة تمثيلية قط . وقد أعلن أدباء آخرون أن مشاهدة النساء للمآس كان مسموحاً به أما مشاهدتهن لتمثيل أية ملهاة فقد كان محالاً ، (١) بل محالاً كل الاستحالة ! هذه خلاصة الموضوع . ولكن « هي » ولو أنه يعتقد في العزلة الشرقية إلا أنه يبين أن الدليل يدحض فكرة أن النساء كن يستطيعن حضور المأساة دون الملهاة . وحتى لو خالفنا الدليل لما ظفرنا بشيء ، لأن رباعيات المأساة كانت تنتهى بالمسرحية الساتورية Satyric (وهي تدور حول آلهة الغابات الفجرة) التي يتضمن النموذج الوحيد الباقي منها (مسرحية كوكلوبس Cyclops التي كتبها يوريبديدس) طائفة من النكت يمكن أن تخجل بورصة الأوراق المالية ذاتها . لقد كان في هذا الأمر إذن مساواة وحرية بين الجنسين غير معهودة لدينا وإن لم تكن كذلك بالنسبة لباريس (٢) القرن الثامن عشر فيما يبدو .

ولكى نلخص موضوع المناقشة يبدو إذن أن الأدلة التي لدينا لا تكاد تبرر أمثال عبارة (كانت النساء مقصورات في خدورهن في شبه عزلة شرقية) لأن الأدباء لم يفرقوا تفرقة واضحة بين البنات والنساء المتزوجات ولا بين ظروف الحياة في أثينا وفي مانشستر ولا بين الأدب الكلاسي الإغريقي والأدب الحديث . ولقد كتب ثيوكريتوس Theocritus في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد أرجوزة مملوءة بالحياة ، وصف فيها كيف أن سيدة من سيراكوز زارت صديقة لها في الإسكندرية وسارت معها الطريق

(١) « المسرح الآثيني » بقلم « هي » الطبعة الثالثة (الناشر أ . بيكارد — كبرديج)
(٢) صحيح أن الملهاة والمسرحية الساتورية كانتا مقترنتين بالدين ، ومما يذلل جميع المصاعب تسمية الأشياء بغير أسمائها .

إلى مهرجان . هذا وقد قيل لنا « هؤلاء هن السيدات الدوريات فانظروا مقدار ما كن يتمتعن به من حرية أكثر من الآثنيات » هذا الاستنتاج يبدو أنه غير منطقي ، فأولى بنا أن نقول « لقد كتب هذا الشعر في الإسكندرية وهي مدينة عالمية في عصر كانت دولة المدينة فيه قد انتهت وأصبحت السياسة من اختصاص الملوك وموظفيهم لا من اختصاص المواطن العادي . فانظروا في أى المواضيع المختلفة إذن كان يكتب الشعراء إذ ذاك ، فهم لم يقتصروا على المواضيع التي تمس حياة البوليس بل أخذوا يكتبون فعلاً عن الحياة الخاصة والحياة المنزلية » .

ولكن الاعتقاد في « عزلة النساء » قد أصبح من الرسوخ بحيث أننا إن أخبرتنا امرأة متزوجة في إحدى مسرحيات إرسطوفانيس عن السبب الذي من أجله كان يصعب عليها أن تخرج فإننا لا نرى من الضروري علينا أن نصيح السمع ، فنحن نعتقد أننا نعرف السبب . كما أننا عندما نجد دليلاً قوياً على أن النساء كن يذهبن إلى المسرح لمشاهدتهن في أغلب الأحيان مسرحيات لا ينبغي لنا بالتأكد أن نسمح لنسائنا بمشاهدتها فإننا تناضل لنحضر هذا الدليل . وبعد ذلك يبدو أن الحجة اللاشعورية التي تتبادر إلى أذهاننا هي « لو كان هذا هو وضع النساء عندنا لكان سببه هو معرفة الرجال وكتبهم للنساء ومن ثم فهذا هو السبب في عزلة النساء في آثينا . فلا بد أن الآثيني كان يهمل نساءه ومن المحتمل أنه كان يزدرين ما لم يكن أجنبيات أو يكن جديرات بالاحترام الزائد » . ثم تأخذنا الدهشة عند رؤية الأصص ونحضر الدلائل المستمدة من الشخصيات النسوية التي في المأسى وننسى الأحوال المادية الخاصة بالحياة الإغريقية وكيف أنها كانت بدائية تستلزم وجود تفرقة حادة بين أسلوب حياة كل من الرجال والنساء ومصالح كل منهما . ونحن نجد من يؤكد لنا بأن الآثينيين كانوا يعمدون إلى صحبة العشيقات لأن هذه الطائفة من النساء كانت متعلبة بينما كانت زوجاتهم جاهلات

غيبات . ما أبلغها من سذاجة إنه ليس بالأمر المجهول حتى يبتنا أن الفتاة التي تعيش وحدها في مسكن صغير وتتناول وجبات طعامها خارج البيت قد تمارس حياة اجتماعية أكثر نشاطاً من المرأة المتزوجة . ولقد كانت هؤلاء العشيقات من المغامرات اللاتي طرحن وراء ظهورهن الجانب الجدى من الحياة . لقد كن يتمتعن الرجال طبعاً « ولكن الواحد منا لا يتزوج من هذا النوع يا صديقي العزيز » .

وإننا لنذكر كذلك عدم الأهلية القانونية للمرأة وخاصة بالنسبة للوريثة ، ونقول إن هذا يدل على مدى استهانة الآثيني بكرامة المرأة مع أنه لا يدل على شيء من ذلك . وإنما يدل فقط على ما كنا نعرفه من قبل وهو ما أقل ما كان الرجل الآثيني أو على أى حال القانون الآثيني — وقد لا يكون نفس الشيء — يفكر في راحة الفرد ومصالحه بالقياس إلى مصالح المجتمع الاشتراكي أى مصالح الأسرة والبوليس . ويجدر بنا في هذه المناسبة أن نذكر قضية أبولودوروس Apollodorus ضد بوليكليس Polycles (في ديموسثينيز) .

فقد كان أبولودوروس رجلاً ثرياً من رجال الأعمال مكلفاً بإنشاء سفينة وتجهيزها بمعدات الحرب . وقد قررت الجمعية العامة أن هناك حملة حرية لازمة على جناح السرعة . فكان يتعين على أصحاب مثل هذه السفن أن يأتوا بها إلى رصيف الميناء في اليوم التالي وأن يشتغلوا بها ستة أشهر . فهل كان أبولودوروس مشغولاً حينئذ ببعض شئون العمل المعقدة ؟ وهل بلغه في خلال الأشهر الستة أن أمه على فراش الموت ؟ وهل البحارة المخصصون له كانوا قليلين وغير أكفاء ، وحتى إذا احتاج إلى بحارة صالخين كان يتعين عليه أن يدفع أجورهم بنفسه ويجازف بذلك أملاً في استرداد ماله ؟ كل ذلك من سوء الطالع ، غير أنه لا يغير من الأمر شيئاً فأبولودوروس

كان يمكنه أن يكلف صديقاً بأن يعنى بشئونه فمثل هذه الأمور كان الأصدقاء، أما أمه فيصح أن تموت وهو بعيد عنها. أما أن يترك أبولودوروس سفينته فهذا مالم يكن يستطيعه. ولم يكن هناك من يقول إن أبولودوروس عومل معاملة خشنة كتلك التي تلقاها الوريثة وإن كان المبدأ واحداً في الحالتين، كما أنه لا ينبغي علينا أن ننظر في مركز الوريثة دون أن ننظر في الأهمية الدينية والاجتماعية الأسرة والمسؤوليات الخطيرة التي على عاتق رب الأسرة. إن انقراض أسرة هي وطقوسها الدينية كان يعتبر كارثة كما أن ضياع ممتلكاتها كان مصيبة لا تكاد تقل عن ذلك. دعنا إذن على كل حال نعطف على الوريثة، كما نعطف على القواد الخففين الذين كان جزاؤهم الإعدام — ولكن دعنا لا نتسرع فنقرض أن القانون الخاص بالورثات يدل على احتقار النساء. وبعد كل ما سلف فلنذكر أن رب الأسرة عند الرومان في مرحلة من مراحل تاريخهم يمكن مقارنتها بهذه المرحلة عند الإغريق كان له قانوناً سلطات الحياة والموت على أفراد أسرته. فعلينا إذن أن ننظر إلى الأمر في ملابساته الكاملة قبل أن نبدأ في إستنباط النتائج.

ماذا يمكن أن يقال عن حياة الرجال الاجتماعية؟ يجب علينا كذلك هنا أن نتذكر طبيعة أدلتنا. فلم يحدث أن آثينا تولى رسم صورة مجتمعه المعاصر أو حتى الكتابة بطريقة يمكن معها أن تظهر مثل هذه الصورة بصفة غير مباشرة. إن لدينا الكثير من التفاصيل الجلية ولكن علينا أن نكون دقيقين جداً في الاستنتاج بصفة عامة.

نحن نعرف أن آثينا كانت منطوية على نفسها سياسياً. وأن الخطوط التي تفصل بين العبد والحر والأجنبي والوطني كانت حاسمة يصعب تخطيها. وقد كان الانتحال غير القانوني لمركز سياسي سام يعاقب عليه عقاباً صارماً. وأنه لمن الطبيعي بالنسبة لنا أن ننظر أن هذا الانطواء السياسي كان مقترناً

بانطواء اجتماعي مشابه له، غير أن ذلك يكاد يكون خطلاً في الرأي. لقد كان معنى «المواطن» هو «العضو» وكانت العضوية تابعة للميلاد. ولقد كانت العضوية لا تمنح للأجنبي إلا مكافأة له على تقديم خدمات جليلة غير اعتيادية. وهو الذي كان بالطبع «عضواً» في دولة أخرى. ولم تكن كلمة «مواطن» تعنى شخصاً فذاً متفوقاً.

بل إن فكرة الإنسان العامة عن المجتمع الآثيني هي أنه كان خالياً بصورة غير عادية من الحواجز المترتبة على المركز السياسي أو المال. وهناك صورة سارة جداً لكفالوس Cephalus الشيخ الكبير وردت في أول «جمهورية» أفلاطون. فقد كان أجنبياً (ولو أنه كان غنياً) ولكنه كان كثير الاختلاط بالناس في أرقى مجتمع آثيني. ولقد كان سقراط فقيراً ولم يكن من أسرة ممتازة ولكننا نجد يتعشى مع العظماء دون إحراج لأي جانب، كما كان يتحدث في المدينة مع الأرستقراطيين والعمال حديث الند للند. ولم يكن سقراط وحده فقيراً بل كان أنتستينيس Antisthenes كذلك، وكان زميلاً له في مأدبة كسينوفون. ولكن هذا الدليل دليل مختار بطبيعة الحال، فلم يحدث أن ذكر أفلاطون وكسينوفون الأثرياء الذين ينقصهم الذكاء والوضيعين الذين يدعون الرفعة.

ولكن هناك دليلاً آخر — متى نظرنا بعين الاعتبار إلى الحالات المتطرفة — وهو معاملة الرقيق. فقد عرفنا من الرسوم التي على الأواني ومن مصادر أخرى أن الصداقة الحقيقية بين العبد وصاحبه لم تكن غير معهودة، إذ كان يتوقف كل شيء على الأفراد الذين يعينهم الأمر. فصفوة القول أن الاستعباد كان أمراً يحدث اعتباطاً فكم من عبد كان مهذباً ذكياً. وقد كان الآثينيون من الحكمة بحيث يميزون بين المركز الاجتماعي وبين الرجل. فالعبد الذي يظفر بحريته طبقاً للتقاليد المعهودة كان ينال المسكنة

الاجتماعية الخاصة « بالمهاجر » أو الأجنبي المقيم وليس هناك ما يوحى بأنه لم يكن ينال في المجتمع تلك المسكاة التي كانت تؤهله لها أخلاقه ومواهبه. ولم يعير إنسان بأنه كان في الأصل عبداً إلا مرة واحدة في إحدى مرافعات المحاكم التي انتهت إلينا، والذي قام بذلك هو أبو لودوروس الذي كان أبوه باسيون عبداً رقيقاً ومديراً محترماً جداً وأخيراً خلفاً لصاحب بنك ثم أصبح مواطناً عند ذاك .

كان الفاصل السياسي بين الأغنياء والفقراء قد أصبح حاداً جداً. ولكن إلى أي حد كانت هناك تفرقة اجتماعية أيضاً ؟ للإنسان أن يقول إنها لم تبلغ بالتأكيد الحد الذي بلغته بيننا . فلم يكن يستطيع الإنسان أن يقول إن آثينياً بعينه كان عديم الجدارة بمجرد أن يفتح فيه بالكلام . كما سبق أن رأينا أن الأشياء الجوهرية في التربية كانت متاحة للجميع على قدم المساواة . وإنما لتنتطبع في أذهاننا فكرة أن الآثيني كان متسامحاً في تقديره للناس أكثر منا . وهو على أي حال ما يجب أن ننتظره في مجتمع أكثر تعرضاً لصروف الزمن .

فمثلاً يحلل كتاب « الشخصيات » الذي كتبه ثيوفراستوس ثلاثين عيباً أو نقيصة مختلفة وليس من بينها الوضع المتعالي ، وإنما هناك الرجل التافه المتكبر الذي يحتفظ بعبد حبشي . وإن كان عنده غراب حقل أليف فإنه يدربه على الصعود والهبوط وثباً على سلم صغير . وهو يلبس حلة من زرد فإذا سار في موكب مع الفرسان الآخرين فإنه يختال في المدينة لابساً عباءة الركوب والمهماز ، وهو يكثر من قص شعره ويحتفظ بقرد أليف . وعنده حلبة خاصة للمصارعة فإذا أعارها لإقامة مباراة عليها تعمد أن يصل متأخراً حتى يلكز الناس بعضهم بعضاً قائلين « ها هو ذا صاحب الحلبة » . وثمة عضو حكومة الأقلية وهو لا يخرج أبداً قبل الظهيرة من بيته (ليثبت أنه لا صلة له بشيء مبتذل كالأعمال التجارية) ويلبس عباءته برشاقة متمعدة

ويمتاز بأن شعره ليس بالطويل ولا بالقصير وكذلك لحيته وبأن له آراء سياسية ضد الديمقراطية كقوله « لتكن لنا لجنة قوامها شخص واحد بشرط أن يكون رجلاً قوياً » . يجب أن يلزم هؤلاء الأشخاص حدودهم . حقاً إن هؤلاء الناس يفتقرون إلى الألفة ، كما يفتقر المتعجرف الذي لا يتكلم إلا إذا بادره أحد بالحديث ، وهو الذي يحتقن بالناس في بيته ولكنه لا يشاركهم الطعام . على أن هؤلاء الناس ليسوا من السوء بدرجة المتظاهر بالثراء .

إننا نسمع الشيء الكثير عن « حسن الطلعة » وعن الصفات الشخصية وإن هناك ما يغري الإنسان بالظن أنك لو كنت قبيح الصورة لاعتبر الرجل الذي يقابلك ذلك إهانة شخصية له . ومن هنا قول أبو لودوروس (ديموسثينيز الفقرة ٤٥ — ص ٧٧) « إن وجهي ومشيتي السريعة وصوتي الجهوري لا تجعلني ، على ما أعتقد ، أحد المحظوظين من الناس بل إنها محسوبة على . لأنها تضايق الآخرين ولا تنفعني بحال » فكان الصوت الخفيض والمشية المهيبة موضع الاستحسان . أما التأنيق (كما رأينا) فلم يكن من صفات المبهذين . ولكن التافه المتكبر هو الذي يبذل جهداً خاصاً ليحتفظ بأسنانه بيضاء ناصعة . ومن جهة أخرى فالرجل الممقوت هو صاحب الأسنان السوداء . والمتغطرس يشمر عن الجانب الأكبر من ساقيه عندما يجلس ، وهو الذي يرد على الطارق على الباب بنفسه . ويترنم بالأغاني في الحمام على مسمع من الناس ويضع المسامير في حذائه . وبالمثل فإن الرجل الوضع يلبس حذاء مرقعاً كله . ويقسم أنه أصلب من القرون . وهناك شخصية تبدو كما لو كان صاحبها حديث النعمة ، وهي شخصية من يتعلم في الكبر ، فهذا الرجل يحفظ الشعر ويتلقى دروساً في الرقص والمصارعة وركوب الخيل عندما يبلغ السبعين أو يتجاوزها . وخطأه هو في أنه يتباهى بنفسه في غير الأوان وفي غير طائل . وليس في هذا ما ينم عن تفوق المركز الاجتماعي والرجل

الغبي يمارس الرماية وقذف الرمح مع الصبية ويتقدم من المعلم ليريه كيف يفعل ذلك « كأنما المعلم لا علم له بذلك هو الآخر » .

إنه ليشق على أن أترك ثيوفراستوس ولذلك لن أتركه حتى أقدم للقارئ الرجل الفضولي والرجل البطيء الغبي ولو لم تكن لهما علاقة بنقطة البحث ، فالرجل الفضولي يريك أقصر طريق للوصول ثم يضل بك وهذه طريقة هيلينية جداً — وهو يجرب تقديم النبيذ لرجل منعه طبيبه من تناوله فيتسبب في سقوط المسكين طريق الفراش . وإن أقسم يميناً قال للحاضرين « إنكم تعلمون أن هذه ليست المرة الأولى التي أقسم فيها » . والرجل البطيء الغبي يجمع قائمة حساباته ويكتب المجموع ثم يقول « ما مقداره ؟ » وهو يبقى في المسرح يغط في سبات عميق وحده بعد أن يكون قد غادره الجميع . وعندما يسأله سائل عما إذا كان يعرف عدد الجنائز التي مرت في طريق المقابر في الشهر الفائت يجيب « كم أود أن يكون لي ولك نصف عددها » وبعد أن يتناول العشاء بشراهة يضطر إلى الاستيقاظ بالليل ليذهب إلى محل الاجتماعات العامة ، وفي طريق العودة يخطيء فيدخل بيت جاره فيعضه الكلب هناك . ولكن يجب علينا أن نعود إلى موضوع بحثنا ولو كان معنى ذلك أن نتجاوز الرجل الذي تعوزه الكياسة وهو الذي يغني لحييته بالليل وهي تعاني من الحمى أو يدعو شخصاً عائداً لتوه من رحلة منهكة للخروج معه في نزهة ، والذي يقيم من نفسه حكماً ثم يجمع بين الخصوم قسراً ولو لم يكن لهم غرض إلا الصلح ، والذي « عندما يعززم الرقص يمسك بتلابيب رجل آخر لم تلعب الخمر برأسه » .

إن الفقر يبعث على الأسى بطبيعة الحال فهو يجعل الإنسان عاجزاً عن مساعدة أصدقائه كما يشتهي وقد احتج يوكسيثيوس Euxitheus بأن خصمه قد سخر من أمه لأنها تبيع « الأشرطة في السوق » وهذا مخالف للقانون

الذي يحيز رفع دعوى قذف ضد أي شخص يؤاخذ موطناً أو مواطنة لأنه يشتغل بحرفة في السوق ، وقد يكون مما له مغزى أن وجود قانون (أو إحدى مواده) كان أمراً ضرورياً ، غير أن السوق كانت له صفة خاصة إذ أنه يدعو إلى افتراض أن الإنسان وغد من الأوغاد (قارن ذلك بما جاء عن « سوق الكذابين ») وقد قرر كذلك الوغد الذي أقام الدعوى ضد يوكسيثيوس أن أمه كانت ممرضة قائلاً وما في ذلك ؟ لقد نكبتنا الحرب نكبة فادحة كما نكبت كثيرين غيرنا وقد اشتغل كثيرات من النساء الآثنيات بمروضات وإن شئتم أعطيتكم الأسماء » .

وكثيراً ما يؤكد البعض لنا ويقدمون أدلة كثيرة أو قليلة على أن الإغريق كان يكره العمل اليدوي . وقد نبذ زيمر هذه الفكرة (في كتابه « الكومنولث الإغريقي ») باعتبارها مثيرة للسخرية وهذا نعت موفق فيما أظن . وكما أننا عند النظر في معاملة النساء يجب علينا أن نتخلص من بعض الأفكار السائدة في عصرنا قبل تقدير موقف الإغريق حق قدره ، فكذلك علينا أن نبحت في أمر الذين نتخذهم حجة نرجع إليهم ، كما نبحت في أقوالهم . لقد جرت عادتنا أن نتحدث عن العمال بلمهجة من يردد تعاويذ سحرية . أما الإغريق فقد كان من بساطة العقل بحيث لا يفكر تفكيراً ضخماً هكذا بل كان يود أن يعلم « في أي شيء يشتغل وكيف يشتغل » . مثال ذلك والعهد على سقراط (كما روى كسينوفون في الاقتصاديات « الفصل الرابع » الفقرة ٣) أن بعض الدول (وهي ليست آثينا) كانت تحظر على رعاياها الاشتغال بالحرف الميكانيكية ، وإنه لتخطر بالبال توأ القاعدة المتبعة أو التي كانت متبعة عند « رابطة التجذيف للهواة » وهي ألا يسمح لمن يمارس حرفة يدوية بأن يكون مجذفاً هاوياً . وقد نعجب لوجود مثل محاولة الترفع هذه عند سقراط من بين الناس جميعاً ، ولكننا لو نظرنا في العبارة التي وردت بها لما وجدناها تنطوي

على ترفع بالمرّة . والذي يؤدي إلى هذه العبارة هو ما يأتي : « إن الناس ليدذكرون بالسوء تلك الحرف المسماة بالحرف اليدوية . وهي في الحق ليست ذات شأن يذكر بين طبقات المجتمع لأنها توهن أبدان الذين يتكسبون من قسره على الجلوس وإنفاق أيامهم خلف أبواب موصدة ، بل إن البعض ليشغلون طوال الوقت بجانب النار ، ولكن عندما يصاب الجسم بالهزال يضعف العقل أيضاً . وفضلاً عن ذلك فإن هذه الحرف الميكانيكية لاتدع للإنسان أي وقت للفراغ لمراعاة مصالح أصدقائه أو الصالح العام ، ولا يمكن أن تكون هذا الطبقة من الناس لذلك ذات فائدة كبيرة لأصدقائه أو للدفاع عن وطنه ، وبعض الدول بالفعل ولاسيما أكثرها ميلاً إلى الحرب لاتسمح للمواطن بالاشتغال بهذه الحرف اليدوية » .

وبالنظر إلى بساطة عقل الإغريق فإنه كان إذا واجهته مسألة لا يسأل عادة عما إذا كانت مسألة رجعية أو شعبية أو تنم عن انحراف بل كان يميل أن يسأل عما إذا كانت صحيحة . أما الدول التي قصرت ، كما قيل ، الحرية السياسية على تلك الطبقات التي كان من المحتمل أن تكون دائماً على استعداد للخدمة العسكرية (والفلاحون من بينهم بكل تأكيد) فربما كانت نظرتها إلى وظائف الدولة نظرة ضيقة ، ولكن لا يمكن لهذا السبب أن يقال عنها إنها تحتقر العمل اليدوي لذاته .

ولنفرض أننا طبقنا استدلال سقراط المنطقي على زماننا . فقد حدث أني كتبت أكثر هذا الكتاب وأنا جالس بجوار المدفأة ، فلو كان علي أن أمشي إلى « برد جووتر » في الأسبوع القادم لغشى علي إلى جانب الطريق ولكان واجباً علي بالنأ كيد أن ألقى ما علي من أثقال . ولو استدعيت للقيام بوظيفة مخلف لكان من المحتمل أن أطلب إعفائي معتذراً بأن جامعتي ، لا يمكن أن تستغني عني ، ولوجد سقراط دون شك أني أثير اهتمامه كفردي وإن كان لابد

أن يظن أني مواطن حقير ويضع مهنتي في قائمته السوداء ، غير أنه ليس من سلامة الرأي أن نستنتج أن سقراط « كان يحتقر الأعمال الفكرية ، أما الذي كان يعترض عليه سقراط في الحقيقة فإنه لم يكن العمل اليدوي بل التخصص ، ففلاحة الأرض كانت تقابل منه بأعظم ثناء فهو لم يكن يسخر من الفلاح .

ثم دعنا لا ننسى أن سقراط يتكلم هنا من الوجهة السياسية لا الاجتماعية وهو لم يكن من ذلك النفر الذين يسمحون للاعتبارات التي لا علاقة لها بالموضوع بأن تتدخل في قرع الحجة بالحجة (ومثله في ذلك أفلاطون وأرسطو) . ونحن نرى ناحية أخرى من سقراط في كتاب « الذكريات » فصل ٣ فقرة ١٠ فنرى سقراط الذي كان يقضي أكثر وقته مختلفاً إلى « المصانع الصغيرة » ، « والمراسم » (وهما لا تكاد تمكّن التفرقة بينهما) ويناقش « العامل » في حرفته ، وقد كانوا على حد قول كسينوفون يجدون محادثته مفيدة جداً . وقد سجل كسينوفون محادثة مع صانع للزرد يدعى بستياس . إذ قال سقراط « ما أروع اكتشاف الزرد . إنه يمنح الوقاية حين تكون الوقاية لازمة ، ومع ذلك فإنه لا يمنع الإنسان من استخدام ذراعيه . أخبرني يا بستياس Pistias لماذا تتقاضى ثمناً أكثر من الصانع الآخرين ؟ إنك لاتصنع زرداً أمثمن من غيرك فهو مصنوع من نفس المواد ، وقد أوضح له بستياس أن زرده أكثر تناسقاً ، فقال سقراط « ولكن هب أن المشتري نفسه كان غير متناسق الأعضاء ؟ » فقال بستياس إنه يعيد تنسيق الزرد حتى يلائمه ، فأجاب سقراط « أي أن التناسب ليس شيئاً مطلقاً ولكنه يتوقف على لابسى الزرد ، وبالطبع إن كان المقاس مضبوطاً فإن ثقل الزرد يتوزع بالتساوي ويكون أقل استرخاء للملاحظة » فقال بستياس ، هذا صحيح ومن ثمة تراني أعتقد أن صناعتي تستحق ثمناً مجزياً ، ولكن هناك من الناس من يفضلون الزرد المزخرف زخرفة غفمة » :

لقد كان هؤلاء العمال يهتمون بأنفسهم وكذلك بحرفهم . وكثيراً ما تعطينا الرسوم التي على الأواني المعدة للبيع العادي منظراً في مصنع ، وهي في أغلب الأحيان ترينا الخزاف وهو يقوم بمراحل عمله . وهذا أمر طبيعي غير أن ثمة حرفاً أخرى قد نقشت أيضاً . لقد درج الخزافون الإنجليز في أكثر الأحيان على زخرفة سلعهم بنقش صور الفراشات أو الأكواخ الريفية الجميلة عليها ، ولا أعلم أن المصنع ذاته قد رسمت له صورة على صحيفة من صحاف الطعام أو على إبريق . وقد تكون هناك أسباب أخرى لهذا ولكن كون الخزاف الإغريقي على الأقل كان يستخدم حرفته الخاصة لأغراض الزخرفة يوحي بأنه لم يكن ثمة أي اعتراض من الوجهة الاجتماعية العامة ضد هذه الحرفة .

ونحن نسمع في « الذكريات » عن رجل يدعى يوثيروس Eutherus وهو من ذوى الأملاك الذين جلبت عليهم الحرب الخراب مثل أرسطارخوس الذي مر ذكره من قبل ، وقد اشتغل بعمل يدوي وإن كنا لا نعرف ما هو إذ كان يعتقد أن هذا أفضل من محاولة التطفل على الأصدقاء ، وقد قال له سقراط « هذا حسن جداً ولكن ماذا يكون حالك عندما تتقدم بك السن فلا تستطيع العمل المرهق ؟ أولى لك أن تبحث عن شخص يحتاج إلى مدير لمزرعته يتولى أمر العمال ويشرف على المحصول إلى غير ذلك . إن مثل هذه الوظيفة تفيدك أكثر عندما تتقدم بك السن » وهي نصيحة حكيمة جداً ولكن ماذا قال يوثيروس ؟ إنه قال شيئاً هليينياً صمياً بما سمعته أنا نفسي من رجل يوناني كان صاحب مطعم صغير فاشل في مدينة يونانية صغيرة حالتها متدهورة . فبينما كنت هناك أتمتع يوماً بعد يوم بوجبات طعامه الذي كان يطهوه طهواً رائعاً اضطر إلى الرضوخ وقبول وظيفة في مطعم قائم في مكان آخر ، فأخذت أعبر له عن الأمانى الطيبة التي مكنتني لغنى اليونانية الحديثة من التعبير عنها ، غير أنه قاطعني قائلاً بنظرة وإشارة تنان عن مرارة

لاحد لها « لقد أصبحت تابعاً » هذا بالضبط ما قاله يوثيروس . إنه لم يكن يهمله أن يعمل بيده بقدر ما كان يضيره أن يكون تحت إمرة سيد آخر . وهو كما قال مترجم « بوهن » بطريقته اللاذعة « إنى لأكره كراهية شديدة يا سقراط أن أخضع للعبودية » وقد أشار سقراط إلى أن إدارة ضيعة مثلها مثل إدارة مدينة وأن هذا هو عكس ما يضطلع به العبد من أعباء . ولكن يوثيروس كان عنيداً فقال « أنا لن أعرض نفسي لتقريع أي إنسان » وقد أجاب سقراط « هذا صعب ولكن عليك أن تبحث عن شخص لا يكثر من اللوم — رجل عادل تستطيع أن تؤدي له العمل الذي في وسعك وترفض ما عداه . لسنا ندرى ما صنع يوثيروس — ولكن أن تكون مديراً لضيعة ! يا للسماء !

ويبدو في الحقيقة أن موقف الإغريق من العمل كان حساساً جداً . فليس ثمة شيء يسمى « عملاً » بمعناه المجرد ، فكل شيء يتوقف على نوع العمل وبصفة خاصة على ما إذا كان يتيح لك أن تكون سيد نفسك . إذ لم يكن يهتم المواطن أن يزامن الأرقاء في العمل . والفرق بينهما هو أنه كان يستطيع أن يتوقف ويذهب إلى الجمعية العامة أما العبد فلم يكن يستطيع ذلك . لقد كان يستأسس يستطيع أن يغلق حانوته متى أراد على « أن يعود في الغد » . وكانت له مهنة شيقة فكان يستطيع أن يفخر بعمله . وإذا كان زبائنه لا يحبون سلعه فقد كان يمكنهم أن يذهبوا إلى مكان آخر .

لقد كان الإغريق يقدرّون العمل فهم لم يكونوا يترفعون عنه أو ينساقون مع العاطفة تجاهه . وعندما قال أرسطو « إن المهن اليدوية والميكانيكية لا تجعل من المرء مواطناً صالحاً » كان من المستحيل مناقضته في أمر من صميم اختصاصه . فلم يكن الأمر أمر ميل مع الهوى بل كان إعمال الرأي والحكم الصحيح الذي بناه على المقدمات المنطقية . لقد هجا أروستوفانيس كليون باعتباره بائع جلود عنيف سوقى ولكنه لم يكن يسخر

من بائعي الجلود الذين لم يكونوا عفيفين أو يكونوا من السوق . وقد قال سقراط عن ابن انوتوس Anytus الذي قام بمقاضاته (الذكريات ٣٠٤) « أنا لا أظن أنه سيستمر في المهنة الحقة التي وضعه فيها أبوه » وهي في الظاهر أيضاً بيع الجلود « فهو قتي ذو كفاية ومقدرة » إنه أعلى من ذلك حقاً . ولقد كانت المهنة التي ينظر إليها في الحقيقة نظرة ازدراء هي البيع بالتجزئة ، وقد كان السبب في ذلك من جانب هو التحيز من الوجهة الاقتصادية — فمثل هذا الشخص لا يعمل شيئاً في الحقيقة بل هو يتطفل على غيره — كما كانت له ناحيته الأدبية (راجع « سوق الكذابين ») بل يكاد الإنسان يقول إن له ناحيته الجمالية وذلك لأن مثل هذا الشخص لا يعمل شيئاً يطلب المهارة أو يبعث على الرضا . وعندنا في الإنجليزية كلمة « بائع بالمتجر Counter-Jumper » تفيد هذا المعنى وقد قال ديموسثينز (١) وهو يتكلم عن التجار المحترمين « إن الناس لتعتقد أن الرجل الذي يجمع بين المهارة والأمانة في عالم التجارة والمال رجل ممتاز أو ملفت للنظر » . وهناك كثير من الفلاسفة والكتاب عند الإغريق المتأخرين كانت كتاباتهم عن العمل تنم عن احتقاره ، غير أن ذلك قد حدث في عالم منشق على نفسه هو الذي كان قد ابتدع « الثقافة » .

ولكي نختم هذا الفصل الذي يمتاز إلى حد ما بالاستطراد ربما جاز لنا أن نتساءل عما إذا كان هناك أية مميزات عامة لهذا الشعب لم نذكرها أو لم نعطاها حقها من الدراسة . أجل إن ثمة إحدى هذه الخصائص .

ربما كان القاري قد ذعر لأن متقاضياً يسلم علناً بأنه رفع دعواه لكي يثار من خصمه (٢) . إن هذا دافع نحصر نحن على إخفائه ، بل هو بالفعل

(١) عند الدفاع عن « فورميو » أحد أصحاب البنوك

(٢) أنظر ما قبله ص ٣٨٧

لما يسعى الدفاع لا الاتهام إلى إثباته . ومع ذلك فقد كان الإغريق يطالبون به صراحة في محاكمهم . وهذا موضوع يستحق الدراسة بشيء من التطويل .

وواضح أن القول بأن الإغريق كانوا محبين للأخذ بالثأر لا يعتبر تفسيراً للموضوع إذ ربما كانوا كذلك . ولكن لماذا ينبغي لنا أن نعتبر مثل هذه الرغبة في الانتقام إحدى المزايا ؟ هي كذلك بالتأكيد بشرط ألا تكون النية في الانتقام شيئاً غير معقول . ويبين هذا الأمر الخلق الوحيد عند ثيوفراستوس الذي يصعب علينا فهمه وهو خلق الرجل الساخر . لقد تغير معنى كلمة « ساخر » تغيراً تاماً . فقد كانت « السخرية » عند الإغريق عكس التفاخر والمبالغة . والنقيض كان يعتبر نقيضة كنقيضه سواء بسواء . لأن الرجل الإغريق كان يعرف دائماً ما علمه التاريخ السياسي الحديث للناس ، وهو أن عكس الرجل الحديث ليس الرجل الطيب بل نوعاً آخر من الخبيث . « فالسخرية لم تكن تعني بخس الشيء فقط بل الافتقار إلى الصراحة أيضاً وإخفاء الدوافع الحقيقية وإظهار الدوافع الزائفة . فالرجل الساخر عند ثيوفراستوس إلى جانب ما كان ينطوي عليه من المعاني الأخرى كان « هو الذي يذهب إلى أعدائه ليحادثهم بدل أن يظهر لهم البغضاء ، وهو الذي يمدح في مواجعتهم أولئك الذين كان يهاجمهم في غيبتهم ثم يظهر العطف عليهم في هزائهم . وهو الذي يظهر الصفح عمن يشتمه ويعفو عما يقال في حقه (١) » ويمكننا أن نتأكد تماماً من أن الذي يعترض عليه ثيوفراستوس ليس أن الصفح مجرد من الصدق ، فكما أن المعجب بنفسه يدعي أنه ألطف بكثير مما هو عليه ، فكذلك عكسه وهو الرجل الساخر يدعي أنه أخط بكثير مما هو عليه (فضلاً عن غير ذلك من الأمور) . وكيف يستطيع الإنسان أن

(١) نقلاً عن ترجمة « جب » .

يظهر حقارته العقلية بوضوح أشد من تكلفه الصفح عن أعدائه ؟ وحتى ادعاء القيام بذلك مثير للاشمئزاز ، أما القيام به حقاً فهو شر من ذلك .

هذا منطق إغريقى صميم « أحب أصدقاءك واكره أعداءك » . هذه حكمة لم يفكر أحد قبل سقراط في تحديها . أما نموذج النبل عند أرسطو فهو الرجل ذو العقل الكبير ، أو « ذو النفس العظيمة » (والمرادف الحرفى اللاتينى لذلك وهو magnanimous قد اكتسب معنى مخالفاً يعتبر أبعد ما يكون عما كان يعنيه أرسطو) فهو ليس كالرجل الساخر بل هو الصريح في صداقته وعداوته معاً لأن الإخفاء هو علامة الضعف .

في إمكاننا أن نفهم أن عدم الإخلاص أمر منكر ، والذي علينا أن نفهمه هو أن الصفح عن الأعداء أمر منكر كذلك ، أما التأثر منهم فواجب واضح .

هذه الأخلاق الغير المسيحية على الإطلاق قد نجمت من جهة طبيعة المجتمع الإغريقى الذى تعتبر فيه الجماعة ذات أهمية أكبر مما عندنا ويعتبر الفرد ذا أهمية أقل من الوجهة الاجتماعية . فالفرد عضوفى أسرته وأولادهم فى « دولته » فأية إساءة إليه تعتبر إساءة إما إلى أسرته أو إلى دولته طبقاً للحالة ، ويجب عليه أن يثار لها لصالح أسرته أو دولته ، ولدينا نحن أنفسنا مثل بعيد على ذلك فى الدقة والنزاهة التى على أمين الصندوق أن يتبعها فى إدارة الأموال ، فليس له أن يسخو بأموال غيره من الناس .

غير أن ما هو أهم من ذلك كان تأثير معنى التعظيم (التكريم) عند الإغريق ، فقد كان الإغريق حساساً جداً بالنسبة لمكانته بين زملائه ، فقد كان متحمساً وكان ينتظر منه أن يكون متحمساً فى المطالبة بما هو واجب له . فالتواضع لم يكن ينظر إليه بعين الاعتبار الكبير . أما أن « الفضيلة » هى جزاؤه فقد

كانت نظرية يعتقد الإغريقى أنها حق محض ، فجزاء الفضيلة (الأريتى aretê أو الامتياز البارز) هو ثناء زملاء الإنسان وذريته عليه . وهذا أمر ملحوظ خلال الحياة والتاريخ الإغريقى بأكمله ، منذ اللحظة التى تأثر فيها البطل الهوميروى ذلك التأثر الفريد من أجل جائزته . وإليك ملاحظة نموذجية :

لو أنك تمنعت فى طموح الناس لعجبت لما ينطوى عليه من عدم التنقل ، إلا إذا أدركت مبلغ تعطشهم إلى الشهرة . كي يتركوا وراءهم ذكراً للعصور التالية جميعاً ، كما قال الشاعر ، فهم على استعداد من أجلها لمواجهة أى خطر ولو كان خطراً أشد من الذى يواجهونه من أجل أولادهم ولبنل أنفسهم وتحمل أية مشقة مادية والتضحية بحياتهم من أجلها . فلماذا لعمري تتصور أن الكيستيس Alcestis كانت على استعداد لتضحي بحياتها من أجل أدميوس Admetus أو كان أخيلس على استعداد لبذل حياته ليثار لباتروكلوس Patroclus لو لم يعتقدوا أن امتيازهما (اريتى) سيبقى خالداً كما خلد بالفعل ؟ أجل إنه كلما ازداد نبل الإنسان كانت شهرته الباقية وامتياز الخالد مصدرراً لكل عمل يعمل به .

هذا كلام ديوتيميا الحكيم وهو يعلم سقراط فى مأدبة أفلاطون . إنها نظرية إغريقية طبيعية ونحن نجدها عند الفلاسفة والشعراء والخطباء السياسيين كما نجدها مثلاً فى كتاب « الأخلاق » لأرسطو .

فلو طلب منا نحن أن نعرف عظمة النفس لكننا نشترط أن تظهر صفات معينة فى العمل باستمرار ، وإن كنا لا نتطلب من صاحب النفس الكبيرة أن يكون مدركا لهذه الصفات ، كما لا نرى أنه ينبغى عليه أن يطلب الاعتراف العام بهذه الصفات ، ولكن ما الذى يقوله أرسطو ؟ إنه يقول « إن صاحب

النفس الكبيرة « (أو العقل الكبير أو كليهما) هو الذي يعتبر نفسه جديراً بأمور سامية ، وأنه حقاً جدير بها . أما الذي يقدر نفسه فوق قدرها فهو مغرور في الحقيقة والذي يقدرها دون قدرها فهو ذو عقل وضع والرجل الجدير بصغار الأمور ولكنه يضع نفسه فيما يناسبها يكون معقولا ولو أنه لا يكون ذا عقل كبير ، أما ذو العقل الكبير فالهدف الذي يجعله نصب عينيه هو أسمى شيء نعرفه وهو ما نقدمه للآلهة أي « التكريم » . وعنده بطبيعة الحال كل الفضائل وإلا لما استحق أعظم تكريم ، غير أنه لا يقدر حتى التكريم ذاته بأكثر من قيمته . أما تقديره للثروة والقوة السياسية فهو أقل لأنهما دون التكريم لأن رغبة الناس فيهما هي من أجل التكريم . وإذا أريد شيء من أجل شيء آخر فإنه يكون بالضرورة أقل من ذلك الشيء الآخر . وذو العقل الكبير يركب الأخطار من أجل غايات صغيرة ولا يجهد نفسه في الصغائر لأنه يحتقرها ولكنه يعرض نفسه للخطر الكبير ، وهو في وقت الخطر الكبير لا يكثر بحياته لاعتقاده بأن الحياة لا تستحق أن نحياها دون تكريم وليس من عادته الإعجاب بالأشياء فليس ثمة شيء يراه عظيماً . (١) وهو لا يحمل حقداً لأحد ويفضل أن يتجاوز عن الإساءات ولا يهجمه أن يمدحه أحد أو أن يمدح أحداً ، وهو لا يتكلم بطبيعة الحال عن غيره من الناس من وجهة شخصية كما لا يتكلم عن الفرد بسوء حتى ولا عن أعدائه إلا إن كان يقصد أن يهينهم . عمداً هذا هو مثال الرجل العظيم ، عند هذا الفيلسوف وعظمته تظهر من ناحية في عدم اكتراثه « بالمديح » وهو الوازع الطبيعي للعمل (فسقراط يقول مثلاً إن القائد الكفء هو الذي يضع في طبيعة الصفوف ، الطموحين الذين هم على استعداد لمواجهة الخطر من أجل المديح)

(١) كما قال بلقور مرة ، ليس ثمة شيء عظيم الأهمية أما الأمور التي لها أية أهمية على الإطلاق فقليلة جداً .

وتقوم عظمته على تقديره العادل لنفسه وللأمور الخارجية معاً . والتواضع الخالي من التكلف ليس من بين فضائله ، هو يعتبر الكرامة فوق كل شيء (وحتى عندئذ يعتبرها كذلك دون مغالاة) . وما هي هذه « الكرامة » ؟ إنها ليست ذلك الإرغام الذي تعنيه « الكرامة » عندنا . إن أقرب كلمة إغريقية إليها هي كلمة ايدوس *aidos* أي الخجل . والكلمة التي يستخدمها أرسطو هنا هي « تيمى *Timê* » ، وما له مغزى أن هذه الكلمة هي أيضاً الكلمة الإغريقية العادية لكلمة « ثمن » أو « قيمة » . وكلمة *estimate* « في الإنجليزية مشتقة منها في الحقيقة ، وهذا يشير إلى الأهمية التي كان يعلقها الإغريق على الاعتراف العام بصفاته وخدماته .

على أن من الخطأ أن نفترض أن الإغريق العادي كان ينتظر منه أن يكون إعجابه بالضرورة بهذا الخلق بقدر إعجاب الفيلسوف . فلو أن الفيلسوف كان يفكر مثلما يفكر بقية الناس لما كان فيلسوفاً قديراً ، وبالرغم من ذلك ومع التسليم بوجود التجريدات والإتيقان الفلسفي في الصورة فإننا نجد أنها إغريقية محضنة صميمة ولو أنها مبالغ فيها ، كما أن بعض تفاصيلها تشير إلى بريكليس (فقد عاد بريكليس من ولية إلى بيته ليلاً ومعه شعلة يحملها عبده كان في حراسته ، وكان يتبعه رجل يكيل له السباب والإهانات طوال الطريق ولكن بريكليس لم يعره التفاتاً ، ولكنه عندما وصل إلى بيته التفت إلى عبده وقال « رافق هذا الرجل ليرى الطريق إلى منزله » . أما الأمر المشترك بين « صاحب النفس الكبيرة » الذي عناه أرسطو وبين الإغريق العادي فهو شعوره القوي بقيمته ورغبته في « الكرامة » حتى يلقى من الناس ما يستحق . هذا إلى حد بعيد هو الذي يفسر لنا الرغبة في الانتقام التي لا يشوبها الخجل ، فالإنسان يرى لزماً عليه أن يثار لنفسه فتحمل الإساءة فيه معنى أن المسيء أفضل منك .

والخلق الذى يدعو إليه أرسطو غير عادى فى كون صاحبه لا يحمل حقداً لأحد ، ولكن لم لا ؟ ليس ذلك لأنه يعتقد أن الحق قد خطأ من الوجهة الخلقية بل لأنه يرى أن الحق قد حقير لا يليق بالإنسان فهو لا يغتفر ولكنه يحتقر وينسى ، أما الإغريق العادى فلم يكن يفعل كلا من الأمرين .

لاحظنا كيف أن الإغريق كان مهتماً بالحصول على « التقدير أو التكريم » « timê » أى ما يستحقه من الشناء ، فقد كان وما زال مهتماً بأن يلعب دوره (وما لم ندرك ذلك نجد السياسة الإغريقية الحديثة غير مفهومة لنا) ولهذا فإننا نقابل عندهم فكرة « النضال أو المنافسة » « agôn » فى كل مناسبة . وهذه الأشياء التى نترجمها ترجمة ضعيفة بكلمة « الألعاب » كانت تسمى فى الإغريقية « agônes » (مباريات) فالحفلات المسرحية كانت « agônes » أى ألوانا من النضال ينافس فيها الشاعر شاعراً أو الممثل ممثلاً أو المتعهد بإعداد فريق للرقص فى الحفلات المسرحية متعهداً آخر . وكلمة ألم « agony » فى الإنجليزية مأخوذة مباشرة من « agôn » الإغريقية . فإن الألم الشديد فى النضال هو الذى يكشف حقيقة الرجل .

وإلى جانب هذا كله كان هناك الطموح الشخصى الذى كثيراً ما كان يجد الإغريق ذو الموهبة العالية أن من المحال التحكم فيه ، وأحسن تعليق على ذلك هو وصف ثوكوديدز للقائدين الإغريقين فى « الحرب الفارسية » وهما ثيموستوكليس الآثينى الذى نظم معركة سلاميس ، وباسنياس Pausanias القائد الإسبرطى فى بلاتايا . فقد أرسل باسنياس بعد بلاتايا بقليل ومعه أسطول متحالف لتحرير الجزر ولكنه أخذ يعمل بعنف روع الحلفاء إلى الحد الذى جعلهم يلتمسون من الآثينيين أن يتسلموا القيادة منه . فاستدعى الإسبرطيون باسنياس ليحجب على الاتهامات الموجهة إليه بظلم الأفراد بالتآمر مع الفرس . فقد كان يبدو أنه يتصرف كحاكم مستبد أكثر من تصرفه كقائد (ثوكوديدز —

الكتاب الأول . فصل ٩٥) وحيث أن الإسبرطيين لم يرسلوا من يخلفه فقد انتقلت القيادة إلى الآثينيين بحكم غيابه ، غير أنه أبحر ثانية بسفينة واحدة وسرعان ما ظهر فى سهل طروادة وهو يتآمر مع فارس . فاستدعى ثانية إلى إسبرطة وأطاع الأمر لاعتماده على منصبه الملكى وثروته . ولم يوجد دليل ضده غير أن احتقاره للقوانين واستخدامه الآداب العامة الفارسية كان يلوح أنها تثير الريبة فى أمره ، وفضلاً عن ذلك فإنه كان قد تجاسر على كتابة اسمه على القربان الذى قدمه الإغريق لدلفوى تحقيقاً لنذرهم وشكراً لها على الانتصار . كما أن بعض الرقيق من الإسبرطيين أكدوا أنه كان يتآمر سرّاً معهم للقيام بحركة تمرد . وفى نهاية الأمر استدرجه القضاة الإسبرطيون حتى اعترف بمعاملاته مع الفرس . وقد التجأ إلى معبد ليتفادى القبض عليه فترك فيه حتى مات جوعاً .

غير أن الدليل ضد باسنياس أشرك ثيمستوكليس فى الجريمة ، فقد تعالى هو الآخر وتكبر وكان متطرفاً وانتهازياً بحيث لم يكن من الميسور قيادته بالعمل مع أرسنايديس ، ولهذا فقد استخدم الآثينيون صمام الأمان أى النفي من المجتمع ، فنفى ثيمستوكليس وذهب إلى أرجوس عدوة إسبرطة التى لم تكن تقبل أن تصالحها قط . وقد سر الإسبرطيون جداً بلاريب حين استطاعوا أن ينقلوا هذا الخبر إلى أثينا ، فأرسل الآثينيون جماعة للقبض عليه ولكنه وجد من يحذره . ولم يأنف ثوكوديدز (هذه المرة) من ذكر قصة مغامرات رومانتيه . ذلك أن ثيمستوكليس فر أولاً إلى كوركورا فى كورفو ومنها إلى أدراستوس Adrastus ملك المولوسيين ولو أن علاقتهما ببعضهما ببعض لم تكن طيبة . وقد تصادف أن أدراستوس كان غائباً عن بيته فتقدم ثيمستوكليس إلى زوجة أدراستوس متوسلاً فأشارت إليه أن يجلس على الأرض إلى جوار المدفأة وأعطته طفلاً ليحمله . فلما عاد أدراستوس استطاع ثيمستوكليس أن يشرح قضيته بصفته متوسلاً فقال « لقد أسأت

إليك، وصاحب المروءة يثار من أنداده فحسب أما في حالتي الراهنة فإنه لا حول لي، وفضلاً عن ذلك فإنني عارضتك فقط في طلب قدمته على حين أن التماسي الخالي منك هو أمر حياة أو موت، إن مما يحز في نفس الإنسان أن يجد هذا السياسي الداهية في مثل هذا الوضع الهوميري، وقد حماه أدرستوس حتى سافر إلى آسيا بمحض رغبته. وقد أرسل خطاباً إلى ابن كرسيس الذي خلف أباه قال فيه « لقد ألحقت بأبيك عندما هاجمنا ضرراً أكثر مما ألحقته أي إغريق آخر ولكني قدمت له كذلك خدمة عظيمة بتحريض الإغريق على ألا يعرقلوا تقهقره. إنني صديقتكم ويمكن أن تكون خدمتي لكم عظيمة. وإنني أريد أن أنتظر عاماً ثم أفد عليكم» فوافق الملك. وتعلم ثيمستوكليس خلال العام كل ما استطاع من لغة الفرس ونظمهم ونال الخطوة لدى الملك وأصبح حاكم مغنيسيا في آسيا حيث مات في النهاية بسبب المرض، وكوفيء بإقامة تمثال له. «ولو أن البعض يقول إنه تعاطى السم عندما وجد أنه وعد الملك بأكثر مما يستطيع أن ينجز» وهذه الإشارة الخبيثة إغريقية صميمة ولكن يبدو من غير المحتمل على الإطلاق أن رجلاً بارعاً مثل ثيمستوكليس يمكن أن يكون قد حفر لنفسه مثل هذه الحفرة. «هكذا كانت نهاية باوسنياس الإسبرطي وThimistokles الآثيني اللذين كانا أبرز رجلين في زمانهما» (١) ! إن المأسي الإغريقية وهي تتكلم عن (التكبر أو الغطرسة Hybris) لا تفعل ذلك دون سبب كما أنها كثيراً ما تمثل «الأمل» على أنه شرك وإغراء.

وأخيراً يجب ألا ننسى أن الإغريق كانوا من أهل الجنوب وربما كان هدوء الفن الإغريق وازدحام العقل الإغريق ونظرية الإغريق السليمة الخاصة

(١) ثوكوديدز الكتاب الأول فصول — ٩٤ — ٩٦ : ١٢٨ — ١٣٨ . .

« بالوسط الذهبي » مشجعة لفكرة أن الإغريق كان لا يحس بالانفعال ولا يتكدر صفوه. وربما كان مما قوى هذه الفكرة لدينا الأفكار المستمدة من المذهب الكلاسي الحديث neo-classicism في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكذلك التمثيل الحديث للمسرحيات الإغريقية التي تقف فيها نساء لا تستبين العين ثيابهن على هيئة جماعات كأنهن تماثيل جامدة على المسرح ويرتلن في وحدة مصطنعة ومربكة إلى حد ما قدر كبيراً من الأساطير الكشبية.

هذا خطأ كله، فأى شيء لا تهزه الإثارة التي يمكن التحكم فيها لا تمت إلى الفن الإغريق الكلاسي بسبب، وإن كان من الجائز أنه ينتمي إلى ما بعد العصر الكلاسي. وإذا لم يترك إيسخولوس أو لم يجعل منك شخصاً أفضل فعني ذلك أنك لم تفهم إيسخولوس (وإن كان من الجائز أن فهم إيسخولوس الآن محال بدون دراسته، غير أن هذا موضوع آخر).

دعنا نتمعن لحظة في موضوع المسرحيات الإغريقية. إن مناظر الحوار لا نجد فيها إشكالا ففيها من الفن المسرحي ما فيه الكفاية. إن ما يحدث بين المناظر بعضها وبعض، هو الذي يبعث على الانقباض الشديد، من أمثال جماعة الفتيات الرشيقات أو الشيوخ الذين يرددون كلام سوينبرن فجأة. فعلى الذين يجدون ذلك كشيئاً ألا يلوموا الإغريق، فما كان الإغريق يتحملونه خمس دقائق. هذه التراثيم الجماعية لم تكن قط كلاماً يلقي بل كلاماً يغني، ثم هو لا يغني فقط بل يصاحبه الرقص، ولا يصاحبه الرقص فحسب — كما يحدث أحياناً بالفعل عند إعادة تمثيل هذه المسرحيات في العصر الحديث — بل يدور الرقص في حلبة مستديرة قطرها تسعون قدماً تقريباً. صحيح على وجه التقريب أنه لا يعرف شيئاً في الوقت الحاضر عن الرقص الإغريق إلا القائمون بتعليمه، أما محاولة إعادة تبيان من الصور القليلة المرسومة على

الأواني فهو من أخطر ضروب المغامرة ، لأن رسامى أوانى الزهر لم يكونوا يعرفون شيئاً من قواعد المنظور أو يهتمون بها ، فإن رسموا موكباً على شكل إفريز لم يكن ذلك يعنى إلا أن موكباً فى صورة إفريز سيكون زخرفاً بالغ التأثير على أحد الأوانى لا أن الرقص كان هكذا . غير أننا قد تركنا أوزان الشعر وهى التى تضبط الإيقاع على الأقل كما تعتبر الخطط الأساسية للموسيقى والرقص إن جازلنا أن نقول ذلك . ومن كل ذلك يتضح تماماً أن الرقصات كانت قوية التعبير متنوعة وصاخبة كلها كان ذلك ضرورياً . ومن ذلك نستطيع أن نرى مثلاً أن أوضاع الرقص عند إيسخولوس كانت مؤسسة على فكرة معمارية أما عند سوفوكليس فقد كانت تشكيلية للغاية . وقصة جوقة إلهات الانتقام فى مسرحية (اليومينيدس) Eumenides (ص ٣٠٦) ولو أنها خفيفة لكنها تشهد بأن إيسخولوس لم تكن تتحكم فيه أفكار الوقار الكلاسى الحديث . وليس من الصعب أن نعثر على دليل من نوع آخر . فمثلاً فى مسرحية «سبعة ضد طيبة» التى تمتاز بالعظمة الهائلة والإثارة تمثل الجوقة نساء أصابهن العدو الذى يهاجم البلدة بذعر قاتل . وهنا ينسى إيسخولوس أن شخصيات المأساة الإغريقية لاسمى التى يكتبها إيسخولوس تتحكم فى مشاعرهما ، كما ينسى أن الجوقة تتبع دائماً الإيقاع المنتظم ذى الثلاثة مقاطع وذى الخطوات ٤-٤ ثم ينظم هذه الجوقة بحيث تسير على موسيقى ذات فترات زمنية يمكن التعبير عنها بالأرقام $3+0$ وإذا حاول أى معلم للرقص أن يمثل الضجة والاضطراب على المسرح فدعه يجرب هذه الخطوة (فإذا كانت هواية الموسيقى معدومة تماماً عند القارئ فدعه يكرر بتوقيت ثابت ١-٢-٣-١-٢-٣)
١-٢-٣-٤-٥ ، ويحاول أن يمشى بخطوات متفقة مع العد ، على أن يخطو خطوة عند النطق بكل رقم (١-) إن المأساة الإغريقية فى الحقيقة تشبه الأوبرا الحديثة فيما تجمع من الحوار الدرامى والشعر والموسيقى والبالية فى دائرة قطرها تسعون قدماً . وهى لاتشبه الأوبرا من حيث أنها تدور حول ناحية

أساسية هامة ولا يقتصر فيها على استماع الكلمات بل أيضاً على ما تنطوي عليه من معنى .

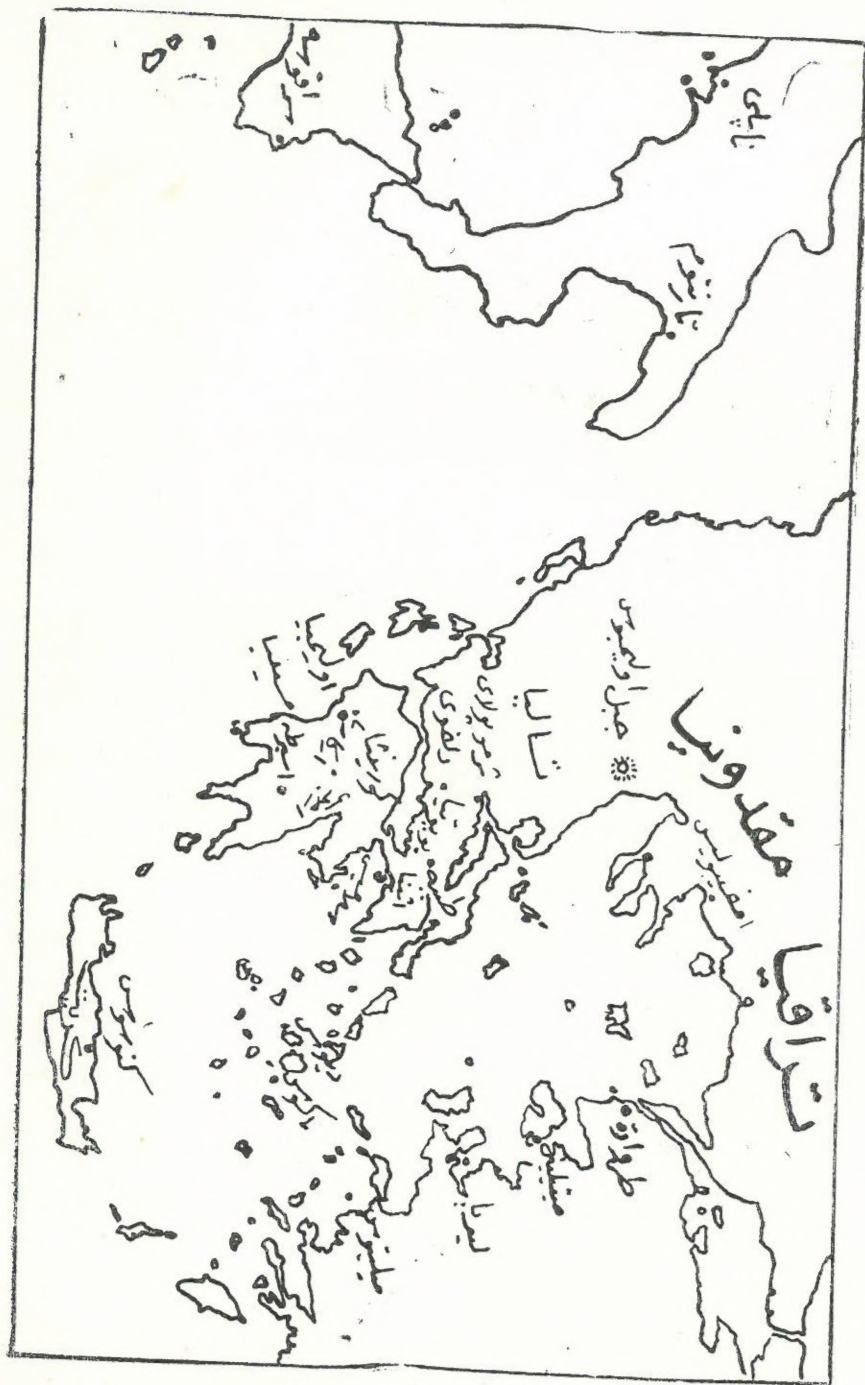
لعل هذا البحث القصير يبين أن الإغريق لم يقصدوا أن يظهروا بمظهر
قلة الذوق بل على النقيض من ذلك كانوا يطلبون الحياة والحركة واللون .
فقد لونوا تماثيلهم بالفعل . وقد كان هذا الاكتشاف صدمة لكثير من
العلماء الحداثيين .

دعنا نأخذ مثلاً آخر على طبيعة الإغريق السريعة الانفعال بصفة جوهرية .
كلنا نعرف أن كلمة حب باللغة الإغريقية هي « إيروس . erôs » وإيروس
هو الذى يضيف الرقة على ميدان بيكادلى وهو إله الحب كما أنه المقابل
الإغريق لـ كيوييد . ولكن إلى أى حد تعتبر هذه المقابلة مضبوطة . إن
« كيوييد » معناها الرغبة . والصفة المشتقة منها وهى كيوييدوس . Cupidus
لا تحمل معنى أكثر من الطمع . ولكن لفظة « إيروس » تقترن فى الذهن
بأشياء مختلفة ، فهى تعبر عما يقرب من الفرح المشبع بالشهوة . ويمكن
استعمالها عادة فى مقام لا علاقة له بالحب . فمثلاً أجاكس . Ajax فى مسرحية
سوفوكليس قد أصيب بالحزى الشديد وأخذ يهدد بالانتحار ، وكانت امرأته
تكلمها . Tecmessa فى حالة يأس كما كان رجال أجاكس ، إذ كانوا سيتركون
دون أى دفاع أمام أعداء أجاكس الذين يضمرون لهم الشر ، غير أن
أجاكس ادعى أن توسلاتهم قد فتت فى عضده فقرر أن يتحمل العار
ويعيش ، وعندئذ رقصت الجوقة وغنت نشيداً بدأ بعبارة « إن النشوة
(إيروس) تهزنى وسرورى الطافح يمدنى بالأجنحة » فأيروس ليس إلها
للحب بل هو شيء يهز الأعصاب والمشاعر .

« وإراستيس . erastes » بالإغريقية معناها العاشق كما أن بريكليس

الوقور أو الأولمبي كما كان يدعو أرسطوفانيس قال للآثينيين في خطبته التأينية « يجب أن تكونوا إراستاي . erastae أى عشاقاً معاميد لآثينا » أى « لتكن آثينا بالنسبة لكم شيئاً يهز منكم شغاف القلوب » وهذه العبارة لا تصدر من رجل بارد الطبع .

إن النظرية الخاصة « بالحد الأوسط » هى من خصائص الإغريق ، ولكنها لا ينبغي أن تغرينا بأن نظن أن الإغريق رجل لا يكاد يشعر بالانفعالات النفسية كأنه شخص مسالم مخدر لا ينحرف عن جادة الطريق ، إذ هو على النقيض من ذلك كان يقدر « أوسط الأمور » تقديراً بالغاً لأنه كان ميالاً إلى التطرف . فإننا نحن أهل الشمال أميل إلى الكسل كما أننا نحن إيجاباً خفياً للتطرف . إن العيب الذى يمتاز به الشعر الإنجليزى الردى — كما فى بعض المسرحيات الضعيفة التى تنتمى إلى عصر اليصابات مثلاً أو الشعر التافه الذى كتبه درايدن ليرسل . Purcell شعر أجوف طنان كأنما يحاول الشاعر أن يبعث فى نفسه شيئاً أشبه بثورة المشاعر . أما العيب الذى يلزم الإغريق فهو ميلهم إلى الصقل الذى لا حياة فيه . فلم يكن للإغريق حاجة كبيرة إلى التظاهر بالانفعال بل كان ينشد ضبط النفس والاعتزان لأنه كان فى حاجة إليهما . أما التطرف فقد كان يعرفه أكثر مما ينبغي . وعندما كان يتكلم عن « أوسط الأمور » لم تكن فكرة الوتر الرنان بعيدة قط عن ذهنه . « فالوسط » لم يكن يعنى الافتقار إلى الشد والانفعال بل كان يعنى إحكام الشد الذى يطلق النغمة الصحيحة الواضحة .



محتويات الكتاب

صفحة	
١	١ — مقدمة
٨	٢ — تكوين الشعب الإغريقي
٣١	٣ — البلاد
٥٢	٤ — هومر
٨٠	٥ — البوليس (دولة المدينة)
١٠١	٦ — بلاد الإغريق الكلاسيك ، العصر القديم
١٠٧	أيونيا
١١٢	إسبرطه
١٢٢	أثينا
١٤١	٧ — بلاد الإغريق الكلاسيك ، القرن الخامس
١٧٧	٨ — الإغريق في الحرب
١٩٨	٩ — إضمحلال (البوليس)
٢٢١	١٠ — العقل الإغريقي
٢٥٥	١١ — الأساطير والدين
٢٦٨	١٢ — الحياة والأخلاق

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحاني ت : ٤٧٤٨٦